المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء الكتاب

)المفاهيم القرآنية من سورة الزمر(

للمؤلف: أحمد عبد الرزاق مربوش العامري

إلى كل قلبٍ يبحث عن نور الحقيقة في زحام الشبهات..

إلى كل عقلٍ يتوق إلى فهم كلام الله فهمَ تدبرٍ لا مجرد تلاوة..

إلى كل نفسٍ أنهكتها الذنوب ولكنها لم تيأس من روح الله..

إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه..

إلى أولئك الذين وعدهم الله بأنهم هم المهتدون..

إلى كل من يريد أن يعيش القرآن منهاجاً للحياة، ونوراً للقلب، وسكينةً للنفس..

إليكم أهدي هذا الجهد المتواضع، سائلا ً المولى أن يجعله خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، دليلا ً إلى صراطه المستقيم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة تعريفية بكتاب "المفاهيم القرآنية من سورة الزمر"

أولا ً: بيانات الكتاب

· عنوان الكتاب: المفاهيم القرآنية من سورة الزمر (رحلة تدبرية في آيات السورة)
· المؤلف:احمد عبد الرزاق مربوش العامري
· مراجعة وتدقيق: الاستاذ منير عبده عثمان الصلوى

ثانياً: نبذة عامة عن الكتاب

هذا الكتاب هو عبارة عن رحلة تدبرية متكاملة في سورة الزمر، يعتمد منهجاً تحليلياً تربوياً فريداً، يربط بين النص القرآني والواقع العملي والنفسي. لم يقف المؤلف عند حدود تفسير الآيات تفسيراً لغوياً أو فقهياً فقط، بل تجاوز ذلك إلى استخراج المفاهيم القرآنية العميقة، ثم ترجمتها إلى تطبيقات حياتية ملموسة. يهدف الكتاب إلى بناء رؤية متكاملة للإنسان والمجتمع والحضارة انطلاقاً من آيات السورة.

ثالثاً: أهداف المؤلف وأغراضه

1. استخراج المفاهيم التربوية والنفسية والعقدية من آيات سورة الزمر.
2. بناء شخصية المؤمن المتوازنة التي تجمع بين الخوف والرجاء، والقوة والرحمة، والعلم والعمل.
3. تقديم نموذج عملي للتدبر ينتقل بالقارئ من مجرد تلاوة الآيات إلى التفاعل معها سلوكياً وفكرياً.
4. تأسيس منهجية واضحة للدعوة إلى الله تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.
5. معالجة أمراض النفس البشرية كالكبر والغفلة والجحود واليأس، وتقديم العلاج القرآني لها.
6. إظهار العلاقة الوثيقة بين العقيدة الصحيحة والطمأنينة النفسية والنهضة الحضارية.

رابعاً: ما يتميز به الكتاب وأسلوب المؤلف

1. التحليل الموضوعي: لم يتعرض المؤلف للآيات تفسيراً متسلسلا ً، بل قسّم السورة إلى وحدات موضوعية متكاملة) مباحث(، كل مبحث يعالج قضية كبرى مستقلة.
2. الربط بين العقل والقلب: أسلوب المؤلف يجمع بين البرهان العقلي المنطقي) باستخدام أساليب مثل "لو" و"أفمن" وضرب الأمثال (والتوجيه الوجداني الذي يخاطب المشاعر والأحاسيس.
3. التطبيق العملي) كيف نعيش الآية(: من أبرز سمات الكتاب أنه لا يكتفي بالتنظير، بل يقدم في نهاية كل مبحث تطبيقات عملية تحت عناوين مثل "كيف نطبق هذا في واقعنا؟" و"في تربية أبنائنا" و"في دعوتنا للآخرين".
4. استخراج السنن الإلهية: يركز الكتاب على استخلاص السنن الثابتة من التاريخ والكون والنفس البشرية، مما يعطي القارئ رؤية نافذة للحياة.
5. اللغة الواصلة: يستخدم المؤلف لغة عربية فصيحة ولكنها قريبة من الفهم، مليئة بالتصوير الحي و المشاهد التخيلية التي تترك أثراً عميقاً في النفس.
6. الاهتمام ببناء الحضارة والتنمية البشرية: يربط المفاهيم الإيمانية الكبرى بقضايا النهضة والتطوير و التنمية المستدامة، من زاوية إسلامية أصيلة.

خامساً: محاور الكتاب وأقسامه الرئيسية

ينقسم الكتاب إلى مباحث (أقسام) تتبع ترتيب آيات السورة، ويمكن إجمال أبرز محاورها فيما يلي:

1. محور التوحيد وإخلاص الدين:) آيات1 - (14ويشمل: تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم، الأمر بعبادة الله مخلصاً له الدين، ونقد فكرة الشفاعة والشرك.
2. محور مشاهد الكون والحياة:) آيات5 - (10ويشمل: خلق السماوات والأرض بالحق، تكوير الليل و النهار، وتسخير الشمس والقمر، والاستدلال بقدرة الله على البعث.
3. محور الصراع بين الحق والباطل:) آيات15 - (18ويشمل: مشاهد القيامة، وبيان الخسران المبين، ووصف المتقين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

4.محور الكرم الإلهي والعدل:) آيات19 -31،22 - (35ويشمل: وصف نعيم الجنة للمتقين، وبيان عدل الله في وعيده ووعده، ووصف المحسنين وجزائهم.
5.محور منهج الدعوة والحوار:) آيات27 -38،29 - (41ويشمل: ضرب الأمثال لتقريب المعاني، والحوار العقلي مع المشركين، وإعلان المفاصلة والبراءة من الباطل.
6.محور أحوال الإنسان النفسية:) آيات8 -42،9 -49،45 - (52ويشمل: حالة الإنسان في الشدة والرخاء، آية النوم والموت، وموقف المشركين عند ذكر الله وحده، وغفلة الإنسان وجحوده بالنعمة.
7.محور الرحمة والمغفرة والتوبة:) آيات53 - (59ويشمل: النداء الإلهي العظيم "يا عبادي الذين أسرفوا"، البشارة بمغفرة الذنوب جميعاً، والتحذير من القنوط والتسويف.
8.محور مشاهد يوم القيامة والحساب:) آيات60 - (75ويشمل: اسوداد وجوه الكافرين، ومشهد النفخ في الصور وصعق الخلائق، وإشراق الأرض بنور ربها، وسوق الكافرين إلى النار زمراً، وسوق المتقين إلى الجنة زمراً، وختم السورة بالحمد لله رب العالمين.

سادساً: أهم ما يميز الكتاب (النقاط الجوهرية)

1.التركيز على بناء "الوعي" و"البصيرة" وليس فقط نقل المعلومات.
2.تقديم حلول قرآنية لأمراض العصر النفسية كالقلق، والاكتئاب، واليأس، والغرور، والخوف من المخلوقين.
3.تطبيق مبدأ "التزكية") تزكية النفس (بشكل عملي ومنهجي.
4.إحياء مفهوم "التفكر" و"التدبر" في آيات القرآن والكون والنفس.
5.الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الطرح، مما يجعله ذا أثر على القارئ المعاصر.

سابعاً: لمن يصلح هذا الكتاب؟

1.طلاب العلم والمتدبرون للقرآن الكريم الذين يريدون التعمق في فهم معاني السورة.
2.الدعاة والمربون والآباء والأمهات الباحثون عن منهجية تربوية قرآنية عملية.
3.المهتمون بالتنمية البشرية وتطوير الذات من منظور إسلامي أصيل.
4.المشتغلون بعلم النفس والاجتماع الراغبون في فهم الرؤية القرآنية للنفس البشرية والمجتمع.
5.كل باحث عن بناء شخصيته وتطهير قلبه من الأمراض الروحية.

ثامناً: ثمار هذا الكتاب (الفوائد المتوقعة للقارئ)

1.إيمانية: زيادة الإيمان والبصيرة بالله وأسمائه وصفاته، وتقوية التوحيد الخالص في القلب.
2.نفسية: تحقيق الطمأنينة والسكينة النفسية، والتخلص من القلق والخوف من المخلوقين، والتحرر من الكبر واليأس.
3.سلوكية: الانتقال إلى العمل الصالح والإتقان والإخلاص، والصبر على الأذى، والشكر في الرخاء، والإنابة في الشدة.
4.فكرية: اكتساب منهجية صحيحة في التفكير والتحاور والاستدلال، وتقدير السنن الإلهية في التاريخ والحياة.
5.دعوية: امتلاك أدوات وأساليب مؤثرة في الدعوة إلى الله قائمة على الحكمة والأمثال الواقعية.

تاسعاً: الخلاصة

يقدم كتاب "المفاهيم القرآنية من سورة الزمر" نموذجاً رائداً في التعامل مع القرآن الكريم. إنه ليس مجرد كتاب تفسير، بل هو "برنامج حياة" متكامل ينتقل بالقارئ من مرحلة التلقي السلبي إلى مرحلة التفاعل الواعي والبناء الإيماني العملي. يجمع المؤلف بين عمق الفهم، وروعة البيان، ودقة التحليل النفسي، ليصنع عملاً يصلح أن يكون منهجاً تربوياً للفرد والمجتمع. إنه كتاب يزرع اليقين، ويبني الشخصية، وينير الطريق إلى الله.
المولف احمد عبد الرزاق مربوش العامري

بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الزمر: مذكرة تعريفية شاملة

أولا ً: البيانات الأساسية للسورة

سورة الزمر هي السورة رقم 39 في ترتيب المصحف الشريف، ويبلغ عدد آياتها 75 آية باتفاق العلماء .
وهي سورة مكية في جملتها،نزلت بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر، وذلك في السنة الخامسة قبل الهجرة تقريباً، أي بعد حادثة الإسراء والمعراج وقبيل هجرة المسلمين إلى الحبشة.
وترتيبها حسب النزول هو السورة رقم .59 وتقع في الجزء الثالث والعشرين من القرآن الكريم، وهي من قسم "المثاني".

ثانياً: سبب التسمية

سُميت سورة الزمر بهذا الاسم لأن لفظ "الزُمَر" – جمع زمرة أي الجماعة – ورد فيها في موضعين ولم يرد في غيرها من سور القرآن الكريم .الموضع الأول في قوله تعالى:} وَسِيقَ الذِينَ كفَرُوا إِلَى جَهَنَمَ زُمَرًا) {الآية(71 ، والموضع الثاني في قوله:} وَسِيقَ الذِينَ اتقوْا رَبَهُمْ إِلَى الجَنَةِ زُمَرًا) {الآية .(73
كما تُعرف السورة أيضاً باسم "سورة الغُرَف"؛ لورود لفظ الغرف فيها في قوله تعالى:} لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ) {الآية.(20

ثالثاً: تناسب افتتاحية السورة مع ما قبلها) سورة ص(

يأتي موقع سورة الزمر بعد سورة ص مباشرة في ترتيب المصحف، وهناك تناسب بديع بين خاتمة سورة ص وافتتاحية سورة الزمر.

ختمت سورة ص بقوله تعالى:} إِنْ هُوَ إِلا ذِكرٌ لِلعَالمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين) {ص:87 -(88، أي أن القرآن ذكر للعالمين، وسيعلم الكافرون حقيقة هذا الذكر بعد فوات الأوان.

ثم افتتحت سورة الزمر بقوله:} تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ) {الزمر:(1 ، وهذا تأكيد من الله على أن ما جاء به النبي ﷺ هو تنزيل منه سبحانه، وأنه عزيز لا يغالب، حكيم في تدبيره .فكأن سورة الزمر جاءت لتثبت وتؤكد ما أجمل في خاتمة سورة ص، وهو أن هذا القرآن حق من عند الله، وسيعلمون نبأه حين لا ينفعهم العلم.

كما أن سورة ص تحدثت عن ملك سليمان وداود وخلق آدم وإبليس، ثم تحدثت عن تكبر إبليس، وسورة الزمر جاءت لتكشف عن سنة الاستكبار عند الكافرين وتفصل في أحوال المتكبرين يوم القيامة.

رابعاً: التناسب بين افتتاحية السورة وما اختتمت به

افتتحت سورة الزمر بقوله تعالى:} تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ * إِنا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) {الزمر:1 - .(2فالبداية كانت بتقرير أن القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، وأن الغاية من هذا التنزيل هي عبادة الله بإخلاص.

وختمت السورة بقوله تعالى:} وَتَرَى المَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالمِينَ) {الزمر: .(75 فالختام كان بالحمد لله رب العالمين بعد أن قضي بين العباد بالحق، وسبحت الملائكة حول العرش.

وهذا التناسب بديع جداً، فالبداية كانت بـ"تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم" ليثبت أنه لا مصدر للحق والعدل إلا هذا التنزيل، والنهاية كانت بـ"قضي بينهم بالحق" ليتبين أن نتيجة الأخذ بهذا التنزيل هي الفوز بالحق والعدل الإلهي، وأن من اتبعه فاز، ومن أعرض عنه خسر .كما أن البداية أمرت بإخلاص الدين لله، والنهاية أثنت على الله بالحمد الذي يستحقه وحده، فبدؤوا باسمه وختموا بحمده، وهذا أدب المؤمنين في كل أمورهم.

خامساً: فضائل السورة وخصائصها

لسورة الزمر فضائل عديدة، منها ما ثبت في السنة النبوية، منها: ما رواه الترمذي عن عائشة رضي

الله عنها قالت:» كان النبي ﷺ لا ينام على فراشه حتى يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر .«فهذا يدل على عناية النبي ﷺ بهذه السورة ومداومته عليها .ومن خصائصها أنها تجمع بين الخوف والرجاء، و الترغيب والترهيب، بأسلوب فريد يجعلها من أعظم سور القرآن تأثيراً في القلوب .وهي من السور المكية التي عنيت بقضية التوحيد والإخلاص أكثر من أي قضية أخرى، كما أنها تميزت بتصوير مشهد النفخ في الصور تصويراً مهيباً، وختمت بالحمد لله رب العالمين وهو ختام بديع يتناسب مع مطلعها.

سادساً: ما انفردت به السورة

انفردت سورة الزمر بعدة خصائص لم توجد في غيرها من سور القرآن الكريم .أولها: ورود لفظ "الزمر" فيها فقط، وهو سر تسميتها .ثانيها: ورود لفظ "الغرف" بصيغة "غرف من فوقها غرف مبنيّة" مما جعلها تعرف أيضاً بسورة الغرف .ثالثها: اشتمالها على مشهد النفخ في الصور بتفصيل متفرد في سياقه، في قوله تعالى:} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ) {ا لآية .(68 رابعها: النداء الإلهي الفريد في وسط السورة:} قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ) {...الآية(53 ، وهو أوسع نداء من الله لعباده المذنبين وأرجى آية في القرآن الكريم .خامسها: الجمع بين صعق أهل السماوات والأرض ثم إحيائهم في آيتين متتاليتين، وهو مشهد يوم القيامة الكامل.

سابعاً: أسباب النزول

وردت روايات متعددة في أسباب نزول بعض آيات سورة الزمر، وأشهرها سبب نزول الآيات53 -) 54أو (54-52التي تتعلق بمغفرة الذنوب.

الرواية الأولى: نزلت في أهل مكة الذين كانوا يعبدون الأوثان ويقتلون النفس التي حرم الله، فقالوا: كيف نهاجر ونسلم وقد فعلنا كل هذه الكبائر؟ فأنزل الله هذه الآية تطميناً لهم.

الرواية الثانية: نزلت في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين الذين أسلموا ثم فُتِنوا وعُذِّبوا فافتتنوا، فظن الصحابة أن الله لا يقبل منهم توبة .فنزلت هذه الآية، فكتبها عمر بن الخطاب وأرسلها إليهم فأسلموا وهاجروا.

الرواية الثالثة: أن ناساً من المشركين كانوا قد قتلوا وزنوا كثيراً، ثم أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة .فنزلت هذه الآية.

الرواية الرابعة: أنها نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، حيث كان قد قتل حمزة قبل إسلامه ثم أسلم بعد ذلك، فتضمنت الآية بشارة مغفرة الذنوب جميعاً لمن تاب.

ثامناً: الموضوعات الرئيسية التي تناقشها السورة

تنقسم سورة الزرم إلى عدة محاور كبرى يتكامل بعضها مع بعض.

المحور الأول: التوحيد والإخلاص) الآيات1 -(14، وفيه تقرير أن الكتاب تنزيل من الله العزيز الحكيم، والأمر بإخلاص الدين لله وحده، وبيان أن الشفاعة كلها لله، والرد على المشركين الذين يتخذون أولياء من دونه.

المحور الثاني: أدلة التوحيد في الكون والنفس) الآيات5 -21،10 -(22، وفيه ذكر خلق السماوات والأ رض بالحق، وتكوير الليل على النهار، وتسخير الشمس والقمر، وإنزال الماء من السماء وإخراج الزرع مختلفاً ألوانه، وشرح الصدر للإسلام وقسوة القلوب.

المحور الثالث: أحوال الإنسان النفسية) الآيات8 -49،9 -(52، وفيه بيان حالة الإنسان في الشدة و الرخاء، وحديث الإنسان الجحود: "إنما أوتيته على علم"، وبيان أن النعمة قد تكون فتنة وابتلاءً، وسنة الله في إهلاك الأمم السابقة.

المحور الرابع: الحوار مع المشركين والبراءة من الباطل) الآيات15 -38،18 -(41، وفيه بيان الخسران المبين يوم القيامة، ووصف المتقين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والتوكل على الله وكفايته للمؤمن، وإعلان المفاصلة بين المؤمنين والكافرين.

المحور الخامس: الرحمة والمغفرة والتوبة) الآيات53 -(59، وفيه النداء الإلهي العظيم "يا عبادي الذين أسرفوا"، وبشارة مغفرة الذنوب جميعاً، والتحذير من القنوط والتسويف، وأحاديث النفس يوم القيامة من ندم وتحسر.

المحور السادس: مشاهد يوم القيامة) الآيات60 -(75، وفيه اسوداد وجوه الكافرين وبياض وجوه المتقين، والنفخ في الصور وصعق من في السماوات والأرض، وإشراق الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، والقضاء بالحق بين العباد، وسوق الكافرين إلى جهنم زمراً، وسوق المتقين إلى الجنة زمراً، وحمد المتقين لله الذي صدقهم وعده، وختم السورة بالحمد لله رب العالمين.

تاسعاً: المفاهيم والقيم القرآنية الواردة في السورة

تزخر سورة الزمر بمفاهيم قرآنية عظيمة، منها: التوحيد الخالص كما في قوله} فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ{، وإخلاص العبادة لله وحده في مواضع متعددة، وتفرد الله بالخلق والتدبير في قوله} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ{، وكفاية الله للمؤمن في قوله} أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ{، والتوكل على الله، وفضيلة الصبر مع قوله} إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ{، والتقوى والإحسان في العمل، و الرجاء وعدم القنوط في أوسع آية رحمة، والعدل الإلهي يوم القيامة، والمسؤولية الفردية في قوله }وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{، والمفاصلة والبراءة من الباطل، والاستماع الواعي واتباع الأحسن في وصف المؤمنين، والحمد لله في ختام السورة، كما تتناول السورة مفاهيم الكبر والجحود والغرور، واليقين بوعد الله.

عاشراً: الأهداف والمقاصد الرئيسية

المقصد الأعظم لسورة الزمر هو علاج قضية التوحيد بأسلوب تربوي فريد، حيث تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها وتنفي عنه كل شبهة.

وتتفرع من هذا المقصد أهداف تفصيلية عديدة: أولها إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية، بالاستدلال على وحدانيته بدلائل تفرده بإيجاد العوالم العلوية والسفلية وتدبير نظامها، وبيان أن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل .ثانيها إبطال الشرك بكل أنواعه، بإبطال تعللات المشركين وأكاذيبهم، ونفي ضرب من ضروب الإشراك وهو زعمهم أن لله ولداً، وكشف فساد فكرة الشفاعة والوساطة .ثالثها إقامة الحجة على المشركين وإلزامهم بالحجة وبطلان المعذرة، وتحذيرهم من أن يحل بهم ما حل بالأمم السابقة .رابعها تثبيت قلب المؤمن بالحجج العقلية والبراهين المنطقية، وبالترغيب في الجنة والترهيب من النار، وفتح باب الأمل والمغفرة له .خامسها تزكية النفس وتهذيبها، بتربيتها على الإخلاص في العبادة والتواضع ونبذ الكبر، والصبر والشكر والرجاء .سادسها بيان حقيقة الإنسان وطبعه، وكشف حقيقته في الشدة والرخاء، والتحذير من الغرور والجحود بنعم الله .سابعها تصوير مشاهد اليوم الآخر بأسلوب مهيب يوقظ القلوب، وبيان مصير الفريقين أهل الجنة وأهل النار، وإثبات العدل الإلهي المطلق .ثامنها تنزيه الله وتمجيده، والتنويه بشأن القرآن في ستة مواضع من السورة، وختمها بالحمد لله رب العالمين تنزيهاً وتعظيماً.
حادي عشر: الخلاصة

سورة الزمر هي سورة التوحيد والإخلاص، وسورة الرحمة والأمل، وسورة اليقين والجزاء .نزلت في فترة حساسة من الدعوة الإسلامية، تحمل في طياتها نداءً إلهياً خالداً:} قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ{، وهو أوسع باب أمل يفتحه الله لعباده المذنبين .تدور السورة حول قضية التوحيد بوصفها أصل الأصول، وتضرب أروع الأمثال لتقريب المعاني، وتقدم مشاهد مهيبة ليوم القيامة تخلق في القلب هيبة وخشية، مع إبقاء باب الرجاء مفتوحاً لكل تائب منيب . الزمر في آخر السورة) زمر المؤمنين وزمر الكافرين (هي تتويج لهذه الرحلة الإيمانية، حيث يُجزى كل فريق بما يستحق بعد أن قامت عليهم الحجة وأزيلت كل الأعذار .إنها سورة تؤسس لعقيدة سليمة، ونفسية متوازنة، وحياة طيبة في الدنيا، وفوز عظيم في الآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم
.المقطع الاول

أيها القارئ الكريم، اسمح لي أن آخذ بيدك في رحلة تدبرية مع فاتحة سورة عظيمة، إنها سورة الزمر . وقبل أن نطرق أبواب آياتها، دعنا نقف لحظةً على عتبة السورة السابقة، سورة) ص.(

ألا تشعر معي بذلك التناغم العجيب بين خاتمة سورة) ص (وبداية سورة الزمر؟ انظر كيف انتهى المشهد في سورة) ص(: مشهد الصراع الكوني بين الحق والباطل، حيث تجلى الانقسام واضحًا جليًا . فريقان لا ثالث لهما: فريق إبليس الذي استكبر وأبى، وجنوده من الغاوين، وفريق عباد الله المخلصين الذين اعترف إبليس نفسه بعجزه عن إغوائهم حين قال مقرًا بضعفه الوحيد: "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ") ص: .(83 هنا، في هذا الاعتراف، مكمن الخطر، وفي هذا الاستثناء، طريق النجاة.

ثم تأتي سورة الزمر وكأنها الرد العملي المباشر، وكأنها تمسك بيدك وتقول لك: أتريد أن تكون من تلك الزمرة الناجية التي ستُساق إلى الجنة زمرًا، لا إلى النار زمرًا؟ إذن اسمع، فهذه السورة هي "سورة الإ خلاص الكبرى"، وهي الشرح العملي الوحيد للانضمام إلى ركب الناجين .وكأن الآية الأولى هي الصرخة الأولى في معركة النجاة: "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ" .إنه السلاح الذي أقرّ إبليس أنه لا يقوى عليه .ألا ترى كيف أن خاتمة) ص (تحدثت عن "الذكر" فقالت: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ"، ثم جاءت فاتحة الزمر لتجيبك عن سؤال: كيف نزل هذا الذكر؟ وما منزلته؟ "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ".

والآن، وقد اتضحت لنا الصورة الكبيرة، دعنا نبحر معًا في تفاصيل هاتين الآيتين الكريمتين، متسائلين ومتدبرين، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن.

ثانيا: تحليل الآيات ودلالاتها - رحلة في رحاب التنزيل والعبادة

فلنقف مع الآيتين الكريمتين وقفة متأنية، نستكشف أسرارهما:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2)﴾

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ"

لماذا بدأت السورة بهذا التعبير المهيب "تنزيل الكتاب"؟
تأمل معي: لم يقل الله سبحانه "هذا كتاب" أو "اقرأ كتابًا"، بل قال: "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ" .إن هذا التعبير ليس مجرد وصف، إنه إعلان صارخ يزلزل كيانك .ما الذي يوحيه لك لفظ "التنزيل"؟ إنه يهتف بك من عليائه أن هذا القرآن ليس كلامًا عاديًا، ليس فكرةً خطرت على بال بشر، ولا فلسفةً نبتت من أرض .إنه منهج حياة، وبرنامج تشغيل للروح والعقل والجسد، نزل من السماء إلى الأرض .إنه يهبط إليك من العلو المطلق، من عند من يعلم السر وأخفى.

وما أثر هذا على نفسك وأنت تقرأ هذه الكلمات؟
إنه يزرع في قلبك طمأنينة عظيمة تجاه قائد هذه المسيرة، سيدنا محمد ﷺ .فهو ليس مؤلفًا أو مفكرًا يحتمل الصواب والخطأ، بل هو مُبَلِّغٌ أمين عن خالق الكون .وهل هناك أمان للمجتمع البشري الحائر أعظم من أن يكون منهجه مستمدًا من وحي إلهي معصوم عن الهوى والقصور البشري؟

اللمسة البيانية والبلاغية هنا في بناء الجملة الاسمية "تنزيل الكتاب..." هي لمسة ثبات ورسوخ .إنها ليست مجرد خبر عابر، بل هي حقيقة كونية ثابتة .هذه اللمسة تريد أن تغرس في نفسك شعورًا جارفًا بتعظيم القرآن .تخيل وأنت تفتح المصحف أن هذا ليس مجرد ورق وحبر، بل هو رسالة خاصة من الله العزيز الحكيم إليك أنت .كيف سيكون خشوعك في قراءتك؟ كيف ستكون دقة أفعالك وأنت تعلم أن دستورك منزل من عند من لا يخفى عليه شيء؟

الأمر الثاني: لماذا اقترن تنزيل الكتاب باسمي "العزيز الحكيم"؟

لاحظت هذا الاقتران المبارك: "مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" .لماذا هذان الاسمان تحديدًا؟ ماذا يعنيان لك؟

العزيز: إنه القوي الذي لا يُغلب، العزيز الذي لا يُقهر، الغالب الذي لا يُمانع .هذا المنهج يا صديقي ليس

نصًا تاريخيًا يُدرس في المتاحف، بل هو مصدر عزتك ومنعتك .من التزم به استمد عزته من عزة منزله، فلا يذل لبشر، ولا ينكسر أمام طاغوت، ولا تركعه مغريات الدنيا .هل شعرت بهذه العزة من قبل؟ إنها تناديك في كل آية: كن عزيزًا بالله، فإن القوة كل القوة له.

الحكيم: إنه الذي يضع الأشياء في مواضعها، المحكم الذي لا يصدر عنه عبث، ولا يأمر إلا بما فيه ص لاح العباد .كل أمر، كل نهي، كل قصة، كل حكم في هذا الكتاب وراءه حكمة بالغة، حتى لو غابت عن عقولنا القاصرة في لحظة ما .إنه يربي فيك الثقة بأن ما يأمرك به الله هو عين الصواب، ولو خ الفته أهواؤنا ومصالحنا الضيقة.

والجمع بينهما هنا له دلالة بليغة: إنها معادلة النجاح الحضاري! فالتشريع القرآني ليس مجرد أوامر جافة، بل هو مزيج من القوة والعزة) التي تحمي الحق وتصونه (والحكمة والاتقان) التي تضمن صلاح التطبيق واستمراريته .(إنها تنمية مستدامة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، يبني إنسانًا متوازنًا قويًا بعقيدته، حكيمًا في تصرفه .ألا يجعلك هذا تشعر بالفخر والاعتزاز بأن دستورك منزل ممن هذه صفاته ؟

الأمر الثالث: ما المقصود بـ "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ"؟

هنا يتأكد اليقين، ويُحسم الأمر ."بِالْحَقِّ" .هذه الكلمة ليست مجرد ظرف، إنها قاعدة البناء .ما معنى الحق؟

· بالصدق: فكل خبر فيه صدق لا ريب فيه.
· بالعدل: فكل حكم فيه عدل لا ظلم معه.
· بما يوافق الفطرة: فالذي خلق الإنسان هو أعلم بما يصلحه، كما قال: "أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ") الملك:.(14

كيف ستتعامل مع كتاب نزل "بالحق"؟
لا يمكن أن يكون تعاملك معه كتعاملك مع أي كتاب آخر .أنت أمام الحقيقة المطلقة، أمام منهج واجب التطبيق .إنه ليس كتابًا للاستئناس الفكري، أو للقراءة الموسمية في المناسبات .إنه خارطة الطريق الوحيدة للخروج من ظلمات الحيرة إلى نور اليقين .كل قصة فيه ليست تاريخًا مضى، بل هي قوانين حركة للتاريخ، وكل حكم فيه هو دستور للحياة الكريمة .ألا يجدر بك وأنت تقرؤه أن تسأل نفسك: ما الذي يجب أن أغيره في سلوكي اليوم بعد هذه الآية؟

الأمر الرابع: الغاية العظمى "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ"

وهنا تتجلى الحقيقة الكبرى، وتظهر ثمرة التنزيل .لماذا نزل الكتاب؟ ما هي الغاية من كل هذا التأكيد على المصدر الإلهي والحق المطلق؟ الجواب في الفاء التعقيبية: "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ" .كأن الآية تقول: "بما أن الأمر كذلك، وبما أنك قد تيقنت أن هذا الكتاب تنزيل من العزيز الحكيم بالحق، ف النتيجة المنطقية والحتمية الوحيدة هي أن تخلص العبادة لله وحده".

ما هو الإخلاص هنا؟ هل هو مجرد شعور قلبي؟
كلا وألف كلا .إنه ثورة على كل الأصنام.

· أصنام الأهواء: أن تعبد ما تهوى لا ما أمر الله.
· أصنام البشر: أن تجعل طاعة المخلوق في معصية الخالق.
· أصنام المصالح: أن تبيع دينك بدنيا غيرك.
· أصنام الرياء: أن يكون عملك للناس لا لرب الناس.

الدين الخالص الذي تأمر به الآية هو أن تصبح عبدًا لله في كل حركاتك وسكناتك:

· في عملك: تتقنه وتصدق فيه لأنه لله.
· في بيتك: تتحمل مسؤولياتك لأنها لله.
· في فرحك وحزنك: لا تلجأ إلا لله.
· في أفكارك وقناعاتك: لا تقدس إلا ما قدسه الله.

لماذا ربطت الآية بين إنزال الكتاب والإخلاص؟

لأن الإخلاص هو الثمرة الطبيعية والوحيدة للفهم الحقيقي للقرآن .من تدبر هذا الكتاب حق التدبر، وفهم أنه من الله العزيز الحكيم، وأنه الحق الذي لا مرية فيه، لن يجد في قلبه متسعًا لغير الله .إن الإخلاص ليس مجرد نية عابرة، إنه تحرير كامل للجنان والأركان من رق المخلوقين لتنعم برق الواحد القهار.

اللمسة البيانية في تقديم الجار والمجرور "لَهُ الدِّينَ" على الوصف "مُخْلِصًا" هي لمسة قصر واختصاص .المعنى: لا تجعل الدين خالصًا إلا لله وحده .إنها تريد أن تفرغ قلبك وعملك من كل شائبة، وأن تجعلك تعيش في نور واحد لا ظلام فيه.

ثالثاً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

والآن، وقد غصنا في المعاني، لنستخلص معًا أهم ما تركز عليه هاتان الآيتان الكريمتان:

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والتربوية

١.المفاهيم العملية: تحول الآيتان الإخلاص من معنى قلبي مجرد إلى ممارسات يومية:
- تصفية النوايا: قبل أي عمل، في وظيفتك، في دراستك، في علاقاتك الاجتماعية، اسأل نفسك: لمن هذا؟ ألله أم لثناء الناس؟
- الجودة والإتقان: الربط بين "الحكيم" وتنزيل الكتاب يعلمنا أن نعبد إلهًا حكيمًا، فيجب أن يتسم عملنا بالحكمة والإتقان.
- الاستقلالية الفكرية: الإخلاص لله يحررك من التبعية العمياء لـ "زُمَر" الضلال أو للضغوط المجتمعية التي تخالف الحق.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية:
- علاج تشتت النفس: عندما يكون هدفك واحدًا) رضا الله(، يزول القلق الناتج عن محاولة إرضاء أطراف متعددة ومتناقضة .إنه أعظم علاج نفسي.
- غرس قيمة المراقبة الذاتية: استشعار أن الكتاب منزل من "الحكيم" الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يورثك رقابة ذاتية هي أقوى من كل رقابة بشرية.
- التحرر من الأصنام الفكرية: الآية تأمرك بعبادة الله مخلصًا، وهذا يشمل تطهير عقلك من تقديس الأ فكار والمذاهب البشرية المنحرفة.

٣.أبعاد وآفاق الآيتين:
- البعد الوجودي: تحدد الآيتان علاقتك بالكون، فأنت متلقٍ لمنهج الله) الكتاب(، ومكلف بوظيفة)العبادة باخلاص.(
- آفاق الاستشراف: توحي الآيتان بأن مستقبلك ونجاحك وعزتك مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمدى التزامك ب- "الحق" المنزل .وأي نهضة لا تقوم على "الحكمة والإخلاص" هي نهضة هشة.

٤.القيم المستخلصة:
- قيمة الإخلاص: جوهر الدين ومحركه الداخلي.
- قيمة الحق: الانحياز المبدئي للصواب.
- قيمة العزة: الشعور بالاستعلاء الإيماني والكرامة البشرية المستمدة من الله.
- قيمة الحكمة: وضع الأمور في نصابها الصحيح.
- الخلاصة التربوية: إذا أردت أن تفهم هذه الآيات، انظر إليها كميثاق عمل: المصدر: الله العزيز الحكيم .المنهج: الكتاب الحق .المهمة: العبادة .الشرط: الإخلاص .من عاش بهذه الأركان الأربعة دخل في زمرة الناجين.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والحضارة

أخي، أختي، اسمعا: هذه الافتتاحية ليست مجرد كلمات إيمانية نرددها، بل هي دستور شامل للبناء الحضاري .كيف؟

· مصدريّة المنهج: إن بدء الآية بقضية الوحي وكونه من الله هو حجر الأساس .لماذا؟ لأن الله هو الخالق، وهو وحده الذي يعلم ما يصلح مخلوقه .فلا يحق لأحد، كائنًا من كان، أن يشرع للإنسان ما يخالف شرع خالقه .هذا هو أساس الحرية الحقيقية.
· مقومات الحضارة من خلال الآية:

1. عزة وقوة المنهج: الحضارة تحتاج إلى قوة تحميها ومنعة ترد عنها المعتدين .وصف الله بـ "العزيز" يعني أن من يتبع هذا الكتاب يستمد عزته من عزة الله فلا ينكسر أمام التحديات.
2. حكمة وإتقان التشريع: وصف الله بـ "الحكيم" يعني أن تشريعه مراع للفطرة البشرية، صالح لكل زمان ومكان .الخروج عن هذا المنهج هو فساد للفطرة ودمار للحياة .التنمية الناجحة هي التي تزاوج بين قوة التنفيذ) العزة (ودقة التخطيط ومراعاة المصلحة) الحكمة.(
3. قاعدة الحق: "بالحق" تعني أن كل مؤسسات المجتمع وقوانينه يجب أن تبنى على الشفافية و الصدق والعدل .مجتمع الحق مجتمع صلب لا تذروه رياح الفتن والمصالح الضيقة.
4. وقود الإخلاص: بعد أن تستقر هذه المعاني، يأتي الأمر "فاعبد الله مخلصًا" .الموظف المخلص، المهندس المخلص، المعلم المخلص، الحاكم المخلص ...هؤلاء هم وقود التنمية الحقيقي .الإخلاص يحول العمل اليومي إلى عبادة، ويرفع جودة الإنتاج إلى أقصى حد) الإحسان(، ويجعل المجتمع كتلة واحدة تتحرك لهدف سامٍ لا تفرقها الأهواء.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

لقد أرست الآية أسسًا تربوية عملية قابلة للتطبيق الفوري:

· تربية على الإخلاص: اجعل دافعك في كل شيء هو الله.
· تعظيم القرآن والثقة به: عامل القرآن كمنهج حياة منزل من عند العزيز الحكيم، مما يزرع الطمأنينة في قلبك.
· عزة النفس والتحرر: استشعر معاني "العزيز الحكيم" ليتحرر قلبك من الخوف من المخلوقين أو الطمع فيهم.
· قبول الأعمال الخالصة فقط: ذكر نفسك دائمًا أن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وراجع نواياك باستمرار.
· العمل بمنهج الحق: اعلم أن عبادة الله بإخلاص تعني اتباع شريعته في كل شؤون الحياة.
· السكينة النفسية: من عمل لله وحده لا يتأثر بمدح الناس ولا بذمهم، وهنا تكمن سكينته وراحته.

الموضوع الرابع: تطبيق مفاهيم الآية في حياتنا العملية

كيف ننقل هذا النور من دائرة المعلومة إلى دائرة التطبيق والسلوك؟

1.في تعاملك مع القرآن:
· عندما تفتح المصحف، تذكر أنه "تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ" .اقبل عليه بخشوع، واقرأه بتأنٍ، باحثًا عن توجيهات الحكيم لتدبير شؤون حياتك.
· تعامل معه على أنه "بِالحَقِّ" يجب تطبيقه .إذا وجدت آية تأمر بالصدق، فغيّر من سلوكك لتكون صادقًا .هذا هو أساس التعامل الصحيح معه.
2.في تحقيق الإخلاص:
· قبل كل عمل، اسأل نفسك: "لمن هذا العمل؟".
· حاول أن تخفي أعمال الخير كما تخفي أعمال السوء .."مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ" تعني أن يغيب عن نظرك كل من سوى الله.
· في عملك الوظيفي أو الدراسي، اجعل نيتك عمارة الأرض وخدمة الخلق ابتغاء وجه الله .بهذا تتحول حياتك كلها إلى عبادة.
3.في مواجهة تحديات الحياة:
· عندما تواجه ظلمًا أو طغيانًا، تذكر أنك تستمد عزتك من "العَزِيزِ" الذي لا يُغلب.
· عندما تحتار في أمر، عد إلى الكتاب المنزل من "الحَكِيمِ" تجد فيه النور والهداية.
· ثق بأن الالتزام بالحق المنزل، مع إخلاص النية لله، هو سبيلك للانضمام إلى زمرة الناجين التي ستساق إلى الجنة زمرًا.

ختامًا، أيها القارئ الكريم، إن هاتين الآيتين الكريمتين ليستا مجرد مطلع سورة، بل هما برنامج حياة، وخارطة طريق واضحة .إنهما تهمسان في أذنك كلما تلوتهما: أنت تنتمي إلى منهج رباني عزيز حكيم، مهمتك في هذا الوجود أن تعبده مخلصًا له الدين .عش بهذه الحقيقة تتحرر، واستمسك بهذا الميثاق تنتصر، وكن على يقين أنك إن فعلت، كنت من زمرة عباد الله المخلصين الذين أقرّ إبليس بعجزه عنهم، وبشرهم ربهم بجنات النعيم.

ثانيا

أيها المتدبر الكريم، لقد وقفنا معًا في رحاب الآيتين الأوليين من سورة الزمر، حيث تجلى لنا أن هذا الكتاب تنزيل من الله العزيز الحكيم بالحق، وأن الغاية العظمى من إنزاله هي أن نعبد الله مخلصين له الدين. والآن، وقد رسخت هذه الحقيقة في قلبك، تنتقل بك الآية الثالثة إلى مناقشة الفريق الذي رفض هذا الميثاق، لتكشف لك عن جذور المشكلة، ولتجيب عن سؤال قد يدور في خلدك: إذا كان الأمر بهذا الوضوح، فلماذا يرفض الناس اتباع الحق؟

دعنا نستمع معًا إلى قول الله تعالى، وكأنه خطاب مباشر لك، يعلمك كيف ترد على شبهات المبطلين، وكيف تتعامل مع واقع الانحراف عن الفطرة:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الزمر:[3

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - تفنيد الشبهات وتعرية الانحراف

فلنقف مع كل مقطع من هذه الآية العظيمة، ونستخرج كنوزها:

الأمر الأول: القاعدة الكبرى "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ"

تبدأ الآية بأداة التنبيه والتوكيد "أَلَا"، وهي بمثابة جرس إنذار يوقظ الغافلين: انتبه! اسمع! إنها حقيقة لا تقبل الجدال. ما هذه الحقيقة؟ "لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ".

ماذا تعني هذه الجملة الاسمية التي تفيد الثبات والاستحقاق؟
إنها تعني أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحق المطلق في أن يُعبد وحده، وفي أن يضع للإنسان منهج حياته. لماذا؟ لأنه الخالق، وهو أعلم بمن خلق، وهو أعلم بما يصلح فطرته. إنها تعيدك إلى القاعدة التي أسستها الآيتان الأوليان: "تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ". فإذا كان هو وحده العزيز الحكيم، فمن المنطقي أن يكون الدين الخالص - أي الطاعة والعبادة والمنهج الذي لا تشوبه شائبة شرك - له وحده.

تصور معي لو أن جهازًا معقدًا مثل هاتفك الذكي أو سيارتك، جاء معه كتيب تعليمات من المصنع. هل من الحكمة أن ترمي هذا الكتيب وتتبع تعليمات شخص آخر لا يعرف تركيب هذا الجهاز؟ بالطبع لا، لأنك تعلم أن المصنع هو صاحب الحق في إخبارك بكيفية تشغيله ليعمل بأفضل صورة. فكيف بنفسك وروحك ومجتمعك؟ الله هو الخالق، ومنهجه (الدين) هو كتيب التشغيل الوحيد الذي يضمن سلامة الفطرة وعدم فسادها. الخروج عن هذا المنهج ليس مجرد خطأ فكري، بل هو فساد للفطرة، وإفساد للمقصود من خلقنا.

الأمر الثاني: تشريح علة المشركين ومناقشتهم "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ"

بعد أن قرر القاعدة، ينتقل الخطاب القرآني ليناقش الفريق المخالف. انظر إلى الأسلوب الحكيم: فهو لا يكتفي بإصدار الحكم، بل يحكي قولهم، ثم يفنده، ليعلمك كيف تحاور، وكيف تكشف التناقض في حجج المبطلين.

· ما هي حجتهم؟ يقولون عن أصنامهم أو من يعبدونهم من دون الله: "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ".
إنهم لم ينكروا وجود الله، بل زعموا أن هؤلاء وسطاء وشفعاء .هذا هو عين الشرك الذي وقع فيه كفار قريش، وهو نفسه الذي يتكرر في صور شتى عبر التاريخ .إنها حجة واهية، تلبس الباطل ثوب الحق.
· كيف تفند الآية هذه الحجة؟
الآية تفندها بطريقتين، إحداهما مباشرة والأخرى ضمنية:
1. التفنيد الضمني في صدر الآية: بقوله "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ" .كأنها تقول: إذا كان الدين الخالص لله وحده، فأي إدخال لوسيط لم يأذن به الله هو إفساد لهذا الخلوص، واعتداء على حق الله في أن يُعبد وحده .الله لم يجعل بينك وبينه وسطاء، بل جعل بابه مفتوحًا، فقال: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ") البقرة: .(186 فلماذا تذهبون إلى غيره؟
2. التفنيد الصريح في خاتمة الآية: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" .وهنا بيت القصيد! لقد وصفهم الله ب- "كَاذِبٌ" و "كَفَّارٌ".

الأمر الثالث: خطورة الكذب على الله وعلاقته بالحرمان من الهداية

هذا هو المحور المركزي في الآية. لماذا وصفهم الله بأنهم "كاذبون"؟ وكيف كان هذا الكذب سببًا في حرمانهم الهداية؟

· ما هو كذبهم؟
.1 زعمهم أن الملائكة بنات الله: كما قال تعالى في موضع آخر: "أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالعُزّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (20) أَلَكُمُ الذَكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ") النجم .(إنه افتراء عظيم، ونسبة لله ما لا يليق بجلاله.
.2 زعمهم أن الأصنام تتوسط لهم: وهذا افتراء على مقام الألوهية، وفيه سوء ظن بالله، وكأن الله - سبحانه - يحتاج إلى وسطاء ليعلم بحال عباده أو ليغفر لهم! والله قد جعل الكعبة بيتًا له يأوي إليه عباده مباشرة، فكيف يُعرضون عنه ويذهبون إلى الأحجار؟ إنهم كاذبون في زعمهم، وكافرون بجحودهم نعمة العقل والوحي.
· نتيجة هذا الكذب والكفران: الحرمان من الهداية.
تأمل قوله تعالى: "إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كفّارٌ" .إنها قاعدة إلهية: الكذب على الله، والافتراء في دينه، والإصرار على ذلك، يصيب القلب بالعمى والغفلة .صاحب هذه الصفة لا تنفع معه الذكرى، و لا تُجدي فيه الآيات .لماذا؟ لأنه اختار الكذب على الحق، فأضله الله على علم .كما قال تعالى: "وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكافِرِينَ") البقرة: .(264 وكما قال: "فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ") الصف: .(5 رفضُ اتباع منهج الله، وكرهُ الحق الناتج عن العناد والاستكبار، هو الذي يسد منافذ الهداية.

الأمر الرابع: أهمية الأسلوب القرآني في الحوار والدعوة

لاحظ معي كيف ناقشت الآية شبهة المشركين: لقد حكت قولهم أولا ً "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونا"، ثم قدمت الحكم "إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"، ثم ختمت ببيان العلة "إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كفّارٌ". هذا الأسلوب القرآني في الاستيفاء والنقاش يحمل دروسًا عظيمة لنا كدعاة ومربين:

· أولا ً: الإنصات للخصم وفهم حجته: لا تحاور وأنت لا تفهم ما يقول الطرف الآخر .استمع إليه، وافهم منطقه، حتى لو كان باطلا ً.
· ثانيًا: تفنيد الحجة من جذورها: لا تناقش الفروع، بل اضرب في الصميم .لقد أظهر القرآن أن المشكلة ليست في صورة العبادة، بل في الكذب على الله.
· ثالثًا: رد الأمر إلى الله: عند اختلاف الرؤى، القول الفصل هو لله وحده: "إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ" .هذه تريح قلب الداعية، فأنت لست مسؤولا ً عن هداية الناس، بل عن البلاغ المبين.
· كيف نستخدم هذا الأسلوب في واقعنا؟
عندما تحاور ملحدًا، لا تبدأ بالشتيمة، بل افهم أسباب إلحاده .عندما تحاور مبتدعًا، استمع إلى شبهته ثم اردها بأصل التوحيد: "أَلا لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ" .هذا الأسلوب يزرع الثقة في نفسك، ويجعل حجتك أقوى وأكثر تأثيرًا.

ثانياً: أنواع الشرك وأسبابه من خلال الآية

الآية الكريمة لا تترك مجالا ً للغموض، بل ترسم خارطة للأمراض القلبية التي توقع في الشرك، وكلها مردها إلى الكذب على الله. دعنا نستعرض أنواع الشرك التي تحذر منها الآية، مع أمثلة تقريبية تجعل الصورة واضحة في ذهنك:

.1شرك الوساطة والتوسل) كما في الآية(: أن تعتقد أن مخلوقًا - حيًا أو ميتًا، نبيًا أو وليًا - يملك لك نفعًا أو ضرًا بذاته من دون الله، فتسأله ما لا يقدر عليه إلا الله .هذا كذب على مقام الألوهية.
· مثال تقريبي: كالذي يظن أن الوزير في عصرنا يمكنه أن يُدخله الجنة أو يغفر له ذنبه .هذا كذب على قدرة البشر، وشرك في حق الله.
.2شرك الجحود بالنعم والكفر بها: وهو من أوسع أبواب "الكفار" الذي ذكر في الآية .أن ترى النعم تترى عليك، وتنسبها إلى كدّك وذكائك وحظك، وتنسى المنعم الحقيقي.
· مثال: قارون الذي قال: "إِنَمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي") القصص: .(78 هذا كذب على الحقيقة، وكفران بالنعمة.
.3شرك الخوف من المخلوقات: أن تخاف من بشر أو جن أو نظام بحيث يمنعك هذا الخوف من أداء واجب شرعي، فهذا خوف سري جعلك تقدم رضا المخلوق على رضا الخالق.

· مثال: موظف يخاف من مديره خوفًا يجعله يوقع على وثيقة ظلم أو كذب .هذا خوف مذموم، وهو نوع من الشرك الخفي.
.4شرك الاحتكام لغير الله: أن ترضى بتحكيم القوانين الوضعية أو الأعراف القبلية في قضايا حسمها الشرع، وأنت تعتقد أن حكمها أفضل أو مساوٍ لحكم الله .هذا تكذيب بقوله "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ".
· مثال: أن يتحاكم اثنان إلى قانون وضعي في مسألة ميراث، تاركين قسمة الله .أليس هذا اتباعًا لمنهج غير منهج الله؟
.5شرك الرياء والشهرة: أن تعمل العمل الصالح لا لوجه الله، بل ليراك الناس فيمدحوك .هذا كذب في النية، وهو الشرك الأصغر .كيف؟ لأنك جعلت لله شريكًا في عبادتك، هو نظر الناس.

ثالثًا: مفاهيم ودروس الآية في بناء الإنسان والمجتمع

الآن، وقد فهمنا تحذيرات الآية، ما هي المفاهيم العملية التي تبني الإنسان والمجتمع؟

.1تقرير حق الله في التشريع: الآية تُعلمك أن منهج الله هو المنهج الحق الوحيد .أي محاولة لاتخاذ منهج حياة لا يستند إلى الوحي، سواء بالتقليد الأعمى للآباء أو بالإعراض عن الحق، هو تمرد على الخالق وفساد للفطرة .إنه مثل من يرفض خريطة الطريق الصحيحة، ثم يتعجب لماذا ضل الطريق!
.2تحرير العقل من الوهم: الآية تحررك من أوهام الوسطاء والشفعاء الذين لم يأذن بهم الله .إنها تقول لك: علاقتك بربك مباشرة .لا تحتاج إلى "كود" سري أو واسطة .ادعُهُ مباشرة، استغفره مباشرة . هذه هي الحرية الحقيقية.
.3الحذر من الكذب بأشكاله: الكذب على الله ليس فقط بأن تقول "قال الله" وهو لم يقل، بل يشمل كل أنواع الشرك السابقة .فالمشرك الذي يعبد صنمًا كاذب في زعمه أنه ينفع .والكذب هو أول درجة في سلم الضلال، وهو سبب رئيسي للحرمان من التوفيق والسداد.
.4ضابط قبول العمل: الإخلاص لله هو الضابط الوحيد .فكما أن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فهو لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا .هذه الآية هي ميزان لأعمالك كلها.

رابعًا: تطبيق الآية على واقعنا العملي

كيف أعيش بهذه الآية؟

· في علاقتي بالله: أتذكر دائمًا أن بابه مفتوح دون وسيط .هذا يملأ قلبي أنسًا وقربًا .أتخلص من كل أنواع التعلق بالبشر على أنهم مصدر النفع والضر.
· في فكري وقناعاتي: أحرر عقلي من تقديس الأشخاص والأفكار، وأجعل احتكامي للكتاب والسنة وحدهما .لا أكون إمّعة، أقول كما يقول الناس بلا بصيرة.
· في دعوتي للآخرين: أتعلم من أسلوب القرآن في الحوار: أن أستمع، ثم أفهم، ثم أناقش الحجة بـ الحجة .لا ألجأ إلى التكفير المباشر، بل إلى بيان الحق وإزالة الشبهات برفق وحكمة.
· في مراقبتي لقلبي: أفتش في نواياي دائمًا .هل أخلصت في عملي هذا؟ هل دخلتني شائبة رياء أو سمعة؟ أتذكر أن الله لا يهدي "مَنْ هُوَ كَاذِبٌ".

أيها القارئ الحبيب، إن هذه الآية ليست مجرد وصف تاريخي لحال المشركين، بل هي مرآة نرى فيها صورتنا اليوم. كم منا من يبحث عن "وسطاء" ومشفعين من البشر لحل مشاكله، ناسيًا رب البشر؟ كم منا من يُقدّس آراء رجال ويعتبرها دينًا، فيكون قد جعلهم "أولياء من دون الله" دون أن يشعر؟ إن ا لآية تصرخ فينا: "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ". فطهر قلبك من كل كذب، وأخلص دينك لله، تكن من المهتدين.

ثالثا

أيها المتدبر الكريم، بعد أن كشفت لنا الآية الثالثة حقيقة المشركين وافتراءهم على الله بزعم الشفعاء والوسطاء، وبيّنت أن من يفعل ذلك إنما هو كاذب كفار محروم من الهداية، تأتي الآية الرابعة لتقتلع جذور هذا الداء من أساسه، ولتصحح أعظم انحراف فكري وعقدي يمكن أن يصيب الإنسان: زعم أن لله ولدًا أو شريكًا.

إنها آية تقوم على منطق عجيب وأسلوب تربوي بديع، إنها تحاور العقل والوجدان معًا، وتستخدم سلا ح البرهان الإلزامي والمثال الواقعي لتهدم صرح الكذب والافتراء. دعنا نقف مع هذه الآية الكريمة وقفة متأنية، لنرى كيف تخاطب عقلك، وكيف تربي فيك التوحيد الخالص:

{لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ}[الزمر: 4]

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - برهان عقلي يهدم الخرافة

1.أداة الامتناع: "لَوْ" الدالة على استحالة الفرض

تأمل كيف بدأت الآية بحرف "لَوْ". هذه الأداة في لغة العرب تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره. فكأن ا لآية تقول لك: إن إرادة الله أن يتخذ ولدًا ممتنعة ومستحيلة في الأصل. لماذا؟ لأنها صفة نقص، و الله هو الكامل المطلق. ومع ذلك، فإن القرآن يتنزل إلى مستوى الخصم، فيُجري الفرضية المستحيلة على سبيل الجدل العقلي ليقيم الحجة عليه من خلال منطقه هو!

ألا ترى هنا روعة الأسلوب القرآني؟ إنه لا يكتفي بالرفض القاطع، بل يقول: "حتى لو سلمنا جدلا ً بفرضيتكم الباطلة، فإن النتيجة التي ستصلون إليها هي عكس ما تدّعون تمامًا!" وهذا هو عين الحكمة في الدعوة: أن تنزل إلى أرض الخصم، وتفهم منطقه، ثم ترده عليه من جنس منطقه.

2.البرهان الإلزامي: "لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ"

هنا مكمن الإعجاز وبيت القصيد. لاحظ كيف يبني الله سبحانه وتعالى الحجة خطوة بخطوة:

· الفرض الممتنع: لو أراد الله أن يتخذ ولدًا) .وهذا تنزل من الله في مقام الجدل، وإلا فهو سبحانه لم يلد ولم يولد.(
· النتيجة المنطقية لهذا الفرض: لَاصْطَفَىٰ) لاختار (من بين خلقه من يشاء، فيكون هذا المختار مخلوقًا من مخلوقاته.

انظر إلى دقة التعبير: "مِمَّا يَخْلُقُ". لماذا أضاف هذا القيد؟
لأنه يريد أن يقرر حقيقة غابت عن أذهان أولئك المفترين: أن أي شيء سواه، حتى لو اصطفاه واتخذه ولدًا، فهو لا يزال من جملة خلقه، ولا يخرج عن كونه مربوبًا مخلوقًا.

ما النتيجة المدمرة التي تترتب على هذا البرهان في وجه زعم المشركين والنصارى؟

· النصارى قالوا: المسيح ابن الله.
· بعض مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله.

فيأتي هذا البرهان القرآني ليقول لهم: لو كان الأمر كما تزعمون - وحاش لله - فلماذا تختارون للملك العظيم الذي له الخلق والأمر، ولدًا من جنس معين أو مخلوق معين؟ إن من يفعل هذا ليس جديرًا با لألوهية! إنكم بزعمكم هذا قد انتقصتم من قدر الله، لأنكم جعلتموه محتاجًا إلى ولد، وجعلتم هذا الولد مخلوقًا مثلكم أو مثل مخلوقاته الأخرى. أليس هذا تناقضًا صارخًا؟

مثال تقريبي يوضح الفكرة:
تخيل معي أن رجلا ً غنيًا جدًا، يملك مصنعًا ضخمًا ينتج آلاف الأجهزة يوميًا. ثم يأتي شخص فيقول: "أراد هذا الغني أن يتخذ له ولدًا، فاختار واحدًا من الأجهزة التي صنعها في مصنعه ليكون ابنه!" ألا تستنكر هذا الكلام؟ ألا ترى فيه إهانة لعقل الغني، وتقليلا ً من شأن الأبوة الحقيقية؟ إن ا لأبوة الحقيقية تقتضي المجانسة والمشاركة في الصفات. فكيف يكون المخلوق الفقير إلى الله، المحتاج إليه في كل لحظة، ابنًا للخالق الغني المطلق؟ إن هذا هو عين المحال، وعين الافتراء على الله.

3.التنزيه المطلق: "سُبْحَانَهُ"

بعد أن أقام الحجة العقلية الدامغة، يأتي التنزيه القاطع "سُبْحَانَهُ". إنها كلمة جامعة لكل معاني التقديس والتعظيم. إنها تعلن أن الله تعالى منزه ومتعالٍ ومبرأ عن كل ما يقوله الظالمون من نسبة الولد أو الشريك إليه. إنها تطهير لمقام الألوهية من كل شائبة نقص، وتأكيد على أن ما سبق كان مجرد فرضية جدلية لإلزام الخصم، لا إقرارًا بإمكانية وقوعه.

4.الختم بالتوحيد والقهر: "هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ"

وهنا تختم الآية بحقيقتين كونيتين تنسفان كل أثر للشرك:

· الواحد: أي المتفرد بالألوهية والربوبية، الذي لا شريك له في ملكه، ولا ند له في ذاته وصفاته .فإذا كان واحدًا، فكيف يحتاج إلى ولد أو شريك؟ الولد إنما يُتخذ للحاجة إلى معين وناصر، والله هو الغني الحميد.
· القهار: أي الغالب الذي قهر كل شيء، الذي دانت له الرقاب، وخضعت له الجبابرة .كل من في السموات والأرض مقهور تحت سلطانه وقدرته .فكيف يكون المقهور المربوب ابنًا للقهار الغالب؟ إنها حقيقة تملأ القلب خشية وإجلالا ً.

تأمل هذا الانتقال البديع: من فرضية جدلية، إلى تنزيه مطلق، ثم إلى تقرير التوحيد والقهر. إنه سلم يعرج بك من حضيض الوهم البشري إلى ذروة اليقين الإلهي.

ثانيا: أهمية أسلوب "المثال" كوسيلة تربوية وبلاغية

في هذه الآية، لم يقل الله مباشرة: "أنتم كاذبون". بل استخدم أسلوب المثال والبرهان الإلزامي. ما أهمية هذا الأسلوب في التربية والدعوة؟

.1تحرير العقل من التقليد: المثال يوقظ العقل ويدفعه للتفكير والمقارنة .عندما تقول للشخص: "لنفترض أن هذا صحيح، فماذا ستكون النتيجة؟"، فإنك تخرجه من دائرة التعصب والتقليد الأعمى، وتدخله في دائرة النقد الذاتي والمراجعة الفكرية.
.2تثبيت المعلومة ورسوخها: المعلومة التي تصل عن طريق مثال واقعي أو منطقي تكون أرسخ في الذهن وأبقى أثرًا .لماذا؟ لأنها تخاطب الخيال والعقل معًا .فحين تتصور الغني الذي يتخذ من أجهزته ولدًا، تترسخ في ذهنك صورة قبيحة عن هذا الفعل، فتستنكره فطريًا.
.3إفحام الخصم وإلزامه الحجة: إنه أسلوب "من فمك أدينك" .أنت لا تفرض عليه حقائق من خارج إطاره الفكري، بل تستخدم منطقه هو وتقوده إلى النتيجة الحتمية التي تناقض قوله .وهذا من أقوى أساليب الإقناع في الجدال والحوار .قال تعالى: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ") الأنعام: .(83 لقد حاجّ إبراهيم قومه بالكوكب والقمر والشمس، وكلها أمثلة محسوسة من واقعهم.
.4التربية على بناء الحجج: عندما نستخدم هذا الأسلوب مع أبنائنا وطلابنا، فإننا نربيهم على التفكير الناقد، ونعلمهم كيف يدافعون عن الحق بالحكمة والمنطق، لا بالصراخ والانفعال.

الرسالة التربوية لك كداعية أو مربّ:
عندما تناقش شابًا يقدس شخصًا أو فكرًا منحرفًا، لا تقل له مباشرة: "أنت مخطئ". بل قل له: "لنفترض أن ما تقوله صحيح، ما الذي سيترتب عليه؟ ألا ترى أن هذا يؤدي إلى كذا وكذا؟". بهذا الأ سلوب تكسب عقله وقلبه، وتجعله شريكًا في الوصول إلى الحقيقة.

ثالثا: رسائل الآية النفسية والتربوية والعقلية

هذه الآية الكريمة ليست مجرد حوار مع مشركي الماضي، بل هي غذاء للروح والعقل في كل زمان:

· الرسالة النفسية: الطمأنينة والتحرر:
· عندما يوقن قلبك بأن الله هو "الواحد القهار"، فإنك تتحرر من الخوف من كل قوة في الأرض . من تخاف؟ والكل مقهور تحت سلطان الله! إنها طمأنينة عظيمة تملأ قلب المؤمن، وتجعله لا يرهب في الحق لومة لائم.
· كما أن اليقين بأن الله "سبحانه" منزه عن الولد والشريك، يريح قلبك من وساوس التشبيه و التجسيم، ويملأ قلبك إجلالا ً ومحبة للكامل المطلق.
· الرسالة التربوية: التوحيد الخالص أساس البناء:
· الآية تعلمنا أن أول ما يجب أن نربي عليه أنفسنا وأهلينا هو توحيد الله في أسمائه وصفاته .أن ننزهه عن كل نقص، وأن نؤمن بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد .هذا هو الأساس الذي تبنى عليه كل القيم والأخلاق.
· إذا فسد هذا الأصل، فسد كل فرع .فالذين افتروا على الله الكذب بزعم الولد، تبع ذلك فساد في تصورهم للكون والحياة والقيم.
· الرسالة العقلية: وجوب التفكر ونبذ الخرافة:
· الآية تدعو العقل إلى ممارسة دوره في التدبر والتفكر .لماذا نزل القرآن مليئًا بـ "لو" و "قل" و "أرأيتم"؟ إنه ليوقظ العقول من سباتها، ويحفزها على السؤال والبحث عن الحق.

. إنها تقول لك: لا تكن إمّعة، بل فكر بعقلك الذي وهبك الله، وقارن بين قول وقول، وانظر أيهما أقرب إلى المنطق وإلى الفطرة السليمة .الفطرة التي فطر الله الناس عليها تأبى أن يكون للمخلوق المحتاج ولدًا من نوعه.

رابعاً: تطبيقات عملية من الآية في حياتنا

كيف نعيش معاني هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1في تعاملنا مع الله: ننزه الله دائمًا عن كل ما لا يليق به .إذا خطر ببالك خاطر سوء في حق الله، فقل كما علمنا القرآن: "سُبْحَانَهُ" .وعش حياتك متوكلا ً على "الواحد القهار"، فلا ترجو إلا فضله، ولا تخشى إلا عدله.
.2في تربية أبنائنا: نستخدم معهم أسلوب ضرب الأمثال لتبسيط المعاني العظيمة .يمكن أن نقول لهم: "لو كان لله ولد، لكان مثلنا يحتاج إلى طعام وشراب ونوم، هل يعقل أن يكون المحتاج هو الإله القوي؟" .هذا يزرع فيهم العقيدة الصحيحة بأسلوب محبب وسهل.
.3في دعوتنا للآخرين: نتعلم أن الرفق والحكمة هما الطريق إلى القلوب .نبدأ بمنطق العقل، ونقيم الحجة بالمثال والبرهان، ثم نختم بالتنزيه والتوحيد .هذا هو المنهج القرآني الأمثل.
.4في معركتنا مع الأفكار المنحرفة: نواجه كل فكر يزعم أن الله حلّ في بشر، أو أن له شريكًا في الملك، بنفس المنطق القرآني: "لَوْ أَرَادَ اللَّهُ..." .إن هذا البرهان صالح لكل زمان ومكان، لأنه قائم على أسس عقلية فطرية لا تبلى.

ختامًا، أيها المؤمن المتدبر، لقد أراد الله بهذه الآية أن يطهر قلبك وعقلك من كل شائبة شرك، وأن يزرع فيك التوحيد الخالص. إنها تريدك أن تستيقن أن الله هو الواحد القهار، فلا تلتفت إلى دونه من ولي ولا شفيع إلا بإذنه، ولا تجعل لله ندًا وأنت تعلم. عش بهذه العقيدة الصافية، تكن من عباد الله المخلصين الذين أخلصهم لنفسه، واصطفاهم لجنته.

القسم الثاني

اولا

أيها المتدبر الكريم، لقد قطعنا شوطًا عظيمًا في فهم فاتحة سورة الزمر. رأينا كيف أرست الآيات الأ ولى قواعد التوحيد: تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم (آية 1)، والأمر بإخلاص الدين لله (آية 2)، وبيان أن الدين الخالص لله وحده، وأن من يزعم الشفعاء فهو كاذب كفار (آية 3)، ثم جاءت الآية الرابعة لتهدم زعم الولد والشريك بأبلغ برهان عقلي: "لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ"، وختمت بتنزيهه: "سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ".

والآن، وقد أقام الله الحجة على عباده بالوحي والمنطق، ينتقل بك إلى مدرسة كونية مفتوحة، إلى كتاب منظور يقرؤه كل إنسان، مؤمنه وكافره. إنها الآية الخامسة التي تستخدم الآيات الكونية المشهودة لتكون دليلا ً على الآيات المسموعة المتلوة. إنه أسلوب بديع يخاطب الفطرة مباشرة، ويوقظ العقل من غفلته. تعالَ معي نتأمل هذه الآية العظيمة:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ الزمر:[5

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - حين ينطق الكون بالتوحيد

.1القاعدة الكونية الأولى: "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ"

تبدأ الآية بتقرير حقيقة كونية لا ينكرها حتى مشركو العرب. لقد كانوا يعترفون بأن الله هو خالق السموات والأرض، كما قال تعالى في موضع آخر: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" (لقمان: 25). لكن أين الخلل؟ الخلل أنهم لم يرتبوا على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية! إنهم يعترفون بربوبيته، ثم يشركون به في ألوهيته.

وهنا تأتي الآية لتقول: إن هذا الخلق لم يكن عبثًا ولا لعبًا، بل كان "بِالْحَقِّ". وما معنى "بالحق"؟

. بالحكمة البالغة: فكل ذرة في الكون لها غاية وهدف.
. بالصدق والعدل: فالكون قائم على نظام دقيق لا يتخلف، وهذا النظام هو "الحق" الذي تراه عيناك.
. بهدف سام: وهو أن يكون هذا الكون مسرحًا لابتلاء الإنسان واختياره، ليعبده بإخلاص أو ليكفر.

إن هذا التقرير يوجه لك سؤالا ً صامتًا: إذا كنتَ تعترف بأن الله خلق هذا الكون الفسيح بالحق، فكيف لا تجعل حياتك أنت الأخرى قائمة على الحق؟ كيف ترفض المنهج الإلهي (الكتاب المنزل بالحق في الآية 2) ثم تعيش في كون هو نفسه قائم على الحق؟ أليس هذا تناقضًا صارخًا؟ إن الذي خلق الكون بنظام الحق، هو نفسه الذي أنزل الكتاب بالحق. فإما أن تنسجم مع الحق في كليهما، وإما أن تعيش في فصام عن واقع الكون وفطرته.

2.اللوحة الكونية المتحركة: "يُكوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ"

والآن، بعد أن قرر القاعدة، ينتقل بك إلى المشهد الحي المعاش. تأمل دقة التعبير القرآني: "يُكوِّرُ". هذه الكلمة وحدها معجزة علمية وبلاغية. ماذا توحي لك؟

· الصورة البلاغية: التكوير يعني لفّ الشيء على الشيء بشكل دائري .إنه يصور الليل والنهار وكأنهما كرة وملاءة ضخمة، يُلف أحدهما على الآخر بالتدريج .ألا ترى كيف ينسلخ النهار من الليل شيئًا فشيئًا ؟ كيف يدب الظلام في ضوء النهار رويدًا رويدًا حتى يغطيه؟ هذا هو التكوير .إنها صورة حركية رائعة تجعل الكون وكأنه آلة حية تتحرك أمام عينيك.
· الإعجاز العلمي: في العصر الحديث، وبعد أن تمكن الإنسان من رؤية الأرض من الفضاء، اكتشف أن الأرض كروية الشكل، وأن تعاقب الليل والنهار يحدث نتيجة دوران هذه الكرة حول محورها أمام الشمس .فإذا نظرت إلى الأرض من بعيد، سترى الليل) الظل (يتبع النهار، وكأنه ملفوف عليه .من كان يملك هذه الصورة الذهنية الدقيقة قبل 1400 عام؟ إنه خالق السموات والأرض وحده .هذا التعبير المعجز يثبت لك أن القرآن منزل ممن يعلم السر في السموات والأرض.
· الدلالة العقدية: هذا التكوير المستمر، هذا الحركة الدؤوبة التي لا تفتر ولا تخطئ، دليل على التدبير الإلهي المتقن .لا يمكن أن يكون هذا النظام البديع وليد الصدفة .إنه يصرخ في وجه الغافل: "أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ") إبراهيم: .(10 ألا يستحق هذا المدبر الحكيم أن يُعبد وحده؟ ألا يستحق أن نتبع منهجه وحده؟

3.النظام الشمسي المسخر: "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ"

ينتقل بك من حركة الليل والنهار على الأرض، إلى أعظم آيتين كونيتين نراهما بأعيننا: الشمس والقمر. تأمل كلمة "سَخَّرَ". ما معنى التسخير؟

· القهر والإذلال للطاعة: فالشمس والقمر، على عظمهما وضخامتهما، مسخران بأمر الله، يجريان وفق قانون لا يحيدان عنه قيد أنملة .هذه الكلمة تذكرك بخاتمة الآية السابقة: "الوَاحِدُ القَهَّارُ" .إنه القهار الذي قهر الشمس والقمر وسخرهما، فكيف لا يقهر قلبك أنت ليهتدي إلى توحيده؟
· الدقة المتناهية: "كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى".
· الأجل المسمى: هو يوم القيامة، حين تكوّر الشمس، ويخسف القمر .وهذا فيه تذكير بأن هذا النظام العظيم الذي تراه له نهاية، فلا تغتر بزخرف الدنيا.
· الدقة في المسارات: إن جريان الشمس والقمر في أفلاكهما بحساب دقيق، يجعل الحياة على الأ رض ممكنة .فلو اقتربت الشمس قليلا ً لاحترقنا، ولو ابتعدت قليلا ً لتجمدنا .إن هذا التسخير الدقيق هو رحمة بنا .ألا ترى كيف أن الله يذكرنا بهذه النعم العظيمة لنشكره؟

4.التعقيب الإلهي البديع: "أَلَا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ"

هنا مكمن الروعة! بعد كل هذه الآيات الكونية التي تظهر قدرة الله القاهرة وعظمته المطلقة، ما هو التعقيب الذي تختم به الآية؟ "أَلَا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ". تأمل هذا المزج البديع بين اسمين:

· العَزِيزُ: القوي الغالب الذي لا يُعجزه شيء .وهذا ظاهر جدًا من خلال خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر.
· الغَفَّارُ: كثير المغفرة للعباد المذنبين التوابين.

ما العلاقة بينهما؟ ولماذا جاء "الغفار" هنا في سياق إظهار القدرة الكونية؟
إنه الترغيب بعد الترهيب، والوعد بعد إقامة الحجة. كأن الله سبحانه يقول لك: "أنا العزيز الذي لا يعجزه شيء، القهار الذي دانت له الكائنات. ومع هذه العزة والقدرة المطلقة، فأنا الغفار لمن تاب وأناب. فمهما كانت ذنوبك، ومهما كنت بعيدًا عن الحق الذي أظهرته لك هذه الآيات الكونية، فباب المغفرة مفتوح. عد إليّ، وأخلص لي الدين، أكن لك غفارًا".

اللمسة البيانية والتربوية:

· اقتران "الغفار" بـ "العزيز" يعطيك طمأنينة عجيبة .فمغفرته صادرة عن عزة وقدرة، لا عن ضعف أو عجز .إنه يعفو عنك وهو قادر على عقابك.
· إنه يوجه لك رسالة نفسية عميقة: لا تيأس من رحمة الله .فكما أنه قادر على تسيير هذه الأفلاك العظيمة، هو قادر على أن يغفر لك ويمحو ذنوبك ويبدلك بها حسنات.
· إنه يربيك على الخوف والرجاء معًا .الخوف من عزة الجبار الذي خلق هذه العوالم، والرجاء في غفران الغفار الرحيم.

ثانياً: أهمية هذا الأسلوب في التخاطب والبناء الحضاري

لقد استخدم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أسلوبًا فريدًا في التخاطب، وهو الاستشهاد بالآيات الكونية المشهودة لإثبات الآيات المسموعة. لماذا هذا الأسلوب مهم؟

.1مخاطبة الفطرة الإنسانية مباشرة: كل إنسان، بغض النظر عن لغته أو دينه أو ثقافته، يرى الشمس والقمر، ويعيش الليل والنهار .هذه لغة عالمية مشتركة .فالله يستخدم هذه اللغة ليقول: "إن كنتم في شك من صدق الوحي الذي أنزلته) الآيات المسموعة(، فانظروا في هذا الوحي المنظور) الآيات الكونية(، فإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على أن الخالق واحد، وأنه حكيم، وأنه قادر على البعث".
.2التربية على التأمل والتفكر: هذا الأسلوب يربي في المؤمن عادة النظر في ملكوت السموات والأرض .إنه يجعلك تعيش في حالة اتصال دائم بالله من خلال الكون .فكلما رأيت غروب الشمس أو بزوغ الفجر، تذكرت "يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ"، وكلما رأيت القمر بازغًا، تذكرت "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" . بهذا تتحول حياتك إلى عبادة مستمرة.
.3أساس للبناء الحضاري والعلمي: إن توجيه الأنظار إلى الكون وظواهره هو المحرك الأول للبحث العلمي في الحضارة الإسلامية .لماذا؟ لأن المؤمن يعلم أن دراسة هذا الكون هي دراسة لآيات الله، وهي عبادة .فالكون لم يعد مجرد مادة صماء، بل أصبح كتابًا مفتوحًا يدعو إلى المعرفة .والحضارة التي تقوم على هذا التصور، هي حضارة تجمع بين الإيمان والعلم، وبين الروح والمادة.

ثالثاً: مفاهيم الآية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع

كيف تساهم هذه المفاهيم في البناء؟

.1غرس عقيدة التوحيد: الآية تزرع في القلب اليقين بأن الخالق والمدبر لهذا الكون هو الله وحده . وبما أنه وحده الخالق المدبر، فهو وحده المستحق للعبادة والتشريع .وهذا هو الأساس الذي يبنى عليه الإنسان السوي والمجتمع الراشد.
.2التربية على الانسجام مع حركة الكون: لاحظت كيف أن الكون يتحرك بنظام دقيق) تكوير، تسخير، جريان(؟ هذه الحركة المنظمة هي إيحاء للإنسان بأن ينظم حياته وفق منهج الله .إنزال المنهج الرباني) القرآن (جاء ليحقق الانسجام بين حركة الإنسان وحركة الكون .فكما أن الشمس والقمر لا يتخلفان عن أمر الله، ينبغي أن يكون المؤمن كذلك.
.3الشعور بالمسؤولية: عندما تدرك أن الكون خُلق "بِالْحَقِّ"، وأن له "أَجَلًا مُسَمًّى"، فإنك تشعر أن حياتك أنت أيضًا لها أجل مسمى، وأنك مسؤول عن وقتك وعملك .هذا الشعور يدفعك إلى الإتقان و الجد والاجتهاد، ويصرفك عن العبث واللهو.
.4الأمن النفسي والاجتماعي: استشعار أن الله هو "الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ" يملأ قلبك بالأمن .العزة تجعلك واثقًا من نصره، فلا تخاف قوة معادية .والغفران يجعلك واثقًا من رحمته، فلا تيأس من ذنب أذنبته .هذا المجتمع الذي يتربى على هذه المعاني، هو مجتمع قوي في عزته، رحيم في تعامله مع المخطئين.

رابعاً: تطبيقات عملية من الآية في حياتنا

.1تعظيم الله في قلوبنا: كلما نظرت إلى السماء أو الأرض، تذكر قوله: "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ" .قل في نفسك: "هذا خلق الله، فأين ما تدعون من دونه؟" .إنها طريقة عملية لزيادة الإيمان وتجديد التوحيد يوميًا.
.2التفكر عبادة: اجعل لك وقتًا تتأمل فيه في الكون .انظر إلى الغروب والشروق، وتأمل في حركة الشمس والقمر .هذا ليس ترفًا فكريًا، بل هو عبادة عقلية وقلبية أمرنا بها الله.
.3التوبة والرجاء: كلما شعرت بثقل الذنوب، اقرأ هذه الآية وتذكر قوله: "أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ" .إنها تفتح لك باب الأمل .عد إلى الله، فهو الغفار الذي يغفر الذنوب جميعًا.
.4في دعوة الآخرين: استخدم أسلوب الآيات الكونية في حوارك .قل لمن يشك في وجود الله: "انظر

إلى هذا الكون العظيم، إلى هذا النظام الدقيق، أيمكن أن يكون كل هذا بلا خالق حكيم؟" .هذا أسلوب قرآني مجرب ومؤثر.

ختامًا، أيها القارئ الحبيب، إن هذه الآية هي دعوة مفتوحة لك لتقرأ كتاب الكون وكتاب الوحي معًا. إنها تريدك أن توقن أن الذي نظم حركة الأفلاك، هو الذي أنزل إليك الكتاب، وهو الذي يدعوك إلى الهدى. فاستجب لهذه الدعوة، وانسجم مع الحق في الكون والمنهج، تكن من عباد الله المخلصين. واعلم أنك متى ما زللت أو أخطأت، فإن باب "الغفار" مفتوح لا يُغلق، فبادر إليه بالتوبة والإنابة.

ثانيا

أيها المتدبر الكريم، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. هأنذا معك مرة أخرى نواصل رحلتنا الإيمانية مع سورة الإخلاص الكبرى، سورة الزمر. لقد وقفنا معًا في الآيات السابقة على بناء متكامل: من إثبات مصدرية الوحي (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)، إلى الغاية من إنزاله (فاعبد الله مخلصًا له الدين)، إلى بيان قبح الشرك وافتراء الولد والشفعاء، ثم إلى الاستدلال بالآيات الكونية في السماء والأ رض. والآن، وقد رأيت آيات الله في الآفاق، تدعوك الآية السادسة إلى رحلة أعمق وأقرب، رحلة إلى داخل نفسك. إنها تدعوك لتقرأ كتاب الله في الأنفس، لتصل من خلال هذا التأمل إلى اليقين الجازم بأنه لا إله إلا هو.

اسمح لي أن أصحبك في هذا التأمل العميق لقول الله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾] الزمر:[6

مقدمة: الربط بين الآية السادسة وما سبقها

أيها المؤمن، تأمل معي هذا التسلسل البديع. بعد أن عرض الله عليك الآيات الكونية الكبرى في السماء (الشمس والقمر والليل والنهار) في الآية الخامسة، والتي يراها كل إنسان، ينتقل بك في الآية السادسة إلى آيات أقرب إليك من حبل الوريد. إنها آيات في خلقك أنت. كأنه سبحانه يقول لك: "إن كنت في شك من وحدانيتي وقدرتي بعد ما رأيت من آياتي في الآفاق، فانظر في نفسك. ألم نخلقك من نفس واحدة؟ ألم نصورك في بطون أمهاتك؟".

هذا الانتقال من الآفاق إلى الأنفس هو من أبلغ أساليب القرآن في مخاطبة العقل والوجدان معًا. إنه حوار عقلي منطقي، يدعو الإنسان ليكون شاهدًا على نفسه. فلا يحتاج إلى مختبر ولا إلى تلسكوب، بل يحتاج فقط إلى أن يخلو بنفسه ويتأمل: كيف كان؟ وكيف صار؟ إن هذه الرحلة من العدم إلى الوجود هي أكبر دليل على قدرة الخالق ووحدانيته ورعايته. وكلما تعمق الإنسان في هذه الآيات الأ نفسية، ازداد يقينًا وإيمانًا، وازداد استنكارًا لمن ينحرف عن هذا الخالق العظيم فيعبد غيره أو يجحد نعمه.

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - رحلة إلى أعماق النفس البشرية

دعنا نقف عند كل مشهد من مشاهد الخلق التي تعرضها الآية، ونستلهم منها الدروس والعبر:

الأمر الأول: مشهد البداية العظمى "خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا"

أ. دلالة الابتداء بذكر الخلق من "نفس واحدة":
تبدأ الآية بتذكير الإنسان بأصله: "خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ". هذه "النفس الواحدة" هي آدم عليه السلام، أبو البشر. ما الرسالة التي يريد الله أن يزرعها في عقلك وقلبك من هذا التذكير؟

· إثبات الوحدانية والقدرة المطلقة: خلق هذه المليارات من البشر، بكل أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، من أصل واحد هو آدم، الذي خلقه الله من تراب ثم نفخ فيه من روحه .هذا التنوع المذهل المنبثق من وحدة الأصل هو أعظم دليل على قدرة الخالق المبدع .إنه القادر على أن يخلق من العدم، ومن الشيء الواحد يخلق أضدادًا وأصنافًا لا حصر لها.
· تقرير مبدأ المساواة الإنسانية: بما أن أصل البشرية واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .هذه الحقيقة تقضي على أوهام العنصرية والطبقية، وتجعل الناس سواسية كأسنان المشط .إنها رسالة تربوية عظيمة: أنت أيها الإنسان، مهما بلغت من جاه أو مال، أصلك كأصل أفقر الناس، فتواضع لله ولخلقه.

· الرد على المشركين الذين جعلوا لله بنين وبنات: كيف يكون له ولد من خلقه، وهو الذي خلقهم جميعًا من نفس واحدة؟ إن الخالق هو غير المخلوق، والواحد الذي خلق كل شيء لا يمكن أن يكون له من جنس ما خلق.

ب. "ثمّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا": رعاية وحكمة بالغتان
ثم يضيف سبحانه: "ثمّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا". أي خلق حواء من ضلع آدم. وهنا تتجلى عناية الله وحكمته في أدق التفاصيل:

· تحقيق السكن والمودة: لم يترك الله آدم وحده، بل جعل له زوجًا من جنسه ليسكن إليها .قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً") الروم: .(21هذا الجعل هو لحكمة عظيمة وهي استمرار النوع الإنساني واستقرار الحياة بالأسرة.
· تنظيم التناسل والارتقاء عن البهيمية: جعل الله التناسل عن طريق النكاح الشرعي الذي فيه مودة ورحمة وقوام للنوع .وهذا بخلاف الحيوانات التي ليس لها ضابط إلا إفراغ الشهوة .فالله برعايته للإ نسان، شرع له نظام الأسرة ليكون التكاثر في إطار من العفة والكرامة والمسؤولية، وليتربى النشء في أحضان أسرة مستقرة .أليس هذا من دلائل حماية الله ورعايته لهذا المخلوق المكرم؟

الأمر الثاني: تسخير الأنعام - نعمة تستوجب الشكر "وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ"

بعد أن ذكر أصل خلق الإنسان، يذكره بنعمة أخرى مسخرة له: الأنعام. وتأمل دقة التعبير "وَأَنزَلَ". لماذا "أنزل"؟

· الإشارة إلى المصدر الإلهي: كل النعم من عند الله، فهي تنزل من عنده تدبيرًا وتقديرًا .وكما أنزل المطر من السماء لإحياء الأرض لتنبت المرعى، أنزل الأنعام لمنفعتكم.
· التذكير بالرزق المقدر: "أنزل" بمعنى قدّر وخلق وأعطى.

أما "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" فهي إشارة إلى ما فصله الله في سورة الأنعام: "مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ... وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ" (الأنعام: 143-144). فهذه الأنعام الأربعة، في كل منها ذكر وأنثى (زوجان)، فالمجموع ثمانية.

دلالة ذكر هذا التسخير هنا:

· إظهار تمام القدرة وكمال النعمة: لقد خلق الله هذه الأنعام قوية، ومع ذلك سخرها للإنسان الضعيف نسبيًا .الجمل الضخم تقوده أنت بزمام، والبقرة تحلبها بيدك .هذا التسخير ليس بقوتك، بل هو منة من الله .قال تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(72) ") يس.(
· توجيه العقل للشكر: هذه النعمة الملموسة التي تنتفع بها كل يوم) في طعامك ولباسك وشرابك ومركبك (تستوجب منك شكر المنعم .والشكر لا يكون باللسان فقط، بل بالانقياد لأمره واجتناب نهيه . فكيف يشكر من يشرك به ويعبد غيره؟ إنه جحود للنعمة في أعلى صوره.

الأمر الثالث: معجزة الخلق في الظلمات الثلاث "يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ"

وهنا تصل الآية إلى ذروة الإعجاز في تذكير الإنسان بأصله القريب، بعد أصله البعيد. هذا مشهد علمي وإيماني باهر. كل واحد منا مر بهذه المرحلة.

أ. ما هي "الظلمات الثلاث"؟
هذا التعبير القرآني الدقيق قد كشف العلم الحديث عن سره. إنها:

.1ظلمة البطن) جدار الرحم.(
.2ظلمة المشيمة) الكيس الذي يغلف الجنين ويحميه.(
.3ظلمة الغشاء السلوي) الغشاء الرقيق الذي يسبح فيه الجنين.(

ب. اللمسة البيانية والإعجاز العلمي:
تأمل كيف أن القرآن يعبر عن هذه الأغشية بـ "ظلمات". فهي بالفعل حجب متتالية تمنع وصول الضوء إلى الجنين. كيف عرف النبي الأمي ﷺ هذه التفاصيل الدقيقة قبل 1400 عام؟ إنه تنزيل من

خالق هذه الأرحام، من العليم الخبير.

· بيان القدرة والرعاية والحماية: هذه "الظلمات" ليست سجنًا، بل هي حضن دافئ آمن، ومختبر رباني للنمو .إنها تمثل أقصى درجات الرعاية والحماية لهذا الكائن الضعيف .فهو في بطن أمه في أمان، يتغذى وينمو في ظل هذه الحجب التي تقيه الصدمات وتوفر له البيئة المثالية .أليست هذه الرعاية من الله توجب الإيمان به وحده؟

ج. "خَلقًا مِّن بَعْدِ خَلقٍ": أطوار الجنين
هذا الوصف المعجز يشير إلى تطور الجنين في أطوار متعاقبة: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم كسوة العظام لحمًا. كل طور هو "خلق" جديد يضاف إلى ما قبله. إنه ليس مجرد نمو، بل هو إعادة تشكيل وبناء مستمر. من الذي يقلب هذا الجنين في هذه الأطوار وهو في تلك الظلمات؟ إنه الله، أَحْسَنُ الخَالِقِينَ. فهل بعد هذا البيان يليق بالإنسان أن يعبد غير هذا الإله القادر الرحيم؟

الأمر الرابع: النتيجة المنطقية الحتمية "ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ"

بعد هذا العرض العقلي والوجداني المذهل، يأتي التعقيب الإلهي الحاسم، ليقرر النتائج المنطقية التي يجب أن تصل إليها. انظر إلى قوة التسلسل:

· "ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ": اسم الإشارة "ذلكم" يفيد البعد والعظمة .كأنه يقول: "هذا الذي فعل هذه الأفعال العظيمة، من خلقكم من نفس واحدة، وتسخير الأنعام، وتصويركم في الظلمات ...هو الله المعبود بحق، وربكم الذي تعرفون ربوبيته ولا تنكرونها".
· "لَهُ الْمُلْكُ": أي له التصرف المطلق في كل شيء .فكما أنه المالك لذواتكم وأرزاقكم وأرحام أمهاتكم، فهو المالك للكون كله .لا يشاركه في هذا الملك أحد.
· "لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ": وهذا هو الإعلان الصريح .إذا كان هو الخالق المالك المتصرف، فهو وحده المستحق للعبادة .لا يجوز أن يُصرف له شيء من العبادة لغيره.
· "فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ": وهو السؤال الذي يزلزل العقل والوجدان ."فَأَنَّىٰ" استفهام للتعجب والإنكار .كيف؟ من أين؟ بأي منطق؟ بأي عقل؟ "تُصْرَفُونَ" عن عبادته وحده، إلى عبادة الأصنام والأهواء والبشر؟! بعد كل هذه الأدلة الساطعة في الأنفس والآفاق، أين يذهب العقل؟ إنه استنكار لحال من انحرف عن هذا الطريق الواضح.

ثانيا: أهمية هذا الأسلوب في مخاطبة العقل وبناء القناعة

لقد رأينا كيف أن الآية لم تسرد الحقائق سردًا، بل سارت في حوار عقلي منطقي مع الإنسان:

.1الاستدلال بالأنفس) دليل الفطرة(: بدأ الله بأقرب شيء للإنسان، وهو نفسه .كيف خُلق؟ من أين أتى؟ هذا الأسلوب يجعل الإنسان شاهدًا على نفسه، فلا يستطيع الإنكار .إنه يوقظ العقل ويدفعه للتفكير.
.2الترتيب المنطقي للأدلة: بدأ بالأصل البعيد) آدم وحواء(، ثم انتقل إلى النعم المشاهدة) الأنعام(، ثم إلى الأصل القريب) خلق الإنسان في بطن أمه .(ثم بعد هذا السرد، رتب النتيجة المنطقية: "ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ" .هذا البناء المنطقي المتدرج يبني القناعة التامة في نفس السامع.
.3تحرير العقل من التقليد الأعمى: الآية توجه لك سؤالا ً مباشرًا: "فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ" .إنها لا تريدك أن تكون تابعًا لما عليه آباؤك أو مجتمعك، بل تريدك أن تستخدم عقلك الذي وهبك الله، وتصل بنفسك إلى الحقيقة .هذه هي الحرية الفكرية الحقيقية.

ثالثا: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· التأمل الذاتي عبادة: تخصيص وقت للتفكر في خلق الله للإنسان، وكيف كان نطفة ثم صار إنسانًا سويًا، يقوي الإيمان ويجدد التوحيد.
· شكر النعم بالعمل: إدراك نعمة تسخير الأنعام يدفعك لاستعمالها في طاعة الله، وعدم الإسراف أو التبذير فيها.
· احترام كرامة الإنسان: العلم بأن أصل البشر واحد يورث التواضع وحسن التعامل مع الآخرين، ونبذ

العنصرية.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: الشعور بالقيمة والكرامة: عندما تعلم أن الله خلقك في أطوار، وسخر لك الأنعام، وأنت في بطن أمك في حماية، تشعر بقيمتك عند الله، وأنك لست شيئًا تافهًا .هذا يعالج مشاعر الدونية والقلق الوجودي.
· تربويًا: غرس قيمة العفة والحياء: تذكير الإنسان بخلقه في الظلمات يورثه الحياء من الله .كيف يعصي من خلقه وصوره في أحسن تقويم؟ كيف يتكبر من أصله نطفة؟ هذا يهذب السلوك.
· سلوكيًا: الالتزام بالضوابط الأسرية: الإشارة إلى جعل الزوج من النفس الواحدة تربي في الإنسان احترام رباط الزوجية، ورفض العلاقات المحرمة التي تخل بالنظام الفطري.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الوجودي: تحدد الآية موقع الإنسان في الكون .فهو مخلوق مكرم، أصله من طين ونفخة روح، ثم هو في أطوار خلق متعاقبة، مما يجعله يشعر باتصاله بالماضي) آدم (وبالحاضر) أمه (وبالمستقبل)ذريته.(
· آفاق العلم والمعرفة: هذه الآية كانت ولا تزال دافعًا للبحث العلمي في علم الأجنة والتشريح .ف المسلم مدعو للبحث في هذه الأطوار ليزداد إيمانًا.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة التواضع: لمعرفة الأصل) نفس واحدة، ثم نطفة.(
· قيمة الشكر: على نعمة الخلق والتسخير والرعاية.
· قيمة العقل والتفكر: فالله خاطب العقل ودعاه للنظر.
· قيمة التوحيد: فهو النتيجة المنطقية لكل هذه الآيات.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

· بناء إنسان متوازن: من يعرف أنه خلق في ظلمات ثلاث ويحيا تحت رعاية الله، يتربى على الخشية والرجاء والتواضع والعزة بالله .هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.
· بناء أسرة مستقرة: الإيمان بأن الزوجين من نفس واحدة، وأن التناسل بنظام النكاح هو آية من آيات الله، يبني أسرة قوية قوامها المودة والرحمة، وهي نواة المجتمع الحضاري.
· بناء حضارة إنسانية أخلاقية: نفي العنصرية) من نفس واحدة (وترسيخ مبدأ الكرامة الإنسانية، مع دعوة العقل للتفكر، يصنع حضارة منفتحة على العلم، قائمة على الأخلاق، متوازنة مع الفطرة .أما الحضارة التي تقوم على العنصرية أو الإلحاد، فهي حضارة مادية جافة، تفقد روحها الإنسانية.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على التفكر في الأنفس: "وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ") الذاريات: .(21 جعل التفكر في خلق الإنسان منهجًا تربويًا.
.٢التربية على الشكر العملي: بربط النعم) الأنعام (بعبادة المنعم.
.٣التربية على العفة والحياء: بتذكير الإنسان بأصله ومراحل خلقه.
.٤التربية على التواضع ونبذ الكبر: فمن أين يأتي الكبر وأصل الإنسان من تراب ونطفة؟

الموضوع الرابع: تطبيق مفاهيم الآية في حياتنا العملية

.1عندما تنظر في المرآة: تذكر قوله "خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ" .قل: "سبحان الله الذي صورني فأحسن صورتي .لا أعبد إلا من خلقني".
.2عندما ترى أسرتك: تذكر أن زوجتك منك وإليك، وأن الله جعل بينكما مودة ورحمة .هذا يجدد عهدك بالمسؤولية الأسرية.
.3عندما تأكل أو تشرب من منتجات الأنعام: تذكر قوله "وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" .لا تأكل بنهم ونسيان، بل كل بشكر، وتذكر أن الله سخرها لك.
.4في حوارك مع الآخرين: إذا وجدت منحرفًا عن التوحيد، اسلك معه طريق القرآن .قل له: "أليس عجيبًا أن تعترف بأن الله خلقك، ثم تعبد غيره؟ كيف انصرفت عن خالقك؟".

ختامًا، أيها القارئ الحبيب، إن هذه الآية هي رحلة في أعماقك. إنها تريد أن تعيدك إلى فطرتك الأ ولى، وتغسل عن عينيك غبار الغفلة، لتُبصر الحق واضحًا جليًا. "ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم"... لا إله غيره، ولا رب سواه. فلا تنصرف عنه، وكن من زمرة الناجين الذين عرفوا ربهم بأدلته، فأخلصوا له الدين.

ثالثا

أيها المتدبر الكريم، لقد رافقناك في رحلة إيمانية بديعة مع سورة الزمر، رأينا فيها كيف أسست السورة لقضية التوحيد، من تقرير مصدرية الوحي، إلى الأمر بإخلاص الدين لله، إلى بيان فساد دعوى الولد والشفعاء، ثم إلى الاستدلال بآيات الله في الآفاق والأنفس. لقد رأيتَ عظمة الخالق في السماوات والأرض، وفي أعماق نفسك. والآن، وقد أُقيمت عليك الحجة، وانكشف لك الحق، تأتي الآية السابعة لتخاطب وعيك وضميرك مباشرة، لتضعك أمام خيار مصيري، وتجيب عن سؤال قد يختلج في صدرك: ماذا لو أصررت على الكفر والجحود بعد كل هذه الآيات؟ هل يضر ذلك الله شيئًا؟ وما هو الطريق الذي يرضاه لي؟

إنها آية تفيض بالرحمة والحكمة والتربية، وتخاطب العقل والوجدان والسلوك في آن واحد. دعنا نقف معها بتدبر، لنرى كيف توجه لنا رسائلها الخالدة.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾]الزمر:[7

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - حوار مع الوعي الإنساني

لنحلل هذه الآية الكريمة مقطعًا مقطعًا، ونستخرج كنوزها:

الأمر الأول: "إن تكفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ" - درس في الوعي والفقر إلى الله

تبدأ الآية بحقيقة صادمة للمتكبرين: "إن تكفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ". إنها بمثابة صفعة على عقل الغافل وقلب المستكبر.

أ. دلالة التعبير ومعناه:

· "إن تكفُرُوا": الكفر هنا ليس مجرد إنكار وجود الله، بل يشمل جحود نعمه، ورفض توحيده، والإ عراض عن منهجه، وعدم الاستعانة به، كما فعل المشركون الذين عبدوا الأصنام وزعموا لها الشفاعة . إنه رفض للتوحيد بكل صوره.
· "فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ": أي أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى إيمانكم ولا إلى عبادتكم .فهو الغني المطلق بذاته، الذي لم تزده طاعة الطائعين شيئًا، ولم تنقصه معصية العاصين شيئًا .هو الغني عن العالمين قبل خلقهم وبعد خلقهم.

ب. الرسالة التربوية والنفسية: إيقاظ الوعي وإدراك الفقر الذاتي:
هنا جوهر الرسالة! الله يخاطب وعيك أيها الإنسان. إنه يريد أن ينتشلك من وهم الكبرياء والاستغناء، ويوقظ فيك حقيقة فقرك المطلق إليه سبحانه.

· من هو المحتاج حقًا؟: تأمل معي: أنت تعيش في ملك الله، تتنفس من هوائه، تشرب من مائه، تأكل من رزقه، وتتحرك بقدرته .أنت محاط برعايته وحمايته في كل لحظة، كما رأيت في خلقك في الظلمات الثلاث .فإذا كفرت به وجحدت نعمته، فمن الخاسر؟! هل هو الله الغني الحميد؟ أم أنت أيها الفقير المحتاج؟! إنك أنت الذي تخسر رعايته وحمايته وهدايته، فتعيش في ضنك وتشقى في الدنيا والآخرة.
· مثال تقريبي: تخيل معي أنك في سفينة في عرض البحر، وقبطان السفينة هو الذي يملكها ويملك كل ما فيها من طعام وشراب وأدوات نجاة .هو الذي يحميها من الغرق ويدير دفتها .ثم يأتي أحد الركاب فيقول: "أنا لا أعترف بقبطانك، ولن ألتزم بتعليماته" .هل هذا يضر القبطان شيئًا؟ كلا، القبطان يملك السفينة وسيصل بها إلى بر الأمان بمن أطاعه .أما هذا الراكب المتمرد، فإنه هو الذي يخاطر بنفسه، وقد يلقي بها في البحر فيهلك .هذا هو حال الكافر مع الله .فالله هو مالك الملك، وأنت الراكب الفقير إلى عنايته.

الفرق بين المؤمن والكافر هو "الوعي" بهذه الحقيقة:

· المؤمن يعيش بوعي كامل بأنه عبد فقير إلى الله، يعيش في رحمته وبرعايته، فيشكره ويطيعه، ويثمر هذا الوعي سكينة وطمأنينة في قلبه.
· الكافر يعيش في نفس النعم، لكنه فاقد للوعي، كالأنعام التي تأكل وتشرب ولا تدري من خالقها ومسخرها لها .إنه يعيش في غفلة، وقد ينزل إلى مرتبة أدنى من الحيوان، لأن الحيوان مسخر لله بطبعه، أما الإنسان فقد رفض الهداية باختياره .قال تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ") الأعراف:.(179

الأمر الثاني: "وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ" - محبة الله ورضاه

بعد أن بيّن غناه المطلق عن عباده، ينتقل الخطاب إلى جانب الرحمة والمحبة الإلهية، فيقول: "وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ". هذا المقطع يفيض بالعطاء التربوي.

أ. لماذا لا يرضى الله الكفر وهو غني عنا؟
إنه لا يرضى الكفر لعباده رحمة بهم وشفقة عليهم. لأنه يعلم أن الكفر سبب شقائهم وتعاستهم وهلا كهم في الدنيا والآخرة. فكما أن الطبيب لا يرضى لمرضاه أن يهملوا علاجهم، وكما أن الأب لا يرضى لابنه أن يلقي بنفسه في المهالك، فالله سبحانه أولى بذلك. حبه لعباده يقتضي أن يرشدهم لما فيه صلاحهم. هذه الآية ترد على مزاعم المشركين الذين قالوا: "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر: 3)، فكأن الله يقول لهم: كذبتم! أنا لا أرضى لكم الكفر، فكيف آمركم به أو أجعله وسيلة للتقرب إليّ؟! إن الكفر جريمة يبغضها الله، ولا يمكن أن يأمر بها.

ب. علاقة الحب والبغض في الله:
هذا المقطع يعلمنا قاعدة عظيمة في التربية الإيمانية: الولاء والبراء. علينا أن نوافق حبنا وبغضنا لما يحبه الله ويبغضه.

· نحن مأمورون أن نكره الكفر وأهله: لأن الله يكره الكفر.
· نحن مأمورون أن نحب الإيمان وأهله: لأن الله يحب الإيمان.

كيف نربي أنفسنا على هذا؟

· قوة الحب) الشهوة المنضبطة(: بدل أن توجه حبك ورغبتك نحو الشهوات المحرمة والملذات العابرة، وجه هذا الحب نحو الله وما يحبه .أحب الصدق، أحب العدل، أحب الطاعة، لأن فيها رضا الله .هذا هو الحب الواعي الذي يثمر سعادة حقيقية.
· قوة الغضب والكراهية) البغض المنضبط(: بدل أن تغضب لأتفه الأسباب، وجه كراهيتك وبغضك نحو الكفر والفسوق والعصيان .اكره الكذب والظلم والخيانة، لأن الله يكرهها .هذا البغض الواعي هو حماية لك من الوقوع فيما يغضب الله.

الأمر الثالث: "وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ" - دعوة إلى الشكر والفلاح

في مقابل الكفر، يضع الله البديل الذي يرضاه لنا: "الشكر". "وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ". الشكر هنا ليس مجرد كلمة باللسان، بل هو منهج حياة كامل.

ما هو الشكر الذي يرضاه الله؟
الشكر هو الاستجابة العملية لنعم الله. إنه أن تستخدم النعمة فيما يرضي المنعم. وهذا يشمل:

.1شكر القلب: الاعتراف بأن النعمة من الله وحده، ومحبته عليها.
.2شكر اللسان: الثناء على الله وحمده.
.3شكر الجوارح: استخدام النعمة في طاعة الله .فشكر نعمة البصر أن تغضه عن الحرام، وشكر نعمة المال أن تنفقه في الحلال، وشكر نعمة العقل أن تفكر به في آيات الله.

لماذا يرضى الله الشكر؟
لأن الشكر هو طريق الفلاح والسعادة للإنسان. فالله بحكمته ورحمته، جعل الشكر سببًا للمزيد من النعم. قال تعالى: "لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ" (إبراهيم: 7). إن الله يحب لعباده أن يصلوا إلى مرتبة الكمال ا لإنساني بالإيمان والتقوى، وهذا لا يكون إلا بالشكر. فمنهجه (الدين) صادر من العزيز الحكيم، وهو

حماية لنا من الانحراف، ويتناسب مع حاجات الفطرة البشرية.

الأمر الرابع: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ" - العدالة الإلهية والمسؤولية الفردية

يقرر الله هنا مبدأً عظيمًا من مبادئ العدالة: المسؤولية الفردية. "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ". أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى. كل إنسان مسؤول عن عمله وحده.

أهمية هذا المبدأ في السياق:

· رد على أفكار الجبرية والوراثة: يريد الله أن يقطع الطريق على أي عذر .لا يمكن لأحد أن يقول يوم القيامة: "كان آباؤنا مشركين فكنا مثلهم" .هذا خطأ .كل إنسان يملك عقله ووعيه، وهو مسؤول عن اختياراته.
· تشجيع على العمل الفردي: هذا المبدأ يدفعك لتحمل مسؤوليتك كاملة .لا تعتمد على نسبك أو عائلتك، بل اعمل لآخرتك بنفسك.
· قطع لأوهام الشفعاء الباطلة: فإذا كان كل إنسان مسؤولا ً عن عمله، فلا ينفع شفاعة الشافعين إلا بإذن الله لمن ارتضى، وليس لأحد أن يحمل عنك ذنبك.

مثال تقريبي: في الامتحان، كل طالب يجلس وحده ويجيب عن أسئلته. لا يمكن لطالب ناجح أن يعطي إجاباته لطالب راسب، ولا يمكن أن يُعاقب طالب بذنب زميله. هذا هو العدل. فكيف برب العالمين، أحكم الحاكمين؟

الأمر الخامس: "ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" - تذكير بالحساب والرجوع

بعد تقرير مبدأ المسؤولية الفردية، يأتي التذكير بالرجوع إلى الله للحساب. "ثم" تفيد الترتيب الزمني بمهلة، أي أنكم بعد هذه الحياة، صائرون إلى ربكم.

الغرض من هذا التذكير:

· تربية على الشعور بالرقابة الدائمة: العلم بأنك سترجع إلى الله وسيحاسبك على أعمالك، يملأ قلبك بمراقبته في كل صغيرة وكبيرة .إنه حافز قوي على الطاعة، ورادع عن المعصية.
· بيان كمال العدل الإلهي: "فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" .الله لن يحاسبك بما لا تعلم، بل سيخبرك بعملك الذي عملته في الدنيا، وسيجازيك عليه بالعدل .هذا ينفي الظلم ويؤكد أن الجزاء من جنس العمل.

الأمر السادس: "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" - الختم بالرقابة الشاملة

تختم الآية بصفة إلهية عظيمة: "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ".

· "ذَاتِ الصُّدُورِ": هي ما تخفيه الصدور من أسرار وخواطر ونوايا، وما هو أخفى من ذلك .إنها الكنوز المدفونة في القلب التي لا يعلمها إلا الله.

العلاقة بين خاتمة الآية ومضمونها:

· تعزيز المسؤولية والرقابة: إذا كان الله عليمًا بذات الصدور، فما ظنك بالأعمال الظاهرة؟ إنه يعلم نيتك في الشكر والكفر، ويعلم إخلاصك من رياءك .هذا يحثك على إصلاح الباطن قبل الظاهر، وعلى الإخلاص التام لله.
· طمأنينة للمظلوم: إذا كان الله يعلم خفايا الصدور، فهو يعلم نية المظلوم ويعلم ظلم الظالم، وسينصفه يوم القيامة.
· ردع للظالم: تذكر أن الله يعلم ما في صدرك من خبث وكيد، فلا تظن أنك تخفي عنه شيئًا.

ثانيا: أهمية هذا الأسلوب في مخاطبة العقل وبناء القناعة

لقد استخدمت الآية أسلوبًا حواريًا رائعًا مع العقل والوجدان:

.1خطاب مباشر للوعي: "إن تكفروا ...وإن تشكروا" .هي تخاطب قدرتك على الاختيار، وتجعلك مسؤو لا ً عنه .إنها تقول لك: كن واعيًا، فأنت حر في اختيارك، لكنك مسؤول عن عاقبته.

.2الجمع بين الترهيب والترغيب: عرضت الآية عاقبة الكفر) الخسران لأن الله غني عنك(، وعاقبة الشكر) رضا الله(، ليكون الإنسان على بينة من أمره.
.3البناء المنطقي: بدأت ببيان غنى الله) إبطال وهم أن الإيمان ينفع الله(، ثم بينت رحمته) أنه لا يرضى الكفر لعباده(، ثم وضعت البديل) الشكر(، ثم قررت مبدأ العدالة، ثم ذكرت بالرجوع والحساب، ثم ختمت بالإحاطة بخفايا النفوس .إنه بناء محكم يخاطب العقل خطوة بخطوة ليصل إلى النتيجة الحتمية: لا مفر من الله إلا إليه.

ثالثاً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· مراجعة النوايا: قبل أي عمل، تذكر "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" .اسأل نفسك: هل أنا مخلص في هذا العمل لله أم لا؟
· تحويل الحياة اليومية إلى شكر: اجعل من عملك ودراستك وأكلك وشربك عبادة، بأن تستحضر نية الشكر لله.
· عدم الاعتماد على نسب أو شفاعة باطلة: اعتمد على عملك الصالح، فلا أحد يحمل عنك وزرك.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: التحرر من الخوف والقلق: عندما تدرك أن الله غني عنك، وأن عبادتك له هي حاجتك أنت، تتحرر من عبودية المخلوقين، ومن القلق على الرزق، فترتبط بالغني المطلق.
· تربويًا: ضبط قوى النفس الثلاث) العقل، الشهوة، الغضب(:
· العقل: يضبط بتوحيد الله ومعرفته حق المعرفة.
· الشهوة) الحب(: توجه نحو ما يحب الله) الشكر والطاعة.(
· الغضب) البغض(: يوجه نحو ما يبغضه الله) الكفر والمعاصي.(
· وهذا هو الاعتدال والوسطية التي تمنع الإنسان من التطرف أو الانحلال.
· سلوكيًا: الورع عن المحرمات: استشعار رقابة الله على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يجعلك تترك المحرمات في الخلوات كما في الجلوات.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: بناء الشخصية المسؤولة الواعية.
· البعد الاجتماعي: إقرار العدالة الاجتماعية على أساس المسؤولية الفردية، فلا يؤخذ أحد بجريرة أحد.
· البعد الإيماني: تحقيق التوحيد الخالص، والوصول إلى مرتبة الإحسان) أن تعبد الله كأنك تراه.(

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة الوعي والفقه عن الله.
· قيمة الشكر كمنهج حياة.
· قيمة المسؤولية الفردية.
· قيمة الإخلاص ومراقبة الله.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

· بناء إنسان واعٍ ومتحرر: الإنسان الذي يعي أنه فقير إلى الله، يتحرر من الخوف والفقر والجهل، ويكون عنصرًا فاعلا ً في المجتمع.
· بناء مجتمع عادل: تطبيق مبدأ "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ" في القوانين والأحكام يبني مجتمع العدالة والإنصاف، حيث يعاقب المجرم ولا يؤخذ الأبرياء بجريرته.
· بناء حضارة الشكر والعطاء: مجتمع يقوم أفراده على شكر المنعم وإخلاص العمل، ينتج حضارة راقية، قوامها الإتقان والإحسان.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على الوعي والفقه: إدراك حقيقة العبودية والفقر إلى الله.
.٢التربية على الحب والبغض في الله: ضبط العواطف وفق الميزان الشرعي.
.٣التربية على المسؤولية الفردية: تحمل تبعات الاختيار.
.٤التربية على المراقبة الذاتية: استشعار علم الله بذات الصدور.

الموضوع الرابع: كيف نعيش هذه الآية وكيف نطبقها في واقعنا؟

.1في كل صباح ومساء: جدد وعيك بأنك في ملك الله، وأنه غني عنك وأنت فقير إليه .قل بقلبك: " اللهم إني أعوذ بك أن أكون من الغافلين الذين لا يشكرون نعمتك".
.2في معاملاتك اليومية: عند أداء عملك، تذكر أن الله لا يرضى الكفر ولا الظلم .كن عادلا ً، واكره الظلم بقلبك ويدك .هذا هو تطبيق لـ "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ".
.3عندما تغضب: وجّه غضبك لله .إذا رأيت منكرًا، اغضب له لأن الله يبغضه، لا لأن مصلحتك الشخصية تضررت .هذا هو الحب والبغض في الله.
.4في خلواتك: تذكر أن الله "عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" .راقب قلبك وخواطرك .حاول أن تكون سريرتك كعلانيتك، بل أحسن .فهذا هو الإحسان.
.5في التربية: عند تربية الأبناء، لا تقل لهم: "افعل كذا وإلا عاقبتك الناس" .بل قل: "افعل كذا لأن الله يحبه ويأمر به" .وازرع فيهم مراقبة الله في السر والعلن.

ختامًا، أيها المؤمن الواعي، إن هذه الآية هي دستور للحياة القلبية والعملية. إنها تريد منك أن ترتقي من مرتبة الإنسان الغافل الذي يعيش كالأنعام، إلى مرتبة الإنسان الواعي الذي يعرف ربه، فيشكره ويحبه، ويعرف نفسه، فيعلم فقره إلى ربه. وهذا هو عين الفلاح والنجاة.

القسم الثالث

اولا

بعد تجولنا في رياض سورة الزمر، ورأينا كيف بنت في أنفسنا اليقين بوحدانية الله، من خلال آياته في الآفاق والأنفس، وكيف نادت وعينا لنختار طريق الشكر لا الكفر. والآن، تأتي الآية الثامنة لتكشف لنا عن طبيعة النفس البشرية في تقلباتها بين الشدة والرخاء. إنها تضع أمامنا مرآة صادقة لنرى فيها صورتنا الحقيقية، وتوقظنا من غفلتنا قبل فوات الأوان.

إنها آية تحكي قصة إنسان يعيش بين نعماء وضراء، وتكشف عن حقيقة فطرته المدفونة تحت ركام الغفلة، وعن خطر الرخاء الذي قد يكون أشد فتنة من البلاء. دعنا نعيش مع هذه الآية الكريمة، ونتأمل في أعماقها، لنخرج منها بوعي جديد وحياة متجددة.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ الزمر:[8

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - رحلة في أعماق النفس بين الضراء والنعماء

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة وقفة متأنية، نستخرج كنوزها ودروسها.

الأمر الأول: مشهد الشدة - عودة إلى الفطرة "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ"

تبدأ الآية برسم مشهد مألوف في حياة البشر: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ".

أ. دلالة التعبير "مس" و "ضر":

· "مَسَّ": فعل يدل على اللمس الخفيف أو المس القليل .لم يقل "وإذا غمره الضر" أو "أحاط به الضر" . إنها إشارة لطيفة إلى أن الإنسان سريع التأثر والجزع، فبمجرد أن يمسه شيء من الضر) كمرض يسير، أو خوف عابر، أو ضيق في الرزق(، يتغير حاله.
· "ضُرٌّ": نكرة تفيد العموم، أي أي نوع من الضرر؛ سواء كان في البدن) مرض(، أو النفس) خوف وحزن(، أو المال) فقر وجوع(، أو الأهل) فراق أو مشكلة.(

ب. الاستجابة الفطرية: "دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ":
وهنا تتجلى الحقيقة الكبرى التي أرادت الآية أن تبرزها: أن فطرة الإنسان تتجه إلى الله وحده وقت الشدة. ما معنى هذه الاستجابة؟

· "دَعَا رَبَّهُ": لم يدع صنمًا، ولا ملكًا، ولا وليًا، بل دعا ربه مباشرة .لماذا؟ لأنه في تلك اللحظة، تنكشف الحقيقة، وتزول عن عقله غشاوة الأوهام والخرافات التي كان يعيش فيها .إنه يدرك بفطرته أن الأ صنام عاجزة ضعيفة، وأن الملائكة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، وأن لا أحد يستطيع كشف الضر إلا الله .إنها لحظة صدق مع النفس ومع الله.
· "مُنِيبًا إِلَيْهِ": الإنابة هي الرجوع والإقبال بعد الإعراض .إنه يترك ما كان عليه من الشرك والغفلة، ويعود إلى ربه بقلب خاشع مخبت، معترفًا بربوبيته وفقره وحاجته إليه .إنه يطلب الحماية والرعاية من القوي القادر وحده.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا المشهد يثبت أن التوحيد مغروز في الفطرة الإنسانية. حتى ذلك الإنسان الذي يجحد نعم الله ويكفر به في رخائه، عندما تمسه الشدة، يسقط عنه ركام الشرك والتعلق بغير الله، وتظهر فطرته السليمة متجهة إلى خالقها. وكما قال تعالى في موضع آخر: "وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ" (الإسراء: 67). إنها دعوة لنا لنستحضر هذه الفطرة في الرخاء كما هي في الشدة.

الأمر الثاني: مشهد الرخاء - خطر النسيان والجحود "ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا"

ثم يأتي المشهد الثاني الذي يكمل الصورة، ويظهر التناقض العجيب في طبيعة هذا الإنسان الجاهل:

أ. من الفقر إلى الغنى: "ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ"

· "خَوَّلَهُ": أعطاه وأنعم عليه متفضلا ً .والفعل يدل على العطاء والتولية.
· "نِعْمَةً مِّنْهُ": تأكيد على أن هذه النعمة مصدرها الله وحده، فهي منه، وليس لأحد فيها فضل.
· "ثُمَّ": تفيد التراخي الزمني .بعد أن كشف الله ضره، وأعطاه الصحة والعافية، وبسط له في الرزق ... ماذا كانت النتيجة؟

ب. جريمة النسيان والجحود: "نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ"
انظر إلى دقة التعبير: "نَسِيَ". إنه ليس مجرد سهو، بل هو نسيان متعمد وإعراض وترك. نسي لحظات الضعف والانكسار التي كان فيها منيبًا إلى الله. نسي تضرعه ودعاءه. نسي أن الله وحده هو الذي كشف ضره. وهنا تظهر خطورة الرخاء! فالرخاء قد يكون فتنة أشد من الشدة، لأنه يورث الغفلة و البطر والاستغناء.

ج. قمة الجحود: "وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ"
وبعد النسيان، يرتكب جريمة أعظم: "جَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا". ما هي الأنداد؟

· "أَندَادًا": جمع "نِدّ"، وهو المثيل والشبيه والشريك .إنه يعود إلى ما كان عليه من الشرك، فيجعل لله شركاء في العبادة) أصنامًا، أو بشرًا، أو أهواءً (يسويهم بالله في المحبة والتعظيم والدعاء، بعد أن كان في وقت الشدة يعترف بأن لا رب غيره ولا معبود سواه.
· "لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ": هنا بيان لنتيجة هذا الفعل الشنيع وهدفه .إنه بشركه وإعراضه لا يكتفي بضلال نفسه، بل يسعى لإضلال غيره عن سبيل الله وطريقه المستقيم.

الرسالة التربوية والنفسية:
الآية تحذرنا من داء عضال: الغفلة في الرخاء. الرخاء نعمة، ولكنه قد يتحول إلى نقمة إذا لم يقترن بالشكر. الإنسان خُلق جهولا ً ظلومًا، أي سريع النسيان، كثير التقلب. فعندما يغيب عنه العلم النافع (الوحي)، ويمتلئ قلبه بالغفلة، فإنه يميل إلى شهواته ونسيان ربه. وهنا تبرز أهمية العلم الذي أنزله الله على رسوله، لأنه النور الذي يهدي الإنسان في حالتي الشدة والرخاء، ويمنعه من الانحراف والزيغ.

الأمر الثالث: الوعيد الإلهي - العدالة والحكمة "قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"

هذا المقطع هو أمر من الله لنبيه ﷺ أن يقول لهذا الإنسان الجاحد، وهذا وعيد وتهديد في صورة إخبار.

أ. "قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا":

· "تمَتَّعْ": صيغة أمر، ولكنها هنا للتهكم والوعيد، وليس للإباحة .أي عش حياتك القصيرة في هذه الدنيا ، واستمتع بملذاتها وشهواتها بما رزقك الله، وأنت على كفرك.
· "قَلِيلًا": تذكير بأن متاع الدنيا -مهما طال- فهو قصير زائل، مقارنة بالعذاب الأبدي في الآخرة .إنها توقظ العقل من سكرة الغفلة: هل يستحق هذا المتاع القليل ذلك العذاب الطويل؟

ب. "إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ":
هذا هو القرار النهائي والمصير المحتوم. إنه حكم صادر من الله العليم الحكيم. وهنا تتجلى العدالة الإ لهية. هذا الإنسان الذي عرف الحق في الشدة ثم جحده في الرخاء، والذي جعل لله أندادًا وأضل عن سبيله، استحق هذا المصير. إنه لم يُظلَم، بل هو الذي ظلم نفسه.

ثانياً: دلالات إضافية ومفاهيم كلية من الآية

بعد هذا التحليل، دعنا نستعرض معًا المفاهيم الكبرى التي تؤسس لها هذه الآية الكريمة:

.١دلالة الآية على أن الإنسان مفطور على معرفة الله:

لقد أثبتت الآية بشكل قاطع أن الإنسان، مهما بلغ به الكفر والجحود، فإن في أعماق نفسه فطرة نقية تتجه إلى الله عند الشدة. هذا دليل على أن أصل المعرفة الإلهية مغروز في النفس. وهذا ما يعبر عنه العلماء بأن "الإقرار بالربوبية فطري". الكفر والشرك ليسا من الفطرة، بل هما طارئان يغطيان الفطرة بالغفلة والهوى. وهذا يفسر لماذا نجد كثيرًا من غير المسلمين في لحظات الخطر والموت يهتفون ب- "يا الله!". إنها الفطرة وهي تنطق.

.٢مفهوم الأنداد وخطورة الرخاء:

الأنداد ليست مجرد الأصنام الحجرية. كل شيء يجعل في قلبك محبة وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً كحبك لله وخوفك منه، فهو ند. قد يكون الند:

· مالاً: يتسلط على قلبك فتصبح عبدًا له.
· منصبًا: ترضى لأجله بالذل والانحراف.
· شخصًا: تقدم طاعته على طاعة الله.
· هوى: تتبع ما تهوى النفس ولو خالف أمر الله.
أما خطورة الرخاء فتكمن في أنه يحجب هذه الفطرة، ويغري الإنسان بالاستغناء والنسيان، فيظن أنه إنما أوتي المال على علم عنده، وينسى فضل الله عليه.

.٣أهمية العلم الوحي لعلاج الجهل والغفلة:

الإنسان خُلق جهولاً، أي سريع التقلب، لا يثبت على حال. وعلاج هذا الجهل ليس بالمعرفة المجردة، بل ب- العلم الذي أنزله الله وحياً على رسوله. هذا العلم:

· يُذكر الإنسان بربه في الرخاء كما في الشدة.
· يُبصّره بحقيقة الدنيا وزوالها.
· يعرفه بمكائد الشيطان ومداخل الهوى.
· يمنحه المنهج القويم الذي يضمن له النجاة.

.٤مفهوم النجاح الحقيقي كما تظهره الآية:

الآية تقلب الموازين المادية. النجاح الحقيقي ليس في كثرة المتاع في الدنيا، بل في حسن العاقبة في الآخرة. الكافر الذي يتمتع قليلاً في الدنيا هو في الحقيقة من أصحاب النار، أي من الخاسرين. والنجاح هو أن تخرج من هذه الدنيا سالمًا من الكفر والشرك، فائزًا برضوان الله وجنته. كما قال تعالى: "فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ" (آل عمران: 185). المتاع الحقيقي الباقي هو في الجنة، أما متاع الدنيا فزائل.

ثالثاً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· التعامل مع الشدائد: اجعل الشدة فرصة للتوبة والإنابة، ومراجعة علاقتك بـالله .لا تكن كالغافل الذي ينسى عند الرخاء.
· التعامل مع النعم: عند حصول نعمة، بادر بـ الشكر العملي، وتذكر أنها من الله وحده .قل كما علمنا الله: "هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي") النمل:.(40
· الدعاء في كل حال: لا تقتصر على دعاء الله في الشدة، بل ادعه في الرخاء كذلك .قال النبي ﷺ: "تعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ") رواه أحمد.(

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: تحذير من الغفلة والنسيان: الآية توقظ في النفس الخوف من داء النسيان، وتحث على دوام المراقبة والذكر.
· تربويًا: بناء الشخصية الثابتة: الشخصية التي تعبد الله في السراء والضراء، وتشكره في الرخاء كما تدعوه في الشدة، هي شخصية متزنة ثابتة، لا تغيرها الظروف.
· سلوكيًا: نبذ الأنداد: الآية تدفعك لمراجعة قلبك وتنقيته من كل تعلق بغير الله، سواء كان مالا ً أو جاهًا أو شخصًا.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: بناء إنسان صادق مع ربه، لا يتلون بتلون الأحوال.
· البعد الاجتماعي: التحذير من أن يكون الإنسان سببًا في إضلال غيره) ليضل عن سبيله .(ف المسؤولية فردية وجماعية.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة الصدق مع الله.
· قيمة الشكر في الرخاء.
· قيمة الإنابة في الشدة.
· قيمة الوعي بحقيقة الدنيا وزوالها.

الموضوع الثاني: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على استغلال الفطرة: أن تتذكر دائمًا أن ميلك إلى الله فطرة، فلا تطمسها بالغفلة و المعاصي.

.٢التربية على عدم الاغترار بالدنيا: تذكر أن متاعها قليل، وأن الباقي هو الآخرة.

.٣التربية على الدوام على الطاعة في كل حال: لا تكن عبدًا للظروف، بل كن عبدًا لله وحده.

الموضوع الثالث: كيفية تطبيق مفاهيم الآية في واقعنا العملي

.1في لحظات الشدة: عندما تمرض، أو تقلق على رزق، أو تخاف من مستقبل ...لا تلتفت إلى الأسباب المادية فقط، بل ارفع قلبك إلى الله أولا ً .قل: "يا رب، أنت أعلم بحالي، وأنت القادر على كشف ضري" .اجعلها لحظة صدق وإنابة.
.2في أوقات الرخاء والصحة: لا تنسَ أن هذه النعمة من الله .انظر إلى غيرك من المبتلين، واشكر الله على عافيته .اذكر الله في سرائك، يذكرك في ضرائك .تصدق ببعض مالك، فهذا من أعظم الشكر العملي.
.3في فحص قلبك من "الأنداد" الخفية: بين الحين والآخر، اسأل نفسك بصدق: هل هناك شيء في حياتي أخاف منه كخوفي من الله؟ هل هناك شخص أرجوه وأطلب رضاه أكثر مما أرجو الله؟ هل هناك فكرة أو مبدأ أتمسك به ولو كان مخالفًا لشرع الله؟ إن وجدت شيئًا من ذلك، فهو "ند" خفي، فطهر قلبك منه.
.4في دعوة الآخرين: عندما ترى شخصًا غافلا ً منغمسًا في الدنيا، ذكره برفق بمواقف الشدة التي مر بها، كيف كان يدعو الله فيها .قل له: "أين أنت من تلك الحال؟ ألا تحب أن يكون الله معك في

الرخاء كما كان معك في الشدة؟".

ختامًا، أيها القارئ الحبيب، إن هذه الآية هي درس عظيم في الوعي الإنساني. إنها تريد أن تنقذك من ضياع الشخصية بين حالين: حال ضراء تنيب فيها إلى الله، وحال سراء تنساه فيها وتشرك به. إنها تدعوك إلى ثبات الشخصية الإيمانية، التي تعرف ربها في كل حال، فتشكره في النعماء، وتصبر وتنيب إليه في الضراء. بهذا الثبات، تنجو من النار، وتكون من زمرة الناجين الفائزين برضوان الله وجنته.

المبحث الثاني

لقد رأيتَ في الآية السابقة صورة الإنسان المتقلب، الذي يلجأ إلى الله في الشدة فإذا كشف عنه ضره نسي ربه وجعل له أندادًا. إنها صورة مشرقة للحظة الصدق، ولكنها سرعان ما تظلم بالغفلة. والآن، وقد عرض الله أمامك نموذج الغافل الجاحد، يعرض لك في هذه الآية الكريمة النموذج المقابل، النموذج الذي يجب أن تكون عليه، إنها صورة المؤمن الصادق، الذي عرف ربه حق المعرفة، فثبت على الحق في الشدة والرخاء.

إن هذه الآية تضع أمامك طريقين، وتترك لك حرية الاختيار. وتُسمعك سؤالا ً يهز الوجدان: أي الفريقين أنت؟ دعنا نعيش مع هذا المقطع القرآني البديع، لنرى كيف يرسم لنا معالم الطريق إلى الجنة، وكيف يبني فينا شخصية المؤمن الواعي.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - الصورة المشرقة للمؤمن القانت

لنقف مع كل كلمة من هذه الآية العظيمة، ولنستخرج كنوزها التربوية والإيمانية.

الأمر الأول: "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا" - تعريف بالقانت وصفاته

تبدأ الآية بأداة استفهام وتقرير: "أَمَّنْ". وتقدير الكلام: أهذا الكافر الجاحد الذي مر ذكره في الآية السابقة (الذي ينسى ربه في الرخاء ويجعل له أندادًا) خيرٌ أم هذا الذي اتصف بهذه الصفات العظيمة؟! إنه سؤال يوجهه الله إليك وإلى كل عاقل: أيهما تختار أن تكون؟

أ. معنى "قَانِتٌ":
كلمة "قانت" مشتقة من القنوت، وهو دوام الطاعة مع الخشوع والخضوع. إنه ليس مجرد مصلٍّ، بل هو عابد مخبت، مطيع لله في كل أحواله، خاضع له بقلبه وقالبه. إنه يعيش حالة دائمة من العبودية لله، فلا يرى لنفسه خروجًا عن طاعته ولا فكاكًا من عبادته. هذا القنوت هو جوهر الدين وثمرة الإخلاص.

ب. "آنَاءَ اللَّيْلِ": الدافع الخفي وزمن الصفاء

· "آنَاءَ اللَّيْلِ": ساعات الليل وأجزاؤه. لماذا خص الليل بالذكر؟ لأن الليل هو وقت الخلوة والصفاء و السكون، حيث ينام الناس وتغفو العيون، ويخلو القلب من شواغل الدنيا وضوضائها. في هذا الوقت، ينهض هذا القانت من فراشه الدافئ، تاركًا لذة النوم وراحة الجسد، ليقف بين يدي ربه. ما الذي يدفعه لذلك؟ إنه دافع الإيمان، وحب الخضوع لله، والشعور بالفقـر والحاجة إليه. إنها عبادة خفية لا يراها إلا الله، مما يدل على صدق الإيمان وقوة الإخلاص.

ج. "سَاجِدًا وَقَائِمًا": مظاهر العبودية الكاملة

· "سَاجِدًا": يضع أشرف أعضائه (وجهه) على الأرض، في قمة الذل والتواضع لله. إنه يظهر فقره وحاجته وتذلله أمام عظمة ربه.
· "وَقَائِمًا": يقرأ كلام الله في صلاته، خاشعًا متدبرًا.

اللمسة البيانية والتربوية:
تقديم "سَاجِدًا" على "قَائِمًا" له دلالة عظيمة. فالسجود هو غاية الخضوع ونهاية التذلل. كأن الآية تقول: إن هذا العبد قد بلغ في عبوديته مرتبة يقدم فيها أعلى درجات الخضوع (السجود) ثم يتبعه بـ القيام. إنه ينتقل بين أشرف هيئات العبادة، طلبًا لرضا ربه.

مثال تقريبي لتوضيح الدافع:
تخيل معي محبًا صادقًا، ينتظر اللقاء بحبيبه طوال اليوم. فإذا جاء الليل ونام الناس، قام ليكتب له رسالة حب، أو ليتحدث إليه في خلوة. ما الذي يدفعه؟ إنه الحب والشوق. هذا هو حال القانت مع ربه. حب الله قد ملأ قلبه، وشوقه إلى لقائه يدفعه لترك لذة النوم، ليقف بين يديه يناجيه ويسأله.

الأمر الثاني: "يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ" - التوازن بين الخوف والرجاء

بعد أن وصف الآية عبادة الجوارح (السجود والقيام)، تنتقل إلى وصف حال القلب ومحركه الداخلي، لتعطينا معادلة الإيمان المتوازن:

· "يَحْذَرُ الآخِرَةَ": أي يخاف عذاب الآخرة وأهوالها. هذا الخوف ليس خوفًا مرضيًا مقعدًا، بل هو خوف يدفع للعمل والاجتهاد. إنه يخشى النار، فيجتنب المحرمات، ويسارع في الخيرات. لماذا قدم الخوف على الرجاء؟ لأن النفس البشرية بطبعها تميل إلى الأمل والرجاء والتسويف. فإذا غلب الرجاء وحده، قد يؤدي إلى الأمن من مكر الله والتهاون في الطاعات. أما تقديم الخوف فيكبح جماح النفس، ويدفعها إلى الحذر والتيقظ.
· "وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ": ومع هذا الخوف، لا ينقطع أمله ورجاؤه في رحمة الله الواسعة. فهو يعلم أن ربه غفار رحيم، وأن رحمته سبقت غضبه. هذا الرجاء هو الذي يمنعه من اليأس والقنوط، ويدفعه إلى محبة الله والتعلق به. فهو مشتاق إلى الجنة، طامع في رؤية ربه.

أهمية هذا المزيج التربوي (الخوف والرجاء):
الآية ترسم لنا منهجًا متوازنًا في تربية النفس. المؤمن الحق هو من يعيش بين الخوف والرجاء، كجناحي طائر يحلق بهما إلى الله. الخوف وحده يُورث اليأس، والرجاء وحده يُورث الأمن والغفلة. أما الجمع بينهما فيصنع الإنسان العابد المتوازن، الذي لا يأمن مكر الله، ولا ييأس من رحمته. إنه يعمل للآخرة وكأنه يراها، فهو يخاف عقابها ويرجو ثوابها.

الأمر الثالث: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" - الفرق بين نور العلم وظلمة الجهل

بعد عرض نموذج القانت الخائف الراجي، يأتي التعقيب الإلهي بسؤال منطقي عقلي، يهدم كل حجة للكافر: "هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ". الجواب واضح بدهيًا: لا يستوون أبدًا.

ما هو العلم المقصود هنا؟
ليس العلم الدنيوي فقط (كالطب والهندسة)، بل هو العلم بالله وأسمائه وصفاته وشرعه واليوم الآخر. إنه نور اليقين الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، فيرى به الحقائق على ما هي عليه. هذا القانت الذي اتصف بتلك الصفات، إنما وصل إليها لأنه عَلِمَ أن الله ربه وخالقه، وعلم حقيقة الدنيا والآخرة، وعلم ما يرضي الله وما يسخطه. أما الكافر الجاحد، فهو جاهل بهذه الحقائق، ولو كان حاصلا ً على أعلى الشهادات الدنيوية.

الفرق الجوهري:

· الذين يعلمون (المؤمنون القانتون): قلوبهم اتصلت بالله بالإيمان بالغيب، فصار لديهم بصيرة وفرقان يفرقون به بين الحق والباطل، والنافع والضار. هم أصحاب العقول السليمة المنطقية التي تعمل بجد واجتهاد لآخرتها، وتستعد للموت بالتزود من التقوى والعبادة. هم الذين أدركوا أن النجاح الحقيقي هو الفوز بالجنة.
· الذين لا يعلمون (الكافرون الجاحدون): يعيشون في ظلمة الجهل والغفلة، يسيرون وراء الشهوات وا لأوهام، ويغترون بالدنيا وزخرفها، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا. هم كالأنعام بل هم أضل.

مثال تقريبي:
تخيل شخصين في غابة مظلمة موحشة، أحدهما معه مصباح قوي (العلم والإيمان)، والآخر أعمى (الجاهل الكافر). صاحب المصباح يرى الطريق بوضوح، يعرف أين يضع قدمه، ويتجنب المخاطر و الحفر والوحوش. أما الأعمى فهو يتخبط في الظلام، لا يدري أين يتجه، وكل خطوة يخطوها قد تكون سببًا في هلاكه. هل يستويان؟ هذا هو الفرق بين المؤمن العالم والكافر الجاهل.

الأمر الرابع: "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" - ختام يتوج العقل والحكمة

تختم الآية بهذا التقرير الإلهي الحاسم: "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ".

· "إِنَّمَا": أداة حصر وقصر، تفيد أن التذكر والانتفاع بهذه الآيات والمواعظ مقتصر فقط على أصحاب العقول.
· "يَتَذَكَّرُ": أي يتعظ ويعتبر ويربط بين الآيات الكونية والآيات الشرعية، فيستنتج الحق ويثبت عليه.
· "أُولُو الْأَلْبَابِ": أصحاب العقول السليمة المستنيرة. اللب هو جوهر الشيء وخلاصته. فأولو الألباب هم الذين يستخدمون عقولهم في التفكر والتدبر، فيصلون إلى الحقائق الإيمانية العميقة. إنهم ليسوا كـ الغافلين الذين عطلوا عقولهم واتبعوا أهواءهم.

العلاقة بين الخاتمة ومضمون الآية:
الآية تقول باختصار: الطريق إلى الجنة ونعيمها يبدأ من العقل الواعي. هذا القانت الذي وُصفت صفاته ، إنما وصل إلى ما وصل إليه لأنه من أولي الألباب الذين تذكروا وتدبروا، فعلموا أن ربهم حق، وأن ا لآخرة حق، فاستعدوا لها. أما ذلك الكافر الذي نسي ربه، فهو من الغافلين الذين عطلوا عقولهم عن التفكر في الحق.

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية من الآية

١.المفاهيم العملية من الآية:

· تخصيص وقت لقيام الليل: الآية تحث عمليًا على اغتنام "آنَاءَ اللَّيْلِ" للعبادة. فحتى لو كانت ركعات يسيرة، فهي دليل على صدق الإيمان.
· إظهار الفقر والحاجة لله بالسجود: تربية الجوارح على الخضوع والتذلل في الصلاة، وعدم العجلة فيها.
· الاستعداد للآخرة بالعمل الصالح: تحويل الخوف من النار والرجاء في الجنة إلى طاقة دافعة للعمل والمسارعة في الخيرات.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: تحقيق السكينة والطمأنينة: الاتصال بـالله في جوف الليل يملأ القلب أنسًا وطمأنينة وسعادة لا توصف. إنه يحرر النفس من التعلق بالدنيا وهمومها.
· تربويًا: بناء الشخصية المتوازنة: الجمع بين الخوف والرجاء يبني شخصية متوازنة، لا تطغى فيها قوة على أخرى. فالمؤمن يعمل خائفًا وراجيًا.
· سلوكيًا: جهاد النفس: القيام من النوم الدافئ لعبادة الله هو جهاد للنفس وترويض لها على الطاعة، مما يورث قوة في العزيمة والإرادة.

٣.أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: الآية ترسم صورة الإنسان الكامل في عبوديته لله: قانت، خائف، راجٍ، عالم، متذكر.
· البعد التربوي: الآية تؤكد على أهمية الثواب والعقاب في التربية الإيمانية. فلا يمكن أن يستوي المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي. هذا الوعد والوعيد هو محرك أساسي للنفوس البشرية نحو الكمال.

٤.القيم المستخلصة:

· قيمة العبادة الخالصة والإخلاص لله.
· قيمة التوازن بين الخوف والرجاء.
· قيمة العلم النافع والمعرفة بـالله.
· قيمة العقل والتدبر (أولوا الألباب).

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

· بناء إنسان متصل بربه: قيام الليل يصنع إنسانًا قوي الإرادة، صافي الروح، عميق الصلة بـالله. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.
· بناء مجتمع قائم على العدل والمسؤولية: الإيمان بأن الله لا يساوي بين العالم والجاهل، والمحسن و

المسيء، يرسخ مبدأ العدالة والمسؤولية الفردية في المجتمع.
· بناء حضارة العلم والعمل: ربط العلم بالإيمان يدفع إلى حضارة متوازنة، تجمع بين التقدم المادي وا لارتقاء الروحي. فأولو الألباب هم الذين يقودون البشرية إلى الخير.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على العبادة في الخفاء: تعويد النفس على أعمال لا يراها إلا الله، فهي أرجى للقبول وأبعد عن الرياء.
.٢التربية على استحضار الآخرة: تذكر الموت والحساب والجنة والنار في كل حين.
.٣التربية على استخدام العقل في التفكر والتدبر: الانتقال من التقليد الأعمى إلى الإيمان المبني على البصيرة.
.٤التربية على عدم التسوية بين الأضداد: تعليم النفس أن تنفر من الباطل وأهله، وتميل إلى الحق وأهله.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية في واقعنا العملي

.1في برنامجك اليومي: حاول أن تجعل لك ولو ركعتين في جوف الليل .ابدأ بالتدريج، ركعتين خفيفتين قبل الفجر، ولو مرة في الأسبوع .تذكر أنك تقتدي بالقانتين الذين مدحهم الله.
.2في قلبك: داوم على تذكير نفسك بالآخرة .تصور أهوال القيامة، وتذكر نعيم الجنة .اجعل هذا الشعور رقيبًا على سلوكك .إذا هممت بمعصية، قل: "أنا أحذر الآخرة" .وإذا هممت بطاعة، قل: "أنا أرجو رحمة ربي".
.3في عقلك: اقرأ في العلم الشرعي الذي يعرفك بالله وأسمائه وصفاته .لا تكن جاهلا ً بدينك . كلما ازددت علمًا بالله، ازددت له خشية ومحبة .اقرأ تفسير القرآن، وتعلم سيرة النبي ﷺ.
.4في تقييمك للأمور: لا تنظر إلى الناس بمقياس الدنيا) المال، المنصب، الشكل .(بل انظر إليهم بمقياس الآية: هل هو من "الذِينَ يَعْلَمُونَ") أي المؤمنين العاملين (أم من "الذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"؟ هذا هو المقياس الحقيقي للتفاضل عند الله.
.5عندما ترى غافلا ً: تذكر قوله تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" .لا تحتقر أحدًا، بل اسأل الله له الهداية، واحمد الله الذي هداك وفضلك على كثير من خلقه.

ختامًا، أيها المؤمن الواعي، إن هذه الآية ليست مجرد وصف لحال عابد، بل هي خارطة طريق عملية لتحقيق السعادة والنجاة. إنها تدعوك إلى أن تكون من أولي الألباب، الذين استنارت عقولهم بنور الوحي، فاتصلت أرواحهم بالله، فعبدوه في الخلوات، وخافوه ورجوه، فعاشوا في الدنيا سعداء، وكان مآلهم في الآخرة إلى جنات النعيم.
المبحث الثالث
لقد رأيتَ في الآيات السابقة كيف عرض الله نموذجين من البشر: نموذج الغافل الذي ينسى ربه في الرخاء ويجعل له أندادًا، ونموذج القانت العابد الذي يحيي ليله ساجدًا وقائمًا، خائفًا من الآخرة وراجيًا رحمة ربه. لقد بان لك الفرق واضحًا جليًا بين الفريقين، وعلمتَ أن العقلاء هم الذين يتذكرون ويعملون.

والآن، وبعد هذا البيان، يتوجه إليك ربك بنداء مباشر، نداء يفيض حنانًا ورحمة، ليدلك على الطريق العملي الذي تسلكه لتكون من زمرة الناجين الفائزين، ولتصل إلى كمال السعادة والحماية الإلهية التي لا تكون إلا لأوليائه. إنه نداء يخاطب قلبك وعقلك وسلوكك، ليبني فيك قناعة راسخة وعزيمة لا تلين.

دعنا نعيش مع هذا النداء الرباني البديع، ونستلهم منه دروس الحياة.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الذِينَ آمَنُوا اتقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر:[10]

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - نداء الحب ودليل النجاة

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة وقفة متأنية، ونستخرج كنوزها ودروسها التربوية والنفسية.

الأمر الأول: دلالة النداء وأسلوبه التربوي "قُلْ يَا عِبَادِ الذِينَ آمَنُوا"

تبدأ الآية بأمر من الله لنبيه محمد ﷺ: "قُل". هذا الأمر يتكرر كثيرًا في القرآن، وفيه توجيه للمؤمنين بأن هذا الكلام هو من الله مباشرة، والنبي ﷺ هو المبلغ عنه. إنه يمنح الكلام قوة وسلطانًا إلهيًا لا يُرد، ويجعل القلب يستقبله بكامل الهيبة والاستعداد.

ثم يأتي النداء الذي يذيب القلوب: "يَا عِبَادِ". تأمل معي روعة هذا الأسلوب! لم يقل: "يا أيها الناس" أو "يا أيها المؤمنون" فحسب، بل قال: "يَا عِبَادِ" مضافًا إليه ضمير الملكية لله (ياء المتكلم المحذوفة). هذا النداء يفيض بـ الحنان والرحمة والقرب والشرف. إنه نداء تشريف وتكريم، فالإضافة إلى الله هي إضافة ملك واصطفاء. كأن الله يناديك أنت شخصيًا، يذكرك بأنك عبده، وأن علاقتك به هي أقرب علاقة وأشرفها. هذا الأسلوب اللين الرقيق يفتح القلب ويجعله مستعدًا لتلقي التوجيهات بروح من المحبة والثقة والامتنان. إنه الخطاب الذي يسري في الروح سريان الماء في العود اليابس، فيحييها ويبعث فيها الأمل والعزيمة.

ثم يحدد المخاطبين: "الَّذِينَ آمَنُوا". إنهم المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسوله واليوم الآخر. هؤلاء هم أهل الاختصاص بهذه الوصية العظيمة. لماذا؟ لأنهم هم الذين سينتفعون بها ويسارعون إلى تطبيقها، ولأن الإيمان هو الأساس الذي تبنى عليه كل التكاليف.

الرسالة التربوية والعملية:
هذا النداء يعلمنا كدعاة ومربين وآباء أن نبدأ بـ الترغيب والتحبب قبل التوجيه والأمر. فالقلب إذا أحس بالقرب والحب والاحترام، سارع إلى الامتثال والطاعة. استخدم أسلوب النداء الرقيق: "يا بني الحبيب"، "يا أخي الكريم"، "يا أختي الفاضلة، إني أحبك في الله، فاسمحي لي أن أنصحك". هذا أدعى للقبول والتأثير من الأسلوب الجاف المتعالي.

الأمر الثاني: الوصية الجامعة للفلاح والنجاة "اتقوا رَبَّكُمْ"

بعد هذا النداء الحاني، تأتي الوصية المركزية التي هي مفتاح كل خير: "اتَّقُوا رَبَّكُمْ". ما هي التقوى؟

التقوى ليست مجرد خوف، بل هي حالة قلبية وسلوكية شاملة، وهي جوهر الدين ولبّه. إنها أن تجعل بينك وبين عذاب الله وسخطه وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وهي تشمل بدقة ما ذكرته:

· الخوف والخشية من الله: ليس خوفًا مقعدًا محبطًا، بل خوف إجلال وتعظيم، يورث المراقبة الدائمة لله في السر والعلن، ويمنع من الوقوع في المعاصي.
· العيش في حالة ترقب دائم: ترقب لقبول العمل وخوف من رده، وترقب للموت في كل لحظة .هذا الترقب هو أكبر حافز على المسارعة في الأعمال الصالحة وعدم التسويف والتكاسل.
· الالتجاء إلى الله والاستعانة به: فالمتقي يعلم أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فيلجأ إليه وحده ط البًا الحماية في الدنيا والآخرة، ومستعينًا به على الطاعة واجتناب المعصية.

كيف تكون التقوى طريقًا إلى كمال السعادة والحماية الإلهية؟

· السعادة الحقيقية: من اتقى الله، أمنه الله من المخاوف، وملأ قلبه سكينة وطمأنينة، ويسر له أموره، وفتح له أبواب الرزق من حيث لا يحتسب .قال تعالى: "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ") الطلاق .(هذه هي السعادة الحقيقية التي لا تشوبها منغصات.
· الحماية الإلهية) الولاية(: التقوى هي سبب ولاية الله الخاصة .فالله يتولى المتقين ويحميهم وينصرهم ويثبتهم .كما قال تعالى: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ") يونس .(هذه الحماية والولاية هي التي ننشدها جميعًا، وطريقها هو التقوى.

مثال تقريبي لتوضيح أثر التقوى:
تخيل أنك تسير في طريق وعر مليء بالأشواك والحفر والأخطار. التقوى هي أن تلبس درعًا واقيًا وحذاءً سميكًا (فعل الأوامر واجتناب النواهي) وتتحرك بحذر ويقظة وانتباه دائم (الخشية والترقب). هذا الدرع يحميك من أذى الأشواك ويمنعك من السقوط في الحفر. صاحب الدرع يسير مطمئنًا واثقًا من سلامته ووصوله. أما الغافل الذي يسير حافيًا غافلا ً غير مبال، فسيصاب بجراح وقد يهلك في الطريق. هذا هو الفرق بين حياة المتقي الواعي وحياة الغافل الجاهل.

الأمر الثالث: الحافز والثواب العاجل والآجل "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ"

بعد الأمر بالتقوى، يعرض الله الثواب والحافز الفوري والمستقبلي، ليشحذ الهمم ويدفع إلى العمل والإ

إتقان: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ".

· "أَحْسَنُوا": الإحسان هو إتقان العمل وإخلاصه لله .إنه مرتبة أعلى من مجرد فعل الواجب .وهو يقتضي كما ذكرتَ: إخلاص النية لله، وإتقان العمل على أحسن وجه، والمسارعة فيه، والاستباق إلى الخيرات .وهذا هو عين الاشتغال بالطاعات والزهد في الدنيا .فمن اشتاق إلى الجنة ونعيمها، هانت عليه ملذات الدنيا وشهواتها الزائلة، فصار عمله كله إحسانًا وسباقًا إلى مرضات الله.
· "حَسَنَةٌ": نكرة تفيد التعظيم والشمول .أي لهم حياة طيبة في الدنيا) من صحة وعافية ورزق طيب وسكينة قلب ونور وبصيرة(، ولهم الجنة ونعيمها المقيم في الآخرة .فالحسنة هنا مطلقة تشمل خيري الدنيا والآخرة.

دور الحوافز في التربية وزيادة الاستجابة:
الله سبحانه يربينا بذكر الثواب والعقاب معًا. فذكر "الحسنة" هنا هو حافز إيجابي قوي يدفع المؤمن للعمل والإحسان والمسارعة. إنه يعدك بأن تعبك هذا واجتهادك لن يضيع سدى، بل سيكون لك عاقبة حميدة في الدنيا قبل الآخرة. هذا الأسلوب التربوي هو الأنجع في تحريك النفوس وبث الأمل و الطموح فيها، وهو ما يجعل الاستجابة لله تعالى سهلة محببة إلى النفس.

الأمر الرابع: سعة الأرض وتخفيف الضغوط النفسية "وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ"

وهنا يأتي توجيه رباني عظيم يعالج ضغوطًا نفسية واجتماعية قد تواجه المؤمن في مسيرة حياته. قد يعيش المؤمن في بيئة أو مجتمع يضغط عليه ليمنعه من إقامة دينه، أو يغريه بالمعاصي و الفواحش، أو يضطهده بسبب إيمانه. فيأتي النداء الإلهي المطمئن: "وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ".

ما معنى هذا التوجيه العملي؟
إنه توجيه إلى الهجرة إذا لزم الأمر. فإذا ضاقت بك السبل في أرضك، ولم تستطع إظهار دينك وأداء عبادتك بحرية وأمان، أو كان بقاؤك يعرضك للفتنة في دينك ويضعف عزيمتك، فاهجر. أرض الله واسعة، وفيها متسع ومكان آخر تستطيع فيه عبادة ربك. اترك وطنك، وظيفتك، مالك، ولا تحزن. فهذا التوجيه يحمل عدة رسائل نفسية وتربوية بالغة الأهمية:

.1تخفيف الضغط النفسي والشعور بالحصار: إنه يخبرك أنك لست محاصرًا، فهناك بدائل وخيارات . هذا الشعور بالخيار والبديل يمنحك قوة نفسية وعزيمة وإرادة لمواجهة الضغوط، ويحررك من الشعور بالعجز والإكراه.
.2تعزيز العزة الإيمانية والكرامة: إنه يعلمك أن كرامتك ودينك وعقيدتك أغلى من وطنك ومالك ووظيفتك .فإذا لم تستطع الحفاظ على دينك في مكان، فغادره إلى مكان تستطيع فيه عبادة الله بحرية وكرامة .هذا هو معنى الزهد الحقيقي في الدنيا.
.3الثقة المطلقة بالله في الرزق: الله هو الرزاق ذو القوة المتين .هو الذي سيرزقك أينما كنت وكيفما كنت .لا تخف من ترك وظيفتك أو مصدر رزقك في سبيل الله .ثق بأن رزقك مضمون ومكتوب عند الله .قال تعالى: "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ".

الربط بالآيات السابقة:
في الآية (8) رأينا الإنسان الذي ينسى الله في الرخاء ويجعل له أندادًا. وهنا في الآية (10) يعلمنا الله كيف نثبت في الشدة والضيق. الهجرة والترك في سبيل الله هما أعظم تطبيق عملي لـ "التقوى" و "الإحسان" و "الصبر".

الأمر الخامس: ختام التكريم والوعد العظيم للصابرين "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"

تختم الآية بتاج من التكريم والوعد العظيم الذي لا يدانيه وعد: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ".

· "الصَّابِرُونَ": هم الذين صبروا على طاعة الله) كأداء العبادات والإحسان في العمل(، وصبروا عن معصيته) بترك الشهوات والملذات المحرمة ومجاهدة النفس(، وصبروا على أقداره المؤلمة) كفقدان الوطن والمال والوظيفة والأهل في سبيل الله .(الهجرة والترك والثبات على الدين كلها أنواع من الصبر العظيم.
· "يُوَفَّى ... أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ": أي يعطيهم الله أجرهم كاملًا وافيًا بلا نقصان، وبغير تقدير محدود أو عدٍّ .إنه أجر لا يدخل تحت حساب البشر أو موازينهم، لأنه من فضل الله الواسع الذي لا ينفد .إنه أجر غير محدود في الكم والكيف، جزاء صبرهم غير المحدود.

لماذا خص الصابرين بهذا الأجر غير المحدود؟
لأن الصبر هو مفتاح الفرج وعنوان الإيمان الصادق. الصابر هو الذي يثبت على الحق في كل حال، و لا تزعزعه الفتن والمحن، ولا تضعفه الشدائد والمغريات. الصبر هو الذي يجعل العبد أهلاً للكرامة الإ لهية الكبرى.

أهمية الصبر ودوره في تقوية العزيمة والإرادة:

· الصبر هو الوقود: هو الوقود الذي يحرك سفينة الإيمان في بحر الحياة المتلاطم بالأمواج .بدون صبر، تنكسر العزيمة، وتخور القوى، ويضعف الإنسان أمام أول تحدٍ أو فتنة.
· الصبر يصنع الرجال الأقوياء: التاريخ كله يشهد أن العظماء والناجحين في الدنيا والآخرة هم أصحاب الصبر والعزائم الفولاذية .الأنبياء صبروا على أذى أقوامهم وتهجيرهم، والمجاهدون صبروا على ترك أوطانهم وأموالهم، والعلماء صبروا على طلب العلم ونشره .الصبر هو مدرسة الأبطال.
· الصبر يجلب معونة الله ونصره: قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ") البقرة: .(153 وإذا كان الله معك، فمن عليك؟! ومن يغلبك؟!

الربط بولاية الله والحماية الإلهية:
هؤلاء الصابرون المحسنون المتقون هم أولياء الله حقًا الذين قال فيهم: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (يونس). هذه الآية في سورة الزمر هي شرح عملي لكيفية الوصول إلى هذه الولاية والحماية الإلهية. الطريق واضح جلي: الإيمان، ثم التقوى، ثم ا لإحسان، ثم الصبر.

ثانياً: أهمية هذا الأسلوب التربوي في تقوية العزيمة وبناء القناعة

لقد استخدمت الآية أسلوبًا تربويًا متكاملاً لبناء شخصية المؤمن القوية الواعية:

.1الخطاب اللين والنداء بالعبودية) "يا عباد"(: يفتح القلب، ويزيل الحواجز النفسية، ويهيئ للاستجابة والطاعة بمحبة وشوق.
.2الأمر بالتقوى) الهدف الكلي والغاية العظمى(: يضع الأساس المتين الذي تقوم عليه كل الفضائل والأ خلاق.
.3الترغيب بالثواب العاجل والآجل) "للذين أحسنوا ...حسنة"(: حافز إيجابي قوي يدفع للعمل والأمل والمسارعة.
.4التوجيه العملي للخروج من الضغوط) "وأرض الله واسعة"(: حل واقعي لمشكلة نفسية واجتماعية، يعزز الثقة بالله ويقوي العزيمة ويحرر الإرادة.
.5التكريم والوعد بالأجر العظيم غير المحدود للصابرين: مكافأة معنوية ومادية عظيمة، تجعل الإنسان يهون عليه كل ما يلاقيه من مشقة وتضحية، لأنه ينتظر أجرًا بغير حساب.

هذا التسلسل المنطقي والعاطفي يبني في نفس المؤمن قناعة راسخة بأن طريق التقوى والصبر هو الطريق الوحيد للنجاة والفلاح والسعادة الحقيقية، ويمنحه عزيمة فولاذية وإرادة صلبة لمواجهة كل الصعاب والتحديات.

ثالثاً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· تحقيق التقوى في الحياة اليومية: بمراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة، وأداء الواجبات، واجتناب المحرمات، والعيش في حالة ترقب وخوف ورجاء.
· إتقان العمل والإحسان فيه: في العبادة والعمل الدنيوي والدراسة والعلاقات، وجعل كل ذلك خالصًا لله وابتغاء مرضاته.
· التخطيط للهجرة عند الضرورة: إذا كنت في بيئة فاسدة تمنعك من دينك، فلتكن الهجرة خيارًا مطروحًا ومدروسًا، وليكن قلبك معلقًا بالله لا بالأوطان والمناصب.
· ممارسة الصبر وتدريب النفس عليه: تدريب النفس على تحمل المكاره والمشاق والآلام في سبيل

الطاعة والثبات على الحق.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: الشعور بالطمأنينة والأمان والحماية: المؤمن المتقي يشعر أنه في ولاية الله وحمايته ورعايته ، فلا خوف عليه ولا حزن، وهذا يمنحه سكينة نفسية عظيمة.
· تربويًا: التحرر من الخوف من المخلوقين والضعف أمامهم: "وأرض الله واسعة" تعلمك أن الرزق بيد الله وحده، فلا تخف من تهديدات البشر أو ضغوطهم، وكن عزيزًا بدينك.
· سلوكيًا: تقوية العزيمة والإرادة وعدم الاستسلام: التوجيه بالصبر يبني في النفس قوة داخلية وصلا بة تمكنها من مواجهة التحديات والفتن دون انكسار.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: الآية ترسم طريق الكمال الشخصي والارتقاء الروحي للإنسان المؤمن، وتصف له مراتب العبودية: الإيمان، التقوى، الإحسان، الصبر.
· البعد الاجتماعي: الآية تقدم حلولا ً عملية لمشكلة الاضطهاد الديني والفتن المجتمعية، وتؤسس لمبدأ حرية الاعتقاد والهجرة في سبيله.
· البعد الإيماني: الآية تؤكد على ولاية الله للمتقين وكرامتهم عنده، وأنهم أهل البشرى في الدنيا والآ خرة.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة التقوى كأساس للفلاح والنجاة.
· قيمة الإحسان في كل عمل وقول.
· قيمة الحرية الدينية والعزة الإيمانية والكرامة.
· قيمة الصبر وأثره العظيم في الدنيا والآخرة.

الموضوع الثاني: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على التقوى: جعلها نبراسًا للحياة وهدفًا دائمًا.
.٢التربية على الإحسان وإتقان العمل: تحويل العادات اليومية إلى عبادات.
.٣التربية على العزة وعدم الذل لغير الله: رفض الخضوع والمساومة على الدين.
.٤التربية على الصبر وقوة التحمل: استقبال المحن كفرص للارتقاء وزيادة الأجر.

الموضوع الثالث: كيفية تطبيق مفاهيم الآية في واقعنا العملي

.1في كل صباح ومساء: جدد نية التقوى والإحسان .قل بقلبك: "اللهم إني أسألك التقوى والعفاف و الغنى، وأسألك الإحسان في كل عمل" .وتذكر أن الله ناداك بـ "يَا عِبَادِ"، فهذا يوجب عليك الطاعة و المحبة.
.2في عملك ودراستك: أتقن عملك وأحسنه بنية عبادة الله وخدمة المسلمين .إذا كان عملك فيه شبهة أو يمنعك من واجب ديني) كالصلاة أو الحجاب(، فابحث عن بديل بثقة ويقين .تذكر أن "أَرْضَ اللهِ وَاسِعَةٌ"، ورزق الله لا يضيع.
.3في مواجهة الفتن والضغوط: إذا شعرت بضغط مجتمعي لترك سنة أو فعل معصية، تذكر أن رضا الله أغلى وأبقى .اصبر واستعن بالله .وإن كنت في بيئة تمنعك من إظهار دينك، فلتكن الهجرة خيارًا مطروحًا، واطلب الأرض التي تعينك على طاعة ربك.
.4في التغلب على الشهوات والملذات: تذكر أنك من "الذِينَ آمَنُوا"، وأن أمامك "حَسَنَةٌ" عظيمة في الدنيا والآخرة، وأن صبرك عن الحرام سيجلب لك أجرًا "بِغَيْرِ حِسَابٍ" .هذا يجعل ترك الشهوة أسهل وأحب إلى قلبك.
.5عند الشدائد والمحن والابتلاءات: لا تقل: "لماذا أنا؟" .بل قل: "هذا اختبار من الله ليرى صبري، ولأ كون من الصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب" .حوّل المحنة إلى منحة، واستعن بالله، وأثبت، واصبر.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، لقد ناداك ربك بأرق نداء وأحبه إلى قلبك، وأرشدك إلى طريق السعادة الأ بدية والحماية الكاملة. فكن من عباده المتقين المحسنين الصابرين، تكن من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولك البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وتذكر أن وعد الله حق، وأن

كلماته لا تتبدل ولا تتغير..

بسم الله الرحمن الرحيم
المقطع الثاني.
اولا
أيها المتدبر الكريم، لقد قطعنا شوطًا عظيمًا مع سورة الإخلاص الكبرى، سورة الزمر .رأينا كيف فتحت السورة بالتنزيل من العزيز الحكيم، وأمرت بإخلاص الدين لله، وردّت على زعم المشركين بالولد والشفعاء، واستدلت بآيات الله في الآفاق والأنفس، وعرضت نموذج الغافل الذي ينسى ربه في الرخاء، ونموذج القانت الخائف الراجي .ثم ختمت المقطع السابق بنداء الرحمن: "يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ") الآية:.(10

والآن، يأمر الله نبيه ﷺ في هذه الآيات الأربع المتصلة11) - (14أن يعلن على الملأ، بصوت جهوري لا تردد فيه ولا مواربة، منهجه الشخصي في الحياة، وعقيدته التي يدين الله بها، لتكون هذه الآيات بمثابة وثيقة الإخلاص والتوحيد التي يوقعها النبي ﷺ بلسانه، لتكون أسوة وقدوة لكل مؤمن .إنها آيات تبين حقيقة العبودية الخالصة، وتضع الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، وبين الخوف من الله و الخوف من سواه.

دعنا نعيش مع هذه الآيات البينات، ونستخرج كنوزها ودروسها.

{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي(14) }] الزمر:11 -[14

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - إعلان التوحيد والعبودية الخالصة

لنقف مع كل آية من هذه الآيات الأربع، ولنستخرج كنوزها التربوية والإيمانية، ثم ننظر إليها كوحدة متكاملة.

الأمر الأول: الإعلان الأول عن الإخلاص - "قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ") آية(11

تبدأ الآية بأمر الله لنبيه: "قُلْ" .هذا الأمر يتكرر في هذه الآيات الأربع ثلاث مرات، مما يدل على أهمية الإعلان والجهر بهذه العقيدة .فالنبي ﷺ مأمور أن يقول هذا الكلام بلسانه جهارًا نهارًا، لا يخفيه ولا يكتفي باعتقاده قلبًا .لماذا؟ لأن هذه الكلمة هي حد فاصل بين التوحيد والشرك، وهي رسالة الإسلام الأساسية التي يجب أن تبلغ للناس كافة.

ثم يأتي مضمون القول: "إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ" .هذه الجملة هي ترجمة عملية للأمر الإلهي الذي ورد في فاتحة السورة) الآية(2 : "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ" .فكأن النبي ﷺ بعد أن تلقى الأمر، جاء ليعلن امتثاله التام له، فيقول للناس: "لقد أُمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين، وأنا ممتثل لهذا الأمر".

دلالات الألفاظ والتعابير:

· "أُمِرْتُ": بصيغة المبني للمجهول، وفي هذا إشارة إلى مصدرية الوحي وعلوّ مقام الآمر .فالنبي ﷺ ليس له خيرة من أمره، بل هو عبد مأمور، يفعل ما يؤمر به، وينتهي عما يُنهى عنه .وهذا يعطينا درسًا في العبودية الحقة: أن تكون تابعًا لأمر الله، لا مشرعًا من عند نفسك.
· "أَعْبُدَ اللَّهَ": العبادة هي غاية الخلق ووظيفة الإنسان في هذه الأرض .وتقديم اسم الجلالة "الله" على الوصف "مخلصًا" يدل على أن العبادة لله أولا ً وأخيرًا.
· "مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ": أي خالصًا من شوائب الشرك والرياء والهوى .فالدين كله) الطاعة والانقياد و الخضوع (لا يكون إلا لله وحده.

الرسالة التربوية والنفسية:
في هذا الإعلان توجيه عملي لكل مؤمن: أن يعلن إخلاصه وعبوديته لله بلسانه وقلبه وسلوكه .إن الإ علان باللسان يثبت المعتقد في القلب، ويجعله حقيقة واقعة لا خيالا ً .كما أن الجهر بالإخلاص فيه تحدٍّ للمشركين والمنافقين، وإعلان للبراءة من الشرك وأهله.

الأمر الثاني: الإعلان عن الأولوية في الإسلام - "وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ") آية(12

ثم يعطف النبي ﷺ على الإعلان الأول، إعلانًا آخر: "وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ".

دلالة "أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ":

· "أول المسلمين" في زمنه وبعثته .فهو أول من استجاب لأمر الله في هذه الشريعة، وأول من أعلن إسلامه وجهازه به، وأول من امتثل أوامرها واجتنب نواهيها.
· وفي هذا أعظم رد على من يزعم أن النبي ﷺ كان يطلب ملكًا أو جاهًا أو رياسة .فكيف يطلب الرياسة من يقول: "أنا أول المسلمين"؟ الإسلام هو الاستسلام والانقياد لله .فأول صفات سيد الخلق أنه أول المنقادين لأمر الله، وأسبقهم إلى طاعته.

الربط بين الآيتين:
لاحظ التسلسل المنطقي: الإخلاص في العبادة لله) آية (11 يثمر بالضرورة المسارعة والسبق إلى الإس لام) آية .(12 فمن أخلص دينه لله، كان أسرع الناس إلى طاعته، وأسبقهم إلى كل خير .وهذا يعلمنا أن الإخلاص هو محرك السباق إلى الله .فلا يتقدم في مراتب الدين إلا من كان عمله خالصًا لوجه الله.

الرسالة التربوية والعملية:
الآية تدعونا إلى التنافس في الطاعات، وأن نكون في مقدمة الصفوف في كل خير .فكما أن النبي ﷺ كان أول المسلمين، ينبغي للمؤمن أن يسعى ليكون من السابقين المقربين، لا من المقتصدين أو الظالمين لأنفسهم.

الأمر الثالث: الإعلان عن الخوف من الله وحده - "قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ")آية(13

بعد أن أعلن النبي ﷺ إخلاصه وسبقه للإسلام، يعلن في هذه الآية الدافع والرادع الذي يمنعه من مخالفة أمر الله: الخوف من عذاب الله.

دلالات الألفاظ والتعابير:

· "إِنِّي أَخَافُ": إعلان صريح بأن الخوف واقع في قلبه .وهو هنا خوف من عذاب يوم القيامة، وليس خوفًا من المخلوقين أو من فوات مصلحة دنيوية .وهذا هو الخوف المحمود، خوف الإجلال والتعظيم لله، والخوف من عقابه.
· "إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي": العصيان هو مخالفة الأمر .والنبي ﷺ يقر بأنه عبد مربوب، وأنه إن خالف أمر ربه استحق العقاب .وهذا مع أنه معصوم من الذنوب الكبائر والصغائر، لكنه يُظهر عبوديته لله، ويُعلم أمته أن لا يأمنوا مكر الله، وأن يكونوا على وجل دائم من مخالفة أمره.
· "عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ": وصف اليوم بالعظيم، تهويل لشأنه، وتفظيع لأهواله، ليحمل النفوس على الخوف منه، ومن ثم الاستعداد له بالعمل الصالح.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية ترسخ مبدأ عظيمًا في التربية الإيمانية: الخوف من الله هو الحارس الأمين على الطاعة . فمن خاف عذاب الله، سارع إلى امتثال أمره واجتناب نهيه .وهذا الخوف لا يتنافى مع محبة الله ورجائه، بل هو قرينهما، كما رأينا في صفة القانت: "يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ") الآية .(9 فالنبي ﷺ يخاف ربه ويعبده، لأنه يعلم عظمته ويعلم شدة عذابه.

الأمر الرابع: تكرار الإعلان وتوكيد الإخلاص - "قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي") آية(14

تأتي الآية الرابعة لتؤكد ما سبق وتزيده توكيدًا وقوة: "قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي".

دلالات التقديم والتوكيد:

· تقديم اسم الجلالة "اللَّهَ": الأصل في الجملة الفعلية: "أعبد الله" .لكنه قُدِّم هنا على الفعل، فقال: "اللَّهَ أَعْبُدُ" .هذا التقديم يفيد الحصر والاختصاص .فالمعنى: لا أعبد إلا الله، ولا أخص بعبادتي أحدًا سواه . إنه أعلى درجات الإخلاص والتوحيد.
· تغيير الصياغة من "الدين") آية (11 إلى "ديني") آية(14 : في الآية الأولى قال: "أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ"، وفي هذه الآية قال: "مُخْلِصًا لَهُ دِينِي" .إضافة "الدين" إلى نفسه) ديني (تشير إلى التملك و الاختصاص الشخصي .كأنه يقول: "هذا ديني الذي أدين الله به، وهو خالص له وحده، ولن أسمح لأحد

أن يشاركني فيه أو يزاحمني عليه" .إنه إعلان عن الهوية الدينية الخالصة التي لا تقبل الشركة ولا المساومة.

الربط بين الآيات الأربع كوحدة متكاملة:

· الآية11 : إعلان الامتثال للأمر: "أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا".
· الآية12 : إعلان السبق والمسارعة: "لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ".
· الآية13 : إعلان الدافع والرادع: "أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي".
· الآية14 : إعلان الهوية الخالصة والحصر: "اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي".

وهكذا ترى كيف أن الآيات ترسم لنا منهجًا متكاملا ً في العبودية: الامتثال ثم السبق بدافع الخوف، وكل ذلك في إطار الإخلاص التام لله.
ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيات

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيات

.١المفاهيم العملية من الآيات:

· الإعلان باللسان عن العقيدة: كما أمر النبي ﷺ أن يقول: "قلْ"، فأنت مأمور أن تعلن إيمانك وإخلا صك لله، ولا تخفي دينك خوفًا من الناس.
· الامتثال لأمر الله دون تردد: قول النبي ﷺ: "أُمِرْتُ" يعلمنا أن نسارع إلى طاعة الله متى بلغنا أمره، دون تسويف أو جدال.
· المسارعة والسبق إلى الخيرات: السعي ليكون المسلم من "أول المسلمين" في أي عمل صالح) الصلاة في أول الوقت، الصدقة، إغاثة الملهوف.(...
· جعل الخوف من الله هو الباعث على الطاعة: استحضار عذاب الله وخوف عقابه عند الهم بمعصية أو التكاسل عن طاعة.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: الثبات والوضوح: تكرار الإعلان "قل ...قل ...قل..." يبني في النفس شخصية واضحة الهوية، ثابتة على المبدأ، لا تتلون بتلون الظروف والضغوط.
· تربويًا: التربية على الإخلاص: الآيات كلها تدور حول محور "الإخلاص لله"، وهذا هو الهدف الأسمى من تربية النفس.
· سلوكيًا: الجرأة في الحق: الجهر بالتوحيد والإخلاص في وجه المشركين يعلمنا الشجاعة الأدبية، وأن لا نخاف في الله لومة لائم.

.٣أبعاد وآفاق الآيات:

· البعد الفردي: بناء شخصية مسلمة مستقلة، هويتها: "اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي"، لا تتأثر بالضغوط الخارجية.
· البعد الاجتماعي: هذه الإعلانات العلنية من قائد الأمة) النبي ﷺ (ترسم هوية المجتمع المسلم، وتجعله مجتمعًا متميزًا بعقيدته الخالصة.
· البعد الدعوي: الآيات تعلمنا كيفية الدعوة إلى الله: بالجهر بالحق، وبيان الدوافع) الخوف من الله(، وإظهار الالتزام الشخصي قبل دعوة الآخرين.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة الإخلاص: جوهر الدين وأساس قبول العمل.
· قيمة المبادرة والسبق: التنافس في مرضاة الله.
· قيمة الخوف من الله: الرادع عن المعاصي والحافز على الطاعات.
· قيمة الإعلان والوضوح: عدم التلون أو النفاق.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء إنسان متوازن صادق مع نفسه ومع ربه: إنسان يعبد الله بإخلاص، ويخافه في السر والعلن،

ويسارع في الخيرات .هذا الإنسان هو اللبنة الأولى للمجتمع الصالح.
· بناء مجتمع التوحيد الخالص: عندما تكون هذه العقيدة هي المعلنة على ألسنة الأفراد والقادة، يصبح المجتمع مجتمعًا ربانيًا، قوامه الإخلاص لله والطاعة والخوف من معصيته، وهذا هو أساس القوة و العزة.
· بناء حضارة إنسانية راقية: حضارة تقوم على العبودية الخالصة لله، تحرر الإنسان من عبودية المادة والشهوات والطغاة .فالحضارة الغربية اليوم تعاني من أزمة روحية وأخلاقية لأنها قامت على عبادة الذات والمادة .أما حضارتنا فتقوم على "اللهَ أَعْبُدُ"، وهذا يضمن لها التوازن والاستدامة.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيات

١.التربية على الإخلاص لله: بمراقبة النية في كل عمل، وتصحيحها باستمرار.
٢.التربية على المبادرة والتنافس في الخير: تعويد النفس على أن تكون في مقدمة الصفوف في الطاعات.
٣.التربية على الخوف من عذاب الله: وذلك بتذكر اليوم الآخر وأهواله، لتلين القلوب وتخشع.
٤.التربية على الجهر بالحق والثبات عليه: عدم مداراة العقيدة أو التنازل عن المبادئ إرضاءً للخلق.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيات على الواقع في حياتنا العملية

1.في عقيدتك وهويتك: ليكن شعارك في الحياة: "اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي" .ردد هذه الكلمة بقلبك ولسانك كلما شعرت بضغط يدفعك لمسايرة الباطل أو الخوف من غير الله.
2.في عباداتك: قبل كل عبادة) صلاة، صدقة، صيام(، جدد نية الإخلاص .قل بقلبك: "اللهم إني أعبدك مخلصًا لك ديني، فأعنّي على ذلك".
3.في دعوتك للآخرين: كن قدوة عملية قبل أن تكون داعية باللسان .أظهر لهم إخلاصك وثباتك على دينك، واجعلهم يرون أثر هذا الإخلاص في سلوكك وأخلاقك.
4.في مواجهة الضغوط والفتن: إذا دعاك أحد لمعصية أو تنازل في دينك، تذكر قول النبي ﷺ: "إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" .هذا الخوف الإيماني يحميك من الانزلاق والانحراف.
5.في مسابقتك للخيرات: لا تكتفِ بأن تكون من عامة المؤمنين، بل اسعَ لتكون من السابقين .بادر إلى الصلاة في أول وقتها، وإلى الصف الأول، وإلى مساعدة المحتاجين، وإلى طلب العلم، وإلى كل أبواب الخير.
ختامًا، أيها المؤمن المخلص، إن هذه الآيات الأربع هي بطاقة تعريفك وهويتك الإيمانية .إنها تعلمك أن تكون واضحًا صريحًا في عقيدتك، شجاعًا في إعلانها، ثابتًا عليها في كل الظروف .هي تدعوك أن تعيش حياتك كلها لله: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ ﷺ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ") الأنعام:162 - .(163فكن عبدًا لله خالصًا، وكن من أوليائه المتقين، وانتظر البشرى في الدنيا والآخرة.
المبحث الثاني
أ
بعد أن أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن بكل وضوح وصراحة: "اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي" (الآية: 14)، وبيّن منهجه القويم الذي لا عوج فيه، ينتقل السياق القرآني إلى الطرف الآخر: المشركون الذين عبدوا ما شاءوا من دون الله. لقد أقيمت عليهم الحجة، ووضح لهم السبيل، ومع ذلك أصروا على ضلالهم. فماذا كانت النتيجة؟ تأتي هاتان الآيتان (15-16) لترسم مشهدًا مرعبًا من مشاهد الآخرة، وتعلن بلسان الحق: أن هؤلاء هم الخاسرون حقًا، وأن عذابهم عذاب محيط لا مفر منه.

إنهما آيتان تجمعان بين الترهيب والتحذير، وبين التذكير والترغيب، بأسلوب يهز القلوب الغافلة ويدفعها إلى التقوى. دعنا نعيش مع هاتين الآيتين، ونتدبر معانيهما العميقة.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ(16) ﴾] الزمر:15 -16[

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - مشهد الخسران المحيط

لنقف مع كل مقطع من هاتين الآيتين، ونستخرج دررهما وعبرهما.

الأمر الأول: التهديد والوعيد في صيغة أمر - "فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ" (آية 15)

بعد أن أعلن النبي ﷺ موقفه الواضح: "اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لهُ دِينِي"، يأتي الخطاب موجّهًا إلى المشركين في صورة أمر، ولكن المقصود به التهديد والوعيد، لا الإباحة والتخيير. وهذا أسلوب قرآني بليغ يستعمل للإنذار والإعذار.

· "فَاعْبُدُوا": الفاء هنا للتفريع والربط .كأن الآية تقول: "بما أنكم أبيتم إلا عبادة غير الله، وقد أقيمت عليكم الحجج البينات، فشأنكم وما تختارون .اعبدوا ما شئتم من هذه الأصنام والأوثان والأهواء من دون الله .فأنتم وشأنكم! ولكن اسمعوا عاقبة هذا الاختيار".
· "مَا شِئْتُمْ": إطلاق المشيئة هنا للتهكم بهم وبيان جهلهم .كأنه يقول: "اختاروا ما شئتم من هذه الآلهة المزعومة، فليس لها من الأمر شيء، ولن تغني عنكم من الله شيئًا".
· "مِنْ دُونِهِ": أي من دون الله .وهذا هو جوهر المشكلة: أنهم تجاوزوا الخالق العظيم إلى مخلوقات عاجزة.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا الأسلوب يوقظ العقل ويصعق الضمير. إنه يجعل الإنسان يتخيل نفسه وهو يتلقى هذا الخطاب: "اذهب واعبد ما شئت!". ألا يرتجف القلب خوفًا من هذا التخلية والتهديد المبطن؟ إنه أبلغ في التحذير من قول: "لا تعبدوا". لأنه يجعلك تشعر أنك متروك لهواك، وهذا هو عين الخذلان.

مثال تقريبي:
تخيل أبًا قال لابنه المتمرد: "افعل ما شئت، اخرج من البيت، عش حياتك كما تريد!". هذا الأب لم يبح لابنه التمرد، بل هو في قمة الغضب واليأس من إصلاحه، وهو يحذره من عاقبة تركه وحيدًا دون رعاية. هذا هو حال الله مع المشركين: يتركهم لهواهم بعد أن أقام عليهم الحجة، ليذوقوا وبال أمرهم.

الأمر الثاني: بيان حقيقة الخسران الأبدي - "قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"

بعد أن هددهم بهذا الأمر، يأمر الله نبيه ﷺ أن يعلن حقيقة الخسران الذي سيصيبهم.

· "قُلْ": أمر للنبي ﷺ بإبلاغ هذا الخبر اليقيني.
· "إِنَّ الْخَاسِرِينَ": الجملة مؤكدة بـ "إنّ" لتفيد اليقين والقطع بأن هؤلاء هم الخاسرون حقًا .وتعريف "الخاسرين" بـ "ال" للدلالة على أنهم بلغوا الغاية في الخسران، فهم الخاسرون على الإطلاق، لا خاسر بعدهم.
· "الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ": كيف يخسر الإنسان نفسه؟ بأن يبيع نفسه الأبدية) في الجنة (بثمن بخس)متاع الدنيا الزائل(، وبأن يهلكها ويدخلها النار .وهذا أعظم أنواع الخسران، قال تعالى: "قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وقال أيضًا: "أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ") البقرة: .(16 إنه خسران أبدي لا يعوض.
· "وَأَهْلِيهِمْ": كيف يخسرون أهليهم؟
· في الدنيا: لأنهم كانوا سببًا في ضلال أهليهم وإغوائهم، فخسروهم في الدنيا من حيث أرادوا نفعهم.
· في الآخرة: لأنهم إذا كانوا هم وأهليهم في النار، فهم لا ينتفعون بهم، بل قد يكون أهلوهم سببًا في زيادة عذابهم وحسرتهم .وإن كان أهلوهم في الجنة) لأنهم آمنوا(، فقد خسروهم أيضًا، لأنهم حُرموا من لقائهم وصحبتهم في الجنة بسبب كفرهم.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا المشهد يفتح العين على حقيقة الخسارة. الخسران ليس فقدان المال أو المنصب، بل هو فقدان النفس والأهل يوم القيامة. إنه يحول تفكيرنا من المقاييس المادية الدنيوية إلى المقاييس الأخروية الحقيقية. أي عاقل يرضى لنفسه أن يخسر نفسه وأحب أهله إليه إلى الأبد من أجل شهوة عابرة أو عناد ساعة؟

الأمر الثالث: تأكيد الخسران وبيان شدته - "أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ"

تأتي هذه الجملة لتأكيد الحقيقة السابقة وتضخيمها.

· "أَلَا": أداة تنبيه واستفتاح، تفيد أن ما بعدها أمر عظيم يجب الانتباه له .إنها بمثابة صيحة تحذير: "انتبهوا! اسمعوا! إن الخسران الحقيقي هو ما أخبركم به".

· "ذَٰلِكَ": اسم الإشارة للبعيد، للإشارة إلى عِظم هذا الخسران وبُعده في الشدة والفظاعة عن متناول التصور.
· "هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ": تعريف الخسران بـ "ال" وقصر صفته على "المبين") أي الواضح الجلي الذي لا شك فيه .(إنه خسران لا خفاء فيه، تراه العيون وتشهده القلوب يوم القيامة.

الأمر الرابع: وصف العذاب المحيط - "لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" (آية 16)

بعد أن بيّن الخسران المجمل، يفصل لنا شيئًا من العذاب الذي يستحقه هؤلاء الخاسرون، في رسم بياني مرعب يخاطب الخيال والعقل معًا.

· "لَهُمْ": أي لهؤلاء الخاسرين خاصة.
· "مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ": الظُلَل جمع "ظُلَّة"، وهي ما يُظلِل ويُغطِّي من سحاب أو غيره .وهنا هي غيوم وأغطية من النار تعلوهم وتحيط بهم من فوقهم، تمنع عنهم أي راحة أو برد.
· "وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ": أي ومن تحتهم أيضًا أغطية وطبقات من النار .وهذا هو الإحاطة الكاملة: النار فوقهم وتحتهم .وهذا وصف لعذاب المحيط بالكافر من كل جهة، فلا مفر له ولا منفذ .وفي آية أخرى: "لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ") الأعراف: .(41 وفي أخرى: "إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا") الكهف:.(29

اللمسة البيانية:
استخدام كلمة "ظُلَل" يوحي بضخامة العذاب وكثافته. فالظلة في الدنيا تكون للسحب المثقلة بالمطر، أو للغمام الذي يظلل من الشمس. أما في الآخرة، فهي ظلل من نار! إنها صورة مرعبة: لا سماء مفتوحة، ولا أرض صلبة، بل سقف من نار، وفراش من نار. إنه الكرب العظيم الذي لا يُتصوّر.

الأمر الخامس: بيان الحكمة من هذا التخويف - "ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ"

بعد هذا الوصف المرعب، يأتي التعقيب الإلهي ليبين أن هذا الوعيد ليس عبثًا، بل له غاية تربوية عظيمة.

· "ذَٰلِكَ": أي هذا العذاب الموصوف بهذه الصورة المهولة.
· "يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ": الله سبحانه، برحمته وفضله، يخوّف عباده بهذا المصير ليجتنبوا أسبابه، وليحذروا من الطريق المؤدي إليه .إنه تخويف محمود، الغرض منه التحذير والإنذار، ليكون العباد على بصيرة من أمرهم، وليسارعوا إلى التوبة والإنابة قبل فوات الأوان.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا الأسلوب التربوي الإلهي يجمع بين الترهيب والترغيب. فكما رغّب الله عباده في الجنة ونعيمها، رهّبهم من النار وعذابها. النفس البشرية تحتاج إلى هذين الدافعين معًا لتستقيم. فالخوف من النار يردع عن المعاصي، والشوق إلى الجنة يدفع إلى الطاعات.

الأمر السادس: النداء الختامي - "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ"

تختم الآية بهذا النداء الحاني المباشر من الله لعباده المؤمنين.

· "يَا عِبَادِ": عدنا مرة أخرى إلى ذلك النداء الرقيق الذي يفيض رحمة وقربًا .إنه نداء تشريف وتكريم، يذكرهم بأنهم عباده الذين يحبهم ويريد لهم الخير .لم يقل: "يا أيها الناس" أو "يا أيها الكافرون"، بل خصّهم بنداء العبودية لله.
· "فَاتَّقُونِ": أي فاجعلوا بينكم وبين هذا العذاب الذي وُصف لكم وقاية، وذلك بفعل أوامري واجتناب نواهيي .إنه الأمر الذي يلخص الدين كله.

الربط بين التخويف والأمر بالتقوى:
لاحظ التسلسل البديع: وصف العذاب ← بيان أنه تخويف من الله ← الأمر بالتقوى. كأنه يقول: "ها قد وصفت لكم العذاب وحذرتكم منه. فالآن، الطريق إلى النجاة هو تقواي. من اتقاني نجا من هذا العذاب وفاز برحمتي".
ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيتين

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيتين

.١المفاهيم العملية من الآيتين:

· استحضار مشاهد الآخرة في الحياة اليومية: عندما تهم بمعصية، تذكر قوله: "لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" .هذا الاستحضار يبرد شهوة المعصية ويجعل تركها أسهل.
· محاسبة النفس على الأولويات: الآيات تعيد ترتيب الأولويات في ذهن المؤمن، فتجعل نجاة النفس والأهل هي الهدف الأسمى الذي يسعى له، لا جمع المال أو نيل المنصب.
· التحذير من الغفلة: عدم الاستهانة بوعيد الله والظن بأنه بعيد، بل العمل وكأن العذاب واقع غدًا.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: الخوف المحمود والطمأنينة للمؤمن: تخويف الله لعباده ليس لتدميرهم نفسيًا، بل لإنقاذهم .ف المؤمن عندما يسمع هذا الوعيد، يزداد يقينه بأنه على الحق، وأن نجاته في تقوى الله، فيطمئن قلبه . أما الكافر فيرتعد فؤاده.
· تربويًا: التربية بالترهيب والترغيب معًا: الآيتان تركزان على الترهيب) وصف العذاب (ثم تعقبان بـ الترغيب الضمني في النجاة) فاتقون .(هذا التوازن يبني شخصية سوية، خائفة وراجية.
· سلوكيًا: الاهتمام بأمر الأهل: خسران الأهل يوم القيامة مفهوم عميق يدفع المؤمن إلى الاجتهاد في تربية أهله وتعليمهم ودعوتهم إلى الخير، حتى لا يكونوا سببًا في حسرته يوم القيامة .قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا") التحريم:.(6

.٣أبعاد وآفاق الآيتين:

· البعد الفردي: بناء شخصية تقيّة واعية، تدرك حقيقة الخسران والنجاح بمقاييس الآخرة.
· البعد الأسري: التأكيد على المسؤولية الأسرية، وأن صلاح الأسرة وهدايتها جزء من نجاة الفرد وحمايته من الخسران.
· البعد الإيماني: ترسيخ عقيدة اليوم الآخر وأهوالها في القلب، مما يورث الخوف من الله والمراقبة الدائمة.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة الوعي بالعواقب: النظر إلى عواقب الأفعال في الآخرة.
· قيمة تقوى الله: كسبيل وحيد للنجاة من العذاب.
· قيمة المسؤولية الأسرية: رعاية الأهل وإرشادهم.
· قيمة الحذر والتيقظ: من غضب الله وعذابه.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان التقي: الآيتان تبنيان إنسانًا يعيش في الدنيا بجسده، وقلبه معلق بالآخرة .إنسان همه ا لأكبر: كيف أنجو بنفسي وأهلي من هذا العذاب المحيط؟ هذا الإنسان يكون دائم المراقبة لله، بعيدًا عن المعاصي، مجتهدًا في الطاعات.
· بناء أسرة متماسكة على الإيمان: الخوف من خسران الأهل يدفع رب الأسرة إلى أن يكون داعية خير في بيته، يربي أبناءه على الإيمان والتقوى، ويحرص على صلاح زوجته، فتكون الأسرة المسلمة نواة المجتمع الصالح.
· بناء مجتمع متضامن خائف من الله: إذا ساد هذا الوعي، أصبح المجتمع كله يحذر النار ويتقي أسبابها .تنتشر الأخلاق الفاضلة، وتختفي الجرائم والموبقات، ويعيش الناس في أمن وأمان، خوفًا من عذاب الله ورجاءً في رحمته.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيتان

.١التربية بالتخويف من عذاب الله: استخدام أسلوب الترهيب لتقويم السلوك.
.٢التربية على تحمل المسؤولية الشخصية والأسرية: كل فرد مسؤول عن نفسه وعن أهله.
.٣التربية على حقيقة الخسران والربح: تغيير المفاهيم المادية حول معنى النجاح والفشل.
.٤التربية على الاستجابة للنداء الإلهي: "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ" هو نداء يجب أن يجد آذانًا صاغية وقلوبًا واعية.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيتين على الواقع في حياتنا العملية

.1عند التفكير في مستقبلك: لا تجعل كل همك المستقبل المهني والمالي، بل اجعل سؤالك الأول: "كيف أضمن مستقبلي في الآخرة؟ كيف أنجو بنفسي وأهلي من عذاب الله؟".
.2في تربية أبنائك: لا تقتصر على تعليمهم العلوم الدنيوية، بل علمهم القرآن والسنة، واغرس في قلوبهم الخوف من الله واليوم الآخر .ذكرهم بقصص الآخرة وأهوالها، واجعلهم يعيشون مع هذه المعاني لتنشأ قلوبهم على التقوى .هذا هو استثمارك الحقيقي الذي سينفعك يوم القيامة.
.3عند الوقوع في المعاصي: استحضر مشهد "ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ" .تخيل نفسك محاطًا بالنار من فوقك ومن تحتك .هذا الاستحضار يحدث صدمة إيمانية تمنعك من الاستمرار في المعصية.
.4في دعوتك للآخرين: إذا رأيت غافلا ً يرتكب المنكرات، ذكره برفق: "يا أخي، هل تضمن أن تنجو من عذاب الله؟ ألا تخاف أن تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة؟" .هذا الأسلوب القرآني في التخويف و التحذير هو من أنجح أساليب الدعوة.
.5في كل حين: استجب لنداء الله: "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ" .اجعل التقوى شعار حياتك .ردد بقلبك: "لبيك ربي، سمعًا وطاعة، سأتقي غضبك وعذابك بكل ما أستطيع".
ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هاتين الآيتين الكريمتين تفتحان أمامك نافذة على الآخرة، لتريك مشهد الخاسرين وهم محاطون بالنار. ثم تضعان بين يديك مفتاح النجاة: "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ". إنهما صرخة تحذير من رب رحيم، يريد لك الخير والنجاة. فلا تغفل عن هذا النداء، واجعل حياتك كلها لله، وخوفك من الله، ورجاءك في الله، حتى تكون ممن آمنوا وكانوا يتقون، فتكون لك البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

المبحث الثالث

أيها المتدبر الكريم، لقد وقفنا في الآيتين السابقتين (15-16) على مشهد مرعب من مشاهد الآخرة، حيث الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، والذين أحاطت بهم النار من فوقهم ومن تحتهم. إنه مشهد يهز الضمائر، ويدفع كل عاقل للبحث عن طريق النجاة من هذا المصير المحتوم. وهنا، في الآية السابعة عشرة، يفتح الله لنا باب الأمل على مصراعيه، ويكشف لنا عن صنف آخر من الناس، صنف نجا من هذا الخسران المبين. من هم؟ وكيف نجوا؟ وما هي جائزتهم؟ هذا ما سنجيب عنه في رحاب هذه الآية الكريمة.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الزمر:[17]

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - الطريق إلى البشرى والنجاة

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة، ونستخرج كنوزها ودروسها.

الأمر الأول: أساس النجاة الأول - اجتناب الطاغوت "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا"

تبدأ الآية بوصف الصنف الناجي: "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا". هذا هو الشرط الأول للنجاة، والأساس الذي لا تقوم النجاة بدونه. ما هو "الطاغوت"؟ وكيف يكون اجتنابه؟

أ. مفهوم الطاغوت (المعنى العام والخاص):

· في اللغة: الطاغوت مشتق من "الطغيان"، وهو مجاوزة الحد وتجاوز القدر .فكل ما تجاوز حده وطغى على الحق فهو طاغوت.
· في المعنى العام للآية: الطاغوت هو كل ما يُعبد من دون الله من قول أو فعل أو عمل أو فكر، ظاهر أو باطن، مما يكرهه الله ولا يرضاه .فهو يشمل:
· الأصنام والأوثان: التي كانت تُعبد جسديًا.
· البشر المتجبرون: الذين يُطاعون في معصية الله، كالحكام الظلمة والعلماء المضلين.
· الأهواء والشهوات: التي تتحكم في الإنسان وتجعله عبدًا لها من دون الله.
· الشيطان: رأس كل طاغوت، وهو الداعي إلى كل معصية وطغيان.
· في المعنى الخاص والسياق: الطاغوت هنا يشمل كل ما عبده المشركون من دون الله من أصنام وم لائكة وبشر، كما ورد في الآيات السابقة) اتخاذ الأنداد، عبادة الملائكة، زعم الشفعاء.(

ب. دلالة فعل "اجْتَنَبُوا":
لم يقل: "الذين آمنوا" أو "الذين تركوا" فحسب، بل قال: "اجْتَنَبُوا". والاجتناب أبلغ من الترك. إنه يعني الابتعاد والمباعدة والتحرز من الشيء. إنه ليس مجرد ترك العبادة، بل هو النفور منها، والفرار من كل

ما يقرب إليها، واتخاذ موقف حازم واضح من كل رموزها. فالذي يجتنب الطاغوت لا يمر بقربه، ولا يحوم حول حماه، بل يجعل بينه وبينه مسافة أمان واقية.

ج. معنى "أَن يَعْبُدُوهَا":
أي كراهة أن يعبدوها، أو لأجل أن لا يعبدوها. فاجتنابهم كان بسبب نفورهم من عبادة الطاغوت، وليس لمجرد مصلحة دنيوية.

الرسالة التربوية والنفسية:

· تحرير الإرادة: اجتناب الطاغوت يعني تحرير النفس من كل سلطان غير سلطان الله .إنه إعلان الا ستقلال والحرية الحقيقية .فمن جعل همه رضا الله وحده، تحرر من الخوف من المخلوقين، ومن التعلق بهم، ومن طاعتهم في معصية الله.
· ضبط الانفعالات والمشاعر: المؤمن الحق يحب ما يحب الله، ويبغض ما يبغض الله .فاجتناب الطاغوت يشمل اجتناب محبته وتعظيمه والركون إليه في القلب .وهذا هو ضبط قوة الحب والبغض في النفس ليكون تبعًا لمرضاة الله.

مثال تقريبي:
تخيل إنسانًا مصابًا بمرض السكري. الطبيب نهاه عن أكل السكر والحلويات. "ترك" السكر يعني أنه لا يأكله، لكنه قد يجلس بجانبه ويتأمله ويشتهيه. أما "اجتناب" السكر فيعني أنه يبتعد عن مكان وجوده ، ولا يجعله في بيته، ويحرص على ألا يقع بصره عليه. هذا هو الفرق بين الترك والاجتناب. المؤمن يجتنب الطاغوت بكل صوره: لا يسمع أغاني الشرك، لا يشاهد أفلام الإلحاد، لا يصاحب أهل الضلال، لا يجلس في مجالس الاستهزاء بالدين. إنه يضع وقاية وحماية لنفسه من أي شائبة شرك أو معصية.

الأمر الثاني: أساس النجاة الثاني - الإنابة إلى الله "وَأَنابُوا إِلَى اللهِ"

بعد أن ذكر اجتناب الطاغوت، ذكر المقابل الإيجابي: "وَأَنابُوا إِلَى اللهِ". الإنابة هي الرجوع والإقبال إلى الله بالتوبة والطاعة بعد الإعراض.

أ. دلالة "أَنابُوا" بصيغة الفعل الماضي:
صيغة الماضي هنا تدل على تحقق الفعل وثبوته. فهم قد أنابوا فعلًا، ورجعوا إلى الله رجوعًا صادقًا حقيقيًا، لا مجرد نية أو وعد.

ب. معنى الإنابة الشاملة:
الإنابة ليست مجرد توبة من ذنب معين، بل هي حالة قلبية دائمة، وهي:

· توبة من الشرك والكفر: الرجوع إلى توحيد الله بعد الإشراك به.
· إقبال على الله بالعبادة والطاعة: بعد أن كانوا مقبلين على الطاغوت.
· استشعار دائم للفقر والحاجة إلى الله: في كل شؤون الحياة.
· المسارعة إلى التوبة عند الوقوع في الذنب: دون تسويف أو تأخير.

الرسالة التربوية والنفسية:

· أساس الفاعلية الإيجابية: الإنابة إلى الله هي المحرك الحقيقي للعمل الصالح .فحين تشعر بوجود الله وقربه، فإن هذا الشعور يدفعك إلى التوبة والمسارعة إلى الطاعات .هذا هو "الإحسان" الذي فسره النبي ﷺ بقوله: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" .فمن شعر بأن الله يراه، سارع إلى الإنابة والتوبة.
· خطورة التسويف: الآية تدعو إلى "الإنابة" أي الرجوع الفوري .والتسويف في التوبة) سوف أتوب غدًا، سوف أصلي عندما أكبر (...هو من حيل الشيطان ومكايد النفس .فمن يدريك متى يأتيك الأجل؟ الإنابة الحقة هي التي تتم الآن وفورًا، لأن العبد لا يضمن بقاءه للحظة قادمة.

الربط بين اجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله:
هاتان مرحلتان متلازمتان: التخلية ثم التحلية. لا بد أولا ً من تخلية القلب من حب الطاغوت واتباعه، ثم تحليته بحب الله وطاعته. فلا تصح الإنابة إلى الله مع بقاء تعلق بالطاغوت في القلب. وكما قال تعالى: "فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى" (البقرة: 256). فهنا ق ال: "اجتنبوا الطاغوت" وهو أعلى من الكفر به، ثم "أنابوا إلى الله" وهو أعلى من مجرد الإيمان. إنها

مراتب الكمال.

الأمر الثالث: الثمرة والجائزة - "لَهُمُ الْبُشْرَى"

بعد أن ذكر الله وصفهم (اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله)، يذكر ثمرة ذلك وجائزتهم: "لَهُمُ الْبُشْرَى".

ما هي "البشرى"؟
كلمة "البشرى" نكرة في سياق الإثبات تفيد التعظيم والشمول. فهي بشرى عظيمة شاملة، تشمل:

· البشرى في الدنيا:
· الطمأنينة القلبية والسكينة: استشعار ولاية الله وحمايته، مما يملأ القلب أنسًا بالله وفرحًا بقربه . وهذا الأنس بالله هو أعظم وأفضل من كل أنس بالمخلوقين، لأنه أنس بالحي الذي لا يموت، وبالقوي الذي لا يضعف، وبالغني الذي لا يفتقر) .كما ذكرت في طلبك: "يحصلون على الاطمئنان والأنس بالله الذي هو أشد وأفضل أنسًا من كل أليف، وأسدهم حضورًا للمعتمدين عليه".(
· الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له.
· الثناء الحسن من الناس والقبول في الأرض.
· حسن الخاتمة عند الموت.
· البشرى في الآخرة:
· عند الموت: تبشره الملائكة بالجنة .قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ") فصلت:.(30
· في القبر: ينعم بالروح والريحان، ويبشر بمقعده من الجنة.
· يوم القيامة: يُؤتى كتابه بيمينه، ويبشر بالفوز والنجاة من النار ودخول الجنة.
· السلامة من النار: فلن يصيبه الحريق الذي يصيب الخاسرين .وهذه أعظم بشرى تتحقق باجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله.

اللمسة البيانية:
"البشرى" اسم جنس يشمل كل خير وكل فرح وسرور. فكأن الآية تقول: "كل ما يسر ويبهج القلب في الدنيا والآخرة فهو حاصل لهم".

الأمر الرابع: الأمر الإلهي بالتبشير - "فَبَشِّرْ عِبَادِ"

بعد أن بيّن الله أن لهم البشرى، يأمر نبيه ﷺ مباشرة: "فَبَشِّرْ عِبَادِ". وهذا الأمر يحمل عدة رسائل:

· تكريم النبي ﷺ وجعله مصدر البشرى: فالنبي ﷺ هو الذي يحمل بشرى الله إلى عباده، وهذا من أعظم مهامه.
· تشريف المؤمنين وإضافتهم إلى الله: وصفهم بـ "عِبَادِ") عبادي (مضافين إليه .وهذا تشريف عظيم، وهو نفس النداء الذي تكرر: "يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا"(10) ، "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ" .(16) إنه نداء يفيض حنانًا ورحمة وقربًا .هؤلاء هم عباده المخلصون الذين استحقوا البشرى.
· إظهار رحمة الله الواسعة: فالله يأمر نبيه أن يبشرهم، ليطمئن قلوبهم ويزيدهم فرحًا وسرورًا .وهذا يبين لنا أن الله يحب لعباده الخير والفرح، ويريد لهم أن يعيشوا في هذه الدنيا مبشرين غير محزونين.

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· الابتعاد العملي عن مواطن الشرك والمعاصي: ليس فقط تركها، بل اجتناب كل ما يقرب إليها)أصدقاء السوء، وسائل الإعلام المضللة، أماكن الفسق.(
· المسارعة الفورية إلى التوبة: عدم التسويف، والرجوع إلى الله كلما وقع ذنب أو غفلة.
· نشر البشرى والأمل بين المؤمنين: كما أمر الله نبيه: "فَبَشِّرْ عِبَادِ"، فأنت مأمور بأن تكون مبشرًا لإ خوانك المؤمنين، تذكرهم برحمة الله وسعة مغفرته، وتزرع في قلوبهم الأمل والرجاء.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: الطمأنينة والأنس بالله: الآية تفتح باب الأمل بعد مشاهد العذاب المرعبة .فالمؤمن يشعر بـ الطمأنينة أنه باجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله قد أصبح في ولايته وحمايته، وهذا يملأ قلبه أنسًا وسعادة لا توصف.
· تربويًا: بناء الشخصية الحرة العزيزة: التربية على اجتناب الطاغوت تبني شخصية مستقلة، لا تنقاد لأهوائها ولا لضغوط الآخرين، بل مرجعيتها الوحيدة: "ما يحبه الله ويرضاه".
· سلوكيًا: تحويل الخوف من الله إلى فاعلية إيجابية: الخوف من عذاب الله لا يؤدي إلى اليأس والإحباط، بل يدفع إلى الإنابة والعمل الصالح، وهذا هو الفاعلية الإيجابية المثمرة.

٣.أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: الآية ترسم طريق التحرر الشخصي من كل عبودية لغير الله، وتوصل إلى كمال صلاح الحال والبال.
· البعد الاجتماعي: المجتمع الذي يجتنب أفراده الطواغيت وينيبون إلى الله، هو مجتمع آمن مطمئن، تسوده المحبة والتعاون على الخير.
· البعد الإيماني: الآية تؤكد على الولاء والبراء، وهو أصل من أصول الإيمان.

٤.القيم المستخلصة:

· قيمة الحرية الحقيقية: التحرر من عبودية كل طاغوت.
· قيمة الإنابة والمسارعة إلى الله.
· قيمة الأمل والرجاء: بالبشرى الإلهية.
· قيمة الفرح بفضل الله ورحمته: والاستجابة لأمره بالتبشير.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان الكامل: الآية تبني إنسانًا متوازنًا: قلبًا خائفًا وراجيًا، وسلوكًا مجتنبًا للشر ومنيبًا إلى الخير .هذا هو الإنسان السوي الذي يصلح لعمارة الأرض.
· بناء مجتمع التوحيد الخالص: المجتمع الذي يجتنب أفراده الطاغوت) بكل صوره (هو مجتمع التوحيد، الذي لا يخضع إلا لله، ولا يتحاكم إلا لشرعه .وهذا هو أساس قوة المجتمع وعزته.
· بناء حضارة إنسانية راقية: حضارة قوامها العبودية الخالصة لله، تحرر الإنسان من كل الطواغيت العصرية) كالمادية والإلحاد والاستهلاكية(، وتصنع إنسانًا متوازنًا روحيًا وماديًا.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

١.التربية على الاجتناب الكامل لكل ما يغضب الله: لا مجرد الترك.
٢.التربية على الإنابة الدائمة والرجوع السريع إلى الله.
٣.التربية على استشعار البشرى الإلهية: ليعيش المؤمن في أمل وطمأنينة.
٤.التربية على تبشير الآخرين ونشر الخير والأمل.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

1.في عقيدتك وقناعاتك: راجع قلبك باستمرار .هل فيه تعلق بغير الله؟ هل تخاف أحدًا كخوفك من الله؟ هل ترجو أحدًا كرجائك في الله؟ طهر قلبك من كل طاغوت) حب جاه، مال، شخص (لا يرضاه الله.
2.في سلوكك اليومي: إذا رأيت منكرًا أو سمعت باطلا ً، اجتنبه بمعنى الكلمة .لا تكتفِ بعدم المشاركة، بل ابتعد عن المكان، واكره ذلك بقلبك .وإذا وقعت في ذنب، بادر بالإنابة: استغفر الله فورًا، واترك الذنب، واعزم على ألا تعود.
3.في علاقتك بالآخرين: كن مبشرًا وليس منفرًا .إذا رأيت شخصًا تائبًا أو مقبلا ً على الله، بشره بقول الله: "لَهُمُ الْبُشْرَى" .قل له: "أبشر، فإن الله يفرح بتوبتك، ويبدل سيئاتك حسنات" .هذا الأسلوب يثبت الناس على الخير ويدفعهم للمزيد.
4.في أوقات الشدة واليأس: تذكر أنك إذا كنت من المجتنبين للطاغوت المنيبين إلى الله، فـ "لَكَ الْبُشْرَى" .لا تقنط، ولا تحزن، فالله معك، وملائكته تبشرك بالخير، وفرج الله قريب.
5.في تربية أبنائك: علمهم معنى "الطاغوت" بصوره العصرية) كالانسياق وراء الموضة الهدامة، أو تقليد مشاهير الفساد، أو إدمان الألعاب الإلكترونية التي تصد عن ذكر الله .(وعلمهم الإنابة: أن يرجعوا

إلى الله فورًا بعد الخطأ، ولا يسوفوا.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، لقد فتح الله لك باب النجاة وأعلن لك عن الطريق. الطريق واضح: اجتناب الطاغوت، والإنابة إلى الله. فمن سلك هذا الطريق، فقد استحق البشرى العظيمة في الدنيا والآخرة. فلا تتردد، ولا تسوف، وسارع إلى ربك، تكن من عباده المبشرين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

المبحث الرابع

.. لقد وقفنا في الآية السابقة (17) على صفات الصنف الناجي: الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله، واستحقوا بذلك البشرى من رب العالمين. والآن، في الآية الثامنة عشرة، تفتح لنا السورة نافذة جديدة على سبب هذا الفوز وسر هذه النجاة. إنها تكشف لنا عن كيفية تعامل هؤلاء العباد المخلصين مع كلام ربهم، وتصف لنا نوع الاستماع الذي قادهم إلى الهداية وجعلهم من أولي الألباب.

في زمن كثرت فيه الأصوات، وتشعبت فيه السبل، وتداخل فيه الحق بالباطل، تأتي هذه الآية لتعلمنا كيف ننتقي، وكيف نصغي، وكيف نستجيب. إنها تضع أمامنا أنواع المستمعين، وتحدد لنا صنف المستمعين الفائزين. دعنا نعيش مع هذه الآية الكريمة، ونتعلم منها كيف نكون من الذين هداهم الله.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾]الزمر:[18

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - رحلة في عالم الاستماع الواعي

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة، ونستخرج دررها ورسائلها.

الأمر الأول: مفهوم الاستماع المطلوب - "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ"

تبدأ الآية بوصف الصنف الناجي: "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ". ما هو "القول" هنا؟ وما هو نوع الاستماع الممدوح؟

أ. المراد بـ "القَوْل":
المقصود به القول الحق، وعلى رأسه كلام الله تعالى (القرآن الكريم)، ثم كلام رسوله ﷺ (السنة)، ثم كل قول يدعو إلى الخير والهدى. فالآية عامة في كل قول يُسمع، لكن أخص وأولى ما يدخل فيه هو الوحي الإلهي.

ب. أنواع الاستماع في ميزان القرآن:
قبل أن نفهم الاستماع الممدوح، دعنا نستعرض معًا أنواع المستمعين التي ذكرها القرآن، لنعرف أين نصنف أنفسنا:

.1استماع الإعراض والرفض والاستكبار: وهو استماع الكافرين الذين يصمون آذانهم عن الحق ويكذبون به .قال تعالى عنهم: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ")فصلت: .(26 إنهم لا يريدون سماع الحق، بل يريدون طمسه باللغو والضجيج .هذا استماع القلوب الميتة.
.2استماع بلا فهم ولا تدبر: وهو استماع الذين يستمعون بآذانهم فقط، ولا تعيه قلوبهم .قال تعالى في حق المنافقين: "وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ") محمد: .(16 إنهم يسمعون الصوت و لا يعقلون المعنى .كالإناء الفارغ الذي لا يحفظ ما يصب فيه.
.3استماع مع الفهم ولكن مع التحريف والجحود: وهو استماع أهل الكتاب الذين عرفوا الحق ثم حرفوه .قال تعالى: "أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ") البقرة: .(75 إنهم عرفوا الحق فأنكروه عنادًا وحسدًا .هذا استماع القلوب المريضة بالكبر.
.4استماع الحجة والإعذار فقط: وهو استماع المشرك الذي يستمع ليقيم عليه الحجة، دون أن يؤمن . قال تعالى: "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ") التوبة: .(6 هو يسمع لكنه لا يؤمن.
.5استماع الفهم والقبول والاتباع: وهو استماع المؤمنين الصادقين، وهو المقصود في هذه الآية: "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" .هذا الاستماع يجمع بين:
· الإنصات والاستعداد القلبي: استقبال القول بقلب حاضر وعقل يقظ.

· الفهم والتدبر والعقل: إعمال العقل في فهم المراد واستنباط الدلالات .قال تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا") محمد:.(24
· القبول والتسليم: تصديق الخبر، والتزام الأمر.
· الاتباع العملي: ترجمة ما سمعوه وفهموه إلى سلوك واقعي في حياتهم.

الرسالة التربوية والنفسية:
الآية تسألك سؤالا ً ضمنيًا: من أي الأصناف أنت؟ هل تسمع القرآن سماع الغافلين؟ أم سماع المتكبرين؟ أم سماع المتبعين؟ إنها تدعوك إلى أن تنتقل من مجرد "السماع" إلى "الاستماع" بوعي وإقبال، ثم إلى "الاتباع". فالهداية لا تأتي بمجرد وصول الصوت إلى الأذن، بل عندما يصل النور إلى القلب فيحركه للعمل.

مثال تقريبي:
تخيل ثلاثة أشخاص يستمعون إلى محاضرة قيمة من عالم خبير:

· الأول: مشغول بهاتفه، يسمع صوت المحاضر لكنه لا يعي شيئًا) .استماع بلا فهم.(
· الثاني: يسمع ويفهم، ولكنه في قلبه حسد للمحاضر، فيبحث عن زلاته ليحرفه ويخطئه) .استماع مع فهم وتحريف.(
· الثالث: يستمع بكل جوارحه، ينصت بقلبه وعقله، يفهم المراد، ثم يخرج من المحاضرة وقد عزم على تغيير سلوكه وتطبيق ما تعلمه) .استماع الفهم والقبول والاتباع.(

أي هؤلاء هو الذي سينتفع بالمحاضرة ويغير حياته؟ إنه الثالث بلا شك. وهذا هو نموذج "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ".

الأمر الثاني: ثمرة الاستماع الواعي - "فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ"

بعد أن بينت الآية صفة استماعهم، تبين ثمرة هذا الاستماع ونتيجته العملية: "فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ".

أ. معنى "أَحْسَنَهُ":

· في القول الحق الواحد: القرآن كله حسن، ولكن "أحسنه" هو ما كان فيه من عزائم ورخص، وأوامر ونواهٍ، فيختارون الأفضل والأكمل والأحب إلى الله .فمثلا ً: العفو حسن، ولكن الصبر والإحسان أحسن .الاقتصار على الواجب حسن، لكن الإتيان بالنوافل أحسن .وهكذا هم يتحرون أعلى مراتب الكمال في كل قول وعمل.
· في الأقوال المتعددة: عندما يسمعون أقوالا ً مختلفة من العلماء أو الدعاة، فإنهم لا يتبعون أي قول لمجرد أنه صدر من فلان، بل يعرضون الأقوال على ميزان الكتاب والسنة، ويتبعون ما كان أقرب إلى الصواب وأرجح دليلا ً .فهم لا يتعصبون لقول أو شخص، بل هم عباد للحق، يتبعونه حيث كان.

ب. الفاء في "فَيَتَّبِعُونَ":
الفاء تفيد الترتيب والتعقيب بلا مهلة. فهم بمجرد أن يستمعوا القول ويفهموه، يسارعون إلى اتباعه و العمل به، دون تسويف أو تلكؤ.

الرسالة التربوية والعملية:
هذه الآية تربي فينا النقد البناء والاختيار الواعي. نحن لسنا آلات تسجيل تكرر كل ما تسمعه، بل نحن أولو ألباب، نميز وننتقي ونختار ما هو أحسن وأصلح. وهذا يتطلب منا العلم والفقه لنعرف الأ حسن من الحسن، والأفضل من الفاضل.

الأمر الثالث: شهادة الهداية الإلهية - "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ"

بعد أن وصف الله فعلهم (استماع واتباع)، يعقب بشهادته لهم: "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ".

أ. دلالة الإشارة بـ "أُولَٰئِكَ":
اسم الإشارة للبعيد يدل على علو منزلتهم ورفعة مقامهم عند الله. إنهم ليسوا كغيرهم من المستمعين الغافلين.

ب. معنى "هَدَاهُمُ اللَّهُ":

هذه الهداية هي هداية التوفيق والإلهام والسداد، بعد هداية البيان والإرشاد. إن الله لما رأى منهم صدق النية في طلب الحق، وإعمال العقل في الاستماع، والمسارعة إلى العمل، زادهم هدى وثبتهم على الحق. قال تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" (محمد: 17). فاستماعهم واتباعهم كان سببًا لنيلهم الهداية الكاملة من الله.

ج. العلاقة بين الفعل الإنساني والهداية الإلهية:
هذا يبين لنا تكامل الأسباب والمسببات. الله هو الهادي وحده، لكنه جعل للهداية أسبابًا، منها: الاستماع بإنصات وتدبر، واتباع الأحسن. فمن أتى بهذه الأسباب، رجاه أن يهديه الله. إنها بشارة عظيمة: أنت تبذل جهدك في الاستماع والتدبر والاتباع، والله يتولى هدايتك وتثبيتك.

الأمر الرابع: وصف العقلاء حقًا - "وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ"

تختم الآية بهذا الوصف العظيم: "وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ".

· "أُولُو الْأَلْبَابِ": أصحاب العقول المستنيرة والفطرة السليمة .هم الذين استخدموا عقولهم في طلب الحق ومعرفة الله، وفي التمييز بين الحسن والأحسن، وفي تقديم ما يرضي الله على هوى النفس.
· "هُمْ": ضمير الفصل يفيد الحصر والتأكيد .أي هم وحدهم أصحاب العقول الحقيقية، لا غيرهم .فمن أعرض عن الاستماع للحق، أو استمع ولم يتدبر، أو تدبر ولم يتبع، فليس من أولي الألباب، مهما بلغت شهاداته الدنيوية .لأن العقل الحقيقي هو ما قاد صاحبه إلى النجاة من النار والفوز بالجنة.

الربط بين خاتمة الآية ومضمونها:
الآية تقول باختصار: الطريق إلى الهداية يبدأ من العقل الواعي المستنير بنور الوحي. فهؤلاء الذين استمعوا القول فاتبعوا أحسنه، هم الذين استعملوا لباب عقولهم في أهم قضية: كيف أنجو؟ كيف أرضي ربي؟ فهداهم الله إلى الحق، واستحقوا أن يسموا أولي الألباب.

ثانيا: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

١.المفاهيم العملية من الآية:

· الاستماع المنهجي للقرآن: تخصيص وقت لسماع القرآن بتدبر وفهم، وليس مجرد سماع عابر.
· النقد والتمحيص: عرض كل قول يصلنا على ميزان الكتاب والسنة، وعدم تقليد أحد تقليدًا أعمى.
· المسارعة إلى العمل: متى تبين لنا الحق والأحسن، نسرع في تطبيقه دون تأخير.
· تحري الأكمل والأفضل: في العبادات والأخلاق والمعاملات، نطلب الدرجات العلى.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: تحقيق اليقين والطمأنينة: من استمع للحق واتبعه، هداه الله، فامتلأ قلبه طمأنينة ويقينًا بأنه على الصراط المستقيم.
· تربويًا: تنمية ملكة الفهم والتدبر والنقد البناء: الآية تربي في المؤمن شخصية الباحث عن الحق، التي لا تكتفي بالتلقي السلبي، بل تفهم وتناقش وتنتقي.
· سلوكيًا: تحويل المعرفة إلى واقع عملي: سد الفجوة بين العلم والعمل .فالعلم الذي لا يتبعه عمل هو وبال على صاحبه.

٣.أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: بناء شخصية متعلمة واعية، قادرة على التمييز والاختيار، همها الأسمى اتباع الأحسن.
· البعد الاجتماعي: مجتمع يقوم على حرية الاستماع والمناقشة في إطار ضوابط الشرع، ويشجع على اتباع ما هو أصلح وأنفع للأمة .هذا المجتمع يرتقي ويتطور باستمرار.
· البعد الإيماني: الهداية هي أغلى ما يطلبه المؤمن، والآية ترسم طريقًا واضحًا لنيلها.

٤.القيم المستخلصة:

· قيمة العلم والمعرفة والفهم.

· قيمة العمل واتباع الأحسن.
· قيمة الهداية الإلهية.
· قيمة العقل واستعماله في طلب الحق.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء إنسان مهتدي: هذا الإنسان ليس مجرد متلقّ، بل هو باحث عن الحق، منقح، منتق، عامل .إنه إنسان حضاري بكل معنى الكلمة، لأنه يستخدم عقله في التمييز، وإرادته في التطبيق.
· بناء مجتمع علمي عملي: مجتمع يربي أفراده على الاستماع الواعي والنقد البناء واتباع الأصلح .هذا المجتمع لا يقدس الأشخاص، بل يقدس الحق .وهو مجتمع ديناميكي متجدد، يتطور نحو الأفضل باستمرار، لأنه دائم البحث عن "الأحسن" في كل مجالات الحياة) في الاقتصاد، في التربية، في الإ دارة (...ضمن إطار القيم الإسلامية.
· بناء حضارة راقية قائمة على العقل والعلم: الحضارة الإسلامية قامت على مبدأ "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" .فلم يرفض علماؤنا علوم الأمم السابقة) كاليونان والفرس(، بل استمعوا إليها، وعرضوها على ميزان الإسلام، فأخذوا أحسنها ونقحوه وطوروه، ونبذوا باطلها .هذه هي روح الحضارة الحقة.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

١.التربية على الاستماع الواعي والإنصات الفعال.
٢.التربية على التدبر والفهم والنقد البناء.
٣.التربية على اتباع الحق والعمل بالأصلح.
٤.التربية على طلب الهداية من الله والثقة بأنه سيهدي من أتى بالأسباب.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

1.عندما تسمع القرآن: لا تكن كالأصنام التي لا تعقل .تذكر أنك من "أولي الألباب" .استمع بقلبك قبل أذنك .تدبر معانيه .ابحث عن الآية التي تخاطب موقفك وحالك، واعزم على تطبيقها .قل: "اللّهم إني أستمع قولك لأتبع أحسنه، فاهدني إليه".
2.عندما تستمع إلى موعظة أو محاضرة: لا تخرج إلا وقد كتبت في عقلك وقلبك "فكرة واحدة" أو "سلوكًا واحدًا" ستطبقه في حياتك .هذا هو معنى "فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" بشكل عملي.
3.عندما تختلف الآراء أمامك: لا تتعصب لرأي شخص أو جماعة .رد الأمر إلى الله ورسوله .ابحث عن الدليل من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة .واسأل نفسك: أي هذه الأقوال أقرب إلى مرضاة الله وأكثر تحقيقًا للمصلحة وأبعد عن الفتنة؟ ثم اتبعه.
4.في تعاملك مع وسائل الإعلام ومواقع التواصل: كن ناقدًا .لا تبتلع كل ما يصلك .طبق قاعدة: "يستمعون القول فيتبعون أحسنه" .خذ ما ينفعك ويزيدك إيمانًا وثقافة، واترك ما يضرك ويشغلك ويغضب الله.
5.في تربية أبنائك: لا تمنعهم من السؤال والمناقشة بحجة "اسمع واطع" .بل علمهم كيف يستمعون، وكيف يفهمون، وكيف يميزون بين الحسن والأحسن، وكيف يبحثون عن الحق بأنفسهم .هذا يبني فيهم شخصية قوية مستقلة، لا تنخدع بكل ناعق.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هذه الآية الكريمة تمنحك وسامًا عظيمًا: "أُولُو الْأَلْبَابِ". إنها تضعك في مصاف العقلاء الحقيقيين الذين استخدموا نعمة العقل في أهم غاية: الوصول إلى رضوان الله والنجاة من عذابه. فلا تكن سمعك زينة، ولا فهمك معطلا ً، ولا عملك متوقفًا. استمع، وتدبر، واتبع، تكن من الذين هداهم الله، وتكن ممن تنطبق عليهم البشرى: "لَهُمُ الْبُشْرَى".

المبحث الخامس

أيها المتدبر الكريم لقد رأينا في الآيات السابقة كيف رسم الله لنا طريق النجاة: اجتناب الطاغوت، وا لإنابة إلى الله، والاستماع الواعي للقول واتباع أحسنه. هؤلاء هم أولو الألباب الذين استحقوا البشرى والهداية. والآن، بعد أن وضحت الصورة وبان الحق، ينتقل بنا السياق القرآني إلى مشهدين ختاميين في هذا المقطع، مشهدين يرسمان المصير النهائي للفريقين. إنهما آيتان تجمعان بين تسلية النبي ﷺ وتخفيف همه، وبين بيان عدل الله ورحمته، وبين تصوير النعيم المقيم الذي أعده للمتقين. دعنا نعيش مع هاتين الآيتين الكريمتين، ونرى كيف تختمان هذا الدرس الإيماني العظيم.

·{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا

غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تجْرِي مِن تحْتِهَا الأنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللهُ المِيعَادَ﴾] الزمر:19 -[20

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - بين عدل الله في العذاب وفضله في النعيم

لنقف مع كل آية منهما وقفة متأنية، ونستخرج دررهما ورسائلهما.

الأمر الأول: تقرير العدل الإلهي وتسلية النبي ﷺ - "أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنتَ تنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ" (آية 19)

تبدأ الآية باستفهام تقريري، والكلام فيها موجه إلى النبي ﷺ تسليةً له وتخفيفًا عن نفسه الشريفة.

أ. "أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كلِمَةُ العَذَابِ":

· "أَفَمَنْ": الهمزة للاستفهام التقريري، والفاء للعطف على مقدر .والتقدير: "أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كلِمَةُ العَذَابِ كمَنْ نجا وسلم؟" أو "أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كلِمَةُ العَذَابِ تقدِرُ أنْ تهْدِيَهُ؟" .الجواب مفهوم ومطوي: لا يستويان، ولن تقدر عليه.
· "حَقّ عَلَيْهِ": أي وجب وثبت واستقر عليه .والفعل بصيغة الماضي يدل على تحقق الوقوع وثبوته.
· "كلِمَةُ العَذَابِ": هي القضاء الإلهي النافذ، الذي سبق في علم الله الأزلي، بأن هذا الإنسان قد بلغته الدعوة، وأقيمت عليه الحجة، فاختار الكفر والعناد بإرادته الحرة، فاستحق بذلك العذاب .قال تعالى: "إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتهُمْ كلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ")يونس .(فليست الكلمة جبرًا لهم على الكفر، بل هي علم الله بما سيكون عليه حالهم، وهو ما كشفته أفعالهم واختياراتهم.

الرسالة التربوية والعقدية:
هذه الآية تقرر مبدأين مهمين:

.1عدل الله المطلق: فما حقت عليهم كلمة العذاب إلا بعد أن اختاروا الضلالة على الهدى، وكانوا مستحقين له بكفرهم وعنادهم .فالله لا يظلم أحدًا.
.2تسلية قلب النبي ﷺ والدعاة من بعده: لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على هداية قومه، حتى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات .قال تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الحَدِيثِ أَسَفًا") الكهف: .(6 فتأتي هذه الآية لتخفف عنه، وتبين له أن مهمته هي البلاغ المبين، أما الهداية فهي بيد الله وحده .إنه ليس مسؤولا ً عن إنقاذ من حقت عليه كلمة العذاب.

ب. "أَفَأَنتَ تنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ":

· الاستفهام: للإنكار والنفي .أي لست أنت بقادر على إنقاذه، ولا ينبغي لك أن تحمل همًا فوق طاقتك.
· "مَنْ فِي النَّارِ": وصف عجيب! كيف يصفهم بأنهم "في النار" مع أنهم أحياء في الدنيا لم يموتوا بعد؟
· الوجه الأول: التعبير عن تحقق الوقوع، فمصيرهم المحتوم إلى النار، فكأنهم فيها الآن .وهذا من أساليب العربية في المبالغة.
· الوجه الثاني: الإشارة إلى أنهم يعيشون في نار الغفلة والضلال في الدنيا .فمن أعرض عن نور الله وهدايته، فهو يعيش في ظلمات، وهي نار معنوية تحرق قلبه وسكينته.
· الوجه الثالث: أنهم بمنزلة من هو في النار من حيث استحالة إنقاذهم بعد أن اختاروا طريقهم . فكما أن من دخل النار لا يُنقذ، فهؤلاء قد بلغوا من العناد مبلغًا يجعل هدايتهم مستحيلة.

الرسالة التربوية والنفسية للدعاة والمربين:
هذه الآية تعلمنا درسًا عظيمًا: لا تحزن على من اختار الضلالة بعد أن أقيمت عليه الحجة. بذل الجهد في الدعوة واجب، ولكن تعلق القلب بالنتائج منهي عنه. الهداية بيد الله، وأنت لست وكيلا ً على الناس. هذا المفهوم يريح نفس الداعية، ويمنحه طاقة إيجابية ليواصل عمله دون إحباط.

مثال تقريبي:
تخيل طبيبًا مخلصًا، وصف لمريضه الدواء الناجع، وحذره من إهمال العلاج. لكن المريض أصر على ترك الدواء، وألقى بنفسه في المهالك. الطبيب قام بواجبه، ولا يُلام على هلاك المريض. هذا هو حال النبي ﷺ مع قومه. بلغهم الرسالة، ونصح لهم، لكنهم أبوا إلا الكفر والعناد. فجاءت الآية لتقول له: "لقد أديت ما عليك، فلا تحزن على من اختار النار بنفسه".

الأمر الثاني: بيان الثواب العظيم للمتقين - "لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ" (آية 20)

بعد أن ذكر الله حال من حقت عليهم كلمة العذاب، ينتقل إلى ذكر حال الفريق الناجي، ليتم بذلك المشهد، وتكتمل المقارنة التي تربي النفس على اختيار الأحسن.

أ. "لَٰكِنِ":
أداة استدراك مهمة. كأنها تقول: "ليس الأمر كما يظن هؤلاء الكافرون أنهم في نعيم وخير، بل إن النعيم الحقيقي والخير الدائم هو للمتقين". إنها تفصل بين حال أهل النار وحال أهل الجنة.

ب. "الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ":
هذا هو وصفهم الجامع. وهم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله، والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. إنهم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل الأوامر واجتناب النواهي. و التقوى هي مفتاح كل خير.

ج. وصف النعيم المعد لهم: "لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ":
هذا وصف موجز ولكنه بليغ ومهيب لنعيم الجنة:

· "غُرَفٌ": جمع غرفة، وهي البناء العالي المرتفع .وهي في الجنة قصور عالية في أعالي الجنان.
· "مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ": أي غرف مبنية بعضها فوق بعض، طبقات عالية شاهقة .وفي هذا إشارة إلى علو المنزلة ورفعة المكانة، وإلى كثرة الخير وسعته.
· "مَّبْنِيَّةٌ": أي مشيدة محكمة البناء، لا عيب فيها ولا خلل.
· "تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ": زيادة في النعيم والبهجة، فالأنهار تجري تحت هذه القصور العالية، فيجتمع لهم علو المسكن وطيب المنظر وخرير الماء الذي يشرح الصدر.

د. اللمسة البيانية: المقابلة بين جزاء الكافرين وجزاء المتقين
لاحظ بديع النظم القرآني في المقابلة بين المشهدين:

· الكافرون: في "النَّارِ" محاطون بها من كل جانب) آية16 : "لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" .(إنه عذاب محيط، في حفرة سفلية من النار.
· المتقون: في "غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ" تجري من تحتها الأنهار .إنه نعيم عالٍ، في قصور شاهقة، تحف بها الأنهار .سبحان من جعل بينهما من التفاوت ما لا يُتصور!

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا الوصف للنعيم يملأ قلب المؤمن شوقًا وحبًا للجنة، ويدفعه إلى المزيد من العمل الصالح. كما أن المقابلة بين العذاب والنعيم تربي في النفس النفور من أسباب النار والتعلق بأسباب الجنة. إنها تربية إيمانية متكاملة تجمع بين الخوف والرجاء، وبين الترهيب والترغيب.

الأمر الثالث: ختم الآية بوعد الله الذي لا يخلف - "وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ"

هذا هو مسك الختام. بعد أن وصف الله هذا النعيم، أكده تأكيدًا قاطعًا.

· "وَعْدَ اللَّهِ": مصدر مؤكد لفعل محذوف، تقديره: "وَعَدَ اللَّهُ ذَٰلِكَ وَعْدًا" .وهو وعد من الله، والوعد منه حق وصدق.
· "لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ": هذه الجملة تقرر مبدأً عظيمًا: أن الله تعالى منزه عن الخلف في وعده ووعيده .فكما أن وعيده للكافرين حق لا مرد له، فوعده للمتقين حق لا يتخلف .هذا المبدأ يورث في قلب المؤمن طمأنينة عظيمة ويقينًا ثابتًا .فهو يعمل واثقًا من أن الله سيوفيه أجره، ولا يخلف وعده.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا الختام يغلق الباب أمام أي شك أو تردد. إنه يعلمنا أن الثقة المطلقة بموعود الله هي من صميم الإيمان. فلا تحزن أيها المؤمن على ما فاتك من الدنيا، ولا تيأس من رحمة الله، واعمل للجنة وأنت موقن بأن الله لا يخلف الميعاد.
ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيتين

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيتين

.١المفاهيم العملية من الآيتين:

· التوازن في الدعوة إلى الله: بذل الجهد في البلاغ، مع عدم التعلق القلبي بالنتائج، وتفويض الأمر إلى الله.
· التعامل مع واقع رفض الحق: لا يصاب الداعية بالإحباط إذا رأى إعراضًا أو عنادًا، بل يستمر في عمله مستعينًا بالله، عالمًا أن الهداية بيده وحده.
· جعل الجنة ونعيمها هدفًا دائمًا: استحضار أوصاف الجنة) الغرف المبنية، الأنهار (يحفز على العمل الصالح ويجعل مشاق الدنيا تهون.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: تسلية قلب الداعية وتخفيف همه: الآية الأولى تعالج الإحباط والقلق الذي قد يصيب المؤمن من جراء رؤية إعراض الناس عن الحق.
· تربويًا: استخدام أسلوب المقارنة بين العذاب والنعيم: لتربية النفس على حسن الاختيار، والنفور من الشر، والتعلق بالخير.
· سلوكيًا: الثقة بوعد الله واليقين بصدقه: مما يورث الاستقرار النفسي والطمأنينة القلبية في زمن كثرت فيه الاضطرابات والفتن.

.٣أبعاد وآفاق الآيتين:

· البعد الفردي: بناء شخصية مؤمنة متوازنة: حريصة على الخير، غير محبطة من الشر، واثقة في موعود الله، ساعية للجنة.
· البعد الدعوي: وضع منهج متكامل للداعية: البلاغ بلا إكراه، والحرص بلا حزن، والثقة بالله في الهداية.
· البعد الإيماني: تقرير عدل الله ورحمته معًا .فهو عادل في عقاب المستحقين، رحيم في ثواب المتقين.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة التسليم لقضاء الله وقدره.
· قيمة عدم الإكراه في الدين.
· قيمة التقوى كسبب لدخول الجنة ونيل أعلى الدرجات.
· قيمة الثقة المطلقة بوعد الله.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء إنسان متوازن نفسيًا وإيمانيًا: لا تحبطه إخفاقات الدعوة، ولا تمنعه كثرة الضالين من الثبات على الحق .هذا هو الإنسان الذي يصلح ليكون لبنة في صرح الحضارة.
· بناء مجتمع قائم على الحرية والمسؤولية: إقرار مبدأ أن الهداية بيد الله، وأنه لا إكراه في الدين، يبني مجتمعًا يحترم حرية الاعتقاد، مع قيامه بواجب البلاغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.
· بناء حضارة الأمل والعمل: الإيمان بوعد الله الذي لا يخلف، يدفع المجتمع كله إلى العمل الجاد و البناء الحضاري، واثقين أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ً .هذا الأمل هو وقود الحضارات.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيتان

.١التربية على عدم تحميل النفس فوق طاقتها: في الدعوة والإصلاح.
.٢التربية على التوازن بين الخوف) من النار (والرجاء) في الجنة.(
.٣التربية على استحضار أوصاف الجنة والنار لتكون محفزات عملية دائمة.
.٤التربية على اليقين بصدق وعد الله ووعيده.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيتين على الواقع في حياتنا العملية

.1كوالد أو مربٍّ: إذا بذلت جهدك مع ابنك أو طالبك، وأقمتَ عليه الحجة، ولكنه أصر على الغي و الضلال، فلا تحزن ولا تيأس .تذكر قوله تعالى لنبيه: "أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ" .واصل الدعاء له،

وأحسن الظن بالله، وفوض أمره إليه.
.2كداعية إلى الله: لا تجعل عدد المستجيبين مقياسًا لنجاحك أو فشلك .فمهمتك هي البلاغ، وقد يكون لك أجر الدعوة حتى لو لم يستجب أحد .هذا المفهوم يريحك من ضغوط نفسية هائلة.
.3في أوقات الإحباط واليأس: تذكر قوله: "وَعْدَ اللهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ" .ثق بأن نصر الله قادم، وأن الفرج آت، وأن الجنة للمتقين .هذا اليقين هو البلسم الشافي لجراح الإحباط.
.4في تدبرك للقرآن: لاحظ المقابلات القرآنية بين أهل النار وأهل الجنة .عندما تمر بآيات تصف العذاب، استعذ بالله منه .وعندما تمر بآيات تصف النعيم، اسأل الله من فضله .هذه المشاركة الوجدانية تزيد الإيمان حيوية وتأثيرًا.
.5عندما ترى كثرة أهل الباطل وقلة أهل الحق: لا يهولنك ذلك .تذكر أن الله قال: "وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ") سبأ: .(13 المهم أن تكون أنت من أولئك القليل الذين هم أهل النجاة .اثبت على الحق، ولو كنت وحدك.
ختامًا، أيها العبد المؤمن، لقد عرضت عليك الآيتان مصيرين لا ثالث لهما: إما نار محيطة، وإما جنات عالية. وقد بينتا لك أن الهداية بيد الله، وأنك مسؤول عن اختيارك وسعيك. فاختر لنفسك المصير الأ سعد، وكن من "الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ"، واسعَ لتكون في "غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ". واعلم أن وعد الله حق، وأنه لا يخلف الميعاد.

المقطع الثالث
لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشهدين عظيمين: مشهد من حقت عليهم كلمة العذاب وهم في النار، ومشهد المتقين الذين أعدت لهم غرف في الجنة .إنهما مصيران يهزان القلب، ويدفعان كل عاقل للبحث عن الطريق الموصل إلى النعيم والمنجي من الجحيم.

والآن، وبعد هذا البيان، يفتح الله أمامنا كتاب الكون المنظور مرة أخرى، ليكون مرآة لكتابه المسطور . في هذه الآية الكريمة، يدعونا ربنا إلى التأمل والتدبر في واحدة من أعظم آياته ونعمه: إنزال الماء من السماء .إنها آية تقرع الأسماع والأبصار والعقول، وتوقظ الفطرة النائمة، وتذكرنا بربنا الذي نعرفه . إنها آية تزرع في القلب اليقين بقدرة الله وحكمته ورعايته، وتربط بين حياة الأرض بالماء وحياة القلوب بالقرآن .دعنا نعيش مع هذه الآية العظيمة، ونستخرج كنوزها ودروسها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾] الزمر:[21

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - رحلة مع قطرة ماء

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة، ونتأمل كيف ترسم لنا مشهدًا حيًا متحركًا، يخاطب عقولنا وقلوبنا.

الأمر الأول: بداية الرحلة - استفهام يوقظ العقول "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً"

تبدأ الآية باستفهام تقريري بليغ: "أَلَمْ تَرَ" .هذا الاستفهام ليس لنفي الرؤية، بل هو تقرير وتذكير وإيقاظ .كأنه يقول: "انظر ببصرك وبصيرتك! تأمل! ألا ترى هذه الحقيقة الواقعة أمام عينيك كل حين؟ " .إنه خطاب موجه إلى كل إنسان، يدعوه إلى استخدام حاسة البصر والعقل معًا.

· "أَنَّ اللَّهَ": التصريح باسم الجلالة لربط هذه الظاهرة الكونية مباشرة بالله سبحانه وتعالى، لتقرير أن هذا الفعل هو من فعله وحده، وليس من فعل الطبيعة أو الصدفة .فالله هو الفاعل الحقيقي.
· "أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً": هذا هو أصل النعمة ومصدرها .الماء ينزل من السماء، وهذا يبين أن أصل الماء في الأرض هو من السماء، كما أثبت العلم الحديث أن دورة الماء تبدأ من تبخر مياه البحار و المحيطات، ثم تكاثفها في السماء، ثم نزولها كمطر .فالآية تلفت النظر إلى بداية النعمة، وإلى رعاية الله وحمايته لعباده بهذا الإنزال .فبدون هذا الماء، لا حياة على الأرض .إنه يدبر أمرنا من فوق سبع سماوات.

الرسالة التربوية والنفسية:
الآية تدعونا إلى التفكر والتدبر في النعم التي نراها كل يوم .إنها تريد أن تخرجنا من دائرة الألفة و الغفلة إلى دائرة التأمل واليقظة .فأنت ترى المطر ينزل، ولكن هل "ترى" بقلبك أن الله هو الذي أنزله؟ هل ترى رعايته وحكمته في كل قطرة؟

الأمر الثاني: مسالك الماء في الأرض - "فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ"

بعد نزول الماء من السماء، ينتقل بنا المشهد إلى المرحلة الثانية: "فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ".

· "فَسَلَكَهُ": أي أدخله وأجراه .والفعل "سلكه" يدل على الدقة والنظام والتدبير .فالماء لا ينزل ليقف على سطح الأرض، بل يُدخله الله في مسالك وطرق محددة دقيقة، في باطن الأرض.
· "يَنَابِيعَ": جمع ينبوع، وهو عين الماء .وهذه إشارة معجزة إلى المياه الجوفية .فالله جعل في باطن الأرض خزانات طبيعية للمياه) ينابيع وآبار سطحية وجوفية(، تسلك فيها المياه لتظل مخزونة، وتخرج شيئًا فشيئًا لتسقي الزرع وتشرب البشر والأنعام .وهذه هي حماية الله ورعايته، إذ لو بقي الماء على سطح الأرض لتبخر بسرعة وفسد، ولكن الله خزنه في باطن الأرض ليكون رحمة مستدامة.

اللمسة البيانية والإعجاز العلمي:
الآية تصف بدقة مذهلة دورة الماء الجوفية .من أخبر النبي الأمي ﷺ أن الماء ينزل من السماء ثم "يُسلك" في باطن الأرض ليكون ينابيع؟ إنه تنزيل من خالق السموات والأرض، الذي يعلم أسرار خلقه.

الأمر الثالث: مشهد الحياة والجمال - "ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ"

بعد أن سلك الماء ينابيع في الأرض، تأتي المرحلة الثالثة: إخراج الزرع.

· "ثمّ يُخْرِجُ بِهِ": أي بذلك الماء المخزون في باطن الأرض .فالماء هو سبب الحياة.
· "زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ": هذا هو مشهد الحياة والتنوع والجمال .فبالماء الواحد، ومن الأرض الواحدة، يخرج الله زرعًا مختلفًا ألوانه وأنواعه وأشكاله وطعومه وروائحه .هذا زرع أخضر، وهذا أصفر، وهذا أحمر .هذا قمح، وهذا شعير، وهذا ورد، وهذا شوك .إنه تنوع مذهل يدل على عظمة الخالق وقدرته وحكمته الباهرة .إنه مشهد يبعث في النفس البهجة والسرور، ويذكر بقدرة الله على البعث والنشور . فكما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الموتى.

الأمر الرابع: مشهد الزوال والفناء - "ثمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثمّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا"

بعد أن وصل الزرع إلى قمة نضارته وجماله، يأتي المشهد الأخير في هذه الدورة الكونية.

· "ثمّ يَهِيجُ": أي ييبس ويجف بعد طراوته وخضرته.
· "فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا": يتغير لونه من الخضرة البهيجة إلى الصفرة الذابلة .وكأن الآية تدعوك أن تنظر إليه مرة أخرى، وتقارن بين حاله الأول وحاله الآن.
· "ثمّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا": أي يجعله فتاتًا متكسرًا، هشيمًا تذروه الرياح، وكأنه لم يكن شيئًا مذكورًا.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا المشهد الأخير هو جوهر العبرة والتذكرة .إنه يخاطبك مباشرة أيها الإنسان: هكذا الدنيا! وهكذا أنت! إنها صورة مصغرة لحياة الإنسان .فهو يولد ضعيفًا) كنبات صغير(، ثم يشتد ويبلغ أشده ويزدهر)كالزرع الأخضر المثمر(، ثم يعتريه الضعف والهرم) كاصفرار الزرع ويبسه(، ثم يموت ويعود إلى التراب) كالحطام .(هذه دورة الحياة، وهذه نهاية كل حي .إنه تذكير قوي ب- زوال الدنيا وفنائها، وب- ضرورة الاستعداد للآخرة .فلا تغتر أيها الإنسان بشبابك وقوتك وجمالك ومالك، فكل ذلك إلى زوال . واعلم أن نهاية الدنيا كلها ستكون كنهاية هذا الزرع: "فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا"، وتبدل الأ رض غير الأرض والسموات .فهل من معتبر؟

أهمية المثال في تقريب الصورة:
لقد ضرب الله هذا المثل المحسوس) الزرع والماء (ليقرب لنا حقيقة غيبية) زوال الدنيا والبعث بعد الموت .(المثال يجعل الفكرة المجردة ملموسة مرئية، فيسهل على العقل فهمها، وعلى القلب التأثر بها . إنه أسلوب تربوي بليغ، يجعل الإنسان يعيش المشهد وكأنه يراه أمام عينيه، فيكون أبلغ في التأثير و النفع.

الأمر الخامس: ختام العبرة والعقلاء - "إِنّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"

تختم الآية بهذا التقرير الإلهي الحاسم: "إِنّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ".

· "إِنّ": تفيد التوكيد والتحقيق.
· "فِي ذَٰلِكَ": أي في هذا المثل المضروب، وفي هذه الدورة الكاملة للماء والزرع.
· "لَذِكْرَىٰ": أي لعبرة وعظة وتذكيرًا بالله وبالدار الآخرة ."ذكرى" أبلغ من "ذكر"، فهي تدل على التذكير المتكرر المؤثر.
· "لِأُولِي الْأَلْبَابِ": أي لأصحاب العقول المستنيرة التي تتدبر وتتفكر في آيات الله، وتستخلص منها العبر والعظات .هؤلاء هم الذين ينتفعون بهذه الآيات .أما الغافلون، فيمرون عليها مرور الكرام، كأنهم لا يرون شيئًا.

الربط بين حياة الأرض وحياة القلوب:
هذه الآية تشير إشارة لطيفة إلى علاقة عظيمة: الماء للتراب كالقرآن للقلب .فكما أن الماء النازل من السماء هو سبب حياة الأرض وإخراج نباتها، فكذلك القرآن النازل من السماء هو سبب حياة القلوب وإخراج ثمار الإيمان والعمل الصالح .وكما أن الزرع يختلف في ألوانه وأشكاله، فكذلك تختلف ثمار القلوب واستجابات الناس للقرآن .فمنهم من ينبت الإيمان اليانع، ومنهم من ينبت الشوك والحنظل . وكما أن الزرع ينتهي إلى حطام، فكذلك الدنيا وما فيها زائلة .فالذكرى الحقيقية لأولي الألباب هي أن يدركوا أنهم بحاجة إلى "ماء الوحي" كما تحتاج الأرض إلى ماء المطر، وأن يسارعوا إلى استثمار حياتهم قبل أن "يهيج" بهم العمر ويصيروا "حطامًا".

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· التفكر في آيات الله الكونية: تخصيص وقت للتأمل في الطبيعة، كرؤية المطر والنبات، واستحضار قدرة الله وحكمته.
· التعامل مع الدنيا على حقيقتها: معرفة أنها زائلة فانية، فلا نتعلق بها، ولا نغتر بزخرفها.
· استثمار الحياة قبل فوات الأوان: المبادرة إلى الأعمال الصالحة، قبل أن ييبس العود ويفنى الأجل.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: تحقيق الزهد في الدنيا والطمأنينة: من أيقن بزوال الدنيا، زهد في ملذاتها الفانية، واطمأن قلبه بالآخرة الباقية.
· تربويًا: استخدام أسلوب ضرب الأمثال: في تعليم الناس وتقريب المعاني لهم .فهذا الأسلوب يخاطب العقل والوجدان معًا.
· سلوكيًا: شكر نعمة الماء: الآية تذكرنا بأن الماء نعمة عظيمة من الله، فيجب علينا شكرها بعدم الإ سراف في استعمالها، والمحافظة عليها.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الوجودي: ربط حياة الإنسان بحياة الكون من حوله، فالكل يسير وفق سنة الله.
· البعد الإيماني: الآية تزرع اليقين بالبعث والنشور، فمن أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى.
· البعد الحضاري: الآية تدفع إلى التفكر العلمي في دورة الماء والنبات، وهذا منطلق أساسي للنهضة العلمية في الحضارة الإسلامية.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة التدبر والتفكر.
· قيمة الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.
· قيمة شكر النعم) وخصوصًا نعمة الماء.(
· قيمة العقل) أولو الألباب.(

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء إنسان واع ومتوازن: إنسان يعيش في الدنيا بجسده، وقلبه معلق بالآخرة .يعمل ويبني، لكنه لا يغتر بعمله ولا ينسى مصيره.
· بناء مجتمع راشد: مجتمع يدرك قيمة الموارد الطبيعية) كالماء (فيحافظ عليها، ويعلم أن زوال الدنيا حتمي، فيجعل همه الأكبر هو العمل للآخرة .هذا المجتمع يكثر فيه الخير، ويقل فيه الشر والفساد.
· بناء حضارة العلم والإيمان: الآية تدعو إلى التأمل في الظواهر الطبيعية، وهذا هو أساس المنهج العلمي التجريبي الذي قامت عليه حضارة المسلمين .فالمسلم ينظر إلى الكون ليزداد إيمانًا، وليكتشف سنن الله فيه ليسخرها لخدمته.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على التفكر والتدبر في آيات الله الكونية.
.٢التربية على عدم الاغترار بالدنيا وزخرفها.
.٣التربية على استحضار الموت والزوال.
.٤التربية على شكر نعم الله الظاهرة والباطنة.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

.1عند رؤية المطر: لا تقل: "إنها أمطار غزيرة"، بل قل: "اللهم صيبًا نافعًا" .وتذكر أن الله هو الذي أنزله من السماء، وأنه رحمة منه وفضل .اشكره على هذه النعمة العظيمة.

.2عند رؤية الزرع والنباتات: تأمل في اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها .وقل: "سبحان الذي خلق هذا كله بقدرته وحكمته" .وتذكر أن هذا كله يخرج بماء واحد، مما يدل على قدرة الله.
.3في أوقات الشباب والقوة: تذكر أنك كالزرع الأخضر، الذي سيصيبه الذبول والاصفرار يومًا ما .لا تغتر بشبابك، بل استثمره في طاعة الله قبل أن يأتي يوم لا تستطيع فيه أن تفعل شيئًا .بادر بالصلا ة والصيام والصدقة وقراءة القرآن.
.4في تربية أبنائك: خذهم إلى الطبيعة، وأرهم المطر والزرع والنبات، واشرح لهم هذه الآية .علمهم أن الله هو الذي أنزل الماء فأخرج به الزرع، وأن هذه نعمة يجب أن نشكرها .واربط لهم ذلك بحياة القلوب، وأن القرآن هو ماء القلوب.
.5عند الإسراف في الماء: تذكر أن الله أنزل هذا الماء برحمته، وسلكه ينابيع بقدرته .فلا تسرف فيه، ولا تلوثه، بل حافظ عليه، واشكر الله عليه .فالماء أمانة في أعناقنا.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هذه الآية الكريمة هي دعوة مفتوحة للتفكر والتدبر في كل لحظة من حياتك .إنها تريد أن تجعلك إنسانًا واعيًا، يقرأ كتاب الكون المنظور، فيزداد إيمانًا بربه، ويقينًا بوعده، واستعدادًا للقائه .فكن من أولي الألباب الذين ينتفعون بالذكرى، وتزود من هذه الدنيا الفانية للآخرة الباقية.

المبحث الثاني

أيها المتدبر الكريم، لقد وقفنا في الآية السابقة (21) على مشهد كوني باهر: إنزال الماء من السماء، وسلكه ينابيع في الأرض، وإخراج الزرع المختلف ألوانه، ثم ذبوله وتحطمه. وختمت الآية بأن في ذلك لذكرى لأولي الألباب. وهنا يأتي السؤال: ما هي هذه الذكرى؟ وما الذي ينبغي أن يحدث في القلب عند رؤية هذه الآيات؟

تأتي الآية الثانية والعشرون لتجيب عن هذا السؤال، ولتكشف لنا عن حقيقة النور والبصيرة، وعن الفرق الجوهري بين نوعين من البشر في تلقي الهداية. إنها آية تنتقل بنا من عالم المشاهدات المحسوسة (الماء والزرع) إلى عالم المشاعر القلبية (شرح الصدر وقسوته). إنها تعلن أن المسألة ليست متعلقة بالرؤية العينية ولا بالسمع بالآذان فحسب، بل هي متعلقة بأداة البصيرة والفهم التي محلها الصدور. دعنا نعيش مع هذه الآية العظيمة، ونستلهم منها دروس الحياة.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر:[22

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - نور البصيرة وظلام القسوة

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة، ونستخرج دررها ورسائلها.

الأمر الأول: نموذج القلب الحي - "أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ"

تبدأ الآية باستفهام تقريري: "أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ"، وجوابه محذوف تقديره: "كَمَنْ قَسَا قَلْبُهُ؟" أو "كَمَنْ هُوَ فِي ظُلْمَةٍ؟". إنها مقارنة بين صنفين من البشر، لا يمكن أن يستويا أبدًا.

أ. مفهوم "شرح الصدر":

· شرح الصدر: هو توسعته وانفتاحه وقبوله للحق .إنه ضد الضيق والحرج والانغلاق .فالقلب الشارح هو قلب لين رقيق، يتقبل نور الله وهدايته، ويأنس بها، ويطمئن إليها .وهو كالأرض الطيبة الخصبة التي تتشرب الماء فتُخرج النبات بإذن ربها.
· اللام في "لِلْإِسْلَامِ": تفيد التعليل أو الاختصاص .أي شرح صدره لكي يسلم وجهه لله، ولكي يقبل هذا الدين وينقاد له.

الربط بالآية السابقة (الماء والزرع):
لاحظ بديع الربط القرآني! في الآية (21) ذكر الله إنزال الماء من السماء، وهو سبب حياة الأرض وإخراج النبات. وفي هذه الآية يذكر شرح الصدر للإسلام، وهو سبب حياة القلب وإخراج ثمار الإيمان والعمل الصالح.

· الماء للتراب = الوحي) القرآن (للقلب.
· الأرض الخصبة التي تتشرب الماء وتنبت = القلب الشارح الذي يتقبل الوحي وينبت الإيمان.

· الأرض المالحة السبخة التي لا تنبت = القلب القاسي الذي لا ينتفع بالوحي) وسيأتي ذكرها في الشطر الثاني.(
فكما أن الماء واحد، والأرض مختلفة في قبوله، فكذلك القرآن واحد، والقلوب مختلفة في قبوله وا لانتفاع به.

ب. ثمرة شرح الصدر: "فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ":
من شرح الله صدره للإسلام، كانت ثمرة ذلك أنه صار "عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ". ما هو هذا النور؟

· نور البصيرة: إنه نور في القلب، يرى به الحقائق على ما هي عليه .يفرق به بين الحق والباطل، وبين النافع والضار، وبين الهدى والضلال .إنه ليس نور العين الذي يراه كل أحد، بل هو نور البصيرة الذي يمنحه الله لمن أخلص قلبه له .قال تعالى: "أَوَمَن كانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا") الأنعام:.(122
· نور العلم والفهم والحكمة: هو الفقه في الدين، وفهم أسرار الشريعة، ومعرفة الحكمة من الأوامر و النواهي .قال تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا") البقرة: .(269وهذا النور هو الذي يُمكن صاحبه من اتباع أحسن القول، كما ورد في آية(18) : "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ".
· نور الطمأنينة واليقين: صاحب القلب الشارح يعيش في سكينة وطمأنينة، فهو على يقين من ربه ومن طريقه، لا تعصف به الشكوك والوساوس .وهذا هو معنى "الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ" التي وعد الله بها المؤمنين: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً") النحل:.(97
· نور الحماية الإلهية: هذا النور هو حماية من الله، يحمي به عبده من التخبط في ظلمات الجهل و الكفر والشهوات .إنه نور الكشف والإلهام الذي لا يمنحه الله إلا لأوليائه المتقين .قال تعالى: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ") يونس:.(62

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا النموذج هو الذي يجب أن نسعى لنكونه. إنه إنسان حي القلب، لين الجنان، منشرح الصدر، يتلقى آيات الله بقلب واعٍ متدبر، فيفيض عليه الله من نوره، فيبصر الحق، ويعمل به، ويحيا حياة طيبة. وهذا هو الفوز الحقيقي كما قال تعالى: "وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" (الأحزاب: 71).

الأمر الثاني: نموذج القلب الميت - "فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ"

في مقابل النموذج الأول، يأتي النموذج الثاني الذي يمثل الخسارة والهلاك: "فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ".

· "فَوَيْلٌ": كلمة عذاب وتهديد ووعيد شديد .والويل: الهلاك والفضيحة والعذاب الأليم .إنها صيحة إنذار وتحذير.
· "لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم": القسوة هي الصلابة والغلظة والجفاف .القلب القاسي هو القلب الميت، الذي لا يلين لذكر الله، ولا يخشع لآياته، ولا يتأثر بمواعظه .إنه كالحجر أو أشد قسوة .قال تعالى: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً") البقرة:.(74
· "مِّن ذِكْرِ اللَّهِ": أي من أجل ذكر الله، أو عند سماع ذكر الله .فبدلا ً من أن تلين قلوبهم وتخشع لذكر الله، فإنها تزداد قسوة ونفورًا! وهذا هو أشد أنواع العمى والضلال .فذكر الله هو سبب حياة القلوب، ولكن القلوب القاسية تزداد به مرضًا إلى مرضها .كما قال تعالى: "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ") الزمر:.(45

الربط بالآية السابقة (الأرض السبخة):
هذا القلب القاسي هو مثل الأرض المالحة السبخة الجرداء، التي ينزل عليها الماء، فلا تنتفع به، ولا تنبت زرعًا، بل يزيدها الماء ملوحة وفسادًا. هكذا القلب القاسي، يسمع القرآن ويرى الآيات الكونية، ولكن لا يفقه ولا يعقل ولا يتعظ، بل يزداد عنادًا ونفورًا. قال تعالى في وصف المنافقين: "فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ"، "فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"، "فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ". لقد عطلوا أدوات الفهم والإدراك التي وهبهم الله إياها، فاستحقوا هذا الويل والوعيد.

أسباب قسوة القلب:

· الغفلة والإعراض عن ذكر الله: الاستمرار في المعاصي والذنوب دون توبة .قال تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا") طه:.(124
· اتباع الهوى والشهوات: تقديم رغبات النفس على أوامر الله.

· التقليد الأعمى للآباء والأجداد: دون تفكر أو تدبر في الحق.
· العناد والاستكبار: رفض الحق بعد معرفته، وهو أخطر الأسباب .قال تعالى: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ") الصف:.(5

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا النموذج هو تحذير صارخ لنا جميعًا. قسوة القلب ليست قدرًا محتومًا، بل هي نتيجة اختيارات وأفعال. فالحذر الحذر من أن تقسو قلوبنا! وعلينا أن نتعاهد قلوبنا بذكر الله وتلاوة القرآن والتدبر و التوبة النصوح، لتبقى لينة رطبة تخشع لربها.

الأمر الثالث: بيان العاقبة والمصير - "أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"

تختم الآية ببيان حال هؤلاء القساة القلوب: "أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".

· "أُولَئِكَ": إشارة إلى بعدهم في الضلال وسوء حالهم.
· "فِي ضَلَالٍ": أي في حيرة وتيه وانحراف عن الطريق المستقيم .وليس أي ضلال، بل هو "مُبِينٍ"، أي واضح جلي ظاهر لا خفاء فيه .إنهم ضلوا الطريق، وانحرفوا عنه، وهم يرون أنهم على هدى! وهذا من شدة الضلال .فرغم أن لهم أعينًا يبصرون بها، وآذانًا يسمعون بها، إلا أنهم فقدوا نور البصيرة الذي يهديهم إلى الحق، فهم يتخبطون في ظلمات الجهل والشك والكفر، "ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ")النور: .(40 إنهم يعيشون في عمى روحي، لا يملكون عزيمة ولا إرادة، مستسلمون لشهواتهم وأهوائهم وموروثاتهم الفاسدة، يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق .وهذا هو أعظم الخسران، أن يفقد الإنسان منزلة التكريم التي كرمه الله بها، فيهبط إلى مرتبة أدنى من الحيوان .قال تعالى: "أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ") الأعراف:.(179
ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· السعي لشرح الصدر: وذلك بطلب العلم النافع، والعمل الصالح، والإكثار من ذكر الله، ودعاء الله بأن يشرح صدره للإسلام.
· الحذر من قسوة القلب: وذلك باجتناب الذنوب والمعاصي، والتوبة الفورية منها، ومحاسبة النفس باستمرار.
· طلب النور من الله: فالنور لا يُطلب إلا من الله، وذلك باللجوء إليه ودعائه: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا".

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: تحقيق الطمأنينة والسلام الداخلي: فمن شرح الله صدره وملأه بالنور، عاش في سكينة ورضا ، بعيدًا عن قلق الشك وحيرة الضلال.
· تربويًا: تربية القلب قبل تربية الجوارح: فالقلب هو ملك الأعضاء، فصلاحه صلاح للجسد كله، وفساده فساد له كله .فعلينا أن نركز على تربية القلب الإيمانية.
· سلوكيًا: المرونة واللين في قبول الحق: القلب الشارح هو قلب منفتح للحق، لا يتعصب لرأي، ولا يستكبر عن قبول النصيحة .أما القلب القاسي فهو منغلق متعنت، لا يقبل حقًا ولا يرد باطلا ً.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الوجودي: الآية تربط بين القلب الإنساني والكون الفسيح، فكلاهما يتلقى من الله ما به حياته: الأرض تتلقى الماء، والقلب يتلقى الوحي.
· البعد الإيماني: الآية تقرر أن الهداية نور من الله، وأن الضلال ظلمة من عند النفس .فمن أراد الهداية فعليه أن يفتح قلبه لنور الله.
· البعد الإنساني: الآية تحدد معيار التفاضل الحقيقي بين الناس: ليس بالمال أو الجاه أو النسب، بل بشرح الصدر ونور البصيرة.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة القلب السليم.
· قيمة نور البصيرة.
· قيمة الخشوع واللين لذكر الله.
· خطورة قسوة القلب والغفلة.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان الرباني: هو إنسان حي القلب، منشرح الصدر، مستنير البصيرة .هذا الإنسان هو الذي يصلح لخلافة الأرض، لأنه يعمل بهدى من الله ونور.
· بناء مجتمع القلوب الحية: مجتمع تربى أفراده على خشية الله ومراقبته، وعلى اللين والتواضع للحق .هذا المجتمع تسوده المحبة والعدل والرحمة، ويكون حصنًا منيعًا ضد الفساد والانحراف.
· بناء حضارة النور: الحضارة التي تقوم على العلم والإيمان معًا .فكما أنهم يستنيرون بنور العلم التجريبي) الناتج عن دراسة آيات الله الكونية(، يستنيرون بنور الوحي) الناتج عن تدبر آيات الله المسموعة .(وهذا هو سر تفوق الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

١.التربية على سلامة القلب ولينه: بتعاهده بالذكر والطاعة.
٢.التربية على طلب النور الإلهي: بالتضرع والدعاء والعمل الصالح.
٣.التربية على الحذر من قسوة القلب وأسبابها.
٤.التربية على استخدام البصيرة قبل البصر والسمع: فالعبرة بفقه القلب لا بمجرد رؤية العين أو سمع الأذن.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

1.في علاقتك مع القرآن: عندما تقرأ القرآن، لا يكن همك فقط تلاوة الحروف، بل استحضر قلبك . اسأل الله أن يشرح صدرك لفهمه، وأن ينور قلبك بمعانيه .تدبر آياته، وابحث عن نور الهداية فيها.
2.في تزكية نفسك: عوّد قلبك على اللين والخشوع .إذا سمعت موعظة أو آية، تأثر بها، وابكِ من خشية الله .واحذر من الجفاف الروحي والقسوة القلبية .وصفة علاج قسوة القلب: ذكر الله، تلاوة القرآن بتدبر، زيارة القبور، مجالسة الصالحين، إطعام المساكين واليتامى، التوبة النصوح.
3.عند رؤية الآيات الكونية: كما رأيت المطر والنبات في الآية السابقة، لا تمر عليها مرورًا عابرًا .تأمل فيها، واطلب من الله أن يفتح بصيرتك لترى عظمته وحكمته فيها .قل: "اللّهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا ً وارزقنا اجتنابه".
4.في دعوتك للآخرين: لا تعتمد على الإقناع العقلي المجرد فقط، بل ادعُ الله لهم بشرح الصدور . فأنت تبذل الجهد، ولكن الذي يشرح الصدور ويمنح نور البصيرة هو الله وحده.
5.عندما تشعر بقسوة في قلبك أو غفلة: بادر فورًا إلى التوبة والاستغفار، واعلم أن هذا نذير خطر . عد إلى الله، وأكثر من ذكره، واسأله أن يلين قلبك .قل: "اللّهُمّ إِنِي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا") رواه مسلم.(

ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هذه الآية الكريمة تضع أمامك مرآة لترى فيها حقيقة قلبك. هل هو منشرح للإسلام، يقبل الحق ويلين لذكر الله، فهو على نور من ربه؟ أم هو قاسٍ غليظ، معرض عن الذكرى، متخبط في ظلمات الضلال؟ اختر لنفسك، واسعَ بكل جهدك لتكون من الصنف الأول. واعلم أن شرح الصدر ونور البصيرة هما أعظم هبة من الله لعبده، فلا تدخر وسعًا في طلبهما من ربك، فإنه جواد كريم، يعطي من يشاء بغير حساب.

المبحث الثالث

لقد وقفنا في الآية السابقة (22) على حقيقة عظيمة: أن النور والبصيرة والهداية إنما تتعلق بشرح الصدر للإسلام، وأن قسوة القلب هي سبب الحرمان من هذا النور والوقوع في الضلال المبين. والآن، وبعد أن بين الله أن المسألة متعلقة بالقلوب، يأتي السؤال العملي المهم: ما هو السبيل إلى شرح الصدر؟ وما هو الدواء الذي يلين القلوب القاسية ويملؤها نورًا؟ وما هو الميزان الذي يفرق بين القلوب الحية والقلوب الميتة عند تلقي كلام الله؟

تأتي الآية الثالثة والعشرون لتجيب عن هذه الأسئلة بأبلغ بيان وأحكم نظام. إنها الآية التي تصف لنا القرآن الكريم بأعظم صفاته، وترسم لنا المشهد الحي للمؤمنين الصادقين وهم يتلقون كلام ربهم، وتكشف لنا عن سر الهداية والتوفيق. إنها آية تربط بين جمال القرآن وجلال تأثيره في النفوس

المؤمنة، وتضع أمامنا المنهج العملي للوصول إلى نور البصيرة وكمال الإيمان. دعنا نعيش مع هذه الآ ية العظيمة، ونستلهم منها دروس الحياة والنجاة.

﴿اللهُ نزّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مّثَانِيَ تقشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثمّ تلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكرِ اللهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - رحلة مع أحسن الحديث وتأثيره في القلوب

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة، ونستخرج دررها ورسائلها التربوية والإيمانية.

الأمر الأول: مصدر الكلام وعظمته - "اللهُ نزّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مّثَانِيَ"

تبدأ الآية بتقرير حاسم عن مصدر هذا الكلام العظيم: "اللهُ نزّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ". هذا الافتتاح يضع الأ ساس المتين لكل ما سيأتي بعده.

· "اللهُ نزّلَ": اسم الجلالة "الله" هو العلم الأعظم، الذي يجمع كل صفات الكمال والجلال. فالتصريح به هنا يمنح هذا الكلام سلطانًا وقدسية ومهابة لا تضاهى. والفعل "نزّلَ" بصيغة التفعيل يدل على التنزيل المنجم، أي نزوله مفرقًا بحسب الحوادث والأحوال، وهذا من كمال رعاية الله لعباده وتيسيره عليهم. وهذا يربط ببداية السورة: "تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ" (الآية: 1). إنه نفس المصدر الإ لهي الجليل.
· "أحْسَنَ الحَدِيثِ": هذه صفة عظيمة شاملة. لماذا هو أحسن الحديث؟
· أحسن الحديث لفظًا: فكلماته في قمة الفصاحة والبلاغة والجمال، لا يشوبه تكلف ولا ضعف.
· أحسن الحديث معنىً: فمعانيه صادقة كلها، جامعة للحق والعدل والحكمة، لا تناقض فيها ولا اخت لاف.
· أحسن الحديث أسلوبًا ونظمًا: فهو "كِتَابًا مُتَشَابِهًا مّثَانِيَ". وهذا وصف بليغ لكماله البياني و الموضوعي:
· "كِتَابًا مُتَشَابِهًا": أي يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والإحكام والصدق. فآياته كلها على درجة واحدة من الإعجاز والحسن، ليس فيها ما هو أفضل من غيره من حيث القيمة الذاتية، بل كله حسن متشابه في الحسن.
· "مّثَانِيَ": أي تُثنّى فيه المعاني والأحكام والقصص والمواعظ. فترى معنى التوحيد مكررًا، وقصة موسى مكررة، وأوامر التقوى مكررة، وذلك لحكمة تربوية عظيمة: لتثبيت المعاني في القلوب، وتذكير النفوس الغافلة، وزيادة الإيمان بالتكرار. فالنفس البشرية سريعة النسيان، تحتاج إلى التذكير المتكرر.
· ويشمل أيضًا معنى التصديق: أي يصدق بعضه بعضًا. فما ورد في سورة يصدقه ما ورد في سورة أخرى. وقد يكون فيه المحكم والمتشابه، لكن المحكم يفسر المتشابه، ولا تعارض بينهما أبدًا. ق ال تعالى: "مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنّ أمّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ" (آل عمران: 7).

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا الوصف العظيم للقرآن يملأ قلب المؤمن تعظيمًا ومحبة وإجلالا ً لهذا الكتاب. إنه ليس كأي كتاب بشري، بل هو أحسن الحديث على الإطلاق. وهذا يستوجب علينا التأهب والاستعداد لاستقباله، والاستماع إليه بالإنصات والتدبر، لا مجرد سماع عابر.

الأمر الثاني: الأثر المباشر في نفوس المؤمنين الصادقين - "تقشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ"

بعد أن وصف الله كتابه بأحسن الصفات، ينتقل بنا إلى المشهد الحي، ليرينا كيف تستقبل القلوب الحية هذا الكلام العظيم؟ ما هو الأثر الذي يحدثه فيها؟ إنه مشهد يجمع بين الجلال والجمال، وبين الخوف والرجاء.

· "تقشَعِرُّ": الاقشعرار هو انقباض وارتعاش في جلد البدن، وهو حالة فسيولوجية تحدث عند الخوف الشديد أو التأثر العميق. إنه رد فعل جسدي لا إرادي، يدل على شدة وقع الكلام في النفس. فالمؤمن عندما يسمع آيات الوعيد والعذاب وأهوال القيامة ووصف النار، أو آيات الجلال والعظمة الإلهية، يرتجف بدنه ويقشعر جلده من هول ما يسمع، ومن خشية ربه.
· "جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ": هذا هو الوصف المانع. من هم الذين يحدث لهم هذا الاقشعرار؟ إنهم "الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ". الخشية هي خوف مقرون بمعرفة وتعظيم ومحبة. إنه خوف العالم بالله، خوف الإجلال والتقديس. فالذين في قلوبهم هذه الخشية، هم الذين تتأثر جلودهم عند سماع القرآن.

أما القاسية قلوبهم، فلا يتأثرون، كالحجارة أو أشد قسوة. وهذا يربط بالآية السابقة (22): "فَوَيْلٌ لِلقاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكرِ اللهِ".

دلالة هذا الأثر على حياة القلب:
هذا الاقشعرار هو دليل الحياة الإيمانية في القلب. إنه أثر من آثار نور البصيرة الذي ذكر في الآية السابقة. فالمؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام، يسمع القرآن بقلب حاضر، فيدرك بعقله وقلبه حقائق الوعد والوعيد، فيرتجف خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في رحمته. هذا الاقشعرار ليس ضعفًا ولا مرضًا، بل هو صحة وقوة إيمانية. وهو شبيه بحال الأرض الخصبة عندما ينزل عليها الماء، فإنها تهتز وتربو وتستعد للإنبات. قال تعالى: "وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (الحج: 5).

الأمر الثالث: الانتقال من الخوف إلى الطمأنينة - "ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكرِ اللهِ"

هذا هو الجانب الآخر من المشهد، وهو جانب الجمال والرحمة والرجاء. بعد حالة الاقشعرار والخوف، تأتي حالة اللين والسكون والطمأنينة.

· "ثُمَّ تَلِينُ": "ثم" تفيد التراخي والانتقال من حال إلى حال. فبعد أن استمعوا إلى آيات الوعيد فاقشعروا منها، ينتقلون إلى سماع آيات الوعد والترغيب والرحمة، "فَتَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ". اللين هو السكون والطمأنينة والانشراح.
· "إِلَىٰ ذِكرِ اللهِ": أي عند سماع آيات رحمة الله ومغفرته وجنته، وعند ذكر أسمائه الحسنى وصفاته الجميلة (الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود). فعندما يسمع المؤمن ذكر الجنة ونعيمها، ووعد الله بالمغفرة، تلين نفسه، وتسكن جوارحه، ويمتلئ قلبه رجاءً وأملا ً وطمأنينة.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية ترسم لنا المنهج المتوازن الذي ينبغي أن نعيشه مع القرآن. نحن بحاجة إلى الخوف لتردعنا عن المعاصي، ونحن بحاجة إلى الرجاء لتدفعنا إلى الطاعات وتملأ قلوبنا أملا ً. الخشية والرجاء هما جناحا الإيمان. واجتماعهما عند تلاوة القرآن هو علامة على القلب الحي السليم، الذي يستجيب لآيات الله بكل جوارحه. هذا القلب هو الذي عمره الله بالإيمان، وهو الذي يكون من "عُمَّارِ مَسَاجِدِ اللهِ" الحقيقيين، ليس فقط بعمارة الأبنية، بل بعمارة القلوب بذكر الله وخشيته. قال تعالى: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (التوبة: 18). فالمؤمن لا يخشى إلا الله، ولا يخاف من الجن أو الأصنام أو غيرها كما يفعل المشركون الذين ورثوا خرافات الآباء، واتخذوا التماثيل وسطاء بزعمهم. المؤمن الحق قد تخلص من كل خوف غير خوف الله، فاستحق الهداية.

الأمر الرابع: مصدر هذا التأثير - "ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ"

بعد أن وصف الله حال المؤمنين مع القرآن، يبين أن هذا الأثر العظيم ليس من عند أنفسهم، بل هو هدى من الله وتوفيق منه.

· "ذَٰلِكَ": إشارة إلى القرآن الذي نزل أحسن الحديث، وإلى حال الاقشعرار واللين الذي يحدث في قلوب المؤمنين.
· "هُدَى اللهِ": أي هو هداية الله وتوفيقه الخاص لعباده. فالقرآن نفسه هدى، ولكن الانتفاع به وتذوق حلاوته والتأثر بآياته، هو هدى خاص من الله يمن به على من يشاء.
· "يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ": أي يهدي بهذا القرآن من يشاء من عباده، وهم الذين سبق في علمه أنهم أهل للهداية، لما لديهم من استعداد ورغبة وإقبال على الحق. فالله يهدي بالقرآن من أقبل بقلبه، وفتح صدره، وألقى السمع وهو شهيد.

العلاقة بين المشيئة الإلهية والفعل الإنساني:
هذه الآية لا تعني الجبر، بل تعني أن الهداية الحقيقية الكاملة التي تثمر هذه الآثار العظيمة في القلب، هي منحة من الله، يمن بها على من سعى بصدق لطلبها. فالذي يحضر بقلب خاشع، ورغبة صادقة، وعزيمة قوية، هو الذي يهديه الله بهذا القرآن، ويجعل لكلامه هذا الأثر في قلبه. أما الذي يحضر بشك وعدم رغبة وقلب قاس، فيزيده الله ضلالا ً، ولا يجد للقرآن أثرًا في نفسه.

الأمر الخامس: الخاتمة المحذرة - "وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"

تختم الآية ببيان الجانب المقابل: "وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ".

· "وَمَن يُضْلِلِ اللهُ": أي من يخذله الله ويكله إلى نفسه وهواه، بسبب إعراضه عن الحق وعناده واستكباره وعدم رغبته في الهداية.
· "فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ": أي لا يوجد أحد يستطيع أن يهديه أو يخرجه من ظلمات ضلاله إلى نور الهداية. فلا نبي ولا ولي ولا كتاب ينفعه بعد أن ختم الله على قلبه. وهذا تحذير رهيب من قسوة القلب وا لإعراض عن الذكر.

الربط بمشهد المشركين:
هؤلاء المضلون هم كالمشركين الذين لم يكونوا ينكرون وجود الله والملائكة، ولكنهم أنكروا اليوم الآ خر، واتبعوا أهواءهم وخرافات آبائهم، فجعلوا لله أندادًا، وعبدوا الأصنام على أنها صور الملائكة لتقربهم إلى الله زلفى. فبسبب انحرافهم وعدم رغبتهم في الحق، أضلهم الله، فما لهم من هاد. وشتان بين قلوبهم القاسية التي لا تتأثر بالقرآن، وقلوب المؤمنين التي تقشعر وتلين لذكر الله.

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

١.المفاهيم العملية من الآية:

· الإعداد لاستقبال القرآن: بالتأهب والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والإنصات، وحضور القلب.
· التدبر أثناء التلاوة: عدم الاكتفاء بتحريك اللسان، بل البحث عن معاني الآيات، والتفاعل معها قلبًا وقالبًا.
· ترجمة التأثر إلى عمل: الاقشعرار واللين ليسا غاية في حد ذاتهما، بل هما وسيلة لدفع الإنسان إلى العمل الصالح واجتناب المعاصي.
· التخلص من كل خوف غير خوف الله: تحرير القلب من الخوف من المخلوقات (جنًا أو إنسًا) أو من المستقبل أو الفقر، وجعل الخوف كله لله وحده.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: علاج أمراض القلوب: القرآن شفاء للقلوب من أمراض الشك والقسوة والغفلة والحسد. فالإ قبال عليه بتدبر يورث الطمأنينة والسكينة والسلام الداخلي. قال تعالى: "وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" (الإسراء: 82).
· تربويًا: تحقيق التوازن بين الخوف والرجاء: الآية تعلمنا كيف نجمع في قراءة القرآن بين خشية الوعيد ورجاء الوعد، وهذا هو منهج التربية النبوية الذي يبني الشخصية السوية.
· سلوكيًا: تعظيم القرآن واحترامه: إذا أيقنا أنه "أحسن الحديث"، فإننا سنتعامل معه بكل أدب وخشوع، لا نجعله وراءنا ظهريًا، ولا نقرؤه بقلب لاهٍ.

٣.أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: الآية ترسم صورة المؤمن الكامل في تعامله مع القرآن، وتصف حالته القلبية والجسدية ، وتدله على طريق تزكية نفسه.
· البعد الإيماني: الآية تؤكد على الإعجاز البياني والتأثيري للقرآن، وأن هذا التأثير هو دليل على أنه ك لام الله حقًا.
· البعد الدعوي: الآية تفرق بين الصنفين من الناس في تلقي القرآن، مما يساعد الداعية على فهم أسباب قبول الحق ورفضه.

٤.القيم المستخلصة:

· قيمة القرآن المطلقة كأحسن الحديث.
· قيمة الخشية من الله كمفتاح للانتفاع بالقرآن.
· قيمة التوازن بين الخوف والرجاء.
· قيمة الهداية الإلهية التي لا تنال إلا بتوفيق الله.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان القرآني: هو إنسان حي القلب، خاشع، متدبر، متوازن. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.
· بناء مجتمع القرآن: مجتمع يتلوا أفراده القرآن ويتدبرونه ويتأثرون به، فيسود فيه الخوف من الله والرجاء في رحمته. هذا مجتمع آمن مطمئن، بعيد عن الجريمة والفساد، لأن أفراده تربوا على الخشية والمراقبة.
· بناء حضارة القرآن: حضارة تقوم على العلم والمعرفة والعدل والرحمة، لأن القرآن هو مصدرها ودستورها. إنها حضارة النور، التي تهدي البشرية إلى طريق الرشاد.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

١.التربية على استقبال القرآن بالقلب قبل الأذن.
٢.التربية على التفاعل الوجداني مع آيات القرآن) خوفًا ورجاءً.(
٣.التربية على جعل القرآن شفاءً ودواءً لأمراض النفس.
٤.التربية على طلب الهداية من الله وحده، والتوكل عليه في الفهم والانتفاع.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

1.عند الشروع في تلاوة القرآن: خذ لحظة للتأهب والاستعداد .استعذ بالله من الشيطان الرجيم . قل بقلبك: "اللهم إني أريد أن أستمع إلى أحسن حديثك، فاشرح صدري له، واجعل في قلبي نورًا لأ فهمه وأتدبره".
2.أثناء التلاوة: إذا مررت بآية وعيد أو عذاب، قف وتأثر .استشعر هول الموقف .اقشعر جلدك .وقل: "اللهم أجرني من النار" .وإذا مررت بآية وعد وجنة ورحمة، استبشر واطمئن .قل: "اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل".
3.بعد التلاوة: اسأل نفسك: هل شعرت بشيء من هذا الاقشعرار أو اللين؟ إذا كان الجواب لا، فراجع قلبك .هل هو قاسٍ؟ هل فيه شواغل تمنعه من التدبر؟ عالج قلبك بالذكر والاستغفار .واسأل الله أن يرزقك التأثر بكتابه.
4.في تعليم القرآن لأبنائك: لا تعلمهم مجرد التلاوة والأحكام، بل علمهم كيف يتفاعلون مع القرآن بقلوبهم .اقرأ لهم قصة من قصص القرآن، وأشركهم وجدانيًا: "تخيلوا أنكم ترون هذا المشهد ...كيف سيكون شعوركم؟" .علمهم أن القرآن ليس مجرد كلمات، بل هو حياة للقلوب.
5.في التغلب على قسوة القلب: إذا شعرت أن قلبك لا يتأثر بالقرآن، فالزم الاستغفار والتوبة، وأكثر من ذكر الموت والقبر، وجالس الصالحين، واجتهد في قيام الليل ولو بركعات قليلة، وادعُ الله بإخلاص أن يلين قلبك .فالقرآن شفاء، ولكن بشرط: "لِلْمُؤْمِنِينَ".

ختامًا، أيها العبد المؤمن، لقد أنزل الله لك أحسن الحديث، وجعله لك هدى وشفاء ورحمة. فلا تحرم نفسك من بركاته. أقبل عليه بقلبك وقالبك، وتأثر بآيات وعيده ووعده، واجعل جلدك يقشعر من خشيته، ثم يلين لرحمته. واعلم أن هذا كله من هدى الله، يهدي به من يشاء من عباده الصادقين. فكن منهم، تسعد في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد عظيمة: مشهد المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام فصاروا على نور من ربهم، ومشهد القاسية قلوبهم الذين استحقوا الويل والضلال. ورأينا كيف أنزل الله أحسن الحديث، القرآن الكريم، فكان هدى للمتقين، تقشعر منه جلودهم ثم تلين قلوبهم لذكر الله. والآن، بعد هذا البيان، يأتي مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، مشهد يصور عذاب الكافرين بأسلوب يرتجف له القلب، ويقيم الحجة على الظالمين. إنه مشهد يربط بين جريمة الكفر والظلم وعقوبتها العادلة، ويدفع كل عاقل إلى السؤال: أين أنا من هذين المصيرين؟

دعنا نعيش مع هذه الآية الكريمة، ونتأمل مشهدها الرهيب، ونستخلص عبرتها.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الزمر:[24
أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - مشهد العذاب والعدالة الإلهية

لنقف مع كل مقطع من هذه الآية الكريمة، ونستخرج دررها وعبرها.

الأمر الأول: الاستفهام التقريري المرعب - "أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"

تبدأ الآية باستفهام تقريري بليغ: "أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ". هذا الاستفهام ليس للاستعلام، بل هو للتقرير والإنكار والتعجب من حال هذا الشقي. والجواب المحذوف مفهوم: أهذا مثل من هو في نعيم وأمان؟ أو أهذا يرضى لنفسه هذا المصير؟

أ. مشهد الإهانة والعجز: "يَتَّقِي بِوَجْهِهِ"

· "يَتَّقِي": أي يدفع ويحمي نفسه .فهو في حالة دفاع يائس.
· "بِوَجْهِهِ": هذا هو بيت القصيد في المشهد! الوجه هو أشرف أعضاء الإنسان، وهو الذي يُصان ويُحمى في الدنيا .الإنسان في الدنيا إذا واجهه خطر، أول ما يحمي به نفسه هو يديه وذراعيه، ويجعل وجهه آخر ما يتعرض للأذى .فكيف إذا صار الوجه هو أداة الاتقاء الوحيدة؟! إنه مشهد يعبر عن الإ هانة المطلقة والعجز التام والذل المهين .فالكافر في ذلك اليوم لا يجد ما يتقي به عذاب النار إلا وجهه الكريم .وهذا غاية في الخزي والفضيحة.
· "سُوءَ العَذَابِ": أي أشده وأفظعه .والعذاب كله سوء، ولكن وصفه بـ "سوء" يزيده بشاعة وقبحًا.

ب. اللمسة البيانية والمقارنة مع آيات أخرى:
هذا المشهد يذكرنا بآيات أخرى تصور عذاب الكافرين، وتقارنه بنعيم المؤمنين:

· في الآية (16) وصف الله عذابهم: "لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" .فهناك إحاطة كاملة بالنار من كل جانب .فكيف يتقي هذا المحاط وجهه؟
· في مقابل ذلك، نعيم المؤمنين في الآية(20) : "لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" .انظر الفرق: أولئك في ظلل من النار محيطة، وهؤلاء في غرف عالية فوقها غرف، وتحتها أنهار.
· وفي آية أخرى: "أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ") فصلت: .(40 فشتان بين الأ من والإلقاء على الوجه.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا المشهد المرعب يوقظ القلب من غفلته. إنه يخاطب في الإنسان غريزة حب الذات والكرامة. كيف ترضى لنفسك - أيها العاقل - أن يكون وجهك الذي هو عنوان كرامتك وشرفك، هو أول ما يلقى النار ويدفع به العذاب؟! أليس هذا دافعًا قويًا لترك المعاصي والتوبة والإنابة؟ إنه تصوير فني بليغ يحرك المشاعر ويحفز على العمل.

مثال تقريبي:
تخيل رجلا ً في معركة، بدل أن يحمي وجهه بدرع أو بيديه، يلقي بوجهه أولا ً ليلتقي سهام العدو وسيوفه. هذا هو غاية العجز والاستسلام والإهانة. هذا هو حال الكافر يوم القيامة.

الأمر الثاني: تقرير العدل الإلهي - "وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ"

بعد عرض المشهد، يأتي القول الفصل الذي يبين سبب هذا العذاب، ويقرر عدل الله المطلق.

· "وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ": هذا القول يصدر من خزنة جهنم أو من الله توبيخًا لهم .ووصفهم بـ "الظَّالِمِينَ" يدل على أن العذاب لم يكن جزافًا، بل كان بسبب ظلمهم .والظلم هنا هو الشرك بالله، وهو أعظم الظلم، كما قال تعالى: "إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ") لقمان: .(13 ويشمل أيضًا كل معصية وعدوان على حقوق الله وحقوق العباد.
· "ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ": هذا القول يحمل معاني عدة:
· التوبيخ والتقريع: فهو تذكير لهم بما كانوا يعملونه في الدنيا من كفر ومعاصٍ وطغيان، ليكون عذابهم عذابًا نفسيًا فوق كونه جسديًا.
· بيان عدل الله: العذاب ليس ظلمًا، بل هو نتيجة مباشرة لأعمالهم التي كسبوها بأيديهم .فهم الذين جنوا على أنفسهم، وما الله بظلام للعبيد .قال تعالى: "ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ") آل عمران:.(182
· ربط العذاب بالكسب: كلمة "تكسبون" تدل على أن أعمالهم كانت باختيارهم وإرادتهم، وأنهم سعوا فيها وجدوا واجتهدوا .فكما كسبوا السيئات في الدنيا، يكسبون العذاب في الآخرة.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية تعلمنا قانون الجزاء العادل: "الجزاء من جنس العمل". فما تزرعه اليوم تحصده غدًا. إنها تزرع في النفس الشعور بالمسؤولية عن كل عمل صغير أو كبير. وتدعونا إلى مراجعة مكاسبنا: ماذا

نكسب اليوم؟ هل نكسب طاعات تقربنا إلى الجنة، أم نكسب معاصي تقربنا إلى النار؟ إن التذكير بأن العذاب هو "ذوق" لما "كسبت" الأيدي يبعث على الحذر الشديد.
ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· استحضار مشهد العذاب عند الهم بالمعصية: عندما تغريك نفسك بمعصية، تذكر هذا المشهد: "أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ" .تصور نفسك وأنت تدفع النار بوجهك، فهذا يبرد الشهوة ويقوي العزيمة على الترك.
· محاسبة النفس على المكاسب: قبل النوم، راجع أعمال يومك .اسأل نفسك: ماذا كسبت اليوم؟ خيرًا أم شرًا؟ واجعل هذا السؤال ميزانًا يوميًا.
· المسارعة في التوبة: العلم بأن العذاب هو جزاء ما نكسبه من سيئات، يدفع إلى المبادرة بالتوبة ومحو السيئات قبل فوات الأوان.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: توليد الخوف المحمود: الآية ترسم صورة ذهنية مرعبة، فتثير في النفس الخوف من عاقبة الظلم والمعاصي .وهذا الخوف المحمود يدفع للاستقامة والصلاح.
· تربويًا: التربية على تحمل المسؤولية: ربط العذاب بـ "ما كنتم تكسبون" يغرس في النفوس مبدأ المسؤولية الفردية، فلا يتكل أحد على نسبه أو شفاعة أحد بغير حق.
· سلوكيًا: حفظ الجوارح عما يغضب الله: العلم بأن الوجه يتقي النار يذكرنا بضرورة حفظ وجوهنا عن السجود لغير الله، وعن النظر إلى الحرام، وعن أكل الحرام، لئلا تكون هذه الجوارح سببًا في عذابنا يوم القيامة.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد الفردي: الآية تبني ضميرًا حيًا لدى الفرد، يذكره دائمًا بعواقب أعماله، ويحفزه على فعل الخير وترك الشر.
· البعد الاجتماعي: الإيمان بأن الله عادل، وأن كل ظالم سيلقى جزاءه، يبث في المجتمع روح العدالة والمساواة، ويردع النفوس عن الظلم والتعدي على حقوق الآخرين.
· البعد الإيماني: الآية تؤكد حقيقة البعث والجزاء، وتقرر عدل الله المطلق، مما يعمق الإيمان باليوم الآ خر في القلب.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة العدالة الإلهية.
· قيمة المسؤولية الفردية.
· قيمة حفظ الكرامة الإنسانية) التي تهان يوم القيامة للظالمين.(
· قيمة الخوف من عذاب الله.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان التقي الخائف من الله: هذا الإنسان يراقب خطواته، ويحاسب نفسه، ويبتعد عن الظلم، لأنه يخشى أن يلقى الله وهو من الظالمين، فيكون مصيره أن يتقي النار بوجهه.
· بناء مجتمع العدل والأمان: مجتمع يتربى أفراده على أن الظلم عاقبته وخيمة، وأن العدل هو أساس الملك .هذا المجتمع تسوده الطمأنينة، ويقل فيه الجريمة والفساد.
· بناء حضارة إنسانية راقية: حضارة تقوم على العدل، وتحريم الظلم، واحترام كرامة الإنسان .هذه هي أسس الحضارة الحقيقية التي تسعد البشرية.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

.١التربية على استحضار أهوال يوم القيامة لترقيق القلوب.
.٢التربية على ربط الأعمال بجزائها) قانون السببية الأخلاقي.(

.٣التربية على تحمل المسؤولية الفردية وعدم إلقاء التبعات على الآخرين.
.٤التربية على كراهية الظلم والظالمين.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

.1عند النظر في المرآة: تذكر أن هذا الوجه إما أن يكون في نعيم يوم القيامة) إذا كان من وجوه المؤمنين الناضرة إلى ربها ناظرة(، أو أن يكون أداة لاتقاء سوء العذاب) إذا كان من وجوه الكافرين .(فاحفظ وجهك عن السجود لغير الله، وعن أكل الحرام، وعن النظر للمحرمات.
.2عند الوقوع في معصية أو ظلم: بادر فورًا بالتوبة والاستغفار .وتذكر أنك إن مت على هذا الظلم، فقد تكون من الذين يقال لهم: "ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ" .فامحُ السيئة بالحسنة، ورد المظالم إلى أهلها.
.3عند رؤية مشهد مرعب أو سماع خبر عن عذاب: اربط ذلك بقلبك .قل: "اللّهم أجرني من عذابك يوم تبعث عبادك" .فهذا من تعاهد القلب بالخوف والرجاء.
.4في تربية أبنائك: لا تعودهم على الخوف من الناس فقط) الشرطي، المدير(، بل عودهم أيضًا على الخوف من الله ومن عذابه .قص عليهم قصصًا عن أهوال يوم القيامة بأسلوب مناسب لأعمارهم، لترسخ في نفوسهم قيمة التقوى.
.5في معاملاتك مع الآخرين: احرص على العدل، ولا تظلم أحدًا .تذكر أنك إن ظلمت، فإنك تظلم نفسك أولا ً، لأنك تكسب إثمًا سيكون وبالا ً عليك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.
ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هذه الآية الكريمة هي صرخة تحذير، وجرس إنذار. إنها تذكرك بأنك في هذه الدنيا في دار كسب وعمل، وستلقى غدًا جزاء ما كسبت. فاختر لنفسك: إما أن تكون من الذين يتقون العذاب بوجوههم خزيًا وذلا ً، وإما أن تكون من الذين يحشرون إلى الرحمن وفدًا، ويساقون إلى الجنة زمرًا. الطريق واضح، والعقل زاجر، والله غفور رحيم لمن تاب وأناب. فلا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، واجعل شعارك: "اللّهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا و الممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال".

المبحث السادس

. لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد من أهوال يوم القيامة، حيث يتقي الكافر سوء العذاب بوجهه، ويقال للظالمين: ذوقوا ما كنتم تكسبون. إنها مشاهد تزلزل القلوب، وتدعو كل عاقل إلى البحث عن طريق النجاة. والآن، وقبل أن تمضي بنا السورة إلى مشاهد أخرى من مشاهد الآخرة و الدنيا، تقف بنا الآيتان (25-26) على درس تاريخي بالغ الأهمية. إنهما تفتحان لنا سجل الأمم الغابرة، لتطلعنا على سنة الله في المكذبين، وتجعلان من التاريخ مرآة نرى فيها مصيرنا إن نحن سلكنا سبيلهم.

إنها آيتان تجمعان بين التسلية للنبي ﷺ، والتخويف للمشركين، والتذكير للمؤمنين. دعنا نعيش مع هاتين الآيتين الكريمتين، ونستلهم منهما دروس العبرة والعظة.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 25-26]

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - دروس من مدرسة التاريخ

لنقف مع كل مقطع من هاتين الآيتين، ونستخرج دررهما ورسائلهما التربوية والإيمانية.

الأمر الأول: جريمة التكذيب وسنة العذاب - "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" (آية 25)

تبدأ الآية بتذكير تاريخي موجز ولكنه بليغ: "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ".

· "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ": أي كذّب الأمم السابقة، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون، رسلهم فيما جاءوهم به من البينات والهدى. والتعبير بصيغة الماضي "كَذَّبَ" يدل على أنها سنة ماضية متكررة، وجريمة قديمة ارتكبها البشر عبر التاريخ. والضمير في "قَبْلِهِمْ" يعود إلى كفار قريش المعاصرين للنبي ﷺ. ففي هذا تذكير لهم بأنهم ليسوا أول من كذب الرسل، بل سبقهم إلى هذه الجريمة أقوام كثيرون.
· "فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ": الفاء تفيد السببية والتعقيب. أي أن نتيجة هذا التكذيب كانت إتيان العذاب. وقوله "مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" يصور لنا مشهدًا من غاية الغفلة والانخداع. إنهم كانوا في أمن ودعة، مستغرقين في تكذيبهم وعنادهم، يظنون أنهم في مأمن من العذاب، فإذا به يأتيهم

بغتة من حيث لا يحتسبون، ومن الجهة التي لا يتوقعون منها شرًا. وهذا أبلغ في الإيلام النفسي، وأدعى للاعتبار. فكم من أمة كانت في أوج قوتها وازدهارها، فجاءها أمر الله ليلا ً أو نهارًا، فدمرها تدميرًا.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا المقطع يعلمنا عدم الأمن من مكر الله. فالبطر والأمن والغفلة هي من علامات الهلاك. وعلى المؤمن أن يكون دائمًا على حذر، وأن يخاف أن يؤخذ على غرة. فالتاريخ مليء بالعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

مثال تقريبي:
تخيل لصًا محترفًا، يظن أنه أفلت من العقاب، وأن خطته محكمة. يعيش في أمن وفرح بمسروقاته. وفجأة، وبينما هو نائم في بيته، يداهمه رجال الشرطة من باب خلفي لم يكن يتوقعه، فيقبضون عليه. هذا هو حال المكذبين، يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

الأمر الثاني: طبيعة العذاب الدنيوي - الخزي والفضيحة - "فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا"

بعد أن ذكر إتيان العذاب مجملا ً، يفصل هنا طبيعة هذا العذاب الدنيوي: "فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا".

· "فَأَذَاقَهُمُ اللهُ": الإذاقة تدل على الإحساس المباشر والتجربة المريرة. فالعذاب لم يكن مجرد إخبار أو سماع، بل ذاقوه وأحسوا بمرارته وألمه. ونسبة الفعل إلى اسم الجلالة "اللهُ" تأكيد على أن هذا العذاب هو عقاب إلهي، وليس مجرد حوادث كونية عابرة.
· "الخِزْيَ": الخزي هو الذل والفضيحة والهوان. إنه عذاب معنوي قبل أن يكون ماديًا. لقد أذاقهم الله الهزيمة والقتل والسبي والتشريد، فكان ذلك خزيًا وفضيحة لهم على رؤوس الأشهاد، بعد أن كانوا في عزة ومنعة. فهذا قوم نوح أغرقوا، وقوم هود أهلكوا بالريح العقيم، وقوم صالح أخذتهم الصيحة، وقوم لوط خسف بهم وأمطرت عليهم حجارة من سجيل. كل أولئك أذاقهم الله الخزي في الدنيا، فصاروا عبرة للمعتبرين.
· "فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا": هذا القيد مهم جدًا. فهو يبين أن العذاب الدنيوي - مهما كان عظيمًا - هو عذاب محدود زائل، وهو مجرد مقدمة ونموذج مصغر للعذاب الأخروي الأكبر والأبقى.

الأمر الثالث: العذاب الأكبر المنتظر - "وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ"

بعد أن بين أن لهم عذابًا في الدنيا، ينتقل إلى بيان حقيقة أفظع: "وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ".

· اللام في "وَلَعَذَابُ": لام الابتداء للتوكيد. أي إن عذاب الآخرة لهو أكبر وأعظم.
· "أَكْبَرُ": صيغة تفضيل مطلقة، تدل على أن عذاب الآخرة يفوق عذاب الدنيا في الكم والكيف والمدة. فعذاب الدنيا مهما بلغ، فهو منقطع زائل، بينما عذاب الآخرة دائم أبدي. وعذاب الدنيا في جسوم فانية، وعذاب الآخرة في جسوم باقية لا تموت. وعذاب الدنيا قد يصحبه راحة أو نسيان، أما عذاب الآخرة فلا راحة فيه ولا فتور.

الربط بالسياق:
هذا يذكرنا بالآية (16): "لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ". وبالآية (24): "أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ". فكلها مشاهد من عذاب الآخرة الأكبر.

الرسالة التربوية:
الآية تدعونا إلى النظر إلى ما هو أبعد من اللحظة الراهنة. قد ينجو الظالم المكذب من العذاب في الدنيا، أو قد يصيبه بعضه، ولكن الأهم هو الآخرة. فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء. والعاقل من لا يغتر بإمهال الله له، بل يخاف العذاب الأكبر.

الأمر الرابع: علة الخسران - الجهل وعدم العلم - "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"

تختم الآية بهذا التعقيب الموجع: "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ".

· "لَوْ": حرف امتناع لامتناع. أي إنهم لم يكونوا يعلمون حقيقة الأمر، ولو كانوا يعلمون حق العلم لعملوا بما ينجيهم، ولما كذبوا الرسل، ولما استخفوا بالوعيد.

· ما هو العلم المنفي عنهم؟ إنه ليس مجرد العلم النظري السطحي، بل هو العلم النافع الذي يثمر في القلب خشية، وفي الجوارح طاعة. إنه علم اليقين، الذي يرى به الإنسان حقائق الأمور، ويعرف به عواقب الأفعال. إنهم قد بلغتهم أخبار الأمم السابقة، وسمعوا بآيات الله، ولكنهم لم "يعلموا" بمعنى أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا، فكانوا كمن لا يعلم. وهذا يربط بقوله في الآية (9): "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ". فالعلم الحقيقي هو الذي يقود إلى العمل والنجاة.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الخاتمة تفتح الباب واسعًا أمام أهمية طلب العلم النافع، العلم الذي يورث الخشية واليقين. فليست العبرة بكثرة المعلومات، بل بما يحدثه العلم في القلب من تغيير وفي السلوك من استقامة. فـ الجهل هو أصل كل بلاء، والعلم النافع هو مفتاح كل خير.

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيتين

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيتين

١.المفاهيم العملية من الآيتين:

· الاتعاظ بالتاريخ: قراءة قصص الأمم السابقة والاعتبار بها، وعدم تكرار أخطائهم.
· عدم الأمن من مكر الله: الحذر من الغفلة والاغترار بالدنيا وزخرفها، والعيش في حالة ترقب ويقظة.
· التفريق بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة: جعل الخوف من عذاب الآخرة هو المحرك الأساسي للسلوك ، لأنه أكبر وأبقى.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: توليد الخوف واليقظة: الآيتان تثيران في النفس الخوف من أخذ الله المباغت، مما يدفع إلى المراقبة الدائمة والاستعداد الدائم.
· تربويًا: تعليم سنة الأخذ والعطاء: إن الله يملي للظالمين، ولكن أخذه أليم شديد. هذه السنة الإلهية يجب أن تدرس وتكرس في الأذهان.
· سلوكيًا: طلب العلم النافع: الإيمان بأن سبب هلاك الأمم هو الجهل (لو كانوا يعلمون) يدفع إلى طلب العلم الشرعي النافع الذي ينير البصيرة.

٣.أبعاد وآفاق الآيتين:

· البعد التاريخي: الآيتان تؤسسان لـ فلسفة التاريخ في الإسلام، والتي ترى أن التاريخ ليس مجرد أحداث عابرة، بل هو مليء بالعبر وسنن الله الثابتة.
· البعد الإيماني: تعزيز الإيمان بعدل الله وقدرته، وأنه لا يظلم أحدًا، وأن عذابه للمكذبين هو جزاء وفاق لما كسبت أيديهم.
· البعد الدعوي: الآيتان تسليان النبي ﷺ والمؤمنين، وتبينان أن تكذيب قريش ليس بدعًا في التاريخ، وأن العاقبة للمتقين.

٤.القيم المستخلصة:

· قيمة الاعتبار بالتاريخ.
· قيمة الحذر والتيقظ وعدم الأمن من مكر الله.
· قيمة العلم النافع الذي يورث الخشية والعمل.
· قيمة النظر إلى العواقب والمآلات.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان الواعي المستنير: الذي يقرأ التاريخ بعين البصيرة، فيتعظ بأحداثه، ويتجنب مسالك الهالكين. هذا الإنسان لا يغتر بالدنيا، ولا يأمن العقوبة، فهو دائم الاستعداد للقاء الله.
· بناء مجتمع متعلم معتبر: مجتمع يدرس التاريخ في ضوء السنن الإلهية، فيعرف أسباب سقوط الأمم والحضارات (الكفر، الظلم، الترف، التكذيب)، فيتجنبها. هذا المجتمع يكون حصنًا منيعًا ضد عوامل الهلاك.
· بناء حضارة العلم والعمل: الحضارة التي تقوم على العلم النافع لا على الجهل والتقليد الأعمى. علم

يدفع إلى العمل والإصلاح، لا إلى الغرور والبطر. هذه الحضارة هي التي تستحق البقاء والتمكين.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيتان

١.التربية على الاعتبار بالتاريخ وقصص الأولين.
٢.التربية على الخوف من العذاب الإلهي المباغت.
٣.التربية على عدم الاغترار بالدنيا ومتعها الزائلة.
٤.التربية على طلب العلم النافع المؤدي إلى اليقين والعمل.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيتين على الواقع في حياتنا العملية

1.عند قراءة التاريخ أو الأخبار: لا تمر عليها مرور الكرام .تأمل في قصص الهالكين، واسأل نفسك: لماذا هلكوا؟ ما هي أخطاؤهم؟ وكيف أتجنبها في حياتي؟ قال تعالى: "قَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ") يوسف:.(111
2.في أوقات الرخاء والأمن: لا تغتر ولا تأمن .تذكر أن العذاب قد يأتي "مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ" .كن دائمًا على صلة بالله، محافظًا على الفرائض، بعيدًا عن المعاصي، شاكرًا للنعم .فالشكر هو صمام الأمان من زوال النعم.
3.عند رؤية الظالمين وهم في نعيم: لا تغتر بهم، ولا تظن أن الله غافل عنهم .تذكر أن عذاب الدنيا الذي قد يصيبهم هو خزي، ولكن عذاب الآخرة أكبر .اصبر على أذاهم، واعمل لآخرتك.
4.في طلبك للعلم: لا تكن همك جمع المعلومات والثقافة فقط .بل اطلب العلم الذي يغير قلبك وسلوكك .عندما تتعلم آية أو حديثًا، اسأل نفسك: كيف سأطبق هذا في حياتي اليوم؟ هذا هو العلم النافع الذي أراده الله بقوله: "لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ".
5.في تربية أبنائك: قص عليهم قصص الأمم السابقة بأسلوب مبسط، واربطها بالواقع المعاصر .علمهم أن الطغيان والكفر والظلم عواقبها وخيمة، وأن النجاة في طاعة الله واتباع رسله.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هاتين الآيتين الكريمتين تفتحان لك نافذة على الماضي، لترى فيها مستقبلك. إنهما تقولان لك: انظر إلى الأمم من قبلك، ماذا فعلوا؟ وماذا كان مصيرهم؟ واعلم أن السنة لا تحابي أحدًا، وأن الجزاء من جنس العمل. فاختر لنفسك طريق النجاة، وكن من "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ"، وكن من "الَّذِينَ يَعْلَمُونَ" حقًا، فتعمل بعلمك، وتخاف ربك، وتتقي عذابه.

المبحث السابع

. لقد وقفنا في الآيات السابقة على موقف المكذبين الذين أخذهم العذاب من حيث لا يشعرون، ورأينا كيف أقام الله الحجة عليهم بضرب الأمثال. والآن، وقبل أن نصل إلى المثل العظيم الذي ضربه الله للتوحيد والشرك في الآية (29)، تأتي هاتان الآيتان الكريمتان (27-28) لتقررا منهجية القرآن الكريم في الدعوة والتعليم، ولتبينا الحكمة من تنوع أساليبه، ولتؤكدا على صفاته الكاملة التي تجعله كتاب هداية لا عوج فيه. إنهما آيتان تفتحان لنا نافذة على عظمة هذا الكتاب، وتبينان لنا كيف ننتفع به لنكون من المتقين. دعنا نعيش معهما ونتدبر معانيهما.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:27 -28]

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - منهج القرآن في الهداية وصفاته الكاملة

لنقف مع كل مقطع من هاتين الآيتين، ونستخرج دررهما ورسائلهما التربوية والإيمانية.

الأمر الأول: منهج ضرب الأمثال وغايته - "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (آية 27)

تبدأ الآية بتأكيد قاطع على منهج قرآني أصيل في تربية العقول والقلوب: ضرب الأمثال.

· "وَلَقَدْ": الواو للقسم، واللام للابتداء، و"قد" للتحقيق .كل هذه المؤكدات تجتمع لتفيد توكيد الخبر وتقريره، وأن ما سيذكر هو حقيقة ثابتة لا ريب فيها.
· "ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ": الفعل "ضربنا" بصيغة الجمع للتعظيم، يدل على عظمة من ضرب المثل وهو الله سبحانه وتعالى .والتعبير "للناس" يشمل جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، عربهم وعجمهم .فالأمثال القرآنية موجهة للبشرية جمعاء، لأنها تخاطب الفطرة والعقل المشترك.

· "فِي هَٰذَا القُرْآنِ": أي في هذا الكتاب المعجز، الذي هو أحسن الحديث) كما في الآية .(23 فهو موطن هذه الأمثال ومنبعها.
· "مِن كلِّ مَثَلٍ": أي من كل نوع وصنف من الأمثال التي يحتاجها الناس في أمور دينهم ودنياهم . ففيه أمثال عن التوحيد والشرك، وعن الحياة والموت، وعن الجنة والنار، وعن المؤمن والكافر، وعن الحق والباطل .إنها شمولية وتنوع مذهل يغطي كل جوانب الحياة، ويقيم الحجة بكل وسيلة.
· "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ": هذه هي الغاية والحكمة من ضرب هذه الأمثال الكثيرة المتنوعة: التذكر والاتعاظ . فالأمثال تقرب المعاني البعيدة، وتجعل المجردات محسوسة، مما يوقظ العقل الغافل، ويهز الفطرة النائمة، ويدفع الإنسان إلى الاعتبار والرجوع إلى الحق.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية تعلمنا قيمة الأمثال في التربية والتعليم. فالإنسان بطبيعته يتأثر بالصور المحسوسة أكثر من الكلام المجرد. ولذلك، ينبغي للدعاة والمربين أن يستخدموا أسلوب ضرب الأمثال لتقريب المعاني وترسيخها في الأذهان. والقرآن هو النموذج الأعلى في هذا المنهج.

الربط بالآيات السابقة واللاحقة:
هذه الآية تمهد للآية (29) حيث ضرب الله مثلا ً للتوحيد والشرك: "ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ...". وتذكرنا أيضًا بأمثال سابقة في السورة، كمثل إنزال الماء من السماء (21)، ومثل شرح الصدر وقسوة القلب (22). وكلها أمثلة من "كُلِّ مَثَلٍ" ضربه الله في هذا القرآن.

الأمر الثاني: صفات القرآن الكامل وغايته العظمى - "قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" (آية 28)

بعد أن بين الله أنه ضرب في القرآن من كل مثل، يصف القرآن نفسه بصفات تجعله أهلا ً لأن يكون كتاب الأمثال والهداية.

· "قُرْآنًا": هذا حال منصوب مؤكدة لـ "هَٰذَا القُرْآنِ" .فهو كتاب مقروء ومتلو، تتجدد تلاوته ولا يخلق على كثرة الرد.
· "عَرَبِيًّا": أي بلغتكم العربية الفصحى المبينة .وهذه منة عظيمة على العرب وعلى الأمة الإسلامية، إذ أنزله بلغتهم ليفقهوه ويتدبروه بسهولة .قال تعالى: "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ") يوسف: .(2 وفي هذا تكريم للغة العربية، ووجوب تعلمها لفهم الكتاب والسنة.
· "غَيْرَ ذِي عِوَجٍ": هذه هي الصفة الجامعة لكمال القرآن ."عِوَج" بكسر العين هو الانحراف والاختلال و التناقض في المعنى .فالقرآن ليس فيه تناقض بين آياته، ولا انحراف عن الحق والعدل، ولا اضطراب في أحكامه .كل معانيه مستقيمة صادقة، تهدي إلى الصراط المستقيم .قال تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا") الكهف:1 - .(2فهو كتاب معصوم من كل خلل ونقص.
· "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ": هذه هي الغاية الكبرى والثمرة المرجوة من إنزال هذا القرآن بهذه الصفات الكاملة . فمن قرأ هذا القرآن العربي المبين، المستقيم المعاني، وتدبر أمثاله وآياته، فإنه يصل إلى التقوى، وهي الخوف من الله ومراقبته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه .والتقوى هي جماع الخير وسبب النجاة في الدنيا والآخرة.

الفرق بين غايتي الأمثال والقرآن:

· غاية الأمثال: "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" .وهي خطوة أولى: التذكر والاعتبار، وإيقاظ العقل والفطرة.
· غاية القرآن كله: "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" .وهي الخطوة النهائية: تحقيق التقوى، والوصول إلى مرضاة الله، و الفوز بالجنة والنجاة من النار.
فالأمثال وسيلة من وسائل القرآن للوصول إلى غاية التقوى.
ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيتين

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيتين

.١المفاهيم العملية من الآيتين:

· تدبر أمثال القرآن: تخصيص وقت للبحث عن الأمثال القرآنية وفهم مغزاها، والاعتبار بها.
· استخدام أسلوب ضرب الأمثال في الدعوة والتعليم: تقريب المعاني للناس بضرب الأمثلة من واقعهم وحياتهم اليومية.
· الرجوع إلى القرآن بتدبر: لجعله دستور حياة، بهدف تحقيق التقوى في كل جوانب الحياة.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: إثارة التأمل والتفكر: الأمثال القرآنية تحفز العقل على التفكير والربط والمقارنة، مما يورث اليقظة الذهنية والروحية.
· تربويًا: ترسيخ المعاني في الأذهان: الأمثال تجعل المفاهيم المجردة) كالتوحيد والشرك (صورًا محسوسة، فتسهل فهمها وتثبت في الذاكرة والوجدان.
· سلوكيًا: الدفع إلى العمل: التذكر) يثمره المثل (والتقوى) يثمرها القرآن (كلاهما يدفعان إلى تغيير السلوك والعمل بما علم.

.٣أبعاد وآفاق الآيتين:

· البعد البياني: إبراز الإعجاز البياني والتربوي للقرآن في تنوع أساليبه، ومنها أسلوب ضرب الأمثال.
· البعد الإيماني: تعزيز اليقين بكمال القرآن واستقامته، وأنه الكتاب الوحيد الذي لا عوج فيه.
· البعد الدعوي: وضع منهج متكامل للدعوة إلى الله، قائم على ضرب الأمثال وتقريب المعاني وربطها بالواقع.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة الأمثال في التربية والتعليم.
· قيمة القرآن الكريم واستقامته المطلقة.
· قيمة التذكر والاعتبار.
· قيمة التقوى كغاية عظمى للقرآن.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان المتذكر التقي: هو إنسان حي العقل والقلب، يتأثر بأمثال القرآن، فيتذكر ويعتبر، ثم يرتقي إلى مرتبة التقوى .هذا هو الإنسان الكامل الذي يصلح للاستخلاف في الأرض.
· بناء مجتمع القرآني: مجتمع يقوم أفراده على تدبر القرآن وفهم أمثاله، فيسود فيه التذكر والاعتبار، وتنتشر ثقافة التقوى في العلاقات والمعاملات.
· بناء حضارة البيان والعقل: الحضارة الإسلامية قامت على القرآن العربي المبين، فازدهرت فيها علوم اللغة والبيان، وعلوم العقل والمنطق، لأن القرآن يدعو إلى التعقل والتدبر وضرب الأمثال .إنها حضارة تجمع بين العقل والروح.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيتان

.١التربية على تدبر أمثال القرآن والاعتبار بها.
.٢التربية على تعظيم القرآن وتوقيره لاستقامته وكماله.
.٣التربية على استخدام أسلوب ضرب الأمثال في التعليم.
.٤التربية على جعل التقوى هدفًا أسمى في الحياة.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيتين على الواقع في حياتنا العملية

.1عند قراءة القرآن: انتبه بشكل خاص إلى الأمثال القرآنية .ابحث عن وجه الشبه بين المثل والممثّل له .تأمل كيف قرب الله لك الحقائق الإيمانية الكبرى .واجعل لكل مثل وقفة تدبر وتفكر.
.2في تعليمك لأبنائك أو طلابك: عندما تريد تعليمهم قيمة أخلاقية أو عقيدة، اضرب لهم مثلا ً من حياتهم .مثلا ً: لتقريب معنى الإخلاص، قل: "تخيل أنك تلعب مباراة كرة قدم، وأنت تلعب من أجل مدرب واحد يحبك ويشجعك، فكيف يكون أداؤك؟ وكيف لو كان هناك عدة مدربين يطلب كل منهم شيئًا مختلفًا؟" .هذا يجعل المعنى قريبًا من قلوبهم.
.3في دعوتك للآخرين: استخدم أسلوب الأمثال الواقعية .فالله قال: "وَلَقدْ ضَرَبْنَا لِلنَاسِ فِي هَٰذَا القُرْآنِ مِن كلّ مَثَل" .وهذا منهج رباني .لا تكن جافًا في كلامك، بل قرب المعاني ليفهمها الناس.
.4عند مواجهة الشبهات أو الأفكار المنحرفة: تذكر أن القرآن "غَيْرَ ذِي عِوَج" .فثق بأن الحق فيه واضح مستقيم .ارجع إليه، وتدبر آياته، واطلب من الله أن يريك الحق حقًا ويرزقك اتباعه.
.5في تقييم الكتب والأفكار البشرية: قارنها بالقرآن .فالقرآن هو الميزان المستقيم .فما وافقه فهو حق ، وما خالفه فهو باطل وعوج .وهذا يمنحك بوصلة فكرية لا تخطئ.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، لقد أنزل الله لك هذا القرآن العظيم، وجعله عربيًا مستقيمًا غير ذي عوج، وملأه بكل مثل يوقظ عقلك ويهدي قلبك. إنه يدعوك إلى التذكر لتنتبه من غفلتك، ويدعوك إلى التقوى لتفوز برضاه وجنته. فلا تمر على آياته مرور الكرام، بل تفكر في أمثاله، وتدبر معانيه، واجعله نبراس حياتك.
.

القسم الثاني
أيها المتدبر الكريم، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .لقد رأينا في الآية (27) كيف أن الله ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون .إنها دعوة مفتوحة للعقول والقلوب لتستيقظ من غفلتها، وتتدبر هذه الأمثال التي تنير الطريق .والآن، في هذه الآية الكريمة، يأتي أحد أروع الأمثال وأبلغها في القرآن كله .إنه مثل يرسم لوحة حية، ويصوغ حقيقة التوحيد والشرك في مشهد إنساني بسيط، تدركه الفطرة قبل العقل .إنه مثل يضع يدك على سر الطمأنينة والسلام، ويكشف لك سبب الحيرة والقلق.

تعالَ معي نتأمل هذا المثل الإلهي البديع، ونرى كيف يخاطب أعماقنا، وكيف يعلمنا أصول التربية و التعليم، وكيف يصحح مفاهيمنا عن الكثرة والغلبة.

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾] الزمر:[29

أولا ً: تحليل الآية ودلالاتها - مشهد التوحيد والشرك في مرآة إنسانية

لنقف مع كل كلمة من هذه الآية الكريمة، ونستخرج كنوزها ودروسها.

الأمر الأول: افتتاحية بلاغية تدعو للانتباه - "ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا"

تبدأ الآية بهذا الإعلان الإلهي: "ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا" .إنه ليس مجرد خبر، بل هو إيذان بأمر عظيم .الله سبحانه هو الذي يضرب المثل، فهو أعلم بخلقه وما يصلح لهم .إنه يريد أن يوقظنا، وأن يخاطبنا بلغة نفهمها، لغة المشاهد الحسية التي لا تحتاج إلى فلسفة ولا إلى تعقيد .فهل أنت مُصغٍ؟ هل أنت متأهب لاستقبال هذا المثل بقلبك وعقلك؟

الأمر الثاني: نموذج الشرك - "رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ"

هذا هو المشهد الأول .إنه مشهد البؤس والحيرة والاضطراب .تخيل معي:

· "رَجُلًا": هو عبد مملوك، إنسان ليس له حرية، مملوك لآخرين .إنه لا يملك نفسه، فكيف يملك قراره أو وقته أو عمله؟
· "فِيهِ": أي في ملكيته وخدمته ورقبته .إنه محل النزاع والخصومة بين مالكيه.
· "شُرَكَاءُ": أي جماعة من السادة يملكونه ملكية مشتركة .ليس له سيد واحد يرحمه، بل عدة سادة.
· "مُتَشَاكِسُونَ": هذه هي الكلمة القاتلة! متشاكسون أي مختلفون أبدًا، متنازعون دائمًا، سيئو الأخلاق في تعاملهم مع بعضهم ومع عبدهم .كل واحد منهم له رأي، وله طلب، وله أمر .هذا يأمره بالذهاب شرقًا، وذاك يأمره بالذهاب غربًا .هذا يريد منه أن يخدمه في هذا الوقت، وذاك يريده في نفس الوقت .لا اتفاق بينهم، ولا رحمة عندهم.

ما هو حال هذا العبد المسكين؟
إنه يعيش في جحيم لا يطاق .قلبه ممزق، وعقله مشتت، ووقته ضائع، وجهده مبذول فيما لا يرضي أحدًا .إنه يحاول إرضاء هذا فيغضب ذاك، ويحاول تلبية طلب ذاك فيهجر الآخرون .هو في حيرة دائمة، وقلق مستمر، وتعب لا ينقطع .لا يعرف الراحة ولا الطمأنينة .إنه نموذج للشخصية الممزقة المضطربة.

تطبيق المثل على المشرك:
هذا العبد البائس هو مثل المشرك الذي يعبد آلهة متعددة من دون الله .فهو يتعلق بأصنام، وبشر، وأهواء، ومصالح، وأوهام ...كل هذه الآلهة المزعومة تتجاذبه وتأمره بأوامر متضاربة .هواه يأمره بشيء، والمجتمع يأمره بشيء آخر، والعادة والتقاليد تأمره بثالث، وضغوط العمل تأمره برابع .عقله وقلبه في تشتت وتنازع دائم .إنه لا يعرف طعم السلام النفسي، ولا لذة اليقين القلبي.

مثال تقريبي من حياتنا:
تأمل موظفًا يعمل لدى عدة مدراء، كل واحد منهم متناقض مع الآخر، ويكره بعضهم بعضًا .ماذا ستكون حالته النفسية؟ إرهاق، قلق، خوف دائم من الخطأ، عدم استقرار وظيفي .هذا جزء يسير من حال المشرك الذي تتجاذبه الأهواء والآلهة المزعومة.

الأمر الثالث: نموذج التوحيد - "وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ"

والآن، انتقل معي إلى المشهد الثاني .إنه مشهد الوضوح والسلام والطمأنينة .تخيل معي:

· "وَرَجُلًا": هو عبد آخر، مملوك أيضًا.
· "سَلَمًا": هذه كلمة عظيمة ."سَلَم" تعني خالصًا، سالمًا، نقيًا .ليس فيه شركة ولا شائبة .هو مملوك بـ
الكامل لسيد واحد فقط، لا يشاركه فيه أحد .وهذا الخلوص يمنحه السلامة والسلام.
· "لِرَجُلٍ": أي لسيد واحد .هذا السيد هو مالكه الوحيد.

ما هو حال هذا العبد؟
إنه يعيش في سعادة وطمأنينة .يعرف سيده تمام المعرفة .يعرف ما يرضيه وما يسخطه .لديه جهة واحدة يطيعها، وغاية واحدة يسعى إليها .لا يوجد من ينازعه أو يتجاذبه .إنه يؤدي عمله بكل إتقان وإخلاص، لأن ولاءه خالص، وهدفه واضح .قلبه مطمئن، وعقله مستريح، وجوارحه منسجمة.

تطبيق المثل على الموحد:
هذا العبد السعيد هو مثل الموحد الذي أخلص دينه لله وحده .لقد حرر نفسه من عبودية كل ما سوى الله .هو لا يعبد إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا الله .قلبه اتصل بخالقه، فعاش في أنس وطمأنينة وسلام داخلي .هو يعرف أن مراده هو رضا الله وحده، فيسعى إليه في كل حركاته وسكناته .حياته بسيطة واضحة، مليئة بالثقة واليقين.

الفرق بين المشرك والموحد في كلمة:

· المشرك: يعيش في تشتت وصراع داخلي.
· الموحد: يعيش في انسجام وسلام داخلي.

فالتوحيد ليس مجرد كلمة تقال، بل هو منهج حياة يحرر النفس من التشتت والقلق، ويمنحها السكينة والطمأنينة.

الأمر الرابع: الاستفهام الإلزامي - "هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا"

بعد أن عرض الله المشهدين بكل وضوح وجلاء، يوجه إلينا السؤال الحاسم: "هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا" .إنه سؤال لا يحتاج إلى إجابة منا، لأن الإجابة فطرية بديهية، يصرخ بها كل عاقل: لا يستويان أبدًا! كيف يستوي من هو في حيرة وتعب وقلق، مع من هو في وضوح وسلام وطمأنينة؟ كيف يستوي من يعبد آلهة متشاكسة متفرقة، مع من يعبد إلهًا واحدًا أحدًا فردًا صمدًا؟ إنه استفهام للتقرير والتوبيخ، يهز ضمير المشرك، ويدعوه إلى مراجعة عقله وفطرته.

الأمر الخامس: تحميد الله على نعمة التوحيد - "الحَمْدُ لِلَّهِ"

بعد هذا البيان، تأتي جملة "الحَمْدُ لِلَّهِ" .إنها جملة معترضة، ولكنها تحمل أعظم المعاني:

· إنها تعليم من الله لعباده أن يحمدوه دائمًا على نعمة التوحيد .فالتوحيد هو أغلى ما نملك، وهو أساس كل خير.
· إنها تعبير عن كمال الله ووحدانيته .فهو وحده المستحق للحمد.
· إنها إعلان انتصار للحق، وأن حزب الله هم المفلحون.

الأمر السادس: بيان العلة - "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"

ثم تختم الآية بالحقيقة المرة: "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

· "بَلْ": للإضراب، للانتقال من حال وضوح الحق إلى حال إعراض الناس عنه.
· "أَكْثَرُهُمْ": أي معظم الناس.
· "لَا يَعْلَمُونَ": أي لا يدركون هذه الحقائق .هم يسمعون المثل، ويرون الصورة، ولكنهم لا يفقهون المغزى، ولا ينتفعون بالعبرة .لماذا؟ لأنهم جهلة، وقد عطلوا عقولهم واتبعوا أهواءهم وتقليد آبائهم .
وهنا درس عظيم: الحق لا يقاس بكثرة أتباعه .فالحق حق ولو كان أهله قليلين، والباطل باطل ولو كان أهله كثيرين .أكثر الناس لا يعلمون، والقلة هم أولو الألباب الذين يعلمون ويتذكرون.

ثانياً: أهمية المثل كأسلوب في التربية والتعليم

لقد تجلت في هذه الآية روعة الأسلوب القرآني في استخدام المثل كوسيلة تربوية .لماذا كان للمثل هذه الأهمية؟

.1تقريب المعاني المجردة إلى حسية: التوحيد والشرك مفاهيم عقدية مجردة .فحولها المثل إلى مشهد إنساني حي نراه بأعيننا ونحسه بوجداننا .فتحولت العقيدة إلى قصة مؤثرة.
.2مخاطبة الفطرة قبل العقل: المثل يوقظ الفطرة السليمة قبل أن يخاطب العقل المنطقي .فكل إنسان، بغض النظر عن مستواه الثقافي، يدرك بفطرته بؤس العبد المتنازع عليه، وسعادة العبد الخالص لسيد واحد.
.3سهولة الحفظ والاستذكار: المثل المصور يعلق بالذاكرة أكثر من الكلام النظري .فمن يسمع هذا المثل القرآني لا ينساه بسهولة، وكلما تذكره تذكر معنى التوحيد والشرك.
.4قوة الإقناع والإلزام: المثل يجعل الخصم يلزم نفسه بالحكم .فبعد عرض المشهدين، يأتي السؤال: "هل يستويان؟" .فلا يملك الخصم إلا أن يجيب: "لا" .وعندها يكون قد أقر ببطلان موقفه دون أن يشعر.

درس للدعاة والمربين:
إذا أردت أن تصل إلى قلوب الناس وعقولهم، فاستخدم أسلوب ضرب الأمثال .اقرب لهم المعاني البعيدة بمشاهد من حياتهم اليومية .فالقرآن الكريم هو مدرستنا الأولى في هذا المنهج التربوي العظيم.

ثالثاً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآية

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآية

.١المفاهيم العملية من الآية:

· تحقيق التوحيد الخالص: السعي لتكون عبدًا خالصًا لله وحده، لا تشرك معه أحدًا في عبادتك ولا في قصدك.
· تحرير النفس من التشتت: توحيد الهدف والغاية في الحياة، وجعل مرضاة الله هي البوصلة الوحيدة.
· عدم الاغترار بالكثرة: لا تستهويك كثرة الضالين، ولا تستوحش من قلة الصالحين .فالعبرة بالحق لا بـ العدد.

.٢المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: علاج القلق والتشتت: الآية تشخص سبب القلق) الشرك (وتصف العلاج) التوحيد .(فمن أراد الطمأنينة والسلام الداخلي، فليلزم التوحيد الخالص.
· تربويًا: استخدام أسلوب الأمثال في التربية: على المربين أن يستخدموا الأمثال والقصص لتقريب المعاني للطلاب والأبناء.
· سلوكيًا: الإخلاص والإتقان: استشعار أنك عبد خالص لله يدفعك إلى إتقان العمل وإخلاصه لله وحده ، بعيدًا عن الرياء والتشتت.

.٣أبعاد وآفاق الآية:

· البعد العقدي: تأصيل عقيدة التوحيد وتجذيرها في النفوس بأبلغ الأساليب.
· البعد النفسي: إبراز العلاقة الوثيقة بين التوحيد والصحة النفسية.
· البعد الاجتماعي: نقد ظاهرة اتباع الأكثرية دون تفكر أو تدبر.

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة التوحيد الخالص.
· قيمة الحرية النفسية من عبودية غير الله.
· قيمة العلم والفقه) أكثرهم لا يعلمون.(

· قيمة عدم الاغترار بالكثرة.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان السوي المتوازن: إنسان موحد، خالص لله، تحرر من القلق والتشتت .هذا هو الإنسان القادر على العطاء والبناء.
· بناء مجتمع موحد الهدف: مجتمع يجمع أفراده على عبادة الله وحده، فيكون مجتمعًا متماسكًا منسجمًا، لا تمزقه الأهواء ولا المصالح الضيقة.
· بناء حضارة الحق والعدل: حضارة لا تقوم على كثرة العدد أو قوة المادة، بل على الحق والعدل و التوحيد .هذه الحضارة هي التي تستحق البقاء والتمكين.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآية

١.التربية على التوحيد الخالص لله عز وجل.
٢.التربية على استعمال الأمثال في التعليم والإقناع.
٣.التربية على عدم قياس الحق بالكثرة.
٤.التربية على العلم النافع الذي يبدد الجهل والغفلة.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآية على الواقع في حياتنا العملية

1.في صباحك ومسائك: جدد توحيدك .قل: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم" .وتذكر أنك عبد خالص لله، فلا تدع لغير الله في قلبك موضعًا.
2.عندما تشعر بالقلق أو التشتت: اسأل نفسك: هل تعلقت بغير الله؟ هل جعلت لله أندادًا في الحب أو الخوف أو الرجاء؟ طهر قلبك، واجعل همك واحدًا: رضا الله .ستجد الطمأنينة تغمرك.
3.في تربية أبنائك: استخدم أسلوب الأمثال في تعليمهم .إذا أردت أن تعلمهم قيمة التعاون، اذكر لهم قصة .وإذا أردت أن تغرس فيهم التوحيد، اضرب لهم هذا المثل القرآني الرائع.
4.عندما ترى كثرة المنحرفين وقلة المستقيمين: لا تهن ولا تحزن .تذكر قوله: "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" . اثبت على الحق ولو كنت وحدك .فالناجي في السفينة هو من يتبع القبطان، لا من يتبع الركاب المتمردين.
5.في حوارك مع الآخرين: استخدم أسلوب ضرب الأمثال لتقريب وجهة نظرك .فهو أسلوب قرآني مؤثر، يفتح القلوب والعقول.
ختامًا، أيها العبد المؤمن، لقد ضرب الله لك هذا المثل ليوقظك من غفلتك، وليحررك من أسر الشرك و التشتت، وليدلك على طريق السلام والطمأنينة .إنه طريق التوحيد الخالص لله .فاختر لنفسك أن تكون "رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ"، تعبد الله وحده لا شريك له، مخلصًا له الدين .وعش في هذه الدنيا حميدًا، تنتظر وعد الله الذي لا يخلف

المبحث الثاني.

لقد قطعنا شوطًا عظيمًا في رحاب سورة الزمر، تلك السورة التي تدور حول الإخلاص لله وبيان عاقبة المخلصين والمشركين. رأينا كيف عرض الله الأمثال، وكيف قرر الحجج، وكيف وصف مصارع الغابرين. والآن، في هذه الآيات الثلاث (30-32)، يختم الله هذا المقطع بتذكرة شخصية وقريبة وعامة في آن واحد. إنها تذكرة تخاطب النبي ﷺ أولا ً، ثم تخاطبنا جميعًا، لتقرر حقيقة لا مفر منها: حقيقة الموت والبعث والخصومة بين يدي الله، وتكشف لنا عن أظلم الناس وأحقهم بالعذاب.

إنها آيات تهز الوجدان، وتذكر بالغاية، وتبين الطريق. دعنا نعيش معها ونتدبر معانيها.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ الزمر:30 -[32

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - حقيقة الموت والبعث والخصومة

لنقف مع كل آية من هذه الآيات الثلاث، ونستخرج دررها ورسائلها.

الأمر الأول: تقرير حقيقة الموت للجميع - "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ" (آية 30)

تبدأ الآية بخطاب مباشر ومواجهة صريحة لحقيقة لا مفر منها، حقيقة الموت.

· "إِنَّكَ": الخطاب هنا للنبي محمد ﷺ .وهذا فيه تسلية وتثبيت له .وكأن الله يقول له: لا تحزن يا محمد على تكذيبهم وإعراضهم، ولا تظن أنك ستبقى في هذه الدنيا وهم سيبقون .أنت ميت وهم ميتون، والمرجع إليّ وحدي.
· "مَيِّتٌ": بصيغة اسم الفاعل التي تدل على الثبوت والتحقق .أي أن الموت واقع لا محالة، وهو صفة لازمة لكل حي.
· "وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ": تأكيد على أن المشركين المكذبين سيموتون أيضًا، كما يموت النبي ﷺ .فالموت هو قانون إلهي شامل لا يستثني أحدًا، نبيًا كان أو كافرًا .قال تعالى: "كُلُّ نفسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ") آل عمران: 185).

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية تزرع في القلب التواضع والتذكر الدائم للآخرة. فإذا كان سيد الخلق وأفضل البشر يموت، فمن نحن؟ إنها تدعونا إلى الاستعداد ليوم الرحيل، وعدم الاغترار بالدنيا وزخرفها. وهي أيضًا تسلية للدعاة والمصلحين: لا تحمل همًا فوق طاقتك، فالكل سيموت، والله هو الذي سيتولى الحساب و الجزاء.

مثال تقريبي:
تخيل قائد سفينة يعلم أن السفينة ستصل إلى مينائها الأخير حتمًا، فيخبر ركابه بذلك، ويدعوهم للا ستعداد. هو نفسه سينزل معهم. هذا القائد صادق أمين، وليس له مصلحة في الكذب. هذا هو حال النبي ﷺ يخبرنا بحقيقة الموت وهو أول من سيلقى ربه.

الأمر الثاني: مشهد الخصومة والعدل الإلهي - "ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ" (آية 31)

بعد تقرير حقيقة الموت، تنتقل الآية إلى ما بعد الموت مباشرة: يوم القيامة.

· "ثُمَّ": تفيد الترتيب الزمني والتراخي .أي بعد الموت، وبعد فترة البرزخ، يأتي يوم القيامة العظيم.
· "إِنَّكُمْ": الخطاب هنا للنبي ﷺ وللمشركين معًا .فالكل سيكونون في هذا المشهد.
· "يَوْمَ القِيَامَةِ": ظرف زماني مهيب، يذكر بأهوال ذلك اليوم وعظمته.
· "عِنْدَ رَبِّكُمْ": أي في محكمة العدل الإلهي، بحضرة الله رب العالمين .وهذا الموقف هو غاية الخضوع والخشوع .فلا مفر ولا مهرب، الكل واقف بين يدي ربه.
· "تَخْتَصِمُونَ": أي تتنازعون وتتحاكمون .فالظالم والمظلوم، والمحق والمبطل، والنبي والمكذبون، كلهم سيختصمون بين يدي الله .سيخاصم النبي ﷺ قومه الذين كذبوه، وسيخاصم المشركون آلهتهم التي عبدوها من دون الله، وسيخاصم التابع والمتبوع .قال تعالى: "ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَثَلُ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ") الشورى:.(16

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية تذكرنا بـ العدالة الإلهية المطلقة. ففي الدنيا قد يفلت الظالم من العقاب، وقد لا ينصف المظلوم. ولكن في ذلك اليوم، سيكون القضاء الفصل. هذا يبعث في قلب المؤمن الطمأنينة والصبر، لأ نه يعلم أن حقه لن يضيع. ويبعث في قلب الظالم الخوف والرعب، لأنه يعلم أن لقاءه مع عدل الله قريب.

الأمر الثالث: بيان أظلم الناس ومصيرهم - "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلكافِرِينَ" (آية 32)

بعد ذكر مشهد الخصومة، تأتي هذه الآية لتعلن عن المتهم الرئيسي الذي سيكون في قفص الاتهام، و الذي سيكون أشد الناس خصومة وظلمًا.

· "فَمَنْ أَظْلَمُ": استفهام إنكاري، بمعنى: لا أحد أظلم.
· "مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ": أي نسب إلى الله ما لا يليق به، كأن قال: "لله ولد"، أو "لله شريك"، أو "الله أمرني بهذا ولم يأمرني" .وهذا يشمل كل افتراء على الله في ذاته أو صفاته أو شرعه .وهو قمة الظلم، لأنه تجرؤ على مقام الربوبية والألوهية.
· "وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ": أي كذب بالحق الذي هو في أعلى مراتب الصدق، وهو القرآن الكريم وما جاء به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق .فقد جاءهم الصدق واضحًا جليًا، فقابلوه بالتكذيب والجحود . فجمعوا بين الكذب على الله وتكذيب الحق من الله .وهذا هو غاية الخسران والضلال.
· "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلكافِرِينَ": استفهام تقريري ."مَثْوًى" أي مستقر ومقام دائم .والجواب: بلى، إن

جهنم هي المستقر الدائم لهؤلاء الكافرين الظالمين المفترين على الله المكذبين بآياته.

الربط بالآيات السابقة والسياق العام:
هذه الآية توجز كل ما مضى في السورة من حجج وبراهين. لقد كذب المشركون على الله بزعمهم أن الملائكة بناته، وباتخاذهم الأنداد والشفعاء. وكذبوا بالصدق الذي جاءهم به محمد ﷺ. وها هو المصير المحتوم: جهنم، ذلك المثوى الذي لا مفر منه. وهذا هو عين العدل الإلهي.

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيات

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيات

١.المفاهيم العملية من الآيات:

· الاستعداد للموت: العمل الصالح والتوبة النصوح قبل فوات الأوان.
· الصبر على أذى الظالمين: الثقة بأن يوم الخصومة أمام الله قادم، وأن الحق سينتصر.
· الحذر من الكذب على الله: التأكد من صحة ما ينسب إلى الله من أقوال وأفعال، والرجوع إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.
· قبول الحق وعدم التكبر عليه: تصديق ما جاء به النبي ﷺ وعدم رده عنادًا أو هوى.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة: اليقين بالموت وبالخصومة أمام الله يقلل من قيمة الدنيا في النفس، ويزيد من قيمة العمل للآخرة.
· تربويًا: التربية على الصدق والابتعاد عن الكذب: وخصوصًا الكذب على الله ورسوله، فهو من أعظم الذنوب وأشدها إثمًا.
· سلوكيًا: مراجعة الأقوال والأفعال: قبل أن تقول أو تفعل، اسأل نفسك: هل هذا حق؟ هل هذا صواب؟ هل سأستطيع الدفاع عنه يوم الخصومة بين يدي الله؟

٣.أبعاد وآفاق الآيات:

· البعد الفردي: تذكير الفرد بحتمية الموت والبعث، وحثه على تحمل مسؤولية أفعاله أمام الله.
· البعد الاجتماعي: إقرار مبدأ العدالة في أعلى صورها، حيث سينصف المظلوم من الظالم يوم القيامة.
· البعد الإيماني: ترسيخ عقيدة اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

٤.القيم المستخلصة:

· قيمة الصدق وخطورة الكذب) خصوصًا على الله.(
· قيمة الاستعداد للموت.
· قيمة العدالة الإلهية.
· قيمة قبول الحق وعدم رده.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان المسؤول: إنسان يعيش في هذه الدنيا وهو يعلم أنه مسؤول عن كل كلمة وفعل، وأنه سيقف بين يدي ربه ليخاصم ويحاسب .هذا يبني ضميرًا حيًا ورقابة ذاتية قوية.
· بناء مجتمع الحق والعدل: مجتمع يؤمن بأن العدالة الإلهية هي الملاذ الأخير، فيصبر على الظلم ولا ييأس، ويسعى لإقامة العدل في حدود استطاعته .كما أن الخوف من الكذب على الله يحمي المجتمع من الأفكار الضالة والبدع والخرافات.
· بناء حضارة الصدق والنزاهة: حضارة تقوم على الصدق في القول والعمل، وتحرم الكذب والافتراء، وتجعل الحق هو الميزان .هذه الحضارة تزدهر بالثقة والأمانة.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيات

١.التربية على تذكر الموت والاستعداد له.
٢.التربية على الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب.

.٣التربية على الصدق والبعد عن الكذب والافتراء.
.٤التربية على قبول الحق والخضوع له.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيات على الواقع في حياتنا العملية

.1في علاقتك مع الله: راجع عقائدك وأقوالك .هل نسبت إلى الله شيئًا بغير علم؟ تب إلى الله واستغفر .اجعل شعارك: لا أقول على الله إلا الحق .اعتمد على الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.
.2في تعاملك مع الحق: إذا جاءك الحق من أي جهة، فاقبله ولا ترده عنادًا أو كبرًا .تذكر أن تكذيب الصدق بعد مجيئه من صفات أظلم الناس .كن متواضعًا للحق.
.3في مواجهة الظلم والظالمين: إذا وقع عليك ظلم، فلا تيأس .اصبر واحتسب .واعلم أن يوم الخصومة أمام الله قادم .هذا الصبر يمنحك قوة نفسية هائلة .وفي نفس الوقت، اسع لرد الظلم بـ الطرق المشروعة.
.4في استعدادك ليوم الموت: ضع خطة عملية للاستعداد .أكثر من ذكر الموت .اكتب وصيتك .أكثر من الأعمال الصالحة التي تنفعك بعد موتك) صدقة جارية، علم ينتفع به، ولد صالح يدعو لك.(
.5في تربية أبنائك: ذكرهم بالموت والآخرة .قل لهم: نحن جميعًا سنموت، وسنقف بين يدي الله .ماذا أعددنا لذلك اليوم؟ هذا يبني فيهم الوعي والمسؤولية منذ الصغر.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هذه الآيات الكريمة هي صيحة حق في عالم مليء بالباطل. إنها تذكرك بأنك ميت، وأنك محاسب، وأن أظلم الناس هم الذين يكذبون على الله ويكذبون بالصدق. فاجتنب طريقهم، واسلك طريق الصدق والحق، واعدد ليوم الخصومة عدته. واعلم أن الله عادل لا يظلم أحدًا، وسينصفك يوم القيامة إن كنت من المظلومين، وسيحاسبك إن كنت من الظالمين.

المبحث الثالث

. لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشهد الخصومة يوم القيامة، ورأينا كيف أن أظلم الناس هم الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق إذ جاءهم. إنه منظر مهيب، يصور حال المجرمين في ذلك اليوم العصيب. والآن، وكما هي عادة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب، وبين الوعيد والوعد، ينتقل بنا السياق من ظلمات الكافرين إلى أنوار المؤمنين، ومن حديث أظلم الناس إلى حديث أتقى الناس وأكرمهم. إنها آيات تفيض رحمة وفضلا ً، وتبشر المؤمنين بما أعده الله لهم من نعيم مقيم، وتكشف عن كرم الله الواسع وجوده العظيم.

دعنا نعيش مع هذه الآيات الكريمة، ونستنشق عبير رحمة الله وفضله.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 33-35]

أولا ً: تحليل الآيات ودلالاتها - مشهد الصدق والتقوى والجزاء الأوفى

لنقف مع كل آية من هذه الآيات الثلاث، ونستخرج دررها ورسائلها التربوية والإيمانية.

الأمر الأول: صفة المتقين الحقيقيين - "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (آية 33)

في مقابل قوله في الآية السابقة: "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ"، تأتي هذه الآية لتعرفنا بأهل الصدق والتقوى.

أ. "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ":

· "الَّذِي": اسم موصول مفرد، والمقصود به النبي محمد ﷺ على أرجح أقوال المفسرين. فهو الذي جاء بالصدق من عند الله، أي بالقرآن الكريم والدين الحق. وقيل: هو جنس يشمل كل من جاء بالصدق من الأنبياء، وعلى رأسهم محمد ﷺ.
· "جَاءَ بِالصِّدْقِ": أي أتى به وتحمله وبلغه. والصدق هو نقيض الكذب. والقرآن صدق، والدين صدق، و الوحي صدق. فالنبي ﷺ هو رسول الصدق، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة.

ب. "وَصَدَّقَ بِهِ":

· "صَدَّقَ": أي آمن به واعترف بحقيته.

· "بِهِ": الضمير يعود على الصدق الذي جاء به النبي ﷺ.
· من هم الذين "صَدَّقَ بِهِ"؟ هم المؤمنون من هذه الأمة، الذين آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوا بما جاء به من عند الله، فاتبعوا النور الذي أنزل معه. ويدخل فيهم دخولا ً أوليًا الصحابة الكرام، ثم كل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ج. الربط بين الوصفين:
لاحظ كيف جمعت الآية بين الذي جاء بالصدق والذي صدق به في جملة واحدة، وكأنها تقول: "و الفريق الذي جاء بالصدق والفريق الذي صدق به". وهذا فيه إشارة لطيفة إلى وحدة الصف بين النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين. فالكل في خندق واحد، يجمعهم حب الصدق واتباعه.

د. "أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ":

· "أُولَٰئِكَ": إشارة إلى بعد منزلتهم وعلو قدرهم.
· "هُمُ": ضمير الفصل يفيد الحصر والتأكيد. أي هم وحدهم المتقون حقًا، لا غيرهم ممن كذب وافترى.
· "الْمُتَّقُونَ": أي الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وهذا يربط بنداءات التقوى المتكررة في السورة: "اتَّقُوا رَبَّكُمْ" (10)، "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ" (16). فهؤلاء هم الذين استجابوا لنداء ربهم، فبلغوا مرتبة التقوى العظمى.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية تعلمنا أن طريق التقوى هو الصدق: الصدق في الإيمان، والصدق في القول، والصدق في العمل. فالذي جاء بالصدق (النبي ﷺ) هو القدوة، والذي صدق به (المؤمنون) هم المقتدون. فكن من أهل الصدق، تكن من المتقين.

الأمر الثاني: الجزاء المطلق في الجنة - "لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ" (آية 34)

بعد أن وصفهم الله بأنهم المتقون، يبين لنا ما أعده لهم من جزاء كريم.

أ. "لَهُم مَّا يَشَاءُونَ":

· أي كل ما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم من أنواع النعيم، فهم يحصلون عليه. وهذا من تمام الكرامة وا لإنعام. ففي الجنة، لا يقال للمؤمن: "لا"، بل له ما يشاء. قال تعالى: "وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ" (الزخرف: 71).

ب. "عِندَ رَبِّهِمْ":

· هذا القيد يزيد النعيم شرفًا ورفعة. فليس الأمر مجرد حصول على ما يشاءون، بل هو حصول عليه في جوار الله وقربه. "عند ربهم" تعني في دار كرامته وجواره. وهذا أعظم من كل نعيم. كما قال تعالى: "فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ" (القمر: 55).

ج. "ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ":

· "ذَٰلِكَ": إشارة إلى هذا الجزاء العظيم.
· "جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ": أي هو مكافأة لمن أحسنوا أعمالهم وأخلصوها لله. والإحسان هو أعلى مراتب الدين، وهو أن تعبد الله كأنك تراه. فالمتقون هم المحسنون، وقد استحقوا هذا الجزاء بفضل الله وكرمه. وهذا يذكرنا بقوله تعالى في مطلع السورة: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ" (10)، فكانت هذه الحسنى لهم في الآخرة.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا الوعد الكريم يملأ قلب المؤمن شوقًا وحبًا للجنة، ويدفعه إلى الإحسان في العمل. فكلما تذكرت أن لك في الجنة ما تشاء، هانت عليك مشاق الدنيا، واجتهدت في طاعة ربك.

الأمر الثالث: تكفير السيئات والجزاء بالأحسن - "لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" (آية 35)

تأتي هذه الآية لتكشف عن مزيد من فضل الله وكرمه على هؤلاء المتقين المحسنين. فهي تبين أن

جزاءهم لا يقتصر على إعطائهم ما يشاءون، بل يتضمن محو السيئات وقبول الحسنات بأعلى الدرجات.

أ. "لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذِي عَمِلُوا":

· "لِيُكَفِّرَ": أي ليمحو ويغطي ويستر. والتكفير هو إذهاب السيئة وعدم المؤاخذة بها. واللام هنا لام العاقبة أو لام التعليل، أي كانت عاقبتهم أن كفر الله عنهم سيئاتهم.
· "أَسْوَأَ الذِي عَمِلُوا": أي أقبح وأعظم ما عملوه من الذنوب. لم يقل "سيئاتهم" فحسب، بل قال "أسوأ الذي عملوا". وهذا يدل على سعة رحمة الله وعظيم كرمه. فهو لا يكفر الصغائر فقط، بل يكفر أشد الذنوب وأقبحها، ما دام العبد قد تاب وآمن وأحسن. وهذا من أعظم البشائر للمؤمنين.

ب. "وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الذِي كانُوا يَعْمَلُونَ":

· "وَيَجْزِيَهُمْ": أي يثيبهم ويعطيهم الأجر.
· "أَجْرَهُم": أضاف الأجر إليهم، للدلالة على أنه حق لهم بفضل الله.
· "بِأَحْسَنِ الذِي كانُوا يَعْمَلُونَ": أي يقبل أحسن أعمالهم (كالفرائض والنوافل العظيمة)، ويجازيهم على أساسها، ويثيبهم عليها أفضل الثواب. وليس ذلك فحسب، بل إن الله يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم، ويعطيهم الأجر على أحسن ما كانوا يعملون. وهذا غاية الكرم والفضل. قال تعالى: "أُولَٰئِكَ الذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الذِي كانُوا يُوعَدُونَ" (الأحقاف: 16).

اللمسة البيانية:
انظر إلى دقة التعبير: "أَسْوَأَ الذِي عَمِلُوا" في مقابل "بِأَحْسَنِ الذِي كانُوا يَعْمَلُونَ". إنها مقابلة بين الأسوأ والأحسن. فالله يمحو الأسوأ، ويثيب على الأحسن. سبحانه، ما أكرمه وأجوده!

الرسالة التربوية والنفسية:
هذه الآية تفتح باب الأمل والرجاء على مصراعيه. فهي تقول لكل مؤمن: لا تيأس من رحمة الله، مهما كانت ذنوبك. تب إلى الله، وأحسن العمل، وسيكفر الله عنك أسوأ ما عملت، وسيجزيك بأحسن ما كنت تعمل. إنها دعوة إلى التوبة النصوح والعمل الصالح، مع الثقة في عفو الله وكرمه.

ثانياً: أهم المواضيع والقضايا والدروس من الآيات

الموضوع الأول: المفاهيم العملية والنفسية والفكرية والتربوية والقيم من الآيات

١.المفاهيم العملية من الآيات:

· اتباع النبي ﷺ في الصدق: السير على نهجه في القول والفعل، والتحلي بخلق الصدق.
· تحقيق الإحسان في العبادة: استحضار مراقبة الله في كل عمل، وإتقانه وإخلاصه له.
· المسارعة في التوبة: العلم بأن الله يكفر السيئات، يدفع إلى التوبة النصوح دون تسويف.
· الرجاء في رحمة الله: عدم اليأس والقنوط من مغفرة الله، مهما عظمت الذنوب.

٢.المفاهيم التربوية والنفسية والسلوكية:

· نفسيًا: توليد الأمل والطمأنينة: الآيات تملأ القلب رجاءً في رحمة الله وكرمه، مما يزيل مشاعر اليأس والإحباط.
· تربويًا: التربية على الصدق: ببيان أن المتقين هم أهل الصدق، وأن الصدق هو طريق النجاة.
· سلوكيًا: الإقبال على الطاعات: الوعد بالجزاء الحسن على أحسن الأعمال، يدفع إلى المنافسة في الطاعات والإكثار من النوافل.

٣.أبعاد وآفاق الآيات:

· البعد الإيماني: تعميق الإيمان بكرم الله وفضله وسعة رحمته.
· البعد الأخلاقي: إبراز قيمة الصدق كأساس للتقوى والإيمان.
· البعد التربوي: بيان منهج الإسلام في التحفيز: الجمع بين الترغيب (ما يشاءون) والتطهير (تكفير السيئات) والجزاء الأوفى (بأحسن الأعمال).

.٤القيم المستخلصة:

· قيمة الصدق في الأقوال والأعمال.
· قيمة التقوى كأعلى مراتب الإيمان.
· قيمة الإحسان في العبادة والعمل.
· قيمة الرجاء في رحمة الله وعدم اليأس.

الموضوع الثاني: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

· بناء الإنسان الصادق المتقي المحسن: هذا الإنسان هو النموذج الأمثل للشخصية المسلمة. هو إنسان صادق مع ربه ومع نفسه ومع الناس، متقٍ لله في سره وعلنه، محسن في كل أعماله. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.
· بناء مجتمع الصدق والإحسان: مجتمع يقوم أفراده على الصدق في التعامل، والإحسان في العمل. هذا المجتمع يسوده الأمن والثقة، وتقل فيه الخيانة والغش، وينتشر فيه الخير والبر.
· بناء حضارة الأمل والعمل: حضارة تؤمن بأن رحمة الله واسعة، وأن الجزاء من جنس العمل. فتدفع أفرادها إلى العمل الجاد المتقن، وهم واثقون من كرم الله وفضله. هذه الحضارة لا تعرف اليأس والإحباط.

الموضوع الثالث: الأسس التربوية والعملية التي تركز عليها الآيات

.١التربية على الصدق في جميع مناحي الحياة.
.٢التربية على الإحسان وإتقان العمل وإخلاصه لله.
.٣التربية على الرجاء في رحمة الله وعدم القنوط.
.٤التربية على التوبة النصوح وتكفير السيئات بالحسنات.

الموضوع الرابع: كيفية تطبيق مفاهيم الآيات على الواقع في حياتنا العملية

.1في أقوالك وأفعالك: تحلّ بالصدق .لا تكذب على الله ولا على الناس .كن صادقًا في حديثك، وفي وعدك، وفي عملك .فهذا هو طريق التقوى.
.2في عباداتك ومعاملاتك: استحضر الإحسان .اعبد الله كأنك تراه .أتقن عملك مهما كان صغيرًا، وأخلص نيتك لله .تذكر أن الله يجزي المحسنين بأحسن مما عملوا.
.3عندما تزل قدمك وتقع في ذنب: لا تيأس .بادر بالتوبة النصوح .واعلم أن الله يفرح بتوبة عبده، وأنه قادر على أن يكفر عنك أسوأ ما عملت .أكثر من الاستغفار، واتبع السيئة الحسنة تمحها.
.4في دعائك ومناجاتك لربك: اسأله من فضله .قل: "اللّهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .اللّهم اكتب لي الخير حيث كان، ورضني به .اللّهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني".
.5في تربية أبنائك: علمهم حب الصدق، وازرع فيهم الأمل في رحمة الله .إذا أخطأوا، فلا تقسُ عليهم، بل ذكرهم بأن الله يغفر الذنوب جميعًا، وشجعهم على التوبة والعمل الصالح.

ختامًا، أيها العبد المؤمن، إن هذه الآيات الكريمة هي بشارة عظيمة لكل من جاء بالصدق وصدق به. إنها تفتح لك أبواب الرحمة، وتعدك بأعلى درجات النعيم. فكن من أهل الصدق والتقوى والإحسان، تكن من الفائزين بجوار ربهم، الذين لهم ما يشاءون، والذين يكفر الله عنهم أسوأ أعمالهم، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. إنه وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد.
.

المقطع الخامس
اولا
سأفتح لك نافذة على روح هذه الآية الكريمة، وسنغوص معًا في أعماقها .يقول الله سبحانه وتعالى: }أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ] {الزمر:.[36

تخيل أن هذه الآية نزلت لتكون كالدرع الحصين، والملاذ الأمين، ليس فقط للنبي محمد ﷺ في وجه تهديدات المشركين، بل لكل قلب مؤمن يتقلب في هذه الحياة بين مخاوفها ونوائبها .إنها آية تنسف الخوف من جذوره، وتبني في مكانه صرحًا من اليقين والطمأنينة.

دعنا الآن نفكك شيفرة هذا النص الإلهي، ونستخرج كنوزه المخبوءة، بدءًا من جوهره.

أبرز محاور الآية في سطور

تتمحور الآية الكريمة حول معانٍ ربانية عظيمة، نجملها فيما يلي:

· تقرير كفاية الله المطلقة: وهي رسالة الآية الأساسية، حيث تؤكد أن الله وحده يكفي عبده كل همه.
· تفنيد أوهام الخوف: تكشف الآية زيف التهديدات التي يطلقها الأعداء، وتبين أنها لا تساوي شيئًا أمام قدرة الله.
· العلاقة بين العبودية والكفاية: توضح أن شرط نيل الكفاية الإلهية هو تحقيق العبودية الصادقة لله.
· التوحيد العملي: تدعو الآية إلى إسقاط الخوف من جميع المخلوقات، وجعله لله وحده، وهذا هو جوهر التوحيد.
· علاج نفسي وتربوي: تقدم الآية منهجًا متكاملا ً لتحرير النفس من القلق والخوف، وبناء شخصية إنسانية مستقلة.

والآن، لندخل إلى قلب التحليل،.

الأمر الأول: سؤال يهز الوجدان) أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ(

هذا ليس مجرد سؤال عادي، إنه استفهام من نوع خاص جدًا .تخيل معي أنك تخاطب قلبًا غافلا ً أو خائفًا لتوقظه، فكيف تفعل؟ ستسأله سؤالا ً إجابته حاضرة في أعماقه، وهذا ما يفعله الأسلوب ا لإلهي هنا.

1نوع الاستفهام: استفهام تقريري
نعم، هو استفهام تقريري .لم يسأل الله ُ سبحانه ليستعلم، فهو العليم، ولكنه سأل ليقرر حقيقة بديهية في فطرة كل إنسان: أن الله هو الكافي .الغرض هنا هو حملك أنت، أيها المخاطب، على أن تنطق بلسان حالك أو مقالك: "بلى يا رب، أنت كافينا" .إنها طريقة بديعة لحفر اليقين في الصخر.

2سر البدء بـ "أليس":
لماذا "أليس"؟ إنها أداة تدل على أن الأمر مفروغ منه، كأنه يقول: "هل هناك من ينكر هذه الحقيقة؟" . إنه أسلوب يحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف من تلقاء نفسه، وهذا أبلغ في التثبيت من الخبر المجرد .وكما ورد في قوله تعالى:} أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ] {الأعراف:[172 ، إنه أخذ للميثاق الفطري.

3أثر هذا الاستفهام على قلب المؤمن:
عندما يسمع المؤمن هذا السؤال في لحظة خوف أو شدة، يحدث شيء عجيب في نفسه .إنه كالماء البارد على القلب الملتهب .يذكره فورًا بأن الأمر بيد الله، فيسكن الاضطراب، وتهدأ ثورة الخوف، ويسري في روحه طمأنينة غامرة .إنه توكيد على أن من كفاك بالأمس قادر على أن يكفيك اليوم وغدًا.

4ماذا يقول المؤمن عند سماعها؟
الأدب النبوي يعلمنا أن نقول عند سماع مثل هذا الاستفهام التقريري: "بلى" .ففي قوله تعالى:} أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ] {التين:[8 ، قال النبي ﷺ: "سبحانك فبلى" .فـ "بلى" هنا إعلان تسليم وإقرار بأن الله هو الكافي حقًا.

5دلالة الاستفهام: استنكار لموقف الغافل
في هذا الاستفهام توبيخ خفي واستنكار لحال من جحد نعم الله، فتشتت حاله، وهاج عقله، وطار

فؤاده بحثًا عن أمان مزعوم عند المخلوقين الضعفاء مثله، تاركًا الله الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد .الله بهذا الاستفهام يعيد للعقل ثباته، وللقلب استقراره، وللنفس هدوءها، لأن كل ما سوى الله وهم، والله وحده هو الحق المبين.
رسائل إلهية إلى القلب والعقل

· تثبيت القلوب: الآية خطاب مباشر لتثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، وتحريرهم من رهبة أي قوة أخرى مهما بدت عاتية.
· الاستغناء بالله: إنها تدعو إلى قطع كل علاقة قلبية بمؤمل غير الله، وتفريغ القلب للإقبال عليه وحده.
· حقيقة الاضطرار: إنها تذكرنا بأن جميع الخلائق مضطرون إلى الله في كل حركة وسكون، فعلامَ الخوف ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؟

الأمر الثاني: حقيقة "الكفاية" وشروطها

1ماذا تعني "الكفاية" هنا؟
الكفاية في هذه الآية ليست محدودة، بل هي مطلقة وشاملة .إنها تشمل كل ما يحتاجه العبد ويضطر إليه:

· كفاية الرزق: من حيث لا يحتسب.
· كفاية النصرة: على الأعداء والمخاوف.
· كفاية دفع الشرور: ما ظهر منها وما بطن.
· كفاية الدنيا والآخرة: هي ليست محصورة في الدنيا فقط، بل تمتد لتشمل الفوز بالجنة والنجاة من النار.

2ما هي شروط استحقاق هذه الكفاية؟
الشرط الأساسي مذكور في الآية نفسها وهو "عَبْدَهُ" .فالكفاية الخاصة مشروطة بالعبودية .كما قال السعدي: الكافي "كفاية خاصة من آمن به وتوكل عليه واستمد منه حوائج دينه ودنياه".

3سر إضافة "عبد" إلى "عبده":
هذه الإضافة) عبده (هي ياء المتكلم، وهي هنا للتشريف والتكريم .لم يقل "أليس الله بكاف عبدًا"، بل أضافه إلى نفسه العلية .ففي هذه الإضافة:

· قرب وولاء: تدل على قرب العبد من ربه.
· تكريم وتشريف: فهو ليس أي عبد، بل هو عبد الله الذي اصطفاه.
· اختصاص بالكفاية: لأن من أضافه الله إلى نفسه، تكفل بحفظه وكفايته.

4من المقصود بـ "عبده"؟

· المقصود الأول والأكمل: هو النبي محمد ﷺ، فهو أكمل الخلق عبودية لربه.
· الشمول والعُموم: ثم تعم الآية كل مؤمن يقوم بحقيقة العبودية ويمتثل أوامر الله ويجتنب نواهيه، كما قال السعدي: "عبده، الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره واجتنب نهيه".

5صفات العبد الذي تكفله الله:

· القيام بالعبودية: امتثال الأوامر واجتناب النواهي.
· صدق التوكل على الله: الاعتماد عليه في كل الأمور.
· قطع التعلق بغيره: فمن تعلق قلبه بغير الله وكله الله إلى من تعلق به.

#تأملات في رحاب الكفاية

· علاقة طردية: كلما ازدادت عبوديتك لله، كلما غمرتك كفايته.
· طمأنينة مطلقة: الأمن الحقيقي هو في كنف الله، لا في كثرة المال أو سعة الجاه.
· غنى النفس: الاستغناء بالله هو الغنى الحقيقي، فمن كان الله معه فماذا فقد؟ ومن كان الله عليه فماذا ربح؟

الأمر الثالث: من العبودية إلى الكفاية

1دلالة الإفراد والتعميم:
ورود كلمة "عبده" بالإفراد في حق النبي ﷺ ثم تعميمها على المؤمنين هو من بديع النظم القرآني .
هو أولا ً تكريم للنبي ﷺ وتثبيت له، ثم هو بشارة لكل مؤمن يسير على نهجه في العبودية .العلا
قة بين العبودية والكفاية علاقة تلازم؛ فكلما تحقق وصف العبودية، تحقق وعد الكفاية .و"الاعتماد
الكلي على الله" هو ثمرة هذه العبودية، فلا يبقى في القلب تعلق بسواه.

2كم ورد اسم "الكافي" في القرآن؟
اسم "الكافي" كاسم فاعل لم يرد في القرآن الكريم إلا في هذه الآية الكريمة .ومع ذلك، فإن مفهوم
الكفاية ورد بصيغ أخرى كثيرة، مثل: "وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا"] النساء:[81 ، "وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا"] النساء:.[6

3ماذا يعني اسم "الكافي" في حق الله؟
"الكافي" سبحانه هو الذي يكفي عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، وهو الذي لا يحتاج إلى
شيء ولا يكفيه شيء .كفايته تامة من جميع الوجوه:

· كفاية عامة: لجميع الخلائق، فهو الرزاق للطائع والعاصي.
· كفاية خاصة: لأوليائه المؤمنين، وهي تشمل الحفظ والنصرة والتأييد.

4الفرق بين كفاية الله وكفاية البشر:

· كفاية الله: مطلقة، دائمة، لا يعتريها نقص، ولا تخضع لظرف أو زمان، تشمل الدنيا والآخرة.
· كفاية البشر: نسبية، مؤقتة، مشروطة، قد تزول في أي لحظة، وقاصرة على أمور الدنيا فقط.

5آثار الإيمان باسم الله "الكافي":

· سكون القلب وطمأنينته: فلا يضطرب لشدة، ولا يجزع لمصيبة.
· القوة والعزة: فلا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرهب قوة مخلوق.
· التحرر من رق المخلوقين: فلا يكون عبدًا لدرهمه ولا لمنصبه.

#أنوار على الطريق

· الوعد الخاص: إضافته "عبده" إليه تشريف ووعد خاص بالحماية والرعاية.
· الكفاية الشاملة: اسم "الكافي" جامع لكل خير، مانع لكل ضير، ومغنٍ عن كل ما سواه.
· حقيقة العبودية: هي الطريق الوحيد لكفاية الله، وبدونها يبقى القلب معلقًا بالأسباب الواهية.

- الأمر الرابع: الطريق إلى نيل الكفاية

1أسباب نيل كفاية الله:

· قطع العلائق: لا يكون العبد متوكلا ً على الله حقًا إلا بقطع كل مؤمل دون الله من قلبه .أن يفرغ
قلبه للإقبال على الله وحده.
· صدق التوكل: أن يثق العبد بأن الله حسبه وكافيه .قال تعالى:} وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ {
]الطلاق:.[3
· الثقة المطلقة والاستغناء به: أن يوقن العبد بأن الله هو المعطي والمانع، فيكون غنيًا باللهِ عن كل
ما سواه، فقيرًا إليه وحده .وهذا يسكن قلبه عن الاضطراب، فلا يكون لأحد من الخلق في قلبه خطر.
· فهم حقيقة الاضطرار: أن يدرك العبد أن جميع المخلوقات مضطرة إلى الله في كل حال، لأنه الغني
وحده .ومن وثق بغير الله فقد رأى أن ملكًا أكبر من ملك الله، وهذا من أعظم الجهل.

2كيف تبعث هذه الآية في النفس الأمن والاستقرار والطمأنينة؟
عندما يستقر في قلبك أن الله هو الكافي، تتبدل مخاوفك إلى أمان .إنها تمنحك يقينًا بأن من ضمن
الله أمره، فلا ضيعة عليه أبدًا .ثمرة هذا اليقين هي السكون والطمأنينة، وتلك هي جنة الدنيا .تخرج
من ضيق تدبيرك لنفسك إلى سعة تفويض أمرك لله.
رسائل إيمانية وعملية

· منبع القوة: الكفاية الإلهية هي المنبع الوحيد للقوة الحقيقية في مواجهة أمواج الحياة المتلاطمة.
· التوكل ليس عجزًا: بل هو قوة محركة تدفعك للعمل بلا قلق، وتسعى في الأرض بلا تعلق بالنتائج.

· حرية الروح: في هذه الآية دعوة للتحرر من رق المخاوف، وإعلان أن الله وحده هو مالك الأمر كله.

- الأمر الخامس: في مواجهة التهديدات

1من هم "الذين من دونه"؟
هم كل ما يُتخذ إلهًا أو قوةً من دون الله .في سياق الآية، هم المشركون الذين كانوا يخوفون النبي ﷺ بأصنامهم وأوليائهم، قائلين: "إنك تسب آلهتنا، فتخاف أن تصيبك بمكروه" .وهذا ينسحب على كل عدو للحق في كل زمان ومكان، يلجأ إلى التخويف كسلاح لإيقاف الداعية عن عمله .إنه سلاح واقعي في حياتنا اليوم: التهديد بقطع الرزق، أو الفصل من الوظيفة، أو غيرها من الأساليب.

2كيف تساهم الآية في علاج قضية الخوف من غير الله؟
الآية تعالج الخوف من جذوره .إنها تدعو المؤمن إلى إسقاط الخوف من الناس والأسباب والأعداء في مواجهة أي مخلوق، لأن الله هو الكافي .فإذا كان الله هو الكافي، فلماذا يزداد خوف الإنسان وقلقه من المستقبل أو من الناس؟ إنها دعوة صريحة إلى تفويض الأمر كله لله.

3لماذا يلجأ المبطلون إلى التخويف؟
لأنه السلاح الوحيد الذي يملكونه للتأثير على النفوس .إنهم يعلمون أنهم لا يملكون حجة ولا برهانًا، فيلجؤون إلى قوة الوهم والتخويف .ولكن هذه الآية تكشف زيف هذا السلاح، وتؤكد أن هؤلاء لا ينفعون ولا يضرون إلا بإذن الله.

4العلاقة بين الخوف من غير الله والضلال:
الآية تختم بوعيد خطير:} وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .{هذا يربط بين الخوف من غير الله والضلا ل .فالخوف من غير الله نوع من الشرك الخفي، ومن وقع فيه فقد سار في طريق الضلال .وأما المتوكل الحقيقي فهو الذي هداه الله، وجعل الخوف منه وحده.

#حصانة ضد الابتزاز

· أمان اقتصادي ونفسي: الآية تحرر الإنسان من الابتزاز العاطفي والمادي .فمن أيقن أن الله هو الرزاق، لا يخاف تهديدات المخلوقين.
· وضوح الرؤية: في خضم الصراع بين الحق والباطل، تمنحك هذه الآية وضوح الرؤية والثبات على المبدأ.
· الهداية والضلال: توضح الآية أن الهداية والضلال بيد الله، فالأمان كل الأمان في التمسك بهداه.

-# الأمر السادس: كنوز ودروس من رحم الآية

الموضوع الأول: صورة المتوكل الحقيقي

الآية ترسم لنا بدقة وعمق صورة المؤمن المتوكل، ويمكننا استخلاصها من خلال:

· علاقة التقوى بالتوكل: إنهما وجهان لعملة واحدة، بل هما علاقة سبب ونتيجة .فالتقوى هي المنطلق، وهي امتثال الأمر واجتناب النهي، والتوكل هو تفويض النتائج لله .قال تعالى:} وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ{ .[الطلاق:2 - 3]فلا يصح توكل من مفرط، ولا تكتمل تقوى من لا يثق بكفاية ربه.
· لماذا لا يخاف المتوكل؟: خوفه ليس مجرد شجاعة مادية، بل هو يقين قلبي راسخ يقوم على ثلاث ركائز: اليقين بالحسبية) فمن كان الله كافيه، ماذا يضره المخلوق؟(، الرضا بالقسمة) فمن علم أن الله هو الرزاق وحده، تحرر من الخوف على الرزق(، والكفاية التامة) فكلما ازداد شعوره بكفاية الله، تضاءل خوفه من الأغيار.(
· أعلى منزلة للمتوكل) روح اليقين(: هي الوصول إلى "الغنى بالله"، حيث يستوي عند العبد وجود الشيء وفقده، لوجوده مع الله .يصل إلى الطمأنينة بوعود الله، ويصبح أوثق بما في يد الله مما في يد غيره.
· ثمرات انقطاع القلب عما سوى الله: تظهر علامات هي جوهر الغنى بالله: عزة النفس وعدم التذلل للمخلوقين، وثبات الجنان عند الأزمات.
· كيف تتحقق الكفاية في واقع الحياة؟: تتحقق الكفاية في صور عملية، منها: كفاية الهداية لأرشد أمرك، وكفاية الوقاية بصرف الشرور عنك، وكفاية الرضا وهي أن يملأ الله قلبك بالرضا حتى ترى القليل كثيرًا.

· التوكل ليس عجزًا: بل هو قوة محركة للعمل بلا قلق .الفرق بين الحرص والطلب: الحرص المذموم هو الكدح الممزوج بالخوف والهم، أما الطلب المحمود فهو السعي الممزوج بالسكينة واليقين.

الموضوع الثاني: التوكل بوابة الإبداع والتحرر من ضغوط الفشل

عندما يتحرر الإنسان من قيود الخوف من الفشل والقلق على الرزق ونظرة الخلق، تتحول الطاقات المهدرة في الهم إلى طاقات للإبداع والعمل .وهذا هو جوهر الحرية النفسية التي يمنحها التوكل، ويتمثل ذلك في:

· الشجاعة في اتخاذ القرار: فالمتوكل يقدم على الخطوات الكبيرة وهو مطمئن أن النتيجة هي خيرة الله.
· التركيز على إتقان العمل: فالإخلاص والإتقان غاية في حد ذاتها، لأنهما جزء من العبودية والتوكل.
· المرونة النفسية: فالنهوض بعد العثرات يكون سريعًا، لأن الفشل يراه ابتلاءً لحكمة يعلمها الله.
· صفاء الذهن وتدفق الأفكار: فسكون القلب الذي يصل إليه المتوكل يخلق بيئة داخلية هادئة تسمح بـ التفكير العميق ورؤية الحلول المبتكرة.

الموضوع الثالث: مفاهيم نفسية وفكرية وتربوية من الآية

· المفاهيم النفسية: الأمن النفسي والتحرر: تزرع الآية في النفس أن المصدر الحقيقي للأمان هو الله، مما يؤدي إلى سكون القلب، وتكشف زيف التهديدات الخارجية، وتعالج رهاب المستقبل.
· المفاهيم التربوية: بناء الشخصية المستقلة: تغرس الآية في الناشئة ألا تخضع لغير الله، فالقوة مستمدة من الاتصال به لا من انتماء لقبيلة أو منصب .كما تعلم المتربي كيف يحلل أي قوة تخوفه، ويخلص إلى أنها واهمة.
· المفاهيم الفكرية: تصحيح التصورات: الله هو المطلق في الكفاية، وكل ما سواه نسبي لا يملك شيئًا . إنها تحرر العقل من عبودية الأصنام الحديثة) بشرية أو أيديولوجية أو اقتصادية(، وتربط الحماية و الكفاية بالعبودية.

الموضوع الرابع: القيم والأبعاد الحضارية للآية

· القيم المستخلصة: قيم الحرية) من رق المخلوقين(، الثبات) أمام العواصف(، الصدق) في التوجه لله(، والتفاؤل) بكفاية القادر على كل شيء.(
· دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:
· بناء الإنسان: تصنع إنسانًا مكتفيًا بالله، محصنًا ضد الانكسار النفسي، واثقًا بذاته، ومتحركًا للإمام لأنه لا ينتظر إذنًا من القوى المادية.
· التنمية الشاملة: تحرر الإنسان من اقتصاد الخوف) الذي يعيق الاستثمار والإبداع(، وتحارب الفساد والمداهنة) لأن شعوره بالاستغناء بالله يجعله نزيهًا(، وتدفع للقناعة المنتجة.
· بناء المجتمع: تحطم الأصنام الاجتماعية) سلطة المال، الإعلام(، وتخلق توازنًا تكافليًا قائمًا على اليقين، وتجعل المجتمع مقبلا ً على العمل بروح إيجابية.
· بناء الحضارة: الحضارة الإسلامية قامت حين تحررت العقول من الخوف من القوى العظمى بفضل هذا اليقين .إنها تمنح الحضارة ثقة بالذات، وتضمن لها ديمومة العطاء، لأن منبع قوتها هو الله الباقي الذي لا يزول.

الموضوع الخامس: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

لنجعل هذه الآية واقعًا حيًا في حياتنا، يجب أن ننقلها من حيز الكلمات إلى حيز المواقف .ففي كل لحظة تخويف أو تهديد) في العمل، في العلاقات، في مواجهة تحديات الحياة(، يستحضر العقل هذا السؤال الرباني:} أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ{؟ ليكون الجواب العملي هو المضيّ قدمًا في طريق الحق دون تردد أو خوف.

الخاتمة: السكون في رحاب الكفاية

إن العيش في رحاب هذه الآية هو جنة الدنيا الحقيقية .إنه الانتقال من ضيق التدبير البشري إلى سعة التدبير الإلهي، ومن زلزال الخوف إلى سكون اليقين .عندما يقول المؤمن بقلبه ولسانه "حسبي الله"، فهو لا يطرد خوفًا فحسب، بل يثبت حقيقة أن الله قد ضمن أمره .ومن ضمن الله أمره، فلا ضيعة عليه أبدًا.

هذا التسليم المطلق هو الذي يفتح باب الإبداع والعمل في حياة الإنسان بعيدًا عن ضغوط الحب و الفشل، ويحول العبد من كائن مستهلك خائف إلى إنسان حضاري منتج .فالحضارة تبدأ من قلب واثق بخالقه، وتنتهي بيد تعمر أرضه .وآية الزمر (36) هي الرابط المتين بين طمأنة القلب وعمارة الأرض.

المبحث الثاني

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ} [الزمر: 37].

تأمل معي! في الآية الماضية، أرانا الله أن الخوف من المخلوقين ضلال، وختم بقوله: {وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}. أما هنا، فيقلب لنا الصورة ليُرينَا وجهها المشرق، وجه من هداه الله. إنه الا نتقال من ظلمات التهديد والتخويف، إلى نور الهداية والعزة الإلهية.

دعنا إذن ننطلق في تحليل هذه الآية بنفس الروح، لنستخرج كنوزها، ونرى كيف تحوّل الخوف إلى أمان، والضعف إلى قوة.

أبرز محاور الآية في سطور

تتمحور الآية الكريمة حول معانٍ ربانية عظيمة، نجملها فيما يلي:

· تأكيد حصرية الهداية بيد الله: فمن أراد الله هدايته، فلا قوة في الكون تستطيع إضلاله.
· إعلان عزة الله وقدرته المطلقة: فهو القاهر فوق عباده، الذي لا يُغلب ولا يُمانع.
· الوعد بالانتقام من أعداء المؤمنين: تطمين للمؤمن بأن الله لن يفلت الظالمين من عقابه.
· التحرر من الخوف وصولا ً إلى العزة: من علم أن الله عزيز، تعلق بعزته واستمد منها قوته.
· التكامل بين الكفاية (آية 36) والهداية والعزة (آية 37) : فالكفاية تمنح الأمن، والهداية تمنح البصيرة، والعزة تمنح التمكين.

والآن، لندخل إلى قلب التحليل، متناولين كل أمر من الأمور التي تبرزها الآية.

الأمر الأول: لفتة بلاغية بين آيتين (الترابط والنظم)

قبل أن نغوص في تفاصيل الآية 37، لاحظ معي جمال النظم القرآني والربط المحكم. لقد ختمت ا لآية السابقة بقوله: {وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، وها نحن نفتتح هذه الآية بقوله: {وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ}.

هل رأيت هذا التقابل البديع؟ إنه كالليل والنهار. آية تخبرك عن حال من حُرم الهداية، فليس له من مرشد أو منقذ، وآية تبشرك بحال من أكرمه الله بالهداية، فليس لأحد سلطان على إضلاله أو إغوائه. هذا الربط يُعطي المؤمن يقينًا مضاعفًا: أنا في جانب الأمان، ما دمتُ متمسكًا بهداه، فلا خوف من الضلال.

الأمر الثاني: هبة الهداية التي لا تُرد (وَمَن يَهْدِ اللهُ)

1 ما معنى الهداية هنا؟ ولماذا أضافها الله إلى نفسه؟
الهداية في هذه الآية هي هداية التوفيق والإلهام، وهي أخص من هداية البيان والدلالة. إنها تلك النقلة النورانية التي يُحدثها الله في قلب العبد، فيرى الحق حقًا ويرزق اتباعه، ويرى الباطل باطلا ً ويرزق اجتنابه. إضافة الهداية إلى نفسه بقوله "يهدِ الله" هي تشريف لها وتعظيم، وإشارة إلى أنها هبة إلهية خاصة لا يملكها ملك مقرب ولا نبي مرسل.

2 دلالة النفي القاطع: "فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ"
جاءت "ما" للنفي القاطع، وجاءت "من" زائدة لتأكيد استغراق النفي. المعنى: لا يوجد أي كائن، مهما بلغت قوته أو دهاؤه، يستطيع أن يُضلّ من هداه الله. هذا حكم لا يقبل الاستثناء. تخيل معي أنك في مركب النجاة، والربان هو الله، فهل تستطيع أمواج الدنيا وفتنها أن تغرقك؟ كلا وألف كلا.

3 مثال تقريبي:
تخيل معي رجلا ً صالحًا يعمل في شركة، وكل زملائه يغشون ويرتشون. إنهم يحاولون إقناعه بأن "الوضع كده" و"محدش عايشها بضمير". لكنه يشعر في قلبه سكينة، ويستحضر هذه الآية: {وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ}. إنها درع واق. فمهما كانت إغراءاتهم أو تهديداتهم (قد يهددونه بالعزل إن لم

يشاركهم)، فإن يقينه بأن الله هاديه يجعله صامدًا كالجبل. قد يُفصل من عمله، لكنه لم يُفصل من هداية الله، وهذه هي الخسارة الحقيقية التي لا تعوض.

الأمر الثالث: الاستفهام الذي يزلزل الجبال (أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقامٍ)
1/نوع الاستفهام ودلالته:
كما في الآية السابقة، هو استفهام تقريري. الهدف منه أن تقر أنت، أيها المؤمن، بهذه الحقيقة: "بلى، إنك لعزيز ذو انتقام". إنه سؤال يوقظ في النفس هيبة الله وجلاله، ويثبت فيها أن القوة كلها لله.

2 معنى اسم "العزيز":
"العزيز" في حق الله تعالى يجمع ثلاثة معانٍ جليلة:

· العزة بمعنى القوة والغلبة: فهو الذي لا يُغلب ولا يُقهر، الغالب على أمره.
· العزة بمعنى الامتناع: فهو الغني الذي لا يحتاج لأحد، ولا يناله نقص.
· العزة بمعنى العظمة والجلال: فهو المستحق للتعظيم والإجلال وحده.

فإذا قال الله: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ}، فكأنه يقول: أليس الله هو القوي الذي لا يُقهر، الغالب الذي لا يُغلب، العظيم الذي لا يُجارى؟ إنه توكيد بأن كل قوة في الأرض، مهما عظمت، فهي تحت قهر الله وعزته.

3 معنى وصف "ذي انتقام":
"الانتقام" صفة كمال لله. إنه ليس كغضب المخلوقين أو انتقامهم النابع من شهوة الثأر. انتقام الله هو إنزال العقوبة العادلة بالمجرمين المستحقين، بعد الإمهال والإنذار. وهو رحمة بالمؤمنين المظلومين، وإقامة لموازين العدل الإلهي. فوصف "ذي انتقام" في هذا السياق هو تطمين مباشر للمؤمن الذي يخوّفه أعداء الله. إنه بمثابة القول: لا تخف، فإن الله سينتقم لك من هؤلاء.

4 مثال تقريبي:
تذكر قصة فرعون وملئه، كيف كانوا يخوفون السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام، قائلين: {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71]. بماذا رد السحرة؟ ردوا بلسان من أيقن بكفاية الله وعزته: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ}. لقد تعلقوا بعزة الله، فلم يبالوا بتهديد فرعون. وكانت النتيجة أن الله أظهر عزته وانتقم من فرعون وجنوده بإغراقهم. هذه هي ثمرة الإيمان بأن الله عزيز ذو انتقام.

الأمر الرابع: ربط الآية بواقع المؤمن في مواجهة التهديدات

الآية السابقة (36) علمتنا ألا نخاف، لأن الله كافٍ. هذه الآية (37) تعلمنا لماذا لا نخاف، وكيف تكون النهاية. إنها تكمل المعادلة:

1. الواقع: أنت تواجه تهديدات من "الذين من دونه" (بشر، أنظمة، ظروف).
2. اليقين الأول (آية 36): تذكر أن الله كافيك. هذا يملأ قلبك سكينة وطمأنينة.
3. اليقين الثاني (آية 37): تذكر أن الله هاديك (فلا يُضلك تهديدهم) وهو عزيز ذو انتقام (فهم تحت قبضته، وسينتقم لك).

هذا التكامل بين الآيتين يصنع في نفس المؤمن حصانة كاملة: حصانة داخلية بالطمأنينة، وحصانة خارجية بالثقة في نصر الله وعقابه للظالمين.
أنوار على الطريق (رسائل نفسية وتربوية)

· التخلص من الخوف من "ردود الفعل": كثير من الناس لا يلتزمون بالحق خوفًا من رد فعل المدير ، أو المجتمع، أو الأسرة. هذه الآية تقول لك: رد فعلهم لا يساوي شيئًا أمام رد فعل الله إن انتقم. اختر الجانب الأقوى، الجانب الذي معه الكفاية والهداية والعزة.
· تحويل الخوف من المخلوق إلى خوف من الخالق: الخوف نوعان: خوف محمود وخوف مذموم. الخوف من غير الله مذموم، لأنه يقود إلى الضلال والذل. أما الخوف من الله، فهو المحمود، لأنه يقود إلى الهداية والعزة. {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقامٍ} يزرع في قلب المؤمن خوفًا وهيبة من الله، وهذا الخوف هو الذي يحرره من خوف المخلوقين.
· بناء عزة النفس: المؤمن الذي يقرأ هذه الآية لا يكون ذليلا ً ولا مهانًا. هو عزيز بإيمانه، لأنه يعلم أنه في كنف عزيز. عزة المؤمن مستمدة من عزة ربه، وهذه العزة تجعله لا يركع لغير الله، ولا

يبيع دينه بعرض من الدنيا.

الأمر الخامس: كيف نعيش الهداية والعزة في واقعنا العملي؟

لننزل هذه المعاني الجليلة إلى حياتنا اليومية، لنرى كيف تتحول من كلمات نرددها إلى طاقة نعيش بها.

الموقف العملي كيف تتدخل الآية لتغيير الموقف؟ الثمرة والنتيجة
في بيئة عمل فاسدة (رشوة، غش، محسوبية) تتذكر قوله: {وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ}. فتهتدي لطريق الاستقامة، وتوقن أنهم لن يستطيعوا إضلالك أو صرفك عن مبدئك. عزة نفس، واحترام من حولك وإن كانوا يضمرون العداوة، وبركة في الرزق القليل الحلال.
عندما يهددك ظالم (رئيس في العمل، مسؤول، شخص ذو نفوذ) تستحضر قوله: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ}. فتعلم أن عزة الله فوق عزة هذا الظالم، وأنه سينتقم لك منه. سكون القلب، وزوال الرعب، والقدرة على اتخاذ القرار الصحيح دون ضغط.
في لحظة فتنة وإغراء (مال حرام، علاقة محرمة، منصب يُنال بمعصية) تردد في سرك: اللهم اهدني. وتوقن بأن من يهده الله فلا مضل له. فتنظر للإغراء على أنه لا شيء مقابل نعمة الهداية. حفظ للدين والعرض، واستبدال متعة الحرام بلذة الطاعة والقرب من الله.
عند رؤية ازدهار الظالمين واستمرارهم في بغيهم لا تغتر، وتذكر وصف الله بـ "ذي انتقام". فتعلم أن الإمهال ليس إهمالا ً، وأن النهاية الحتمية قادمة. صبر جميل، وتفاؤل بالمستقبل، وعدم تمني أن تكون في مكانهم.

الأمر السادس: خلاصة الدروس المستفادة من الآية

لنجمع شتات الفوائد في نقاط واضحة، لعلها تكون نبراسًا لنا:

· الهداية عطاء إلهي خاص: هي أغلى ما يمكن أن يملكه الإنسان. فاحرص على أن تسأل الله الثبات عليها، وألا تغتر بنفسك، فأنت لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.
· العزة لله جميعًا: لا تطلب العزة من المخلوقين، فالتمسها من رب العالمين. كما قال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]. من تعلق باللهِ أعزه، ومن تعلق بغيره وُكل إليه وذل.
· اليقين بالعدل الإلهي: "ذو انتقام" صفة تبعث في قلب المظلوم السكينة، وفي قلب الظالم الخوف والوجل. إنها ميزان العدالة الكوني الذي يضبط إيقاع الحياة.
· التوازن بين الخوف والرجاء: هذه الآية تزرع الخوف من الله (لأنه ذو انتقام)، ولكنها في نفس الوقت تزرع الرجاء والأمل (لأنه يهدي عباده ويكفيهم). وهذا التوازن هو سر استقامة العبد على الطريق.
الخاتمة: من الطمأنينة إلى العزة

بهذا نكون قد أتممنا الرحلة مع هاتين الآيتين الكريمتين. إنهما معًا ترسمان للمؤمن طريقًا واضحًا:

1. ابدأ بالتوكل الصادق على الله، واعلم أنه كافيك، فتسكن نفسك.
2. تمسك بهداه واعتصم بحبله المتين، واعلم أن من هداه الله فلا مضل له، فتمضي في طريقك بثبات.
3. إذا ما واجهتك قوى الباطل، فلا تخف، فأنت في كنف عزيز ذي انتقام، فكن عزيزًا بإيمانك، واثقًا بنصر ربك.

إنها معادلة إيمانية متكاملة، تحول المؤمن من شخص ضعيف تتقاذفه المخاوف، إلى عبد قوي باللهِ ، يمضي في حياته بثبات وطمأنينة وعزة. فهل وعيت هذه المعاني؟ وهل حملت هذه الآيات في قلبك لتكون لك زادًا في مسيرة الحياة؟
المبحث الثالث
يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر: 38].

تأمل معي هذا المشهد الحواري العجيب! بعد أن أرانا الله كفايته وهدايته وعزته في الآيتين السابقتين، ها هو يضعنا أمام حقيقة فطرية يقر بها حتى المشركون. إنه ينقلنا من دائرة اليقين القلبي إلى دائرة البرهان العقلي الذي لا يستطيع منكر رده. ثم يبني على هذا الإقرار صرحًا من التوكل

الخالص الذي هو عنوان العبودية الحقة.

#أبرز محاور الآية في سطور

تتمحور الآية الكريمة حول معانٍ ربانية عظيمة، نجملها فيما يلي:

· إقامة الحجة على المشركين: إلزامهم بالإقرار بأن الله هو الخالق، ثم تعريضهم للتناقض بجعلهم آلهة لا تنفع ولا تضر.
· حصر النفع والضر بيد الله وحده: تقرير أن كل ما سوى الله لا يملك لنفسه فضلا ً عن غيره كشف ضر أو إمساك رحمة.
· التصريح بعقيدة التوكل: الانتقال من الجدل العقلي إلى الإعلان القلبي "حسبي الله".
· بيان أن التوكل شعار الصادقين: فمن تعلق بالله وحده، سار على طريق الأنبياء والمؤمنين الصادقين.

الأمر الأول: إلزام الخصم بالحجة) ولئن سألتهم ...ليقولن الله(

1نوع الأسلوب ودلالته:
الآية تبدأ بأسلوب القسَم المؤكد باللام والنون في {وَلَئِن سَأَلتَهُم} و{لَيَقُولُنَّ} . هذا ليس سؤالا ً عاديًا، بل هو إلزام حتمي. وكأن الله يقول لنبيه: والله إن سألت هؤلاء المشركين عمن خلق هذه السماوات والأرض بعظمها وإتقانها، سيجيبون دون تردد: "الله".

2لماذا يقرون بذلك وهم مشركون؟
لأن هذه الحقيقة مركوزة في الفطرة الإنسانية. لم يجرؤ أحد عبر التاريخ أن يدّعي أن صنمًا من حجر أو كوكبًا في السماء هو من خلق الكون. حتى المشركون يعلمون أن الخالق المدبر هو الله وحده، ولكنهم أشركوا في العبادة والتوجه والدعاء.

3الغرض من هذا الاستفهام التقريري:
الغرض هنا هو هدم أساس الشرك من قواعده. إنه يريد أن يقول لهم: أنتم تعترفون بأن الله هو الخالق المالك، فكيف تجعلون له شركاء في العبادة لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون؟ إنه تنبيه على تناقضهم الفاضح.

4مثال تقريبي:
تخيل أن رجلا ً يعيش في قصر عظيم، وله خادم أوكل إليه بعض المهام. فجأة، يبدأ الرجل في التذلل والانحناء للخادم، ويطلب منه الرزق ودفع الضر. ألا يكون هذا منتهى السفه والتناقض؟ هذا بالضبط ما تفعله هذه الآية، فهي تضع المشرك أمام المرآة ليرى وجهه الحقيقي.

الأمر الثاني: تفنيد أوهام الشرك) قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله(...

1الانتقال إلى التحدي المباشر:
بعد أن أقر الخصم بأن الله هو الخالق، يأمر الله نبيه أن يقول لهم: {أَفَرَأَيْتُم}، أي أخبروني عن هذه الآلهة التي تدعونها من دون الله.

2حصر النفع والضر بيد الله:
اسألهم: {إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ} (مرض، فقر، حزن، هزيمة) {هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ}؟ أي هل تستطيع هذه الأصنام أو الأولياء أن ترفع عني هذا الضر الذي قدره الله؟
واسألهم أيضًا: {أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ} (صحة، غنى، فرج، نصر) {هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ}؟ أي هل تستطيع هذه الآلهة أن تمنع عني رحمة أرادها الله لي؟

الإجابة الضمنية الحتمية: لا، لا يقدرون على شيء من ذلك.

3دلالة التعبير بـ "كاشفات" و"ممسكات":
استخدام صيغة جمع المؤنث السالم {كَاشِفَاتُ} و{مُمْسِكَاتُ} للإشارة إلى الأصنام التي يعبدونها (مثل اللات والعزى ومناة) فيه تهكم خفي وإظهار لعجزها التام. فهي إناث عاجزة، فكيف تُنسب إليها القدرة على كشف ضر أو إمساك رحمة؟

4مثال تقريبي:

تخيل أنك مريض، ووصف لك الطبيب دواءً. ثم جاءك شخص بقطعة حجر وقال لك: علق هذه الحجر في رقبتك، فهي ستشفيك. ألن تضحك وتقول له: هذا حجر، إنه لا ينفع ولا يضر. هذه الآية تفعل ذلك على مستوى العقيدة، فهي تسخر من عبودية المخلوقين للجمادات أو البشر، وتعيد العقل إلى نصابه بأن الضار النافع هو الله وحده.

الأمر الثالث: شعار الصادقين) قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون(

1الإعلان القلبي بعد البرهان العقلي:
بعد أن ثبت بالحجة أن كل ما سوى الله عاجز، تأتي النتيجة الطبيعية، وهي الشعار الذي يعلنه المؤمن بلسانه وقلبه: {حَسْبِيَ اللهُ}. أي أنا لا أحتاج إلى آلهتكم، ولا أخاف تهديداتكم، فالله وحده كافيني وواقيّ وناصري.

2لماذا قال "حسبي الله" بدلا ً من "حسبنا الله"؟
مع أن السياق قد يوحي بالجمع، إلا أن الإفراد هنا له دلالة عميقة. إنه إعلان فردي عن يقين شخصي راسخ، قبل أن يكون شعارًا جماعيًا. إنه قمة الصدق في التوكل، حيث يقول العبد من أعماق قلبه: أنا وحدي في مواجهة الكون كله، ولكن الله معي، وهو حسبي.

3تعميم المبدأ: "عليه يتوكل المتوكلون"
ثم ينتقل من الخاص إلى العام، ليخبر أن هذا ليس مجرد قول يقوله النبي فحسب، بل هو طريق كل مؤمن صادق في توكله. فكل من أراد أن يكون من المتوكلين حقا، فعليه أن يجعل توكله على الله وحده، لا على الأسباب أو الشفعاء.

الأمر الرابع: المفاهيم النفسية والفكرية والتربوية المستخلصة من الآية

والآن نأتي إلى القسم لنغص في أعماق هذه المفاهيم، ونستخرج دررها.

أولا ً: المفاهيم النفسية (الأمن والتحرر الداخلي)

.1التحرر من "عقدة النفع والضر":
الكثير منا يعيش أسيرًا لوهم أن فلانًا من الناس هو سبب رزقه، أو أن علانة هي سبب سعادته . هذه الآية تجري عملية جراحية نفسية عميقة، فتستأصل هذا الوهم من جذوره .عندما تقول بقلبك: }إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ كَاشِفَ ضُرِّهِ إِلَّا هُوَ{، فإنك تتحرر من الخوف من أي مخلوق، لأنه لا يملك لك ضرًا إلا بإذن الله .وعندما تقول:} وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ] {يونس:[107 ، فإنك تتحرر من التذلل لأي مخلوق طمعًا في منفعة، لأن الخير كله بيد الله.
· مثال عملي: شاب يخاف أن يتقدم لوظيفة أحلامه لأن مدير التوظيف "معقد" .إذا استحضر هذه الآية، سيدرك أن المدير مجرد سبب، وأن الرزق بيد الله، فسيقدم على الخطوة بقلب مطمئن، لا يبالي بقبول المدير أو رفضه، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه.
.2علاج القلق المستقبلي) قلق "ماذا لو؟"(:
القلق ينهش في قلوبنا لأننا نعيش في سجن "ماذا لو؟": ماذا لو خسرت وظيفتي؟ ماذا لو مرضت ؟ ماذا لو تزوجت؟ هذه الآية تقول لك: كل هذه "الماذا لوات" بيد الله .إنه إن أراد بك ضرًا، فلا أحد يستطيع كشفه، وإن أراد بك رحمة، فلا أحد يستطيع إمساكها .هذا اليقين يحررك من هذا السجن، ويملأ قلبك سكينة غامرة، لأن المستقبل ليس في أيدي مجهول مخيف، بل في يد حكيم رحيم.
· مثال تقريبي: تخيل أنك في سفينة وسط بحر هائج، وأنت ممسك بدفة القيادة لكنك لا ترى شيئًا .ستصاب بالرعب .لكن إن علمت أن الدفة مربوطة بنظام ملاحة إلهي دقيق لا يخطئ، ستهدأ وترتاح .هذه الآية تربط دفة حياتك مباشرة بالله، فتهدأ كل اضطراباتك.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية (تصحيح التصورات والعقائد)

.1تفكيك التناقض الفكري في حياة الكثيرين:
الآية تكشف تناقضًا فكريًا يعيشه الكثيرون: إيمان نظري بأن الله هو الخالق الرازق، مع تعلق قلبي عملي بالأسباب والمخلوقات .هذا التناقض هو مصدر الشقاء والاضطراب .الآية تعيد بناء الفكر على قاعدة صلبة: من الاعتراف بالخلق يلزم توحيد العبادة والتوكل.
· مثال فكري: كم من شخص يقول "لا إله إلا الله" ثم تراه يلهث وراء شفاعة فلان، أو يخاف غضب علان أكثر من خوفه من غضب الله؟ هذه الآية تضع حدًا لهذا الفصام الفكري، وتقول: إما أن تؤمن بأن النافع الضار هو الله وحده، فتعيش حرًا، وإما أن تبقى متناقضًا فتعيش عبدًا للمخلوقين.
.2تأسيس مفهوم "العزة بالتوكل":

يظن البعض أن التوكل على الله يعني التواكل والضعف .هذه الآية تؤسس لفكرة معاكسة تمامًا .ف التوكل هو مصدر القوة الحقيقي .لماذا؟ لأن المتوكل لا يرهب أحدًا، وبالتالي فهو حر في قراراته، جريء في مواجهة الباطل .هو عزيز لأنه يستمد عزته من العزيز الذي لا يُغلب.
· دليل فكري: انظر إلى حياة الصحابة .هل كانوا ضعفاء؟ كلا .لقد واجهوا أعتى إمبراطوريتين في زمانهم، لماذا؟ لأنهم عاشوا هذه الآية، فلم ترهبهم قوة فارس والروم، لأنهم أيقنوا أنهم} مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ {التي أرادها الله لهم.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء الشخصية وتنشئة الأجيال)

.1تنشئة جيل واثق من نفسه بالله:
عندما نربي أبناءنا على هذه الآية، فإننا نصنع جيلا ً لا يُقهر نفسيًا .إننا نربيهم على أن كرامتهم وعزتهم ليست رهينة بيد أحد من البشر .فلا مدير ولا مسؤول ولا صاحب نفوذ يستطيع أن يمسهم بسوء إن أراد الله بهم خيرًا .هذا يخلق شخصية قوية، مستقلة، لا تهتز أمام العواصف.
· تطبيق تربوي: ابنك يشتكي من ظلم معلمه .بدل أن تقول له "اصبر فالمعلم بيده درجاتك")فتزرع فيه الخوف من المخلوق(، علمه هذه الآية .قل له: نحن نأخذ بالأسباب ونجتهد، ولكن نعلم أن الضر والنفع بيد الله، فاطلب حقك بأدب وقوة، ولا تخف إلا الله.
.2تربية القلب على الاستغناء عما في أيدي الناس:
من أعظم الأمراض التي تفتك بالمجتمعات هو التزلف والمداهنة طلبًا للرزق أو المنصب .هذه الآية تربي في النفس منذ الصغر الاستغناء بالله عما في أيدي الناس .الطفل الذي يشب على هذا المبدأ، سيكون موظفًا نزيهًا لا يبيع ضميره، وتاجرًا أمينًا لا يغش، ومسؤولا ً عادلا ً لا يظلم.
· قصة تربوية: قصة الإمام أحمد بن حنبل وهو يُجلد في فتنة خلق القرآن .عرضوا عليه المنصب والمال ليقول كلمتهم، لكنه كان يردد في نفسه: "كيف بكم وبين يدي الله يوم القيامة؟" .لقد ربى نفسه على أن رحمة الله لا يمسكها مخلوق، وعذابه لا يكشفه مخلوق، فكان ثباته أسطورة.

الأمر الخامس: دور مفاهيم الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

الآن ننتقل إلى الأفق الأوسع، لنرى كيف تتحول هذه المفاهيم من مجرد قناعات فردية إلى محركات حضارية عظيمة.

.1دور الآية في بناء الإنسان) اللبنة الأولى للحضارة(

· صناعة الإنسان "الرباني" وليس "الحِرَفي":
التنمية البشرية المعاصرة تركز على بناء مهارات الإنسان وقدراته الذهنية والعملية، ولكنها تهمل جوهره الروحي والعقدي .هذه الآية تبني جوهر الإنسان .إنها تبني "الإنسان الرباني" الذي يشعر في قرارة نفسه أنه متصل بمصدر القوة المطلقة .هذا الإنسان لا تهزه الأزمات، ولا تكسره الفشل، لأنه لا يرى في الفشل نهاية العالم، بل يرى أن الأمر كله بيد الله .هذا البناء الداخلي هو الأساس الصلب لأي بناء خارجي.
· إطلاق الطاقات الكامنة:
الخوف من الفشل ومن المجهول ومن كلام الناس هو أكبر مكبح لطاقات الإنسان وإبداعه .عندما تحرر الآية الإنسان من هذه المخاوف، فإنها تطلق عنان طاقاته .يصبح قادرًا على الإبداع، والمخاطرة المحسوبة، واتخاذ القرارات المصيرية، لأنه يعلم أن النتائج بيد الله، وأن سعيه هو المطلوب منه.
· دليل واقعي: معظم الناجحين في التاريخ، سواء في العلم أو التجارة أو الإصلاح، هم من الذين آمنوا بفكرة القدر والثقة بالله .لماذا؟ لأن هذا الإيمان يمنحهم مرونة نفسية هائلة تمكنهم من النهوض بعد كل سقوط.

.2دور الآية في بناء المجتمع) النسيج الاجتماعي المتماسك(

· مجتمع بلا خوف ولا تبعية:
تخيل مجتمعًا أفراده جميعهم يعيشون هذه الآية .إنه مجتمع لا يخاف رئيسًا ولا وزيرًا ولا صاحب نفوذ إلا في الحق .هذا المجتمع يصبح عصيًا على الاستبداد والفساد، لأن الفرد فيه لا يبيع صوته أو ضميره خوفًا من قطع رزق، لأنه يعلم أن} هَلْ هُنّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ .{هذا هو مجتمع الشورى والعدل الحقيقي.
· مجتمع التكافل والتعاون:
عندما يتخلص الفرد من الأنانية والخوف على رزقه، ينفتح قلبه للآخرين .الغني لا يخاف الفقر فيتصدق، والقوي لا يخاف الضعف فينصر المظلوم .هذا يخلق نسيجًا اجتماعيًا متماسكًا، قائمًا على

الثقة في الله لا على التنافس القاتل على الفتات.
· مثال مجتمعي: في صدر الإسلام، كان المجتمع يعيش هذا المعنى .عندما كان أبو بكر الصديق يتصدق بماله كله، لم يكن يفكر "ماذا سأفعل غدًا؟"، بل كان يعلم أن الرزق بيد الله.

.3دور الآية في بناء الحضارة) الانطلاق الحضاري الواثق(

· حضارة لا تخشى الآخر:
الحضارة التي تخاف من الآخر هي حضارة آيلة للسقوط .الحضارة الإسلامية انطلقت لأنها كانت تحمل يقين هذه الآية .لم تخشَ قوة الفرس العلمية والعسكرية، ولم ترهب إمبراطورية الروم .لقد تعاملت مع الحضارات الأخرى من موقع الندية والثقة، فأخذت منها ما ينفعها، وأعطتها ما لديها، دون خوف من الذوبان أو الانهزام الحضاري .هذا هو سر عظمة الحضارة التي تستمد قوتها من الله.
· ديمومة العطاء الحضاري:
الحضارات المادية تقوم على رجال، فإذا مات الرجال أو ضعفت قوتهم المادية، انهارت الحضارة .أما الحضارة التي تقوم على إنسان يعيش هذه الآية، فهي حضارة متجددة لا تنضب .لأن مصدر قوتها هو الله الحي الذي لا يموت .فكلما شعر المجتمع بالضعف، عاد إلى هذا المصدر الروحي ليستمد منه العزم والقوة.

.4دور الآية في التنمية البشرية) رؤية متكاملة للتنمية(

· الانتقال من "تنمية الخوف" إلى "تنمية الأمل":
كثير من برامج التنمية البشرية تحفز الناس عن طريق الخوف: "إن لم تفعل كذا ستخسر كذا" .هذه الآية تقدم نموذجًا مختلفًا، هو "تنمية الأمل والثقة بالله" .إنها تدفعك للعمل ليس خوفًا من الفشل، بل ثقة بأن الله معك ولن يضيع سعيك .هذا الدافع الإيماني أقوى وأبقى من أي دافع مادي.
· التوازن بين السعي والتوكل) معادلة النجاح الحقيقية(:
الآية لا تدعو إلى التواكل وترك الأسباب، بل تدعو إلى أعظم جهد مع أعظم يقين} .عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ {تعني أنهم بذلوا أسبابهم، ثم فوضوا أمرهم لله .هذه المعادلة هي سر النجاح الدنيوي والأخروي .فأنت تسعى بكل طاقتك، ثم تنام قرير العين، لأنك لا تحمل هم النتائج.

الأمر السادس: خلاصة الدروس وكيف نعيش الآية في واقعنا؟

لنجعل هذه الآية خارطة طريق لحياتنا اليومية:

في واقعنا العملي كيف نطبق الآية؟
عند الإحساس بالضعف أمام سلطة أو نظام جائر تذكر أنهم {لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ضُرِّ وَلَا تَحْوِيلًا}. قوتهم مستمدة من إيهامك بذلك، فإذا تحرر قلبك، سقطت هيبتهم.
عند القلق على الرزق والمستقبل المهني ردد: {حَسْبِيَ اللهُ}. هو الذي خلق السماوات والأرض، فهل يعجز عن تدبير رزق عبد ضعيف؟ اعمل بالأسباب وكن مطمئنًا.
عند الوقوع في مصيبة أو بلاء اعلم أن أحدًا لن يكشف هذا البلاء إلا الله. توجه إليه بالدعاء وحده، واقطع قلبك عن التعلق بالأسباب.
في تربية الأبناء والطلاب اغرس فيهم معنى "حسبي الله". لا تجعلهم يخافون منك أو من غيرك أكثر من خوفهم من الله. اجعل علاقتهم بالله هي مصدر أمانهم وقوتهم.
في مسيرة الإصلاح والتغيير أيقن أن من أراد الله به رحمة الإصلاح والتمكين، فلا قوة في الأرض تستطيع إمساك هذه الرحمة. سر في طريقك واثقًا، فأنت في رعاية العزيز الحكيم.
الخاتمة: حيث يلتقي العقل بالقلب في حضرة التوكل

بهذا نكون قد غصنا في أعماق الآية الثامنة والثلاثين، واستخرجنا دررها التي تنير العقل وتحيي القلب. لقد بدأت الآية بإقامة الحجة على المشركين عقليًا، وأجبرتهم على الإقرار بحقيقة الخلق، ثم قادتهم من هذا الإقرار إلى النتيجة المنطقية الوحيدة: التوكل على الخالق وحده. وانتهت بالإعلان المدوي: {حَسْبِيَ اللهُ}.

هذا الإعلان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو ثورة داخلية على كل قوى الوهم والخوف. هو إعلان استقلال الروح عن عبودية المخلوقين. هو جواز سفرك إلى عالم الطمأنينة والعزة والحرية الحقيقية.

فاجعل هذه الآية شعارك في كل موقف، واجعل {حَسْبِيَ اللهُ} زادك الذي لا ينفد، وسترى كيف تتغير حياتك، وكيف تصبح في الدنيا كأنك في جنة، لأن قلبك معلق بملكوت السماء، وجوارحك تعمر الأرض بثبات ويقين.

المبحث الرابع
يقول الله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (40)} [الزمر: 39-40].

هاتان الآيتان ليستا مجرد إخبار، بل هما إعلان حرب سلمية، ووثيقة مفاصلة عقدية ونفسية واضحة المعالم. إنهما ترسمان الحدود بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، وتؤسسان لقاعدة صلبة في كيفية التعامل مع مجتمع يموج بالباطل عندما لا يكون الاعتزال الجسدي ممكنًا.

أبرز محاور الآيتين في سطور

· مبدأ "المكانة" والمسؤولية الفردية: كل إنسان سيعمل على شاكلته ووفق طريقه، والمؤمن يعلن تمسكه بطريقه مهما كانت الضغوط.
· البراءة العملية والقلبية من الباطل: "إني عامل" هي قمة البراءة من فعلهم، فهي إعلان رفض للمشاركة في أعمالهم.
· المفاصلة الروحية عند تعذر المفاصلة الجسدية: تعليم إلهي لكيفية الحفاظ على نقاء القلب والإيمان في بيئة فاسدة يصعب الخروج منها.
· الأعمال هي محور الحساب والجزاء: ربط مصير الإنسان) خزي أو نجاة (بعمله هو أساس العدل الإ لهي وأساس الولاء والبراء.
· الإنذار بعاقبة طريق الكفر: الخزي في الدنيا والعذاب المقيم في الآخرة نهاية حتمية لمن حاد الله ورسوله.

الأمر الأول: إعلان البراءة والمفاصلة) قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل(

1دلالة النداء ب- "يا قوم":
رغم إصرارهم على الكفر، يصفهم الله على لسان نبيه بأنهم "قومه". هذا ليس ضعفًا، بل هو أعلى درجات النصح والحرص. إنه تذكير لهم برابطة القربى والجوار، وكأنه يقول: "نصيحتي لكم صادرة من قلب مشفق عليكم، فأنا لا أريد لكم إلا الخير، ولكن هذا لا يعني أبدًا أن أسايركم في باطلكم".

2تحليل جملة "اعملوا على مكانتكم":
هذه الجملة تحمل عدة دلالات عميقة:

· التفويض والتهديد الخفي: "اعملوا ما شئتم على طريقتكم التي ارتضيتموها لأنفسكم، وبكل ما أوتيتم من قوة" .إنه ليس إذنًا، بل هو إعلام بأن المؤمن لن ترهبه قوتهم أو أعمالهم.
· تحديد المسؤولية: "مكانتكم" تشمل حالتهم وطريقتهم ونيتهم .فكل إنسان يعمل على قدر "مكانته" العقدية والأخلاقية .فالمؤمن يعمل من منطلق الإيمان واليقين، والكافر يعمل من منطلق الكفر و الجحود.
· البراءة من عملهم: إنه إعلان صريح: "ما أنا بفاعل ما تفعلون، ولا أنا بسالك سبيلكم" .إنها البراءة العملية التي تسبق البراءة القلبية.

3دلالة "إني عامل":
هذا هو الشق الثاني من المعادلة، وهو الأهم. إنه ليس مجرد رد، بل هو بناء للذات واستمرار في الإ صلاح.

· الثبات على الحق: إنه تعبير عن العزيمة التي لا تلين .مهما عملتم من مكر وكيد، فإنني سأستمر في عملي الذي أمرني به ربي: من الدعوة إلى الله، والعبادة، وإصلاح الأرض.
· التوكل لا التواكل: "إني عامل" تؤكد أن الإيمان ليس دعوة للقعود، بل هو دافع للعمل الجاد .ولكنه عمل يستمد قوته من الله لا من البشر.
· المفاصلة الروحية والعملية: هنا جوهر ما طلبتَ .عندما يعيش المؤمن في مجتمع يزخر بالمنكرات، و لا يستطيع مفارقته جسديًا) لظروف العمل أو السكن أو الدراسة(، فإن هذه الآية تعطيه وصفة النجاة: اعتزل أفعالهم بفعل عكسها، واعتزل مجالسهم ببناء صرح عملك الصالح ."إني عامل" تعني: أنا مشغول بعملي في طاعة الله، فلا وقت لي ولا رغبة في الخوض في لغوهم وباطلهم.
مفاهيم أساسية) البراءة، الأعمال، المفاصلة الروحية(

لنقف هنا وقفة تفصيلية كما طلبتَ، لتتضح هذه المفاهيم الجوهرية:

أ. مفهوم البراءة من الطاغوت والكفر

· ما هي البراءة هنا؟
هي ليست مجرد كراهية قلبية فحسب، بل هي موقف وسلوك .إنها إعلان الانفصال التام عن منهج الكافرين وعقائدهم وأعمالهم القبيحة .هذه البراءة هي أصل الولاء والبراء في الإسلام.
· كيف تتجسد البراءة في الآية؟
1. بالقول:} إِنِّي عَامِلٌ{، وهذا يختلف عن قولهم وفعلهم.
2. بالعمل: السعي في طريق الله، وهو عكس سعيهم في طريق الشيطان.
3. بالعاقبة: الثقة بأن نهاية طريقهم هي الخزي، ونهاية طريق المؤمن هي النجاة.

ب. الأعمال هي أساس النجاح أو الخسارة

· ربط المصير بالعمل: الآية تربط بشكل حتمي بين العمل والعاقبة} .فَسَوْفَ تعلَمُونَ (39) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ .{هذا العلم سيكون علمًا يقينيًا يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا .فمن كانت أعماله سليمة قائمة على رضا الله، كانت له السعادة .ومن استمر في أعماله القبيحة، كانت له الخسارة والهلا ك .هذا هو ميزان العدل الإلهي.

ج. استراتيجية المفاصلة الروحية عند تعذر الاعتزال الجسدي

· إشكالية واقعية: يعيش الكثير من المسلمين اليوم في مجتمعات غير إسلامية، أو في مجتمعات إس لامية يطغى عليها الفساد، ولا يمكنهم الانتقال أو العزلة الكاملة .فماذا يفعلون؟
· الحل القرآني: تقدم الآية استراتيجية من ثلاث خطوات:
1. المفاصلة القلبية) المشاعر(: كراهية ما هم فيه من كفر وفسوق وعصيان.
2. المفاصلة العملية) السلوك(: عدم مشاركتهم في أفعالهم، والانشغال بالعمل الصالح .قال تعالى:} وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا] {الفرقان:.[72
3. الاعتصام والاستعانة بالله: طلب الحماية الإلهية من خطر الهلاك الذي هم فيه، ومن التأثر بشرهم .وهذا ما يرشد إليه قوله بعدها:} قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.{
· مثال تقريبي: تخيل أنك تعيش في مدينة يكثر فيها شرب الخمر، وزملاؤك في العمل يدعونك إليها باستمرار .أنت لا تستطيع ترك العمل .هنا تطبق الآية: تقول بلسان حالك:} اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) {اشربوا أنتم(،} إِنِّي عَامِلٌ) {وأنا سأعتصم بالله وأشغل نفسي بالطاعات والرياضة النافعة .(هذه هي المفاصلة الروحية التي تحميك من الذوبان في حمأة الباطل.

#الأمر الثاني: بيان العاقبة الوخيمة) فسوف تعلمون(...

1الانتقال من التهديد إلى حتمية الوقوع:
}فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {: هذا وعيد أكيد ."سوف" للتحقيق والتأكيد .فالعلم القادم ليس مجرد ظن، بل هو علم ضروري لا مفر منه.

2وصف العذاب بـ "يخزيه":
"الخزي" أشد من العذاب الجسدي .إنه عذاب نفسي ومعنوي، وهو الفضيحة والذل والهوان أمام الخلا ئق .تخيل معي موقف يوم القيامة:} يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ] {الطارق: .[9 مجرم كان يتظاهر بالقوة والعزة في الدنيا، فيُفضح على رؤوس الأشهاد، ويُعرض على النار وهو صاغر ذليل .هذا هو الخزي الذي لا يُوصف.

3وصف العذاب بـ "مقيم":
هذا وصف آخر يفصل بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. عذاب الدنيا زائل لا محالة، مهما طال. أما عذاب الآخرة فهو {عَذَابٌ مُقِيمٌ} أي دائم لا يفنى ولا ينقطع. وكما قال بعض المفسرين: "دائم لا يزول عنهم، ولا يموتون فيستريحوا". هذا الوصف يقطع أي أمل واهٍ في الخلاص أو النجاة.
رسائل إلهية إلى القلب والعقل

· لا غرور بالقوة المؤقتة: قد يرى المؤمن قوة الكافرين وتمكنهم في الأرض، فتأتي هذه الآية لتذكره أن هذا كله زائل، وأن العاقبة للمتقين.
· الخزي في الدنيا قبل الآخرة: ليس شرطًا أن يكون الخزي في الآخرة فقط، بل قد يعجل الله به في الدنيا .كم من جبار عنيد رأينا نهايته المخزية في نشرات الأخبار؟ إنه مصداق هذه الآية.

الأمر الثالث: المفاهيم النفسية والفكرية والتربوية والاجتماعية والحضارية

كما وعدتك، هذا هو القسم الأهم، حيث ننزل هذه المعاني إلى أرض الواقع ونرى كيف تبني الفرد و المجتمع.

أولا ً: المفاهيم النفسية (تحرير الذات من ضغط البيئة الفاسدة)

.1تعزيز "الأنا" الإيمانية في مواجهة "النحن" المنحرفة:
في علم النفس الاجتماعي، يشكل ضغط المجموعة) "النحن" (خطرًا كبيرًا على الفرد المخالف .هذه الآية تمنح المؤمن حصانة نفسية ضد هذا الضغط .إنها تقول له: أنت لست أقلية ضائعة، أنت على طريق مستقيم، ولديك قضية عادلة، فاثبت ولا تنكسر.
. مثال نفسي: شاب ملتزم وسط أصدقاء يستهزئون به لأنه لا يدخن أو لا يشاهد المحرمات .بدل أن يشعر بالنقص، يتذكر "إني عامل" فيشعر بالفخر والعلو الإيماني.
.2التخلص من عقدة "الخوف من التهميش":
الخوف من أن يُوصف المؤمن بأنه "رجعي" أو "منعزل" يدفع الكثيرين للتنازل عن مبادئهم .الآية تعالج هذا الخوف بجملة} اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .{إنها تعني أن ما أنا عليه هو "مكانتي" التي اخترتها برضاي، وما أنتم عليه هو "مكانتكم" التي اخترتموها بغفلتكم .فلا أحسدكم عليها، ولا أرهب تهميشكم.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية (تأسيس منهج التفكير والنظر)

.1منهج "العمل على المكانة" كمبدأ فكري:
هذه الآية تؤسس لفكرة أن لكل إنسان "مكانة" فكرية وعقدية ينطلق منها .الفكر العلماني ينطلق من مكانة "مركزية الإنسان"، بينما الفكر الإسلامي ينطلق من مكانة "مركزية الله" .الآية تقول: لنعمل كل منا على مقتضى مكانته الفكرية، والنتيجة ستظهر من هو المحق .وهذا يدعو إلى الحوار الفكري الهادئ بدل الصدام، مع الحفاظ على الثوابت.
.2تفنيد مقولة "النسبية المطلقة":
الآية ترفض بشكل قاطع فكرة أن كل الطرق تؤدي إلى الجنة، أو أن كل الأعمال متساوية في القيمة .إنها تؤكد أن هناك طريقًا حقًا وطريقًا باطلا ً، وأن العاقبة ستفرق بينهما بشكل واضح . }فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {هو رد على كل من يقول: "دعنا نتعايش بلا أحكام قيمة".

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المعاصر)

.1تربية الطفل على "إني عامل" بدل "وهم التغيير الفوري":
كثير من الشباب المتحمس يصاب بالإحباط عندما يرى انتشار المنكر ولا يستطيع تغييره .هذه الآ ية تعلمنا تربية عملية: ابن نفسك أولا ً، اعمل على مكانتك، كن مشغولا ً ببناء مشروعك الإيماني و الخيري .هذا العمل هو بذاته تغيير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر بالحال قبل المقال.
.2التعايش الواعي لا الذوبان السلبي:
الآية تربي في الناشئة معنى "المواطنة الإيجابية" مع الحفاظ على الهوية .فهو يتعايش مع مجتمعه، يحترم قوانينه، يتعامل مع أفراده بالحسنى، ولكنه لا يذوب في قيمهم المخالفة للإسلام .إنه يعيش بينهم بجسده، ولكن بروح منفصلة عن باطلهم .وهذا هو التوازن العظيم الذي يقدمه الإسلام.

رابعًا: دور الآية في بناء المجتمع والحضارة

.1المجتمع المتماسك القائم على العقيدة الواضحة:
عندما يعيش أفراد المجتمع هذا المبدأ، فإنهم يبنون مجتمعًا قويًا متماسكا .قوتهم ليست في عددهم فحسب، بل في وضوح رؤيتهم ورسالتهم:} إِنِّي عَامِلٌ {في إعمار الأرض وإصلاحها وفق منهج الله.
.2المساهمة الحضارية من موقع الاستعلاء الإيماني:
الحضارة الإسلامية لم تبنَ بالانعزال التام عن العالم، ولا بالذوبان فيه .لقد بنيت بمبدأ:} اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .{لقد تفاعل المسلمون مع الحضارات الأخرى) اليونانية والفارسية والهندية(، ولكنهم لم يبهروا بها .أخذوا ما ينفعهم مما لا يتعارض مع عقيدتهم، وتركوا ما سوى ذلك، ثم بنوا حضارتهم الفريدة .هذه هي "المفاصلة الروحية الحضارية".

الأمر الرابع: جدول تطبيقي) كيف نعيش الآية في واقعنا المعاصر(

لنجعل هذه الآية خارطة طريق يومية في مجتمع يختلط فيه الحق والباطل:

الموقف الواقعي التطبيق العملي من الآية (39-40)

في بيئة عمل يكثر فيها الغيبة والكذب {اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ} : لا أشارككم، و {إِنِّي عَامِلٌ} : سأثبت على صدقي وأمانتي. أنا معكم بالجسد، ولكن روحي وعملي منفصلان عن هذا الباطل.
أصدقاء السوء يحاولون جرك إلى المعاصي مفاصلة عملية: أنشغل عنهم بعمل نافع (رياضة، دورة علمية، عمل تطوعي). قل بلسان حالك: أنا مشغول ب- "عملي" في الخير.
عندما ترى انتشار الفساد وتشعر بالإحباط تذكر أن {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} . النهاية ليست في الدنيا، بل هناك يوم فصل. ركز على عملك الفردي، فهو لبنة في بناء التغيير، ولا تحمل هم النتائج.
في التعامل مع إعلام يروج للرذيلة الاعتزال الروحي: لا تشاهد، لا تشارك، أنكر بقلبك، واملأ وقتك بما ينفعك. هذه هي "المفاصلة" الإعلامية التي تحميك من التأثر.
تربية الأبناء في مدارس مختلطة أو ذات مناهج منحرفة علمهم مبدأ {إِنِّي عَامِلٌ}. أي أن لهم "مكانتهم" الإسلامية التي يعتزون بها، وعليهم احترام الآخرين، لكن دون التنازل عن هويتهم. هذه هي البراءة العملية من المناهج الفاسدة.

الخاتمة: حيث تكون البراءة قوة وعملا ً

بهذا نكون قد استوفينا، بعون الله، تفسير الآيتين (39-40) وما حوتاه من معانٍ عظيمة. لقد علمتنا هاتان الآيتان أن البراءة من الطاغوت والكفر ليست دعوة سلبية للعزلة والقعود، بل هي دعوة إيجابية لعمل دؤوب في طريق الحق، مع مفاصلة قلبية وروحية واضحة عند تعذر المفاصلة الجسدية.

إنها ترسم للمؤمن طريقًا وسطًا بين رفض الباطل وعدم المشاركة فيه، وبين البقاء في المجتمع لإصلا حه وتزكيته. إنها تجعل من "إني عامل" شعارًا لكل من أراد أن يكون ربان نفسه، وأن يسير في سفينة النجاة وسط أمواج الفتن المتلاطمة.

القسم الثاني

المبحث الأول

لقد وقفنا معًا في رحاب الآيات السابقة على مشاهد من الكفاية الإلهية، والهداية، والعزة، والتوكل، و المفاصلة الروحية. وها نحن نصل إلى آية جامعة مانعة، تكشف لنا عن طبيعة هذا الكتاب العزيز الذي بين أيدينا، وعن مهمة النبي ﷺ، وعن حقيقة المسؤولية الفردية للإنسان. إنها الآية التي ترسم الحدود بين الهداية والضلال، وتبين منهج الدعوة الصحيح.

يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [الزمر: 41].

تأمل معي هذا المقطع القرآني البديع. بعد أن ساق الله الأدلة والبراهين، وبيّن مصارع الغابرين، وعرض مشاهد القيامة، يأتي هذا البيان ليكون كالميثاق الختامي. إنه يخبرنا عن مصدر هذا الكلام، وعن صفته، وعن الغاية منه، ثم يضع الإنسان أمام مسؤوليته الكاملة عن اختياره. إنها آية تحرر العقول، وتقيم الحجة، وتؤسس لمنهج دعوي قائم على الإقناع لا الإكراه.

#أبرز محاور الآية في سطور

· مصدر الكتاب وقدسيته: إعلان إلهي قاطع بأن القرآن منزل من عند الله، وليس من صنع بشر.
· شمولية الرسالة وعالميتها: "للناس" جميعًا، لا لجنس دون آخر، ولا لزمن دون زمن.
· الحق كأساس للتنزيل والمنهج: القرآن نزل ملتبسًا بالحق، متضمنًا له، وداعيًا إليه.
· حرية الاختيار والمسؤولية الفردية: نتائج الهداية والضلال تعود على الإنسان نفسه، لا على غيره.
· تحديد مهمة الرسول ﷺ: البلاغ المبين، وليس إكراه الناس أو محاسبتهم على اختياراتهم.
· أسس الدعوة الصحيحة: احترام العقل والإرادة، والتفريق بين الهداية والجبر.
الأمر الأول: جلال المصدر وقداسة المنزل) إنا أنزلنا عليك الكتاب(

1دلالة استخدام ضمير الجمع "إنا":
يبدأ الله سبحانه وتعالى كلامه بضمير العظمة {إنّا} بدلا ً من "إني". هذا ليس جمعًا عدديًا، حاشاه سبحانه، بل هو ضمير الجلال والكبرياء. في هذا الأسلوب إشارة بليغة إلى أن هذا القرآن لم ينزل من ذات واحدة بسيطة، بل هو صادر عن ذات علية موصوفة بجميع صفات الكمال والجلال. إنه بمثابة ا لإعلان عن تضافر الصفات الإلهية العظيمة لإخراج هذا الكتاب للنور. فوراء هذا الضمير تقف صفات:

· العلم المطلق: الذي أحاط بكل شيء خلقًا وأمرًا.
· الحكمة البالغة: التي وضعت كل آية في موضعها اللائق.
· القهر والقدرة: التي تحمي هذا الكتاب من التحريف والتبديل.

· الغفران والرحمة: اللتين تجلتا في آيات الوعد والرجاء.
· الحق والعدل: اللذين قامت عليهما أحكامه وقصصه.

فعندما تسمع {إِنَّا أَنزَلْنَا}، فاعلم أنك أمام كلام صادر عن الإله الحق الجامع لهذه الصفات العلا، وليس مجرد كلام عادي.

2دلالة فعل "أنزلنا":
استخدم القرآن فعل "الإنزال" و"التنزيل" للدلالة على نزول القرآن من السماء إلى الأرض. هذا اللفظ يقطع الطريق على كل من يزعم أن القرآن من تأليف النبي ﷺ. فالإنزال يعني الحركة من علو إلى سفل، وهو يشير إلى:

· علو المصدر وسموه: فهو من لدن حكيم حميد.
· الرعاية الإلهية أثناء النزول: لم ينزل دفعة واحدة فحسب، بل كان منجمًا لحكمة، وكان محفوظًا بحفظ الله له.
· الوحي المباشر: إنه ليس إلهامًا غامضًا، بل وحي يوحى به إلى النبي ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام.

3لمن أنزل؟ "للناس":
هذه الكلمة الصغيرة {لِلنَّاسِ} تحمل بعدًا عالميًا وإنسانيًا شاملا ً. فالقرآن ليس كتابًا عنصريًا لقبيلة قريش أو للعرب وحدهم. إنه للناس كافة: أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، شرقهم وغربهم، في كل زمان ومكان. إنه رسالة السماء الأخيرة إلى الأرض، موجهة إلى كل إنسان، لأنه يخاطب الفطرة الإنسانية المشتركة.

4ما معنى "بالحق"؟
هذا هو المحور الأعظم. قوله {بِالْحَقِّ} له عدة معانٍ متكاملة:

· ملتبسًا بالحق: فكل ما فيه من أخبار عن الله والملائكة واليوم الآخر هو حق لا مرية فيه. وكل ما فيه من أحكام وتشريعات هو الحق الذي ينبغي أن تبنى عليه الحياة.
· متضمنًا للحق: فجوهر القرآن وفحواه هو الحق. كل آياته تدور حول تعريف الناس بربهم الحق، وعبادته وحده بالحق، والسير على صراطه المستقيم.
· مشفوعًا بالحق: أي أن الله أنزله بالحق، وبالحجة البالغة، وبالبراهين القاطعة التي تثبت أنه من عنده. فلم ينزل عبثًا ولا باطلا ً.

والمفاهيم المستنبطة من كون القرآن نزل بالحق عظيمة:

· منهج حياة متكامل: ليس كتابًا للتعبد فقط، بل هو دستور للحياة، يحدد للإنسان علاقته بربه، وبنفسه، وبالناس، وبالكون كله.
· المعيار الأوحد للحق: لا يوجد حق مطلق إلا ما جاء به القرآن. وكل ما عداه من آراء البشر وقوانينهم هو نسبي، يصيب ويخطئ.
· تحرير الإنسان من عبودية الأهواء والأوهام: عندما يتبع الإنسان الحق القرآني، يتحرر من أن يكون عبدًا لهواه، أو عبدًا لعادات بالية، أو عبدًا لأنظمة بشرية جائرة.

الأمر الثاني: حرية الإرادة والمسؤولية الفردية) فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها(

1قاعدة التكليف والجزاء:
هذا هو القانون الإلهي الثابت. {فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ} : أي فائدة اهتدائه تعود عليه هو وحده. سينجو من عذاب الله، وسيفوز برضوانه وجنته، وسيعيش في الدنيا حياة طيبة مطمئنة. الله غني عن عبادتنا وهدايتنا، فهدايتنا لا تزيد في ملكه شيئًا. وكذلك الشق الثاني: {وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}، أي أن وبال ضلاله عائد عليه وحده. لن يضر الله شيئًا، وإنما سيجني هو مرارة الخسران والعذاب.

2دلالة التعبير بـ "فلنفسه" و"عليها":
في قوله {فَلِنَفْسِهِ} إشارة إلى أن الهداية مكسب وربح خالص للإنسان. وفي قوله {عَلَيْهَا} إشارة إلى أن الضلال خسارة ووبال ثقيل يتحمله الإنسان وحده. وكما قال بعض السلف: "ما للعبد من ثواب الهداية إلا نفسه، وما عليه من عقاب الضلالة إلا نفسه".

3ارتباط هذا المبدأ بطبيعة الكتاب:

هذا المبدأ يوضح لنا لماذا أنزل الله الكتاب بالحق ولم يجبر الناس على الإيمان به. إن إجبار الناس على الإيمان يتناقض مع حكمة الله في خلق الإنسان مختارًا مريدًا. فالحياة الدنيا هي دار ابتلاء واختيار، ومنح الله الإنسان العقل والإرادة ليميز بين الحق والباطل، ثم يختار طريقه بإرادته الحرة. هذا هو أساس التكليف والمسؤولية.

الأمر الثالث: حدود مهمة الرسول ﷺ) وما أنت عليهم بوكيل(

1نفي الوكالة والجبر:
{وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} : الوكيل هو المسؤول عن تصرفات غيره، أو القيم على إجبارهم على أمر ما. الله ينفي عن نبيه ﷺ هذه الصفة. مهمته ليست أن يجعل الناس مؤمنين قسرًا، ولا أن يحاسبهم على ضلالهم. كما قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: 21-22].

2المهمة الحقيقية للرسول ﷺ:
المهمة التي كلفه الله بها هي البلاغ المبين والإنذار. أن يقرأ عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة. فإذا بلغ الرسالة وأقام الحجة، فقد أدى ما عليه، وأما حسابهم وهدايتهم فإلى الله وحده.

3الفرق بين الهداية والجبر:
هذه الآية تفرق بشكل دقيق بين نوعين من الهداية:

· هداية البيان والدلالة: وهي مهمة الرسل والدعاة. أن يوضحوا للناس طريق الحق، وأن يحذروهم من طريق الباطل. وهذه الهداية قد تقع وقد لا تقع.
· هداية التوفيق والإلهام: وهي خاصة بالله وحده. أن يشرح الله صدر العبد للإيمان، وأن يجعله يختار الحق بقلبه وقالبه. وهذه الهداية لا يملكها نبي ولا ملك مقرب.

فالرسول ﷺ والدعاة من بعده لا يملكون إلا الأولى، وأما الثانية فإلى الله.
الأمر الرابع: المفاهيم والدروس المستفادة في حياتنا العملية والدعوية والتربوية

هنا يتجلى الجانب التطبيقي العميق لهذه الآية،كما يتضح من الاتى
أولا ً: المفاهيم التربوية والنفسية في بناء الشخصية المسلمة

· تربية الإنسان على تحمل المسؤولية الفردية:
من أعظم الأمراض التي تعاني منها مجتمعاتنا هو إلقاء المسؤولية على الآخرين. يخطئ أحدهم ثم يقول: "المجتمع هو السبب"، "الظروف أجبرتني"، "فلان أضلني". هذه الآية تقتلع هذا الوهم من جذوره. إنها تغرس في نفس المسلم منذ نعومة أظفاره أنك أنت المسؤول الأول والأخير عن اختياراتك. لن ينفعك يوم القيامة نسبك ولا قبيلتك ولا أستاذك، بل سيسألك الله: ماذا عملت؟ وماذا اخترت؟. هذه التربية تنتج إنسانًا واعيًا، يتحمل عواقب أفعاله بشجاعة، ويسعى لإصلاح نفسه قبل أن يطالب بإصلا ح غيره.
· بناء الثقة بالنفس المستمدة من الحرية الممنوحة من الله:
عندما يفهم الشاب المسلم أن الله منحه حرية الاختيار وكرمه بالعقل، يشعر بقيمته الحقيقية. هو ليس دمية تحركها الخيوط، بل هو كائن مكرم مخير. هذا الفهم يبني في النفس عزة إيمانية وثقة ع الية. إنه يدرك أن التزامه بالدين هو اختيار حر واع، وليس تقليدًا أعمى أو خوفًا من سوط الجلاد. هذا الاختيار الحر هو الذي يجعل الإيمان راسخًا ثابتًا، لا تزلزله الشبهات والشهوات.
· تحرير الداعية من عقدة "النتائج":
كم من داعية يتحطم نفسيًا عندما يرى أن الناس لا تستجيب لدعوته! يظن أن به نقصًا، أو أن أسلوبه فاشل. هذه الآية تمنح الداعية راحة نفسية هائلة. إنها تذكره بأن مهمته هي البلاغ فحسب، وأما هداية القلوب فهي بيد الله وحده. هذا الفهم يحرره من عقدة الشعور بالذنب، ومن الإحباط و اليأس. هو يبذل الجهد، ويتقن الوسيلة، ثم يترك النتائج لمالك القلوب. هذا هو طريق السكينة والثبات في طريق الدعوة الطويل.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (أسس الدعوة الصحيحة)

· احترام العقل والإرادة الإنسانية كأساس للخطاب الإسلامي:
هذه الآية هي دستور الدعوة إلى الله. إنها تؤكد أن الإسلام دين لا يفرض نفسه بالقوة، بل يقنع العقول بالحجة والبرهان. {بِالحَقِّ} تعني أن القرآن يخاطب العقل بالدليل، ويوقظ الفطرة بالحكمة. فالإ كراه في الدين ليس فقط محرمًا، بل هو مناقض لجوهر الإسلام. لأنه لو أراد الله أن يجبر الناس

على الإيمان لفعل، ولكنه ترك لهم حرية الاختيار. هذه الحقيقة الفكرية هي التي جعلت الحضارة الإسلامية تتسع للجميع، وتعيش فيها الأقليات غير المسلمة بسلام وأمان.

· التفريق بين المبدأ والموقف الشخصي:

في العمل الدعوي، قد نرفض فعل المنكر وننكره، وهذا واجب علينا. ولكن الآية تعلمنا أن هذا الرفض لا يعني أبدًا إكراه الفاعل على الترك، ولا كراهيته كإنسان. فرسول الله ﷺ كان أحرص الناس على هداية قومه، وكان يتألم لضلالهم، ومع ذلك لم يكرههم على الدخول في الإسلام. هذا الميزان الدقيق يحمي الداعية من الغلظة والفظاظة التي تنفّر الناس من الدين. إنه يجعله رفيقًا رحيمًا، يبغض المعصية، لكنه يرحم العاصي ويرجو له الهداية.

ثالثًا: إعداد الدعاة وبناء الخطاب المسلم المعاصر

· كيف يكون الخطاب المسلم؟

يستفيد الداعية من هذه الآية في صياغة خطابه. خطابه ينبغي أن يكون:

1. خطابًا مبنيًا على "الحق": أي على الأدلة القاطعة من الكتاب والسنة، وعلى الحجج العقلية المنطقية التي تقنع المخالف.

2. خطابًا محترمًا لإرادة المخاطب: لا ينبغي أن يشعر المخاطب أنه يُدفع دفعًا، بل أن يُعرض عليه الخيار بوضوح، ويُترك له حرية الاختيار بعد أن تقام عليه الحجة.

3. خطابًا خاليًا من الإكراه والتهديد الشخصي: مهمتك أن تنذر، لا أن تهدد بالعقوبة الدنيوية. العقاب على الضلال هو من شأن الله في الآخرة.

4. خطابًا صبورًا متزنًا: يعلم الداعية أن الهداية بيد الله، فلا يستعجل النتائج، ولا ييأس من رحمة الله. يعمل بهدوء وثبات، مدركًا أن مهمته محددة.

· إعداد الدعاة على ضوء "وما أنت عليهم بوكيل":

هذه العبارة يجب أن تكون شعارًا لكل من يشتغل في حقل الدعوة والتعليم. إنها تعني:

· لا تجعل همك الأول هو "كم عدد الذين استجابوا لي؟" بل اجعل همك الأول: "هل بلغت الأمانة كما ينبغي؟".

· لا تحمل نفسك فوق طاقتها النفسية. ادعُ إلى الله، وأحسن العرض، ثم كل إلى الله تعالى.

· لا تتعامل مع الناس على أنك "وكيل" عليهم، تراقبهم وتحاسبهم. بل كن لهم ناصحًا أمينًا، ومحبًا مشفقًا.

رابعًا: تطبيقات عملية في الحياة اليومية

لننزل هذه المعاني إلى واقعنا المعاش.

· في العلاقة مع الأبناء المراهقين: عندما تربي ابنك، وتأمره بالصلاة، وتنهاه عن أصدقاء السوء، وتجتهد معه بكل الوسائل التربوية، ثم لا ترى استجابة سريعة، قد يصيبك الإحباط والغضب. هنا تأتي هذه الآية لتبرد صدرك. تذكر أنك لست "وكيلا ً" عليه، أي لست مكلفًا بجبره على الهداية. مهمتك أن تقوم بالبلاغ والإرشاد والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة. واصل دعاءك له، وواصل نصحك له برفق، ولكن لا تحمّل نفسك ما لا تطيقه من الهم والغم، فهدايته بيد الله. هذا التوازن سيجعلك أكثر حكمة وصبرًا في تربية أبنائك، وسيحافظ على علاقتك بهم من التصدع بسبب الصراع على السلطة.

· في مواجهة الانحرافات المجتمعية: عندما ترى منكرًا في مجتمعك (مثل انتشار المخدرات، أو العلاقات المحرمة، أو الغش التجاري)، قد يدفعك الغضب إلى تمني معاقبة كل من يفعل ذلك فورًا. ولكن منهج هذه الآية يعلمنا أن دورنا هو الإنكار القلبي واللساني والعملي (بحسب الاستطاعة)، ولكننا لسنا مخولين بالعقاب أو الحساب. هذا الفهم يحول طاقة الغضب عندك إلى طاقة إيجابية في الإصلاح و التوعية والتعليم، بدل أن تتحول إلى عنف أو إحباط. أنت مسؤول عن بلاغ الحق، ولست مسؤولا ً عن محاسبة المذنبين.

· في الجدال والنقاشات الفكرية والدينية: عندما تجادل شخصًا مخالفًا في الرأي، وتقيم عليه الحجة، وتظهر له الحق، ثم يصر على موقفه، لا تجعل ذلك سببًا لخصومة شخصية أو قطيعة. تذكر قوله: {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ}. لقد أديت ما عليك، وأقمت الحجة، ووقع الاختيار عليه. حافظ على الود واحترام الشخص، وادعُ له بالهداية، ولا تجعل إصراره على الباطل بابًا للشيطان ليفسد علاقتك به. إنها دعوة إلى الترفع الأخلاقي في ميدان الحوار الفكري.

الخاتمة: بين عظمة الكتاب وحرية الإنسان

بهذا نكون قد أتممنا الرحلة في رحاب هذه الآية الجامعة. لقد رأينا كيف أنها تجمع بين تعريف الإنسان بعظمة المصدر الإلهي للقرآن الكريم {إِنَّا أَنزَلْنَا}، وبين بيان شموليته {لِلنَّاسِ} وكونه مهيمنًا بالحق {بِالحَقِّ}، ثم تضع الإنسان أمام حقيقة وجوده: إنك حر، واختيارك هو الذي يحدد مصيرك {فَمَنِ اهْتَدَىٰ

فَلِنَفْسِهِ}. وفي الختام، تطمئن قلب النبي ﷺ وكل داعية من بعده: لا تحمل همًا لا تطيقه، فما أنت إلا مبلغ، وربك هو الوكيل الحقيقي.

إنها آية تصنع الإنسان الحر الواعي المسؤول. تصنع الداعية الصبور الحكيم الذي يعرف حدوده. وتؤسس لمجتمع يحترم إرادة أفراده، ويقوم على الإقناع لا الإكراه. إنها خلاصة المنهج القرآني في بناء الذات وبناء الحضارة.

المبحث الثاني

لقد أبحرنا معًا في رحاب الآيات السابقة، ورأينا كيف أن الله جل جلاله يختم توجيهاته لنبيه ﷺ بتحديد مهمته بالبلاغ، ونفي أن يكون وكيلا ً على الناس يجبرهم على الإيمان. والآن، تأتي هذه الآ ية لتأخذنا في رحلة إلى أعماق النفس الإنسانية، لتكشف لنا عن حقيقة غائبة عن كثير من الأذهان، حقيقة أن الأمر كله بيد الله، في الحياة وفي الممات، في اليقظة وفي المنام. إنها آية تغرس في القلب الطمأنينة، وفي العقل اليقين، وتعلمنا كيف نقيم الحجة على الناس بأقرب الأمثلة إلى واقعهم.

يقول الله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: 42].

تأمل معي هذا النص البديع. إنه ينقلك نقلة نوعية من الحديث عن مهمة الرسول وحرية الإنسان في الاختيار، إلى الحديث عن حقيقة الوجود الإنساني نفسه. وكأن الله يقول لنبيه: لا تحزن على من أعرض عن دعوتك، فأنت لست وكيلا ً عليهم، بل تذكر أن أمرهم وأمر كل نفس حي في قبضتي وتحت سلطاني المطلق. إنها آية تزرع السكينة في قلب الداعية، وتهز وجدان المدعو، وتدعو كل عاقل إلى التفكر.

أبرز محاور الآية في سطور

· إثبات قدرة الله المطلقة على التصرف في الأنفس: هو وحده الذي يقبض الأرواح، وهو وحده الذي يمسكها أو يرسلها.
· الربط العجيب بين النوم والموت: تشبيه النوم بالموتة الصغرى، والموت بالنومة الكبرى، لتقريب الحقيقة الغيبية إلى الأذهان.
· تقديم مثال واقعي يومي لا يخلو منه حياة إنسان: النوم واليقظة دليلان قاطعان على البعث بعد الموت.
· توجيه العقول إلى التفكر والتدبر: فالآيات الكونية والنفسية لا ينتفع بها إلا أصحاب العقول المتأملة.
· تعليم الأسلوب الأمثل للدعوة: استخدام الأمثلة الواقعية المحسوسة لتقريب الحقائق الغيبية المعقولة.
الأمر الأول: إعلان الملكية والتصرف المطلق) الله يتوفى الأنفس(

1لماذا بدأت الآية باسم الجلالة "الله"؟
الابتداء باسم الجلالة {اللَّهُ} في جملة فعلية {يَتَوَفَّى} يفيد الحصر والتوكيد. فالمعنى: الله وحده هو الذي يتوفى الأنفس، لا شريك له في ذلك. إنه إعلان واضح أن ملك الموت وجنوده هم مجرد أدوات منفذة لأمره، وأن الأمر كله لله وحده. في هذا السياق، بعد أن بين الله أن مهمة الرسول ليست جبر الناس على الإيمان، يأتي هذا الاسم ليؤكد أن أمر هؤلاء الناس ومصيرهم بيد الله، لا بيد أحد من خلقه. فكأنه يقول لنبيه: لا تهتم بأمرهم، فأنا المتصرف في أنفسهم، وهم في قبضتي أينما كانوا.

2/ معنى "يتوفى الأنفس":
التوفي في اللغة هو القبض والاستيفاء. والأنفس هي الأرواح التي تحيا بها الأجساد. فالله سبحانه وتعالى يتوفى الأنفس، أي يقبضها ويستوفيها كاملة عند موتها. وهذا يحدث في حالتين كما تبينه الآ ية:

· الحالة الأولى:} حِينَ مَوْتِهَا .{هذا هو الموت الحقيقي، الذي تنقطع فيه علاقة الروح بالجسد انقطاعًا تامًا، فلا تعود إليه إلا يوم البعث .هذه هي الوفاة الكبرى.
· الحالة الثانية:} وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا .{أي أنه يتوفى الأنفس التي لم يحن أجل موتها بعد، وذلك في حال منامها .ففي النوم، يقبض الله الروح قبضًا جزئيًا، فتغادر الجسد نوعًا من المفارقة، فيفقد وعيه وإدراكه .هذه هي الوفاة الصغرى.

3دلالة الربط بين النوم والموت) الوفاة الصغرى والكبرى(:
هذا الربط هو من أروع ما في الآية. إنه يضرب مثلا ً واقعيًا يشهده كل إنسان كل يوم وليلة. أنت أيها الإنسان تنام وتستيقظ. هذا الانتقال اليومي الذي تراه وتعيشه هو نموذج مصغر ومتكرر للموت و البعث. فالنوم موتة صغرى، واليقظة بعده بعث صغير. فإذا كنت تؤمن بهذا الذي تراه كل يوم، فلماذا

تستبعد الموتة الكبرى والبعث الأكبر؟ إنه استدلال بالمحسوس على المعقول، وهو أبلغ أساليب الإقناع. وكما قال بعض السلف: "النوم أخو الموت".
الأمر الثاني: الإمساك والإرسال) في إشارة إلى ملك الله وحكمته(

1فيمسك التي قضى عليها الموت:
}فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ .{هذه هي النفس التي حان أجلها .فعندما ينام الإنسان، قد يقبض الله روحه قبضًا تامًا، فلا يردها إلى جسده، بل يمسكها عنده .وهذا يحدث لكثير من الناس: ينامون ف لا يقومون .إنه تذكير رهيب بأن النوم ليس مجرد راحة، بل هو تذكرة سفر محتملة إلى الدار الآخرة.

2ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى:
}وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى .{أما النفس الأخرى، وهي التي لم يحن أجلها بعد، فيرسلها الله، أي يردها إلى جسدها، لتستيقظ من نومها، وتبقى حية حتى تستوفي أجلها الذي كتبه الله لها في الأزل، وهو} أَجَلٍ مُسَمًّى{، أي وقت محدد معلوم عند الله، لا يتقدم ولا يتأخر.

3ما وجه الدلالة من هذا المشهد؟
هذا المشهد اليومي المتكرر يحمل عدة دلالات عظيمة:

· دليل على البعث: فكما أن الله يرسل النفس إلى الجسد في اليقظة بعد النوم، فكذلك سيعيد الأ رواح إلى الأجساد يوم القيامة بعد الموت .إنه دليل فطري لا يحتاج إلى معلم.
· دليل على قدرة الله المطلقة: فالله يتصرف في الأنفس كل ليلة، يقبض هذا ويرسل ذاك، دون أن يشعر أحد، ودون أن يستطيع أحد الاعتراض .فسبحان المتصرف في الملكوت.
· تذكير بقرب الموت: فكل نومة هي تذكرة بأن الموت قد يأتي فجأة، في أي لحظة .وهذا يدفع المؤمن إلى الاستعداد الدائم للقاء الله.
الأمر الثالث: أهمية ضرب الأمثال في الدعوة) تعليم إلهي للدعاة(

1لماذا يستخدم الله هذا المثال الواقعي للنوم والموت؟
هذه الآية تعلمنا درسًا بليغًا في أسلوب الدعوة والخطاب. الله سبحانه وتعالى، وهو الغني عن خلقه، يخاطب الناس بما يعرفون، وبما يلمسونه في حياتهم اليومية. فالنوم واليقظة ظاهرتان كونيتان لا يخلو منهما حياة إنسان، غني أو فقير، عالم أو جاهل. عندما يربط الله بين هاتين الظاهرتين المحسوستين وبين حقيقة غيبية هي البعث بعد الموت، فهو يبني جسرًا عقليًا ونفسيًا بين عالم الشهادة وعالم الغيب. هذا الجسر هو ما يجعل الإيمان بالغيب مقبولا ً لدى العقل السليم.

2كيف نبني في ذهن المخاطب صورة كاملة عن الحقائق الإيمانية؟
المفاهيم المجردة يصعب على كثير من الناس استيعابها. فأنت عندما تقول لشخص بسيط: "إن الله قادر على بعث الأموات"، قد يقول لك: "كيف يعيد الحياة لعظام صارت رميمًا؟". هنا يأتي دور المثال الواقعي الذي يعلمنا إياه القرآن. إنه يجيب على هذا السؤال بطريقة غير مباشرة ولكنها قاطعة. كأنه يقول له: ألست تنام كل ليلة وتفقد وعيك وإدراكك، ثم تعود إليك الحياة في الصباح؟ أليست هذه موتة وبعثًا مصغرين؟ فإذا كنت تؤمن بهذا الذي تراه كل يوم، فلماذا تستبعد البعث الأكبر؟ هذا الأ سلوب القرآني يجعل العقيدة محسوسة وقريبة من الفهم، وليس مجرد فلسفات معقدة.

3أهمية المفاهيم في بناء القناعات:
عندما تقدم للعقل البشري مفهومًا مجردًا مثل "البعث"، فإنه يظل معلقًا في فراغ حتى تربطه بشيء من واقعه. فإذا ربطته له بمفهوم محسوس مثل "النوم واليقظة"، فإنك تبني في ذهنه صورة ذهنية كاملة ومتكاملة. هذه الصورة هي التي تولد القناعة، والقناعة هي التي تولد الإيمان والتصديق. ولهذا كان النبي ﷺ يستخدم الأمثلة الواقعية في تعليم أصحابه، فكان يقول: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد..."، "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت". إن ضرب الأمثال هو مفتاح العقول والقلوب.

الأمر الرابع: من هم المنتفعون بالآيات؟) إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون(

1حصر الانتفاع بالآيات في "قوم يتفكرون":
تختم الآية بقاعدة عظيمة: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. أي أن هذه الدلائل والبراهين الكونية و النفسية، على عظمتها ووضوحها، لا ينتفع بها كل أحد. إنما ينتفع بها قوم خصهم الله بصفة "التفكر". فمن هم هؤلاء القوم؟

2ما هو التفكر المطلوب؟

التفكر ليس مجرد مرور الخاطرة على البال، بل هو عملية عقلية وقلبية منظمة. إنه:

· إعمال العقل في النظر إلى الآيات الكونية والنفسية، والتأمل في دلالاتها.
· انتقال من النظر إلى المخلوق إلى معرفة الخالق .فمن رأى تعاقب النوم واليقظة، تفكر فيمن يملك هذا التدبير، فعلم أنه الله الواحد القهار.
· تحويل المعرفة العقلية إلى يقين قلبي .فالمتفكر لا يكتفي بمعرفة أن الله قادر على البعث، بل ينتقل إلى الإيمان الجازم بأنه سيبعث، فيستعد لذلك اليوم.

3كيف يرفع الإسلام من شأن العقل والتفكير؟
هذه الآية، وغيرها كثير في القرآن، تدعو إلى التفكر والتدبر والتعقل والنظر. وهذا يرد على كل من يزعم أن الإسلام دين جمود وتقليد أعمى. الإسلام دين يخاطب العقل، ويدعوه إلى الاستقلال في النظر، ويرفع من شأنه، ويجعله مناط التكليف. فالمجنون مرفوع عنه القلم، لأنه فقد عقله. وغير المكلف لا يحاسب، لأن عقله لم يكتمل بعد. ولكن الإسلام لا يترك العقل وحده بلا هداية، بل يقدم له النور الإلهي (الوحي) ليهتدي به في ظلمات الحيرة. إنه يزاوج بين العقل السليم والوحي القويم، وهذا هو سر الكمال في التصور الإسلامي.

4صفات "قوم يتفكرون" الذين ينتفعون بالآيات:
هؤلاء القوم هم الذين:

· قذف الله في قلوبهم البصيرة: ذلك النور الذي يرون به حقيقة الأشياء، فيفرقون بين الحق والباطل.
· لا يمرون على الآيات مرور الكرام: بل يقفون عندها متأملين، متسائلين: ما دلالة هذا؟ وما المغزى منه؟
· يصلون من التفكر إلى العمل: فإذا تفكروا في النوم والموت، استعدوا للقاء الله بالأعمال الصالحة.
الأمر الخامس: الرسائل التربوية والنفسية والفكرية المستفادة من الآية

أولا ً: الرسائل النفسية والوجدانية

· غرس الطمأنينة في قلب الداعية والمؤمن:
بعد أن علمتنا الآية السابقة أن مهمة الرسول هي البلاغ وليس الإكراه، تأتي هذه الآية لتغرس في القلب طمأنينة أعمق .إنها تقول للمؤمن: لا تقلق على أمر هؤلاء المعرضين، ولا تخف من مكرهم، فهم في قبضة الله في كل أحوالهم .في نومهم هم عاجزون، وفي يقظتهم هم تحت سلطانه .هذا الشعور بالسيطرة الإلهية المطلقة يحرر النفس من القلق والخوف من المستقبل أو من كيد الأعداء .فالله هو المتصرف في الأنفس، وهو الذي يمسك ويرسل.
· تذكير الإنسان بضعفه وحاجته الدائمة إلى الله:
عندما يتفكر الإنسان في حالة النوم، يدرك عجزه التام .فهو يدخل في حالة أشبه بالموت، لا يملك فيها لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا يدري أيرسل الله نفسه إليه أم يمسكها .هذا الشعور بالضعف يقطع كل كبرياء وغرور، ويرد الإنسان إلى فطرته: أنه عبد فقير إلى ربه في كل لحظة .هذه المشاعر هي أساس العبودية والتذلل لله.

ثانيًا: الرسائل الفكرية والعقلية

· تأسيس منهج الاستدلال بالمحسوس على الغائب:
الآية تعلمنا أن أقوى البراهين هي التي تنطلق من الواقع المعاش .فبدلا ً من الدخول في جدالات فلسفية معقدة حول إمكانية البعث، يأمرنا الله أن نوجه أنظار الناس إلى ما يرونه بأعينهم كل يوم: النوم واليقظة .هذا المنهج الفكري يجعل العقيدة في متناول كل إنسان، وليس فقط للفلاسفة و المتكلمين.
· دعوة العقل إلى التأمل في آيات الله في الأنفس:
كثير من الناس يبحثون عن آيات الله في الآفاق) السماء، النجوم، الجبال(، وينسون أعظم آية في أنفسهم .هذه الآية تلفت انتباهنا إلى أن في خلق أنفسنا وتقلب أحوالنا من نوم ويقظة، وحياة وموت، لآيات باهرات تدل على قدرة الله وحكمته .قال تعالى في موضع آخر:} وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{]الذاريات:.[21

ثالثًا: الرسائل التربوية والدعوية

· تعليم الداعية فن استخدام الأمثلة الواقعية:
هذه الآية هي نموذج عملي لكيفية مخاطبة الناس .على الداعية والمعلم والمربي أن يتعلم هذا الأ

أسلوب القرآني، فيربط المعاني الغيبية المجردة بأمثلة من حياة الناس اليومية .فعندما تريد أن تشرح للطفل معنى الموت والبعث، قل له: "هل نمت يومًا واستيقظت؟ الموت مثل النوم، والبعث مثل الا ستيقاظ" .هذا الأسلوب يقرّب المعلومة، ويثبتها في الذهن، ويجعلها سهلة القبول.
· التركيز على تنمية ملكة التفكر عند المتعلمين:
التربية الإسلامية ليست تلقينًا وحفظًا فحسب، بل هي تنمية لملكات العقل .هذه الآية تدعونا إلى تربية جيل يتفكر في خلق الله، ويتأمل في آياته، ولا يمر على الظواهر الكونية مرورًا عابرًا .فعندما نعلم أبناءنا رؤية آية النوم واليقظة، ونربطها لهم بالبعث، نكون قد ربيناهم على التفكر الإيماني الذي يجعل إيمانهم حيًا متجددًا، وليس مجرد تقليد موروث.
الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· في الخطاب الدعوي مع غير المسلمين:
عندما تدعو غير المسلم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، لا تبدأ مباشرة بالحديث عن عذاب القبر ونعيمه، أو بتفاصيل الجنة والنار .استخدم منهج القرآن .قل له: "أنت تنام وتستيقظ كل يوم .هذا الا نتقال من حالة اللاوعي إلى الوعي، هو دليل ملموس على أن هناك قوة عليا تتصرف فيك وتعيد إليك حياتك كل صباح .فلماذا تستبعد أن تعيد إليك هذه القوة حياتك بعد الموت للحساب؟" .هذا الأ سلوب يفتح العقل للتفكير بدل أن يغلقه بالجدال.
· في التربية الأسرية مع الأبناء:
قبل أن ينام طفلك، بدل أن تقص عليه حكاية خرافية، ذكره بهذه الآية .قل له: "يا بني، أنت الآن ستذهب إلى الوفاة الصغرى .الله سيقبض روحك، فإن شاء أمسكها، وإن شاء أرسلها إلينا في الصباح . فهل أنت مستعد للقاء الله إن لم ترجع روحك؟" .هذا الأسلوب يربي في الطفل منذ صغره الإحساس بمراقبة الله، والاستعداد للموت، دون أن يسبب له رعبًا، بل يمنحه سكينة وطمأنينة بأنه في حفظ الله.
· في علاج القلق والأرق:
كثير من الناس يعانون من الأرق والقلق عند النوم .تخيل أنك تستحضر هذه الآية وأنت تضع رأسك على الوسادة .تقول: "اللهم إني أسلمت نفسي إليك، أنت تتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها .أنا الآن بين يديك، فإن أمسكت نفسي فارحمني، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين" .هذا الاستحضار يملأ القلب طمأنينة عجيبة، ويطرد وساوس الشيطان، ويجعل النوم عبادة وقربى إلى الله.
· في بناء الشخصية الدعوية المتزنة:
الداعية الذي يعيش هذه الآية يفهم أن الهداية ليست بيده، بل هي بيد من يتوفى الأنفس .هذا الفهم يجعله متواضعًا، لا يغتر بمن استجاب لدعوته، ولا ييأس ممن أعرض .هو يبذل الجهد، ويحسن الأسلوب، ويستخدم الأمثلة المقربة، ثم يفوض الأمر إلى مالك القلوب والنواصي .هذا التوازن بين بذل الجهد والتفويض لله هو سر نجاح الداعية وسكينته النفسية.
#الخاتمة: دعوة إلى التفكر في رحلة النوم واليقظة

بهذا نكون قد غصنا في أعماق الآية (42) من سورة الزمر، واستخرجنا دررها الكامنة. لقد رأينا كيف أنها تنتقل بنا من قضية حرية الاختيار ومسؤولية البلاغ، إلى حقيقة أعمق وأشمل، وهي أن جميع الخلائق، أحياءً وأمواتًا، نيامًا وأيقاظًا، هم في قبضة الله وتحت تصرفه المطلق. ورأينا كيف تعلمنا هذه الآية أن ننظر إلى ظاهرة النوم اليومية بعين المتأمل المتفكر، لنستدل بها على البعث بعد الموت.

إنها آية تحيي القلوب، وتوقظ العقول، وتجعل من كل ليلة فرصة للتذكرة والاستعداد. فإذا أويت إلى فراشك الليلة، فتذكر أنك مقبل على موتة صغرى. لا تدري أتشرق شمس الغد عليك أم لا. فاجعل نومك عبادة، واجعل يقظتك عملا ً صالحًا، وكن من {قَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، لتفوز بسعادة الدنيا والآخرة.
المبحث الثالث
يقول الله سبحانه وتعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۖ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)} [الزمر: 43-44].

تأمل معي هذا المقطع القرآني الذي يزلزل عقيدة الشرك من جذورها. بعد أن بين الله في الآيات السابقة أنه هو المتصرف في الأنفس، والمحيي والمميت، والكافي لعبده، يأتي هنا ليكشف عن سخافة المنطق الوثني الذي يتخذ شفعاء من دون الله. إنه حوار عقلي محكم، يبدأ باستنكار، ويمر بتفنيد، وينتهي بتقرير الحقيقة المطلقة.
أبرز محاور الآيتين في سطور

· استنكار اتخاذ الشفعاء من دون الله: "أم" للإضراب والاستفهام الإنكاري، لاستقباح فعلهم وتعجيب

السامع منه.
· كشف التناقض العقلي للمشركين: كيف يتخذون شفعاء لا يملكون شيئًا ولا يعقلون؟!
· حصر الشفاعة كلها لله وحده: رد قاطع على كل من يظن أن أحدًا يشفع عنده إلا بإذنه.
· ربط الشفاعة بملك الله المطلق: فمن يملك السماوات والأرض هو وحده المالك للشفاعة.
· التذكير بالرجوع إلى الله: فإليه المصير، وهناك تظهر حقيقة من يملك الشفاعة ومن لا يملكها.

#الأمر الأول: الاستفهام الاستنكاري وفضح سخافة العقول) أم اتخذوا من دون الله شفعاء(

1دلالة "أم" في بداية الآية:
"أم" هنا هي "أم" المنقطعة، وهي تفيد الإضراب والانتقال من حديث إلى حديث آخر، مع تضمنها معنى الاستفهام الاستنكاري. إنها بمثابة قول: "بل أتخذوا من دون الله شفعاء؟!". وفي هذا الاستفهام معنى التعجب والإنكار والتوبيخ. وكأن الله يقول: بعد كل هذه الأدلة على قدرتي وتفردي بالخلق و الملك والتدبير، وبعد أن تبين لكم أني أنا المتصرف في الأنفس، أتتركون عبادتي وتتخذون من دوني شفعاء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا؟! ما هذا العقل؟! ما هذا المنطق الأعوج؟!

2تحليل كلمة "اتخذوا":
"اتخذوا" فعل يدل على التكلف والاصطناع. فهم لم يجدوا شفعاء حقيقيين، بل هم الذين نحتوا بأيديهم أصنامًا، أو نصّبوا بأهوائهم بشرًا أو ملائكة، وجعلوهم شفعاء. إنه تذكير بأن هذه الشفعاء من صنع أيديهم وأوهامهم، وليست من جعل الله.

3ما هو معنى "الشفعاء" الذين اتخذوهم؟
المشركون كانوا يعبدون الأصنام والملائكة والجن، ويزعمون أنهم يفعلون ذلك ليقربوهم إلى الله زلفى، وأنهم يشفعون لهم عنده يوم القيامة. كما حكى الله عنهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]. فجاءت هذه الآيات لتنسف هذا الزعم من أساسه.

#الأمر الثاني: أسلوب الرد الإلهي المسكت) قل أولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون(

1تعليم النبي أسلوب الرد:
يأمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم بهذا الرد المسكت: {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}. هذا هو الجواب على استنكارهم. والمعنى: أتتخذونهم شفعاء حتى لو كانوا عاجزين عن كل شيء، فاقدي العقل والإدراك؟!

2تفكيك أبعاد العجز في "لا يملكون شيئًا":
نفي الملك عن هؤلاء الشفعاء نفي مطلق شامل. فهم لا يملكون:

· ملك الذات: فهم مخلوقون مربوبون، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.
· ملك التصرف: لا يستطيعون أن يغيروا شيئًا من أقدار الله.
· ملك الشفاعة: لأن الشفاعة ملك لله وحده، لا يمنحها إلا لمن يشاء.

فكيف يُعقل أن يلجأ إنسان عاقل إلى من هو فقير معدم لا يملك شيئًا؟! أليس هذا منتهى السفه و الضلال؟

3تفكيك أبعاد العجز في "ولا يعقلون":
هذا هو الطامة الكبرى. هؤلاء الشفعاء ليسوا فقط فاقدي الملك، بل هم فاقدو العقل أيضًا! وهذا ينطبق على:

· الأصنام: فهي جمادات لا حياة فيها ولا عقل. كيف تشفع لك وهي لا تدري عن عبادتك شيئًا؟!
· البشر الذين يُعبدون من دون الله: وإن كانوا أحياء عقلاء في الدنيا، فهم لا يعلمون الغيب، ولا يدرون بمن يدعوهم، بل هم يوم القيامة يتبرؤون ممن عبدهم.
· الملائكة والأنبياء والصالحون: عبادتهم من دون الله باطلة، وهم أنفسهم لا يملكون الشفاعة إلا بإذن الله، وهم مشغولون بعبادة ربهم، فكيف يُدعون من دونه؟!

4أهمية هذا الأسلوب في الخطاب والحوار:
هذا الأسلوب القرآني يعلمنا درسًا عظيمًا في الحوار مع المخالفين. فبدلا ً من الدخول في متاهات جدلية، استخدم أسلوب التسليم الجدلي الذي يفحم الخصم. قل للمشرك: لنفترض جدلا ً أن ما تعتقده صحيح، فهل هؤلاء الذين تعبدهم يملكون شيئًا أو يعقلون؟ إن أجاب ب- "لا"، وهو مضطر

لذلك، فقد أقر ببطلان معتقده بنفسه. وإن أجاب بـ "نعم"، كذب الواقع المحسوس. إنه أسلوب يجعل الخصم يحرج نفسه بنفسه.
#أمثلة تقريبية لتقريب الصورة

· مثال الأصنام: تخيل أن رجلا ً لديه قضية في المحكمة، فذهب إلى تمثال حجري في الشارع ووضعه في بيته، وجعل يتضرع إليه قائلا ً: "أيها التمثال، اشفع لي عند القاضي!". ألن تضحك منه وتقول له: هذا حجر لا يسمع ولا يعقل، فكيف يشفع لك؟! هذا هو حال من يعبد الأصنام والأوثان.
· مثال البشر: تخيل أن موظفًا بسيطًا يريد مقابلة رئيس الدولة ليطلب منه حاجة، فذهب إلى حاجب الرئيس وعبده وسجد له طالبًا أن يشفع له. أليس هذا سفهًا؟ الحاجب نفسه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، وهو عبد مأمور. هذا هو حال من يتخذ البشر شفعاء من دون الله.

#الأمر الثالث: تقرير الحقيقة المطلقة) قل لله الشفاعة جميعًا(

1حصر الشفاعة لله وحده:
بعد أن فنّد الله زعم المشركين وأثبت عجز شفعائهم، يأتي بتقرير الحقيقة التي لا مرية فيها: {قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}. أي قل لهم: الشفاعة كلها، بأنواعها وبجميع صورها، مملوكة لله وحده. لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. فتقديم الجار والمجرور {لِلَّهِ} يفيد الحصر والاختصاص.

2لماذا جاءت "جميعًا" بعد "الشفاعة"؟
لقطع كل أمل في أن يكون لأحد شفاعة دون إذن الله. فحتى شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة (المقام المحمود)، وشفاعة الملائكة، وشفاعة الشهداء، كلها لا تكون إلا بعد إذن الله ورضاه عن المشفوع له. ف لا يستقل أحد بالشفاعة دونه.

3ربط الشفاعة بملك الله للسماوات والأرض:
{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. هذا هو الدليل العقلي على حصر الشفاعة لله. فمن يملك الكون كله، ويملك كل من فيه، هو وحده الذي يملك أن يأذن لمن يشاء في الشفاعة. أما من لا يملك شيئًا، فكيف يملك الشفاعة؟! إنه استدلال بالمحسوس على المعقول. الملك التام يستلزم السلطان التام، ومن مقتضيات السلطان التام أن تكون الشفاعة بيده هو.

4التذكير بالرجوع إلى الله:
{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}. هذا هو الختام المهيب. بعد أن بين أن الشفاعة كلها لله، وأنه مالك الملك، يذكرهم بالمصير المحتوم: الرجوع إليه يوم القيامة. وهناك سيعلمون حقيقة من تنفعهم شفاعته، ومن لا تغني عنهم شيئًا. إنه تهديد خفي، وتذكير بيوم الفصل الذي تنكشف فيه الحقائق، ويخزى فيه المبطلون.

الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم الفكرية والعقدية (تصحيح التصورات وبناء العقلية السليمة)

· تفكيك مفهوم "الوساطة البشرية" الفاسد:
الآيتان تقدمان نموذجًا فكريًا رائعًا لهدم عقيدة الوساطة بين العبد وربه. إنهما تؤسسان لمبدأ "مباشرة العلاقة بين العبد وربه". فلا تحتاج إلى واسطة تقربك إلى الله، بل الله أقرب إليك من حبل الوريد. هذه الفكرة تحرر العقل من التعلق بالوسطاء، وتجعله يتجه مباشرة إلى الله بالدعاء والعبادة. وهذا المفهوم هو أساس التوحيد العملي الذي يحرر الإنسان من عبودية المخلوقين.
· بناء مفهوم "الشفاعة الحقة" وفق المنظور الإسلامي:
الآيتان تصححان مفهوم الشفاعة. فالشفاعة ليست سلطة مستقلة لأحد، بل هي عطية من الله يمنحها لمن يشاء من عباده الصالحين، لتكريمهم ولإظهار فضلهم، ولكن بعد إذنه ورضاه. وهذا المفهوم يختلف تمامًا عن المفهوم الوثني الذي يجعل الشفاعة حقًا ذاتيًا للآلهة المزعومة. هذا التصحيح الفكري يحفظ للمسلم توحيده، ويجعله يرجو شفاعة الصالحين دون أن يعبدهم أو يتعلق بهم.
· إقامة البرهان على وحدانية الله من خلال ملكه المطلق:
ربط الشفاعة بملك السماوات والأرض هو قمة الاستدلال العقلي. فالعقل السليم يدرك أن المالك الحقيقي للكون هو وحده الذي يملك حق التصرف المطلق، ومنه الإذن بالشفاعة. هذا البرهان يزرع في العقل اليقين بأن كل ما سوى الله فقير محتاج، لا يملك شيئًا، وبالتالي لا يستحق أن يُتخذ إلهًا أو شفيعًا من دون الله.

ثانيًا: المفاهيم النفسية (تحرير النفس من الخوف والقلق والتعلق)

· التحرر النفسي من عقدة "الوسيط":
كثير من الناس يعيشون في قلق دائم وخوف من المستقبل، فيلجأون إلى أشخاص يعتقدون أنهم يملكون لهم نفعًا أو ضرًا، أو يشفعون لهم عند ذوي السلطان. هذه الآية تجري عملية جراحية نفسية عميقة، فتستأصل هذا التعلق المرضي. إنها تقول للنفس: تعلقي بالمالك الحقيقي وحده، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو وحده الذي يملك أن ينفعك أو يضرك. هذا التحرر النفسي يمنح الإنسان سكينة وطمأنينة لا توصف، لأنه وضع ثقته في من لا يخيب.
· علاج الخوف من المستقبل والمصير المجهول:
تختتم الآية بقوله: {ثمّ إليْهِ ترْجَعُونَ}. هذا التذكير بالرجوع إلى الله وحده هو أعظم علاج للقلق الوجودي. عندما يستقر في قلب المؤمن أن مصيره بيد الله وحده، لا بيد شفيع ولا وسيط، فإنه يسعى لإرضاء الله مباشرة، ويوقن بأن الله أرحم به من كل شفيع. هذا اليقين يبدد الخوف من الموت والآخرة، ويجعل الإنسان يعيش حياته في أمان وسلام داخلي.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المستقل)

· تربية الإنسان على الاستقلالية في علاقته بالله:
من أعظم ما تربي عليه هذه الآيات هو الاستقلال الروحي. المؤمن لا يحتاج إلى كاهن ليغفر له ذنبه، ولا إلى وسيط ليقبل توبته. هو يذهب مباشرة إلى ربه، فيدعوه ويستغفره. هذه التربية تنشئ إنسانًا قوي الشخصية، واثقًا من نفسه، لا يعيش تابعًا لأحد، بل هو حر في علاقته بالله.
· تربية العقل على النقد والتحليل والاستنكار:
الآية تبدأ بـ "أم" الاستنكارية، وتستخدم أسلوب "أولو كانوا" الجدلي. هذا يعلم المتربي ألا يتلقى ا لأفكار كالببغاء، بل أن يسأل وينتقد ويحلل. علم أبناءك أن يسألوا: هل هذا المعبود يملك شيئًا؟ هل يعقل؟ علمهم كيف يفندون الأفكار الخرافية بأنفسهم. هذه التربية العقلية الناقدة هي التي تنتج جيلا ً واعيًا، لا ينخدع بالشعارات الزائفة ولا بالدعوات الوثنية المستحدثة.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان الحر العزيز بالله:
هذه المفاهيم تبني إنسانًا لا يركع إلا لله، ولا يستمد عزته إلا منه. إنه إنسان حر من الداخل، لا يمكن استعباده أو ابتزازه من قبل أي قوة بشرية تدعي أنها تملك مفاتيح السماء أو الأرض. هذا الإ نسان هو اللبنة الأساسية لأي مجتمع حر كريم، ولأي حضارة إنسانية راقية.
· بناء المجتمع المتكافل بلا أرباب ولا عبودية:
عندما يعتقد أفراد المجتمع أن الشفاعة كلها لله، وأنه لا وساطة لأحد على الله، فإنهم يعيشون في مجتمع متساوٍ في العبودية لله، لا يتمايزون إلا بالتقوى. هذا يقطع الطريق على كل من يريد أن يتخذ نفسه ربًا أو وسيطًا بين الناس وربهم. يزول الخوف من "الأسياد" و"الشفعاء"، ويحل محله التعاون والتكافل بين عباد الله الأحرار. هذا هو مجتمع العدل والمساواة الحقيقي.
· إسهام الآية في التنمية البشرية (تحرير الطاقات):
التنمية البشرية الحقيقية تبدأ من تحرير عقل الإنسان من الأوهام والخرافات. إنسان يظن أن تمثالًا أو وليًا يملك له نفعًا أو ضرًا هو إنسان معطل عن العمل والإنتاج، لأنه يعلق آماله على السراب. أما ا لإنسان الذي تؤمن بهذه الآية، فهو إنسان واقعي، يعلم أن السعي والعمل هو السبيل، وأن النتائج بيد الله. هذا الإنسان يوجه طاقاته كلها نحو الإبداع والإنتاج والعمل الصالح، لأنه تحرر من التعلق بـ المخلوقين. هذه هي الطاقة البشرية المحررة التي تبني الحضارات.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الإنسانية:
الحضارات التي قامت على فكرة الوساطة بين الإنسان والله (كحضارة أوروبا في العصور الوسطى بسيطرة الكنيسة) عاشت قرونًا من الظلام والتخلف، لأنها قيدت العقول وحبست الطاقات. أما الحضارة الإسلامية، التي قامت على مبدأ هذه الآية (لا وساطة بين العبد وربه)، فقد أطلقت العنان للعقول للبحث والتفكير، وللأيادي للعمل والإبداع. فكانت حضارة علم وإيمان، حضارة عمرت الأرض دون أن تفسد العقيدة. هذا هو سر عظمة الحضارة الإسلامية وتميزها.
الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· في مواجهة مظاهر الشرك الخفي في مجتمعاتنا:
ألم ترَ أولئك الذين يعلقون التمائم والحجب، ويذهبون إلى القبور يطلبون من أصحابها الشفاعة وقضاء الحوائج؟ هؤلاء يعيشون نفس التصور الذي حاربته هذه الآية. مهمتنا الدعوية أن نوقظ فيهم العقل بهذا الأسلوب القرآني. قل لهم: أتطلبون من هؤلاء الأموات وهم {لَا يَمْلِكونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلونَ}؟! أ لا تعلمون أن {للهِ الشّفَاعَةُ جَمِيعًا}؟! هذا الأسلوب الحواري، المبني على استنكار السفه وإيقاظ العقل، هو أقرب إلى النجاح من أسلوب التكفير والتضليل.

· في علاج ظاهرة "التعلق بالأشخاص" في الساحة الدعوية:
يظهر في الساحة الدعوية أحيانًا من يتعلق بشخص الداعية أو الشيخ تعلقًا يصل إلى حد التقديس. يظنون أنه هو الذي يهدي، وهو الذي يملك لهم النفع. هذه الآية تقدم العلاج. ذكرهم بأن الداعية لا يملك شيئًا، ولا يعقل عنهم، ولا يشفع لهم عند الله إلا بإذنه. قل لهم: تعلقوا بالله وحده، فهو مالك الملك، وهو الذي يهدي القلوب. هذا يبني شخصية دعوية متزنة، لا تصاب بالإحباط عندما تكتشف أخطاء الدعاة، ولا تغتر بهم فتعبدهم من دون الله.
· في بناء الثقة بالنفس عند الشباب:
كثير من الشباب يشعر بالضآلة أمام أصحاب النفوذ والسلطان. يخاف أن يطلب حقه، أو أن يبدي رأيه، لأنه يظن أن هؤلاء يملكون أمره. علم شبابنا هذه الآية. قل لهم: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. لا تخشوا في الله لومة لائم. من ذا الذي يملك لكم شيئًا إن أراد الله بكم ضرًا أو نفعًا؟! هذه العقيدة تصنع من الشباب قادة لا يرهبون الباطل، وعلماء لا يكتمون الحق، ودعاة لا تأخذهم في الله لومة لا ئم.
· في أسلوبنا مع المخالفين في العقيدة:
عندما نتحاور مع غير المسلمين الذين يعتقدون بوجود وسائط بينهم وبين الله، أو بوجود آلهة تشفع، علينا أن نستخدم هذا الأسلوب القرآني في الاستنكار العقلي وضرب الأمثال. نسألهم: هل هؤلاء الذين تعبدونهم يملكون شيئًا؟ هل يعقلون؟ وهل خلقوا السماوات والأرض؟ ثم ندعوهم إلى التفكر في ملكوت الله، وإلى التوحيد الخالص. هذا الأسلوب العقلي المقنع هو أقوى سلاح في الدعوة إلى الله.
الخاتمة: حيث تتحطم الأصنام على صخرة التوحيد

بهذا نكون قد أتممنا، بحمد الله، تفسير هاتين الآيتين الكريمتين، مستوفين كل ما طلبتَ من مفاهيم ودروس وتطبيقات. لقد رأينا كيف تبدأ الآيات باستنكار عقلي مهيب، وتفند دعوى المشركين ببيان عجز شفعائهم المطلق، ثم تقرر الحقيقة الناصعة: {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}.

إنهما آيتان تهدمان صرح الوثنية بكل أشكالها، قديمها وحديثها. تهدمان عبودية البشر للبشر، وعبودية البشر للأوهام والخرافات. وتبنيان مكانه صرح التوحيد الخالص، الذي يقوم على العلاقة المباشرة بين العبد وربه، وعلى تحرير العقل من كل قيد، وعلى إطلاق الطاقات البشرية لتعمير الأرض بالعدل و الخير.

فليكن شعارنا الذي نحمله في قلوبنا وعقولنا: {لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}. لا نرجو شفاعة إلا شفاعته، ولا نخشى ضرًا إلا منه، ولا نعلق آمالنا إلا به. فهو مالك الملك، وإليه المصير.
المبحث الرابع
ها هي ذي رحلتنا مع آيات سورة الزمر تتواصل، وها نحن نقف اليوم على مشهد نفسي عميق، يكشف لنا خبايا النفوس المريضة، ويفضح حقيقة المشاعر الدفينة التي تموج في قلوب المعرضين عن ربهم. إنها آية تنقلنا من عالم الجدل العقلي والحجج المنطقية، إلى عالم المشاعر والأحاسيس وردود ا لأفعال الفطرية. إنها مرآة صادقة تريك كيف ينقسم الناس انقسامًا حادًا عند سماع كلمة التوحيد.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: 45].

تأمل معي هذا التصوير القرآني الباهر لحالة نفسية معقدة في جملة واحدة. إنه ليس مجرد وصف لموقف المشركين في مكة، بل هو كشف للقانون النفسي الثابت الذي يحكم كل قلب خلا من الإيمان بالله واليوم الآخر. إنه تشخيص دقيق لمرض عضال، ألا وهو فساد الفطرة وانحراف البوصلة القلبية عن أصلها الذي فطرت عليه.

أبرز محاور الآية في سطور

· كشف رد الفعل النفسي الفوري للمشركين عند سماع التوحيد الخالص: الاشمئزاز والانقباض.
· كشف رد الفعل المعاكس عند سماع ذكر آلهتهم الباطلة: الاستبشار والفرح.
· بيان العلة والسبب: وهو أنهم} لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .{فالإيمان بالآخرة هو ضابط المشاعر والأهواء.
· تشخيص فساد قوى النفس الثلاث) العقل، الغضب، الشهوة (: نتيجة لفقدان الغاية من الخلق.
· تقديم مقياس قرآني لمعرفة الأعداء وتحليل نفسياتهم: لبناء استراتيجية التعامل معهم.
· إسقاط هذه الحالة النفسية على واقعنا المعاصر: حيث تتعدد الأصنام الحديثة.
الأمر الأول: التحليل النفسي العميق لظاهرة الاشمئزاز والاستبشار

1لماذا يشمئزون من ذكر الله وحده؟
الفعل {اشْمَأَزَّتْ} في اللغة يدل على الانقباض الشديد والانزعاج والكراهية التي تظهر على ملامح الوجه. إنه ليس مجرد رفض عقلي، بل هو نفور وجداني وعاطفي عميق. فلماذا يحدث هذا؟

لأن ذكر الله {وَحْدَهُ} يتضمن معان تصطدم بكل كبريائهم وفساد فطرتهم:

· التوحيد الخالص: نفي كل شريك ووسيط .وهذا يعني هدم كل ما عبدوه من دون الله، وإبطال كل ما بنوا عليه حياتهم من أوهام وخرافات .إنه يهدد مكانتهم وسلطتهم وأهواءهم.
· الإقرار بالعبودية المطلقة لله: وهذا يعني التخلي عن عبادة الهوى، وعن التكبر في الأرض .وهذا ثقيل على النفس الأمارة بالسوء.
· التذكير بالمسؤولية والحساب: فالله وحده هو الذي سيحاسبهم .وذكر الله يذكرهم بهذا اليوم الذي ينكرونه.

فإذا سمعوا اسم الله مفردًا بالذكر، تحركت في قلوبهم كل مشاعر العداء والكره للحق، فتظهر على وجوههم علامات الغضب والانزعاج والاشمئزاز. وكما قال قتادة: "إذا قيل: لا إله إلا الله، اشمأزت قلوب المشركين وأنفت، وإذا ذكرت الأوثان استبشروا".

2تحليل فساد قوى النفس الثلاث لديهم:
لقد فطر الله الإنسان على ثلاث قوى رئيسية: العقل (قوة العلم والتمييز)، والغضب (قوة الدفع والمنع) ، والشهوة (قوة الحب والإرادة والجذب). وهذه القوى خُلقت لتُستخدم في مرضاة الله. ولكن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، فسدت لديهم هذه القوى فسادًا تامًا:

· فساد القوة العاقلة) العقل(: عقولهم لم تعد تميز الحق من الباطل، بل صارت تزين لهم الباطل وتهجن الحق .لقد فقدوا النور الذي يهتدون به، فأصبحوا في ظلمات .ذكر الله وحده هو الحق الأبلج، ولكن عقولهم المريضة تأباه وتشمئز منه.
· فساد قوة الغضب) البغضاء والكراهية(: الغضب قوة جُعلت في الإنسان ليدفع بها الضر عن نفسه، ولتكون بغضاؤه لله وفي الله .أما هؤلاء، فقد انحرفت هذه القوة، فصاروا يكرهون الحق وأهله، ويكرهون ذكر الله وحده .هذه الكراهية هي التي تولد الاشمئزاز الظاهر على الوجوه .غضبهم الذي كان ينبغي أن يوجه للباطل وأهله، وجههو للحق وأهله .وهذا هو قمة الفساد النفسي.
· فساد قوة الشهوة) الحب والاستبشار(: الشهوة ليست فقط شهوة البطن والفرج، بل هي قوة الحب والإرادة والميل القلبي .جُعلت هذه القوة ليحب الإنسان بها الله ورسوله وكل ما يحبه الله .أما هؤلاء، فقد فسدت هذه القوة لديهم، فصاروا يحبون الباطل وآلهته المزعومة .وعندما يسمعون ذكر هذه الآلهة)سواء كانت أصنامًا حجرية، أو بشرًا يُعبدون من دون الله، أو أهواءً تُتبَع(، تستبشر قلوبهم وتفرح . هذا الحب الجاثم على قلوبهم للباطل هو الذي يجعلهم يفرحون بذكره.

3لماذا اختلال هذه القوى مرتبط بعدم الإيمان بالآخرة؟
لاحظ الربط الدقيق في الآية: {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}. هذا هو جذر الداء. الإيمان بالآخرة هو الذي يضبط إيقاع النفس البشرية. فالمؤمن بالآخرة يعلم أن هناك حسابًا وعقابًا، فيكبح جماح نفسه، ويحب في الله، ويكره في الله، ويسخر عقله لمرضاة الله. أما من لا يؤمن بالآخرة، فليس لديه رادع ولا وازع. إنه يعيش لدنياه ولذاته فقط، فيتبع هواه، ويحب ما يوافق هواه، ويكره ما يخالفه. لذلك كان طبيعيًا أن يشمئز من ذكر الله الذي يقيد هواه، وأن يستبشر بذكر الآلهة التي تطلق له العنان.

4الشواهد الواقعية من حياة المشركين في مكة:
هذه الآية تصف مشهدًا حيًا كان يراه النبي ﷺ والصحابة. عندما كان النبي ﷺ يطوف بالبيت وهو يقرأ القرآن ويقول: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، كان المشركون يضعون أصابعهم في آذانهم، ويغطون رؤوسهم بثيابهم، ويستغشون ثيابهم، اشمئزازًا وغضبًا. ولكن ما إن يبدأ أحدهم بذكر اللات والعزى ومناة، حتى تنفرج أساريرهم، ويهشوا ويبشوا، ويستبشروا فرحًا. هذا التناقض الصارخ هو الدليل القاطع على مرض قلوبهم وفساد فطرتهم.

#مثال معاصر لتقريب الصورة

والآن، دعنا ننقل هذا المشهد من مكة قبل أكثر من 1400 عام إلى واقعنا المعاصر. أليس هذا ما نراه بأعيننا كل يوم؟

· عندما تتحدث عن التوحيد الخالص: عن عبادة الله وحده، عن تحكيم شرعه، عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، عن الحجاب الشرعي، عن تحريم الربا ...انظر إلى وجوه الكثيرين ممن حولك .ألا

ترى عليها علامات الضيق والانزعاج والاشمئزاز؟ ألا تراهم يتهمونك بالتطرف والرجعية والتشدد؟ إنها نفس ردة الفعل التي كانت عند مشركي قريش .إنها} اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ.{
· وعندما تتحدث عن "أصنام العصر": عن الزعيم الفلاني الذي يعدهم بالتنمية والعدالة، عن الفنان المشهور الذي يمتعهم بأغانيه وأفلامه، عن المفكر الليبرالي الذي يحلل لهم المحرمات باسم الحرية، عن النظام العالمي الجديد الذي يعدهم بالرفاهية، عن الرياضي الأسطورة، عن المؤثرين على وسائل التواصل ...ألا ترى كيف تنفرج أساريرهم، وكيف يستبشرون ويهشون ويبشون؟ إنهم يفرحون بذكر هؤ لاء كما فرح المشركون بذكر اللات والعزى .إنه} إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.{

هذا المثال الواقعي ليس للتقريب فحسب، بل هو لتأكيد أن هذا القانون النفسي الذي كشفه القرآن هو قانون ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان. إنه سنة الله في خلقه.
الأمر الثاني: أهمية الآية في معرفة الأعداء وتحليل نفسياتهم) علم النفس القرآني(

القرآن الكريم لم يأتِ ليكون كتاب مواعظ فحسب، بل هو كتاب تحليل وبناء. إنه يعلمنا كيف نتعامل مع الواقع، وكيف نفهم من حولنا. هذه الآية تقدم لنا درسًا بليغًا في "علم نفس الأعداء".

1علامات ومقاييس لمعرفة الأعداء الحقيقيين:
الآية تعطينا مقياسًا دقيقًا لمعرفة من هم على الباطل. ليس بالضرورة أن يكونوا حاملي السلاح في وجوهنا، بل يمكن معرفتهم من خلال ردود أفعالهم النفسية تجاه قضايا الحق والباطل:

· من يشمئز وينقبض عند سماع كلمة التوحيد وتطبيقاتها، فهو على شاكلة مشركي قريش في هذه الصفة الذميمة.
· من يستبشر ويفرح عند سماع ذكر رموز الكفر والإلحاد والفساد، فهو أيضًا كذلك.

هذه العلامات تساعدنا على تصنيف الخطاب المناسب لكل فئة، وعلى اتخاذ الحيطة والحذر.

2أهمية دراسة الحالة النفسية للأعداء:
لماذا يهتم القرآن بذكر هذه المشاعر الداخلية؟ لأن فهم نفسية الخصم هي نصف المعركة. عندما تعلم أن خصمك يكره الحق بطبعه، فلا تحزن لرده دعوتك، ولا تتعجب من إعراضه. وعندما تعلم أنه يحب الباطل، فاعلم أنه أسير هواه، فادعُ له بالهداية، واعمل على كسر قيود هواه بالحكمة والموعظة الحسنة. هذا التحليل النفسي يعطي الداعية صبرًا وحكمة، ويحميه من الإحباط واليأس.

3كيف نستفيد من هذا التحليل النفسي في واقعنا؟

· في الحوار: إذا رأيت من محدثك انقباضًا واشمئزازًا عند ذكر حكم شرعي، فلا تستمر في الإغراق في التفاصيل، بل انتقل إلى أسلوب آخر، ربما بالتذكير بنعم الله، أو بضرب الأمثال.
· في التربية: علم أبناءك هذا الميزان .قل لهم: انظروا إلى أنفسكم عندما تسمعون الأذان أو الأمر بـ الصلاة، هل تنشرح صدوركم؟ وانظروا عندما تسمعون أغنية خليعة أو كلامًا بذيئًا، هل تميل إليه نفوسكم؟ هذا الميزان يعينهم على محاسبة أنفسهم ومعرفة أمراض قلوبهم.

الأمر الثالث: المفاهيم المستنبطة من الآية ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (تشخيص وعلاج أمراض القلوب)

· كشف مرض "كراهية الحق وحب الباطل":
هذه الآية تشخص مرضًا قلبيًا خطيرًا، وهو أن يكره الإنسان الحق بعد أن عرفه، ويحب الباطل بعد أن تبين له .هذا المرض هو من أشد العقوبات القلبية .قال تعالى:} ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] {محمد: .[28 معرفة هذا المرض تدفع المؤمن إلى مراقبة قلبه، ودوام الدعاء بأن يثبته الله على الحق وحب الحق.
· أهمية ضبط المشاعر بميزان الإيمان بالآخرة:
الآية تعلمنا أن المشاعر والأحاسيس ليست مجرد انفعالات عابرة، بل هي مؤشرات على صحة الإ يمان .فالمؤمن الصادق يفرح بما يرضي الله، ويغضب لما يغضب الله .مشاعره منضبطة بميزان الشرع واليقين بالآخرة .أما من لا يؤمن بالآخرة، فمشاعره تابعة لهواه ومصالحه الدنيوية الضيقة.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية (تأسيس معايير الولاء والبراء)

· الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

الآية تقدم معيارًا فكريًا وعمليًا للتمييز بين الفريقين .أولياء الرحمن تستبشر قلوبهم بذكر الله وتطمئن، وتنقبض من ذكر الباطل وأهله .أما أولياء الشيطان فحالهم كما وصفت الآية .هذا المفهوم يؤسس لقضية الولاء والبراء على أساس المشاعر القلبية والمواقف العملية، وليس على أساس النسب أو القرابة أو المصالح.

· تفنيد مقولة "لا مشاحة في المشاعر":

قد يقول قائل: "المشاعر لا دخل للإنسان بها، فهي خارجة عن إرادته" .هذه الآية ترد على ذلك، ف الله ذمهم على مشاعر الاشمئزاز والاستبشار، وربطها بعدم إيمانهم بالآخرة .فالمشاعر وإن كانت في أصلها فطرية، إلا أنها تتأثر بشكل كبير باختيارات الإنسان وإيمانه واعتقاده .فمن ملأ قلبه بحب الباطل، أنكر قلبه الحق.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء الشخصية الإيمانية المتزنة)

· تربية القلب على حب الله وحب ذكره:

هذه الآية تدعونا إلى تربية أنفسنا وأبنائنا على ضد هذه الصفة الذميمة .فعلينا أن نربي قلوبنا على أن تستبشر وتفرح بذكر الله، وأن تطمئن بتوحيده .قال تعالى:} الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] {الرعد: .[28 هذه التربية تتم بملء الأسماع والأذهان بالقرآن والذكر الحكيم، وبربط الناشئة بحب الله ورسوله.

· تربية النفس على كراهية الباطل والانقباض منه:

كما نربي على حب الحق، يجب أن نربي على كراهية الباطل .أن ينقبض قلب المؤمن عند سماع الغناء الفاحش، وعند رؤية المناظر المحرمة، وعند سماع ذكر أعداء الله والاستهزاء بالدين .هذا النفور هو حاجز الأمان الذي يحمي الإيمان.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان السوي نفسيًا وعقديًا:

هذه الآية تساهم في بناء الإنسان الذي تعمل عواطفه ومشاعره وفق البوصلة الإيمانية الصحيحة . إنسان يحب الحق وينفر من الباطل هو إنسان سوي، متوازن، قادر على التمييز واتخاذ القرار الصحيح .هذا هو أساس الصحة النفسية والعقلية.

· بناء مجتمع قيمي متماسك:

عندما ينتشر هذا المفهوم في المجتمع، يصبح المجتمع قادرًا على فرز الحق من الباطل .يحب الخير وأهله، وينفر من الشر وأهله .هذا يخلق مناعة مجتمعية ضد الانحراف والفساد، ويجعل المجتمع كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

· إسهام الآية في التنمية البشرية) تنمية الذكاء العاطفي الإيماني(:

التنمية البشرية الحديثة تتحدث عن "الذكاء العاطفي"(EQ) ، وهو القدرة على فهم وإدارة المشاعر . هذه الآية تقدم أرقى نموذج للذكاء العاطفي المرتبط بالله واليوم الآخر .إنها تنمي في الإنسان القدرة على فهم مشاعره) لماذا أشمئز من هذا؟ لماذا أستبشر بهذا؟ (وربطها بأصلها الإيماني، ثم توجيهها التوجيه السليم .هذا هو الذكاء العاطفي الإيماني الذي يبني قادة وعلماء ومصلحين.

· إسهام الآية في بناء الحضارة:

الحضارة التي تقوم على أفراد مشاعرهم مضبوطة بميزان الحق والعدل، هي حضارة متماسكة قادرة على مواجهة التحديات .إنها حضارة لا تخدعها الشعارات البراقة، ولا تفرح ببريق الباطل الزائف .إنها تنظر إلى الجوهر، وتحكم بالحق، وتفرح بالخير .هذه هي الحضارة التي تنتج العلم النافع، والعمل الصالح، والعمران العادل.

الأمر الرابع: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· في مجال الدعوة إلى الله:

عندما تدعو الناس، لا تكتفِ بإلقاء الكلام .راقب وجوههم وتعبيراتهم .إذا رأيت في وجوههم اشمئزازًا عند ذكر التوحيد الخالص، فاعلم أنك أمام قلوب مريضة .لا تغضب ولا تيأس .انتقل بهم إلى أسلوب آخر، استخدم معهم القصص، اذكر لهم نعم الله عليهم، اضرب لهم الأمثال .وادعُ لهم في ظهر الغيب بأن يشرح الله صدورهم للحق.

· في تربية الأبناء والطلاب:

اختبر مشاعر أبنائك بهذه الآية .في جلسة عائلية، اقرأ عليهم آيات عن التوحيد، ثم اسألهم: بماذا تشعرون؟ ثم اذكر لهم بعض أخبار المشاهير، وانظر ردود أفعالهم .هذه طريقة نبوية لمعرفة ما في قلوبهم .ثم وجههم برفق إلى حب الحق وكراهية الباطل .علمهم أن هذه المشاعر هي ميزان إيمانهم.

· في تحليل الواقع السياسي والاجتماعي:

انظر إلى ردود أفعال الناس في الشارع أو على وسائل التواصل .عندما يُذكر مشروع إسلامي، أو حزب إسلامي، أو دعوة إلى تحكيم الشريعة، تجد موجة من الاشمئزاز والهجوم الشرس .وعندما يُذكر حفل لراقصة، أو فيلم لممثل فاسق، أو إنجاز لفريق رياضي، تجد موجة من الفرح والاستبشار و التهليل .هذه الآية تفسر لك هذا الواقع بكل دقة .إنهم} الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ.{

· في محاسبة النفس وتزكيتها:

اسأل نفسك بصدق: عندما تستيقظ لصلاة الفجر، هل تشعر بانشراح صدر، أم بضيق وثقل؟ عندما تسمع آية عن الحجاب، أو عن تحريم الاختلاط، بماذا تشعر؟ هذه الأسئلة تكشف لك حقيقة قلبك . فإن وجدت في نفسك شيئًا من الاشمئزاز من الحق، فبادر بالتوبة والاستغفار، واسأل الله أن يثبت قلبك على دينه .فالنفس أمارة بالسوء، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

الخاتمة: على طريق تطهير القلوب وتصحيح المشاعر

بهذا نكون قد حلقنا معًا في سماء هذه الآية الكريمة، وغصنا في أعماق النفس البشرية كما صورها لنا القرآن. لقد رأينا كيف أن الإيمان بالآخرة هو المفتاح السحري لضبط المشاعر، وكيف أن غيابه يؤدي إلى انقلاب المفاهيم وفساد القلوب، فيصبح الحق مكروهًا والباطل محبوبًا.

إنها آية تضع أيدينا على جرح غائر في واقعنا المعاصر. فما أكثر الذين يشمئزون من ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر الأصنام الحديثة! وما أحوجنا إلى أن نعي هذا الدرس القرآني، فنصلح ما فسد من قلوبنا، ونربي أجيالنا على حب الحق وكراهية الباطل، ونتخذ من هذه الآية مقياسًا لمعرفة الأعداء و الصديقين، ونورًا نسير به في ظلمات الحياة.

المبحث الخامس .

لقد سرنا معًا في أغوار النفس البشرية في الآية السابقة، ورأينا كيف ينقسم الناس عند سماع كلمة التوحيد بين مشمئز ومستبشر. واليوم، نقف على عتبة آية كريمة تأتي كالبلسم الشافي لقلوب المؤمنين الذين قد تهتز نفوسهم من رؤية هذا المشهد الموجع. إنها آية توجه النبي ﷺ وأمته إلى الم لاذ الحقيقي، إلى الله الخالق العليم، ليرسخ في قلوبهم الطمأنينة والثبات، وليذكرهم بأن الفصل في هذا الاختلاف ليس إليهم، بل إلى أحكم الحاكمين.

يقول الله سبحانه وتعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: 46].

تأمل معي هذا الدعاء العظيم، وهذا التوجه القلبي الخالص. إنه ليس مجرد إخبار، بل هو تعليم إلهي للنبي ﷺ وللمؤمنين من بعده كيف يواجهون حالة الإنكار والاشمئزاز التي يقابلهم بها المشركون. إنه سلاح الدعاء والالتجاء إلى الله، وتفويض الأمر إليه، واليقين الجازم بأنه سبحانه سيفصل في هذا الخ لاف الذي طال أمده، وسيحكم بين عباده بالحق.

أبرز محاور الآية في سطور

· الأمر الإلهي بالتوجه إلى الله بالدعاء الخالص: "قل اللّهم"، وهو أسلوب يعلم المؤمنين أين يضعون ثقلهم النفسي في مواجهة تكذيب المكذبين.
· استحضار صفات الله العظيمة المرتبطة بالحكم والفصل:
· فاطر السماوات والأرض: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق، والقادر على كل شيء.
· عالم الغيب والشهادة: المحيط علمًا بكل خافية وظاهرة، فلا تخفى عليه أعمال العباد ولا نياتهم.
· تقرير حقيقة الحكم الإلهي يوم القيامة: "أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون"، وهو تطمين للمؤمنين وتهديد للكافرين.
· الجمع بين صفتي القدرة والعلم في مقام الحكم والجزاء: إشارة إلى كمال الحكم وعدالته.
· توجيه نفسي للمؤمنين: بعدم التأثر والاهتزاز لمشاعر الجاحدين الفاسدة، لأن مردهم إلى الله.

الأمر الأول: الأمر الإلهي بالتوجه إلى الله وحده) قل اللّهم(

1دلالة الأمر "قل":
يأمر الله نبيه ﷺ أن يعلن هذا الدعاء على الملأ. هذا الأمر له دلالتان عظيمتان:

· الأولى) تعليمية(: تعليم النبي ﷺ والمؤمنين كيف يتوجهون إلى ربهم في أوقات الشدة والخلاف . إنه يوجه البوصلة القلبية مباشرة إلى الله، وليس إلى مجادلة الخصوم أو الانشغال بمشاعرهم العدائية.
· الثانية) إعلانية(: إعلان أمام المشركين أن المؤمنين لا يعبؤون باشمئزازهم واستبشارهم بالباطل، لأ نهم متوكلون على الله، ويفوضون أمر الفصل بينهم إلى الله وحده.

2سر اختيار لفظ "اللّهم":
"اللّهم" هي نداء لله بمعنى "يا الله"، ولكنها صيغة خاصة تفيد التعظيم والإجلال، وتجمع معاني الدعاء والتضرع .إنها أبلغ من "يا الله" في هذا المقام، لأنها تشعر بالافتقار التام والحاجة المطلقة إلى المستعان به .فكأن المؤمن يقول: يا من بيده ملكوت كل شيء، أنت ملجئي وملاذي.

3كيف تعلمنا هذه الآية عدم التأثر بمشاعر الجاحدين؟
بعد أن كشفت الآية السابقة (45) عن حقيقة مشاعر المشركين (الاشمئزاز والاستبشار)، قد يتساءل المؤمن: كيف أتعامل مع هذا الموقف المؤلم؟ كيف لا أغضب أو أحزن أو أتأثر؟ تأتي هذه الآية بـ الجواب العملي: توجه إلى الله. لا تنشغل بردود أفعالهم الفاسدة، ولا تجعلها تؤثر على نفسيتك أو تشغلك عن هدفك. فوض الأمر إلى من خلقهم ويعلم سرهم ونجواهم. هذا التوجه يحرر المؤمن من قيد الانفعالات السلبية تجاه الخصوم، ويملأ قلبه سكينة وثقة بالله.
الأمر الثاني: استحضار صفات الله العظيمة) فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة(

1دلالة وصف "فاطر السماوات والأرض":
"فاطر" من الفطر، وهو الشق والابتداع والخلق على غير مثال سابق .الله وحده هو الذي خلق السماوات والأرض من العدم .وهذا الوصف العظيم يحمل عدة رسائل للمؤمن وللكافر معًا:

· للمؤمن: تذكير بقدرة الله المطلقة .فالذي خلق هذا الكون العظيم قادر على أن يحميك، وقادر على أن ينتقم لك من أعدائك، وقادر على أن يفصل في كل خلاف .فلا تخف ولا تحزن.
· للكافر: تذكير وتوبيخ .كيف تعبدون من لا يخلق شيئًا وهم يُخلقون؟ كيف تتخذون شفعاء من دون فاطر السماوات والأرض؟ إنها حجة دامغة عليهم.

2دلالة وصف "عالم الغيب والشهادة":
هذا الوصف هو جوهر الآية في سياق الحكم والفصل. فالله وحده هو الذي يعلم:

· الغيب: ما غاب عن الحواس، وما في الصدور، والنوايا الخفية، وما سيكون في المستقبل.
· الشهادة: ما هو ظاهر ومشاهد ومعلوم للخلق.

والجمع بينهما يفيد إحاطة علم الله بكل شيء. وهذا العلم المطلق هو شرط أساسي للحكم العادل. فـ القاضي البشري قد يخطئ لأنه لا يعلم الغيب، ولا يعلم حقيقة النوايا. أما الله سبحانه وتعالى، فحكمه هو الحكم الفصل الذي لا جور فيه، لأنه مبني على العلم الكامل بالظواهر والبواطن.

3لماذا الجمع بين "فاطر السماوات والأرض" و"عالم الغيب والشهادة" هنا بالذات؟
هذا الجمع البديع بين القدرة (فاطر) والعلم (عالم) في سياق الحديث عن الحكم بين المختلفين هو قمة البلاغة القرآنية. إنه يرسخ في الذهن أن الحكم الإلهي سيكون حكمًا كاملا ً:

· لا يعجزه شيء لأنه القادر على كل شيء) فاطر السماوات والأرض.(
· لا يخفى عليه شيء لأنه العالم بكل شيء) عالم الغيب والشهادة.(
· لا يظلم أحدًا لأن قدرته وعلمه يقتضيان العدل المطلق.

فهو القادر على إحضار الخلائق للحساب، وهو العالم بما كان منهم من خلاف وأعمال ونيات. وبهذا يكون حكمه هو الحكم الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الأمر الثالث: الإعلان عن حقيقة الحكم الإلهي) أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون(

1معنى "تحكم بين عبادك":
هذا هو الفصل الأخير. بعد أن توجه المؤمن إلى الله، واستحضر صفات قدرته وعلمه، يقرر الحقيقة الكبرى: {أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ}. هذا الحكم سيكون يوم القيامة. وفيه:

· تطمين للمؤمنين: بأن الله سينصفهم، وسيظهر الحق الذي كانوا عليه، وسيخزي المبطلين الذين كانوا يشمئزون من ذكره.
· تهديد للكافرين: بأن هذا الاختلاف الذي هم فيه مع المؤمنين سينتهي بحكم إلهي قاطع، سيكون فيه الوبال عليهم.
· تسليم للمؤمنين: بأن الأمر كله لله، وليس لهم من الأمر شيء في الدنيا إلا البلاغ.

2"فيما كانوا فيه يختلفون":
ما هو هذا الاختلاف الذي سيفصل الله فيه؟

· الاختلاف في التوحيد والشرك.
· الاختلاف في النبوة والرسالة.
· الاختلاف في البعث والجزاء.
· الاختلاف في الهدى والضلال.

كل هذه الخلافات الكبرى التي ملأت الدنيا صراعًا وجدالا ً، ستنتهي بحكم الله العادل يوم القيامة. هناك سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

3أثر هذا الإعلان على نفس المؤمن:
هذا الإعلان يمنح المؤمن راحة نفسية هائلة. لماذا؟ لأنه ينقل عبء "إثبات الحق" و"إفحام الخصم" و" الانتصار للنفس" من كاهل المؤمن إلى كاهل الله سبحانه وتعالى. المؤمن مطالب ببذل الجهد والدعوة بالحكمة، ولكن النتيجة النهائية والفصل الأخير ليس بيده، بل بيد ربه. هذا الفهم يحميه من الإحباط والقلق والغضب المفرط، ويجعل قلبه معلقًا بالله وحده.
الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآية ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (التحرر من ضغط المشاعر السلبية)

· التفويض كأسلوب للتحرر النفسي:
عندما يعيش المؤمن في بيئة معادية، يسمع فيها الاستهزاء بدينه، ويرى الاشمئزاز من ذكر الله، فإنه يكون عرضة لضغط نفسي كبير .هذه الآية تعلمه فن التفويض .أن يقول بقلبه ولسانه: "اللهم أنت تحكم بيننا" .هذا التفويض ليس هروبًا، بل هو استراتيجية نفسية عالية، تنقل الثقل من النفس البشرية الضعيفة إلى القدرة الإلهية المطلقة .فيهدأ البال، وتسكن النفس، ويستمر المؤمن في طريقه بثبات.
· بناء المناعة النفسية ضد الاستفزاز:
أعداء الدين يستخدمون الاستفزاز كسلاح لإخراج المؤمن عن طوره، وجعله يقع في أخطاء .هذه الآ ية تبني في المؤمن مناعة ضد الاستفزاز .فعندما يسمع ما يسوءه، يتذكر فورًا أن هؤلاء عباد الله، وسيحكم الله بينهم وبينه، فلا داعي للانفعال أو الرد بالمثل .إنه يمتص الغضب، ويحوله إلى دعاء وتفويض لله .هذا هو سمو الروح الإيمانية.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (ترسيخ أركان الإيمان)

· العلاقة بين الخلق والملك والعلم والحكم:
الآية تبني تصورًا عقديًا متكاملا ً .فالله هو الفاطر) الخالق(، وبالتالي هو المالك .ولأنه عالم الغيب والشهادة، فإن حكمه هو الحكم العدل .هذا الربط المنطقي يرسخ في العقل أن من بيده الخلق والملك والعلم، هو وحده الذي يملك حق الحكم والتشريع في الدنيا، وهو وحده الذي سيحكم بين العباد في الآخرة .هذا المفهوم هو أساس الحاكمية لله في الفكر الإسلامي.
· حقيقة الاختلاف الكوني وكونه سنة إلهية:
الآية تقر بوجود الاختلاف بين الناس في أمور الدين .وهذا الاختلاف ليس أمرًا طارئًا، بل هو واقع بمشيئة الله .مهمة المؤمن ليست إلغاء هذا الاختلاف بالقوة، بل دعوة الناس إلى الحق بالحكمة، مع العلم بأن الفصل النهائي بيد الله .هذا المفهوم يحمي المؤمن من اليوتوبيا) المدينة الفاضلة (الوهمية، ويجعله واقعيًا في تعامله مع الحياة.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المتوازنة)

· تربية النفس على اللجوء إلى الله عند الشدائد:
أول كلمة في الآية هي} قل{، وأول نداء هو} اللهُمّ .{هذا يعلمنا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على أن يكون أول ملجأ لنا عند الشدائد والمشاكل والخلافات هو الدعاء والتوجه إلى الله .ليس إلى الشكوى للخلق، ولا إلى الغضب والانفعال، بل إلى الله وحده .هذه التربية تغرس في النفس قوة عظيمة واستقلالا ً وجدانيًا.
· تعليم الداعية كيف يخاطب نفسه أولا ً:
قبل أن يخاطب الداعية الناس، عليه أن يخاطب نفسه بهذه الآية .عندما يواجه الرفض والاشمئزاز، عليه أن يتوجه إلى الله بهذا الدعاء .هذا يصقي قلبه، وينقي نيته، ويجعله يؤدي مهمته بلا شوائب

نفسية من حب الظهور أو الرغبة في الانتصار للنفس .هذا هو الإخلاص في الدعوة.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المطمئن الواثق باللّٰه:
هذه الآية تبني إنسانًا لا تهزه الأحداث، ولا تكسره ردود أفعال الآخرين .هو مطمئن لأن قضيته ليست مع الناس، بل مع اللّٰه .واثق بأن اللّٰه لن يضيع حقه .هذا الإنسان هو نموذج القوة والثبات الذي تحتاجه الأمة في أوقات الفتن والمحن.
· بناء مجتمع متماسك رغم الاختلاف:
عندما يعيش أفراد المجتمع بهذا المفهوم، فإنهم يتعاملون مع الاختلافات الفكرية والدينية بقدر كبير من النضج والاتزان .هم يدعون إلى الحق، وينكرون الباطل، ولكنهم لا يفرضون أنفسهم أوصياء على ضمائر الناس، بل يفوضون الأمر إلى اللّٰه .هذا يقلل من حدة الصراعات الداخلية، ويجعل المجتمع أكثر تماسكًا واستقرارًا.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) إدارة الغضب والانفعالات(:
واحدة من أهم مهارات التنمية البشرية هي إدارة الغضب والتحكم في الانفعالات .هذه الآية تقدم نموذجًا راقيًا لهذه الإدارة .إنها لا تدعو إلى كبت الغضب، بل إلى تساميه وتحويله إلى دعاء وتفويض لله .هذا التحويل هو أرقى أشكال الذكاء العاطفي والروحي.
· إسهام الآية في بناء الحضارة العادلة:
الحضارة الإنسانية تظل تبحث عن "يوتوبيا" العدالة المطلقة، ولا تجدها .هذه الآية تخبرنا أن العدالة المطلقة لن تتحقق في هذه الدنيا، بل في الآخرة، بحكم اللّٰه العادل الخبير .هذا الإيمان يمنح الإنسان صبرًا على جور الدنيا، ويجعله يسعى لإقامة أكبر قدر ممكن من العدل، دون أن يصاب بالإحباط عندما يرى الظلم متفشيًا .إنه يعمل للدنيا بعين على الآخرة، وهذا هو سر استمرار الحضارة الإيمانية وعطائها.
الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تواجه حملة شرسة على الإسلام ورموزه:
لا تستغرق في متابعة الشائعات والردود الغاضبة .اختلِ بنفسك، وارفع يديك إلى السماء، وقل: "اللّٰهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون" .هذا الدعاء سيمنحك سكينة عجيبة، وسيذكرك بأن المعركة ليست معركتك وحدك، بل هي معركة الحق التي يتولاها اللّٰه.
· في حوارك مع شخص عنيد يكره سماع الحق:
بعد أن تبذل جهدك في الحوار، ولا تجد إلا الإعراض والاشمئزاز، لا تغضب ولا تشتم .تذكر هذه الآ ية .قل في نفسك: "حسبي اللّٰه، هو يحكم بيننا" .ثم انصرف بسلام .هذا الموقف سيكون أبلغ في نفس هذا الشخص من ألف رد غاضب.
· في تربية الأبناء على مواجهة التنمر الفكري والديني:
علم ابنك أو ابنتك أنه عندما يسخر منهم زملاؤهم بسبب صلاتهم أو حجابهم، ألا يردوا بالمثل . علمهم هذا الدعاء .قل لهم: قولوا في أنفسكم: "اللّٰهم أنت تحكم بيننا" .هذا سيجعلهم أقوياء من الداخل، ولن تؤثر فيهم سخريات الآخرين .إنها حصانة نفسية إيمانية.
· في معالجة مشاعر الحزن والغضب عند رؤية ازدهار أهل الباطل:
كم نحزن ونغضب عندما نرى أهل الفسق والفجور وقد فتحت لهم الدنيا أبوابها، بينما يضيق العيش على أهل الصلاح .في هذه اللحظة، استحضر قوله:} أَنتَ تحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .{تذكر أن هذا المشهد ليس نهاية المطاف .هناك يوم آخر، سيكون فيه الحكم لله، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .هذا الاستحضار يبدد الحزن، ويملأ القلب صبرًا ويقينًا.

#الخاتمة: حيث تسكن النفس في رحاب التفويض لله

بهذا نكون قد وصلنا إلى ختام رحلتنا مع هذه الآية العظيمة. لقد بدأناها باستنكار حالة المشركين النفسية، وها نحن نختمها بتوجيه إلهي كريم إلى الملاذ الحقيقي. إنها رحلة من الاضطراب إلى السكون، ومن التأثر بالخلق إلى التعلق بالخالق.

لقد علمتنا هذه الآية أن أعظم سلاح في مواجهة كراهية الجاحدين واضطرابهم النفسي هو الدعاء و التفويض لله. إنها تنقلنا من مربع "لماذا يفعلون هذا؟" إلى مربع "يا رب، أنت أعلم بهم، وأنت تحكم بيننا". هذا النقل هو عين الحكمة، وعين القوة، وعين السكينة.

فلنجعل هذا الدعاء زادنا في كل خلاف، وفي كل مواجهة مع الباطل وأهله: {اللّٰهُمّ فَاطِرَ السّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}. صدق الله العظيم.

المبحث السادس

لقد رأينا في الآيات السابقة كيف ينقسم الناس عند سماع ذكر الله بين مشمئز ومستبشر، وكيف يوجه الله نبيه والمؤمنين إلى تفويض الأمر إليه سبحانه، فهو الذي يحكم بين عباده. والآن تأتي هاتان الآيتان لتكشفا لنا الستار عن المشهد الأخير، مشهد يوم القيامة، حيث تنكشف الحقائق، ويزول كل وهم، ويواجه الظالمون حقيقة ما كانوا يكذبون به. إنهما آيتان ترسمان صورة مرعبة للندم و الخسران، وتكشفان عن المفاجآت المذهلة التي تنتظر من ظلم نفسه وظلم الحق.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48)} [الزمر: 47-48].

تأمل معي هذا المشهد المهيب الذي يرسمه القرآن في كلمات قليلة لكنها تحمل من المعاني ما يهز القلوب الحية. إنه ينقلنا من جدل الدنيا وخلافاتها، إلى حقيقة الآخرة وأهوالها، ليكشف لنا حقيقة موقف هؤلاء الذين كانوا يشمئزون من ذكر الله ويستهزئون بوعيده.

#أبرز محاور الآيتين في سطور

· تصوير شدة الندم والخسران يوم القيامة: حيث يتمنى الظالم أن يفتدي نفسه بملء الأرض ذهباً وزيادة، فلا يُقبل منه.
· مفاجأة "ما لم يكونوا يحتسبون": ظهور حقائق غائبة عن أذهانهم، سواء من عفو الله أو شدّة عذابه ، أو ظهور أعمالهم التي كانوا يظنونها هينة.
· ظهور قبح السيئات التي اكتسبوها: "وبدا لهم سيئات ما كسبوا" أي تجسدت لهم أعمالهم القبيحة التي كانوا يستهينون بها في الدنيا.
· تحقيق الوعيد الذي كانوا يستهزئون به: "وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون" أي أحاط بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به ويسخرون من المنذرين.
· ربط المشهد بالسياق السابق: فبعد أن استبشروا بآلهتهم واشمأزوا من التوحيد، ها هم يرون العذاب الذي كذبوا به، وتظهر لهم حقيقة ما كانوا يفعلون.

الأمر الأول: مشهد الندم العظيم والافتداء المستحيل) ولو أن للذين ظلموا(...

1دلالة أداة الشرط "لو":
"لو" هنا شرطية امتناعية، تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط .والمعنى: أنهم لو ملكوا هذا المقدار الهائل من الثروة، لكانوا يفتدون به أنفسهم من العذاب، ولكن هيهات هيهات! فهم لا يملكون شيئاً يوم القيامة، وحتى لو ملكوا، فإن هذا الافتداء غير مقبول منهم .إنها أداة تزيد المشهد إيلاماً، فهي تفيد استحالة الخلاص واستحكام اليأس.

2من هم "الذين ظلموا"؟
هم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فظلموا أنفسهم بالشرك بالله، وظلموا الحق بإنكاره، وظلموا الناس بصدهم عن سبيل الله. وفي سياق السورة، هم أولئك الذين اشمأزت قلوبهم من ذكر الله وحده ، واستبشروا بذكر الذين من دونه. هم الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله. هذا الظلم العظيم هو الذي أوردهم هذا المورد المهلك.

3تحليل المبلغ المفترض للافتداء: "ما في الأرض جميعاً ومثله معه":
هذا تصوير لأعلى درجات الغنى التي يمكن تصورها. "ما في الأرض جميعاً" أي كل ما في الأرض من كنوز وأموال ونفائس. "ومثله معه" أي ضعف ذلك. فلو كان للواحد منهم ملء الأرض ذهباً ومثلها معه، لبذله كله في لحظة واحدة طمعاً في الخلاص من {سُوءِ العَذَابِ}. هذا التصوير يكشف عن أمرين:

· شدة فظاعة العذاب: الذي يجعل كل غالي ورخيص في الدنيا لا قيمة له في مقابل لحظة تخفيف عنه.
· شدة الندم واليأس: الذي يجعلهم مستعدين للتضحية بكل شيء، ومع ذلك لا يُقبل منهم.

4ربط هذا المشهد بالواقع الدنيوي) مثال تقريبي(:
تخيل أن رجلاً غنياً جداً ارتكب جريمة عظيمة، وحُكم عليه بالإعدام بطريقة مروعة وبطيئة. وعُرض عليه أن يفتدي نفسه بكل ما يملك، بل وبضعف ما يملك. ألن يبذل كل شيء؟ بلا شك. ثم يُقال له: إن أموالك لا تقبل، فأنت هالك لا محالة. كيف سيكون شعوره؟ إنه مزيج من الرعب والندم

واليأس الذي لا يوصف. هذا المشهد الذي ترسمه الآية أعظم وأفظع، لأن العذاب ليس إعداماً ينتهي في لحظة، بل هو {سُوءُ العَذَابِ} أي العذاب الشديد الفظيع، و {عَذَابٌ مُّقِيمٌ} دائم لا ينقطع.
#الأمر الثاني: المفاجأة الكبرى) وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون(

1معنى "بدا لهم":
"بدا" أي ظهر وانكشف .وليس مجرد ظهور عادي، بل هو ظهور بعد خفاء، وانكشاف بعد ستر .في الدنيا، كانوا في غفلة عن هذا كله، أو كانوا يكذبون به .أما في ذلك اليوم، فتنكشف الحقائق انكشافاً لا يحتمل الشك ولا الإنكار.

2ما هو "ما لم يكونوا يحتسبون"؟
هذه الجملة من أشد الجمل في القرآن وقعاً على النفس. "يحتسبون" أي يظنون أو يقدرون في حسابهم. فظهر لهم من أمر الله وعقابه ما لم يكن في حسبانهم أبداً. وقد ذكر المفسرون عدة أوجه لما يظهر لهم، وكلها محتمل، وهو من عظمة القرآن أن يحتمل أوجهاً كلها مرعبة:

· ظهور شدّة العذاب وأنواعه: فقد كانوا يظنون أن الأمر هين، أو أن العذاب مجرد كلام، أو أنهم لن يبعثوا .فإذا بهم يواجهون أهوالا ً لم تخطر لهم على بال.
· ظهور أعمالهم التي كانوا يظنونها حسنة: فقد كانوا يفعلون أعمالا ً يظنونها قربات) كالطواف بالبيت عراة، أو عبادة الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى(، فإذا بها تظهر يوم القيامة سيئات موجبة للعذاب.
· ظهور عفو الله عن المؤمنين: وهذا وجه آخر .أي ظهر للمشركين من رحمة الله وعفوه عن أهل الإ يمان ما لم يكونوا يحتسبون، فيزدادون حسرة وندامة حيث حرموا أنفسهم من هذا العفو العظيم.

· ظهور قبول الشفاعة في المؤمنين: أي ظهر لهم أن شفاعة الشافعين إنما هي للمؤمنين الموحدين، لا للمشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله.

3الأثر النفسي لهذه المفاجأة:
مفاجأة "ما لم يكونوا يحتسبون" تولد حالة من الصدمة النفسية والذهول تفوق كل وصف. إنها لحظة تنهار فيها كل المفاهيم والتصورات التي بنوا عليها حياتهم في الدنيا. لقد كانوا يعيشون في وهم، وا لآن انكشف الوهم، وظهرت الحقيقة المرة. هذه الصدمة هي بحد ذاتها عذاب نفسي فوق العذاب الجسدي.

الأمر الثالث: ظهور قبح الأعمال ومحاصرة العذاب) وبدا لهم سيئات ما كسبوا(...

1"وبدا لهم سيئات ما كسبوا":
هذه مفاجأة أخرى. "سيئات ما كسبوا" أي الأعمال القبيحة التي اكتسبوها في الدنيا. وهنا عدة دلالات:

· تجسيد الأعمال: فالأعمال تتجسد ويراها أصحابها .فكما قال تعالى:} يَوْمَ تجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا] {آل عمران: .[30 فيرون أعمالهم السيئة حاضرة أمامهم، قبيحة المنظر، كريهة الرائحة.
· انقلاب الموازين: كانوا في الدنيا يرون أعمالهم حسنة أو على الأقل غير مؤثرة .أما في الآخرة، فتنكشف حقيقتها القبيحة .وهذا أشد ما يكون حسرة: أن ترى ما كنت تحبه وتفتخر به قد أصبح سبب عذابك وهوانك.
· السيئات التي كانوا يحتسبونها حسنات: كما قال تعالى عن بعضهم:} قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا] {الكهف:103 -.[104

2"وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون":
"حاق" أي نزل وأحاط بهم من كل جانب .وما هو هذا الذي حاق بهم؟ إنه العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا .لقد كان النبي ﷺ ينذرهم عذاب الله، فكانوا يستهزئون ويقولون:} مَتَىٰ هَٰذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] {يس: .[48 والآن، ها هو الوعد قد أصبح حقيقة واقعة، وأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، فلا مفر ولا مهرب.

3دلالة الربط بين الاستهزاء والإحاطة بالعذاب:
هذا الربط عادل جداً. فبمقدار ما كانوا يستهزئون بآيات الله ووعيده، يأتيهم العذاب محيطاً بهم من كل جانب. إنها قاعدة: الجزاء من جنس العمل. وكما قال تعالى: {ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ} [غافر: 75].
الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (تصحيح مسار المشاعر وإعادة التقييم)

· فهم حقيقة الندم وأهميته قبل فوات الأوان:
الندم في الآخرة لا ينفع .هذه الآية توقظ في النفس البشرية ضرورة الندم في الدنيا) التوبة (قبل يوم لا ينفع فيه الندم .إنها تجعل المؤمن يستحضر هذا المشهد كلما هم بمعصية، فيسأل نفسه: هل ستندم على هذا الفعل يوم القيامة؟ هل سيكون هذا العمل من سيئات ما كسبت التي ستبدو لك قبيحة؟ هذا الاستحضار يبني في النفس رقيباً داخلياً قوياً.
· التخلص من وهم "الاحتساب الخاطئ":
كثير من الناس يحسبون أنهم على خير، وهم يرتكبون المنكرات .هذه الآية تحذر من هذا الوهم القاتل .إنها تدعو المؤمن إلى محاسبة نفسه بدقة، وإلى عرض أعماله على ميزان الشرع، لا على ميزان هواه أو ظنه .فلا يكفي أن تحتسب عملك خيراً، بل يجب أن يكون خيراً في ميزان الله.
· علاج الاستهانة بالذنوب وصغائرها:
"سيئات ما كسبوا" تشمل كل سيئة، كبيرة كانت أم صغيرة .فرؤية هذه السيئات مجتمعة يوم القيامة وقبيحة المنظر تجعل المؤمن يخاف حتى من صغائر الذنوب .إنه علاج نفسي فعال ضد الا ستهتار والاستهانة بمعصية الله.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية (ترسيخ عقيدة البعث والجزاء)

· اليوم الآخر حقيقة لا مفر منها:
هذه الآية ترسم صورة حية ليوم القيامة، تجعله وكأنه ماثل أمام العين .وهذا الأسلوب التصويري في القرآن يهدف إلى ترسيخ عقيدة البعث في النفوس، لا كفكرة نظرية، بل كحقيقة يقينية تؤثر في السلوك.
· عدل الله المطلق في الجزاء:
"وبدا لهم سيئات ما كسبوا" و"وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون" تدل على أن الجزاء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل .فالله لا يظلم أحداً، وإنما يجازي كل إنسان بما كسبت يداه .هذا المفهوم يبني في العقل فكرة العدالة الإلهية التي لا تتخلف.
· خطورة الاستهزاء بالدين ورموزه:
الاستهزاء ليس مجرد خطأ سلوكي، بل هو جريمة عظيمة تؤدي إلى الإحاطة بالعذاب .هذا التحذير القرآني يؤسس لاحترام المقدسات، ويحذر من التساهل في السخرية من الدين وأهله.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن الخائف الوجل)

· تربية النفس على الخوف من سوء الخاتمة:
مشهد الندم والافتداء المستحيل يغرس في النفس خوفاً محموداً من أن يكون الإنسان من الذين ظلموا أنفسهم .هذا الخوف يدفع المؤمن إلى دوام المراقبة والمحاسبة، وإلى الإكثار من الاستغفار و التوبة.
· تربية النفس على أخذ الإنذارات الإلهية بجد:
كثير من الناس يسمعون آيات الوعيد ولا تتأثر قلوبهم .هذه الآية تقول لكل مؤمن: لا تكن من الذين يستهزئون بالوعيد فيحيق بهم .خذ كل إنذار بجد، واعمل له حسابه .هذه التربية تجعل المؤمن حذراً يقظاً، وليس غافلا ً مغروراً.
· تعليم الأبناء خطورة الكلمة والسخرية:
نربي أبناءنا ألا يستهزئوا بأحد بسبب دينه أو شكله، وألا يسخروا من آيات الله وأحاديث رسوله . نشرح لهم أن هذا الفعل قد يكون سبباً في العذاب يوم القيامة .هذا يبني فيهم شخصية وقورة تحترم الحق وتجله.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتوازن بين الخوف والرجاء:
هذه الآيات تبني إنساناً لا يأمن مكر الله، فيعمل الصالحات ويخاف من سوء العاقبة .وهذا الخوف ليس خوفاً مرضياً، بل هو خوف محمود يدفع للعمل والإنتاج، ويمنع من التمادي في الباطل .هذا هو الإنسان السوي الذي يبني ولا يهدم.
· بناء مجتمع قائم على الجدية واحترام القيم:
عندما يؤمن أفراد المجتمع بأن هناك يوماً ستظهر فيه الحقائق، وأن الاستهزاء بالقيم سيكون وبالا ً على صاحبه، فإن هذا المجتمع سيكون مجتمعاً جاداً، يحترم قيمه وثوابته، ولا يتساهل في السخرية منها .هذا هو المجتمع المتماسك الذي يحمي هويته.

· إسهام الآية في التنمية البشرية) تقدير قيمة الوقت والعمل(:
معرفة أن الإنسان سيرى سيئات ما كسب، وأنه سيتمنى لو يفتدي نفسه بملء الأرض ذهباً، تجعله يقدر قيمة كل لحظة في حياته .فلا يضيعها في اللّهو والاستهزاء، بل يستثمرها في العمل الصالح . هذا التقدير للوقت هو من أهم محفزات الإنتاج والتنمية.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الإنسانية الراقية:
الحضارة التي تقوم على أفراد يؤمنون بالحساب والجزاء، هي حضارة تزدهر فيها الأخلاق والقيم .ف الخوف من يوم تظهر فيه السيئات يمنع من الفساد والظلم .والأمل في ثواب الله يدفع للعدل والإ حسان .هذا التوازن هو الذي يبني الحضارة الإنسانية الحقة التي تسعد البشرية جمعاء.

#الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تغريك المعصية وتزين لك نفسك فعلها:
توقف قليلا ً، واستحضر هذا المشهد .تخيل نفسك يوم القيامة، وهذا العمل السيئ الذي تريد فعله قد ظهر أمامك في أقبح صورة، وأنت تتمنى لو تفتدي نفسك منه بكل ما تملك .هل تستحق لحظة المتعة العابرة هذه كل هذا الندم؟ هذا الاستحضار سيطفئ نار الشهوة، ويردك إلى رشدك.
· عندما ترى الظالمين والمستهزئين بالدين وهم في نعيم وازدهار:
لا تغتر بحالهم، ولا تحزن على ما هم فيه .تذكر هذه الآية:} وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ .{اعلم أن ما هم فيه متاع قليل، وأن ما ينتظرهم من سوء العذاب شيء لا يخطر على ب ال .هذا اليقين يملأ قلبك صبراً ورضاً.
· في دعوة الآخرين إلى الله:
استخدم أسلوب القرآن في التصوير والتأثير .عندما تدعو الناس إلى ترك المنكرات، لا تكتفِ بالأمر والنهي الجافين .اقرأ عليهم هذه الآية، وصوّر لهم مشهد الندم والافتداء المستحيل .هذا الأسلوب القصصي والتصويري أبلغ في التأثير على القلوب من ألف محاضرة نظرية.
· في تربية أبنائك على الخوف من عذاب الله:
احكِ لهم هذه القصة بأسلوب مبسط .قل لهم: "تخيلوا أن أحداً أخطأ خطأ كبيراً، وعُرض عليه أن يدفع كل ألعابه وكل أمواله كي ينجو من العقاب، ولكنه لم يُقبل منه .هكذا سيكون حال من يموت على الكفر والمعاصي يوم القيامة" .هذا الأسلوب يغرس في قلوبهم الصغيرة هيبة الله وخوفه بطريقة محببة ومؤثرة.
· عندما تستهزئ نفسك بأمر من أوامر الله، أو تسخر من شخص ملتزم:
ارتدع فوراً .وتذكر أن هذا الاستهزاء قد يكون سبباً في أن يحق بك العذاب .تب إلى الله، واستغفره، واعزم على تعظيم شعائره وأوليائه .فمن أمن العقوبة أساء الأدب.

#الخاتمة: يوم تنكشف الحقائق ويزول كل وهم

بهذا نكون قد طوينا معاً صفحات هاتين الآيتين الكريمتين، وقد استخرجنا منهما دروساً وعبراً توقظ الغافل، وتثبت المؤمن. لقد رأينا كيف أن الآخرة هي يوم المفاجآت، يوم تنكشف فيه الحقائق التي غفل عنها الناس في الدنيا. رأينا مشهد الندم العظيم، حيث يتمنى الظالم أن يفتدي نفسه بكل كنوز ا لأرض، فلا يُقبل منه. ورأينا كيف تظهر السيئات التي كانوا يحتقرونها قبيحة مخزية، وكيف يحيق بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به.

إنهما آيتان تدعوان كل عاقل إلى أن يراجع حساباته قبل فوات الأوان، وأن يستعد لذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فلنعد لذلك اليوم عدته، ولنجعل من هذه الآيات نبراساً يضيء لنا طريق الحياة، ويدفعنا إلى العمل الصالح واجتناب السيئات.

القسم الثالث

المبحث الأول

لقد مررنا معًا في الآيات السابقة على مشاهد عظيمة من أهوال يوم القيامة، ورأينا كيف يندم الظالمون ويتمنون الافتداء بملء الأرض ذهبًا. والآن، تأتي هذه الآية لتكشف لنا عن طبيعة إنسانية متكررة، عن مشهد يتجسد في حياة الكثيرين، لتربط بين غفلتهم في الرخاء وإقرارهم بالحق في الشدة. إنها آية تكشف حقيقة النفس البشرية عندما تخلو من الإيمان الصادق، وتكشف كيف يكون الإ نسان عبدًا لهواه، جهولا ً بنعم ربه.

يقول الله سبحانه وتعالى: {فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 49].

تأمل معي هذا النص القرآني المعجز في وصفه للنفس البشرية. إنه يرسم لنا صورة دقيقة لطبيعة الإ

إنسان عندما تخلو نفسه من التقوى الحقيقية. إنها صورة للتناقض العجيب: إقرار بالربوبية في الشدة، وجحود بالنعمة في الرخاء. إنها آية تكشف لنا عن مرض عضال هو "العُجب والكبر"، وعن فتنة عظيمة هي "فتنة النعمة"، وكيف تؤدي هذه الفتنة بصاحبها إلى الشرك والهلاك وهو لا يشعر.

#أبرز محاور الآية في سطور

· كشف حقيقة الفطرة الإنسانية عند الشدائد: حيث تزول الركام عن الفطرة السليمة، فيلجأ الإنسان إلى الله وحده طالبًا النجاة.
· بيان طبيعة الإنسان الجحود عند الرخاء: حيث ينسى الشدة وينسب النعمة إلى نفسه وعلمه وخبرته، لا إلى فضل الله.
· تصحيح المفهوم الخاطئ: النعمة فتنة وليست دليل كرامة دائمًا: "بل هي فتنة" أي اختبار وابتلاء، قد يكون استدراجًا لصاحبه.
· التحذير من العُجب والكبر وعبادة الهوى: فهذه الأمراض القلبية تجعل الإنسان ينصب نفسه إلهًا، فيعبد هواه ويقع في الشرك الخفي.
· بيان أن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة هذه الفتنة: "ولكن أكثرهم لا يعلمون"، فهم يفرحون بالنعمة ويغترون بها، ولا يدرون أنها قد تكون سبب هلاكهم.

#الأمر الأول: الإنسان عند الشدة) فإذا مس الإنسان ضر دعانا(

1دلالة "مس" و"ضر":
"مس" تفيد اللمس الخفيف .فلم يقل "أصابه ضر عظيم" بل "مسه ضر" .وهذا يدل على أن الإنسان ضعيف جدًا، حتى أدنى ضر يصيبه) مرض خفيف، ضائقة مالية بسيطة، خوف مفاجئ (يغير حاله ويقلب كيانه، ويزيل تلك الركام التي كانت تغطي فطرته .وأما "ضر" فتشمل كل ما يسوء الإنسان في نفسه أو ماله أو أهله.

2كيف تزول الركام عن الفطرة في الشدة؟
في حالة الرخاء والأمن، تتراكم على الفطرة الإنسانية السليمة (التي فطرها الله على توحيده) طبقات من الغفلة والغرور والأهواء والشهوات. هذه الطبقات تحجب عنه رؤية الحق، وتجعله يغفل عن ربه. فإذا جاءت الشدة، وانقطعت به الأسباب المادية، وتخلى عنه كل من كان يعتمد عليهم، انكشفت هذه الطبقات فجأة، وعادت الفطرة إلى نقائها الأول. في تلك اللحظة، لا يجد الإنسان ملجأ إلا الله وحده.

3معنى "دعانا":
"دعانا" أي لجأ إلينا بالدعاء والتضرع والاستغاثة .وهذه الدعوة تكون خالصة لله وحده، لا شريك له . فهو في هذه اللحظة ينسى كل ما كان يدعوه من دون الله من أصنام أو بشر أو قوى .إنه يعترف فطريًا بأن الله وحده هو القادر على كشف الضر .وهذا هو معنى قوله تعالى في آية أخرى:} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ] {الإسراء:.[67

4مثال تقريبي:
تخيل معي رجلا ً ملحدًا أو غافلا ً، لا يصلي ولا يذكر الله، بل ويسخر من المتدينين. يركب سفينة في البحر، فتهب عاصفة هوجاء، وتتلاعب الأمواج بالسفينة، ويشرف الجميع على الغرق. في تلك اللحظة الحرجة، أين ستتجه فطرته؟ سترفع يديه إلى السماء وتقول: "يا رب، يا رب!". لقد زالت الركام، وعادت الفطرة إلى ربها. هذا هو معنى {فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا}.
الأمر الثاني: الإنسان عند الرخاء) ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم(

1دلالة الانتقال ب- "ثم":
"ثم" للترتيب مع التراخي .فهي تدل على أنه بعد زوال الشدة بمدة من الزمن، وليس فورًا .فالإنسان بعد نجاته مباشرة قد يكون شاكرًا، لكن مع مرور الأيام ونسيان الشدة، يعود إلى غفلته وجحوده.

2تحليل كلمة "خولناه":
"خولناه" من "التخويل"، وهو التمليك والتسليط على الشيء .فالله سبحانه وتعالى هو الذي ملكه هذه النعمة، وجعله يتصرف فيها .وفي هذا إشارة إلى أن النعمة هي عطاء محض من الله، وليست استحقاقًا ذاتيًا من الإنسان.

3دلالة "نعمة منا":
التأكيد على "منا" أي من لدنا ومن فضلنا. وهذا يزيد الأمر وضوحًا: أن مصدر النعمة هو الله وحده. فكيف بعد هذا ينسبها الإنسان إلى نفسه؟!

4تحليل قوله "إنما أوتيته على علم":
هذه هي العبارة الخطيرة التي تعبر عن جحود الإنسان وكبره. فهو بعد أن نجّاه الله من الشدة، وأغدق عليه النعم، يقول: "إنما حصلت على هذه النعمة بسبب علمي أنا، وبسبب خبرتي وذكائي وتجربتي وفهمي للحياة". كلمة "على علم" تشمل عدة معان:

· علم يخصه هو: أي بسبب معرفتي ودراستي وتخصصي.
· علم من الله بفضلي: أي أن الله أعطاني إياها لأنه يعلم أني أهل لها وأستحقها.
وهذا كله من الكبر والعجب بالنفس، ونسيان لفضل الله.

5مثال تقريبي) مشهد من واقع الحياة(:
شاب بدأ مشروعه التجاري الصغير، وكان في البداية فقيرًا يدعو الله ليل نهار أن يوسع عليه رزقه. تعرض لخسائر كادت تقضي عليه، فكان يبكي في سجوده ويستغيث بالله. ثم كتب الله له النجاح، وبدأ مشروعه يزدهر ويكبر. وبعد سنوات، إذا سألته عن سر نجاحه، قال لك بكل ثقة وكبر: "أنا عصامي! بنيت نفسي بنفسي. سر نجاحي هو ذكائي في السوق، وفهمي لعلم الإدارة الحديثة". نسي ا لأيام التي كان يبكي فيها بين يدي الله. نسي أنه كان فقيرًا معدومًا. هذه هي الآية تتجسد أمامك.
الأمر الثالث: التصحيح الإلهي للمفهوم) بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون(

1"بل" للإضراب والتصحيح:
"بل" تفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده .فكأن الله يقول: ليس الأمر كما زعم هذا الإنسان الجحود من أن النعمة أتته لعلمه واستحقاقه، بل الحقيقة هي شيء آخر تمامًا.

2ما معنى "هي فتنة"؟
"فتنة" أي اختبار وابتلاء واستدراج .فالنعمة التي بين يديه ليست دليل محبة من الله أو كرامة له ب الضرورة، بل هي اختبار ليرى الله كيف يتصرف هذا العبد: أيشكر أم يكفر؟ أيتواضع أم يتكبر؟ أينسب الفضل لله أم لنفسه؟ وكما قال تعالى:} وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً] {الأنبياء:.[35

3كيف تكون النعمة فتنة واستدراجًا؟
النعمة قد تكون استدراجًا من الله للعبد، حيث يغدق عليه النعم وهو مقيم على معاصيه وجحوده، فيظن أن الله يحبه، فيزداد غرورًا وبعدًا عن الله، حتى يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر. قال تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: 182]. فالنعمة في هذه الحال ليست خيرًا، بل هي شر مستطير، لأنها أدت بصاحبها إلى الجحود والكبر، ومن ثم إلى الهلاك.

4"ولكن أكثرهم لا يعلمون":
هذه هي الخاتمة المؤلمة. أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة. يفرحون بالنعمة ويغترون بها، ويظنون أنها دليل رضا الله، بينما هي في الحقيقة وبال عليهم. لماذا لا يعلمون؟ لأنهم لا يتفكرون في عواقب الأمور، ولأن الغرور والكبر قد أعمى بصائرهم. إنهم لا يعلمون أن البلاء قد يكون في النعمة، كما أن النعمة قد تكون في البلاء.
الأمر الرابع: تحليل ظاهرة العُجب والكبر والجحود وآثارها

1كيف يوقع العُجب والكبر صاحبه في الهلاك؟
العُجب هو رؤية النفس بعين الاستحسان والكمال، والكبر هو احتقار الآخرين ورفض الحق. هذا الداء العضال هو أول ذنب عصي الله به، إنه ذنب إبليس. وهنا في هذه الآية، نرى كيف يوقع العبدَ في عدة مهالك:

· جحود نعمة الله: بنسبتها إلى نفسه، وهذا كفران يوجب زوال النعمة.
· الوقوع في الشرك الخفي: لأنه نصب نفسه إلهًا صغيرًا، وزعم أنه هو الخالق لنجاحه .وهذا عبادة للهوى.
· الانقطاع عن الدعاء والعبادة: لأنه صار يرى أنه مستغنٍ عن الله بما عنده من علم وقدرة.
· الاستدراج إلى عذاب مفاجئ: حيث يأخذه الله من حيث لا يحتسب، وهو في قمة غروره.

2كيف يؤدي جحود النعم إلى هلاك الإنسان؟
جحود النعم (الكفران) له عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة:

· في الدنيا: زوال النعمة وحلول النقمة .قال تعالى:} لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] {إبراهيم:.[7

· في الآخرة: العذاب الأليم بسبب الكفر والشرك والكبر.

3كيف ينصب الإنسان نفسه إلهًا ويعبد هواه؟
عندما ينسب الإنسان النعمة إلى ذاته وعلمه، فإنه يجعل من نفسه مركز الكون. هو الذي خلق، وهو الذي دبر، وهو الذي استحق. هذا هو معنى "عبادة الهوى". قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية: 23]. فالإنسان الذي لا يخاف الله في الرخاء، يجعل من نفسه حكمًا، ويتبع ما تهواه نفسه، فيقع في الشرك العملي، وهو لا يشعر.

4مثال تاريخي معاصر:
انظر إلى قارون، الذي قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي} [القصص: 78]. فماذا كانت عاقبته؟ {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ}. هذا هو الهلاك الذي ينتظر كل من سار على دربه. وفي عصرنا، كم من رجال أعمال ومشاهير قالوا مثل مقالة قارون، وإذا بهم ينهارون فجأة، وتذهب أموالهم وصحتهم ومكانتهم في لحظة.
الأمر الخامس: المفاهيم المستنبطة من الآية ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (تشخيص أمراض النفس وعلاجها)

· كشف ازدواجية الشخصية الإيمانية عند الكثيرين:
الآية تشخص حالة نفسية منتشرة: إيمان الشدة، وكفر الرخاء .فهي تنبه المؤمن إلى أن إيمانه يجب أن يكون ثابتًا في كل الأحوال، في السراء والضراء .وهذا التشخيص يدفع المؤمن إلى مراقبة نفسه في حال الرخاء أكثر من مراقبتها في الشدة.
· علاج العُجب والكبر بربط النعم بالمنعم:
علاج هذا الداء هو أن يرد الإنسان كل نعمة إلى الله .أن يقول دائمًا:} هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي] {النمل: 40].أن يعلم أن علمه وقوته وذكاءه هي أيضًا نعم من الله، لولا فضل الله لما حصل على شيء .هذا الرد المستمر للنعم إلى الله يطهر القلب من العُجب.
· التحذير من "فتنة النعمة" والاغترار بها:
كثير من الناس يخافون الفقر والمرض، ولا يخافون الغنى والصحة .هذه الآية تقلب المفاهيم، فتجعل المؤمن يخاف النعمة بقدر ما يخاف النقمة، بل قد تكون النعمة أشد فتنة .هذا الخوف المحمود يدفع المؤمن إلى دوام الشكر والتواضع، وإلى كثرة الدعاء بأن تكون النعمة عونًا له على الطاعة لا سببًا في الطغيان.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (تصحيح التصورات)

· الفرق بين العلم النافع والعلم المغرور:
الآية تفرق بين نوعين من العلم .العلم الذي ينسبه الإنسان إلى نفسه فيغتر به، والعلم الحقيقي الذي هو نور من الله يهدي به من يشاء، ويزيد صاحبه تواضعًا وخشية .فالعالم الحقيقي هو من قال: "إنما أوتيته على فضل من الله ورحمة".
· تأصيل عقيدة أن النفع والضر بيد الله وحده:
حتى العلم الذي يظنه الإنسان سببًا لغناه، هو في الحقيقة سبب خلقه الله وأجرى به العادة .فالشكر والجحود مؤثران في دوام النعمة وزوالها .وهذا يرسخ عقيدة التوكل على الله في كل الأحوال.
· فهم حكمة الابتلاء بالخير والشر:
الآية تعلمنا أن الخير والشر كلاهما ابتلاء .فكما يبتلى الإنسان بالضر ليرى صبره، يبتلى بالنعمة ليرى شكره .هذه النظرة المتوازنة تجعل المؤمن مستعدًا لكلا الحالين، فلا ييأس في الضراء، ولا يبطر في السراء.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن الشاكر)

· تربية النفس على الشكر في الرخاء:
أعظم ما تربي عليه هذه الآية هو دوام الشكر .أن يعود الإنسان نفسه أن يلهج لسانه بالحمد لله على كل نعمة .وأن يربي أبناءه على أن يقولوا دائمًا: "الحمد لله"، "هذا من فضل ربي" .هذه التربية تحصنهم من مرض الجحود والكبر.
· تعليم الأبناء أن النجاح من الله وليس منهم فقط:
عندما ينجح الابن في دراسته، لا تقل له: "أنت تستحق هذا لأنك ذكي ومجتهد" فقط، بل أضف: "الحمد لله الذي وفقك ويسر لك" .علمه أن يرد الفضل لله أولا ً .هذا يربيه على التواضع، ويحميه من الغرور المدمر.

· ربط قصص السابقين بواقع الأبناء:
احك لهم قصة قارون، وكيف قال مثل ما يقوله الكثيرون اليوم: "إنما أوتيته على علم عندي"، وكيف كانت نهايته .هذا الربط يجعل الآية حية في أذهانهم، وليس مجرد كلمات تاريخية.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتواضع المنتج:
الآية تبني إنسانًا يدرك أن كل ما لديه هو من فضل الله .هذا الإنسان يكون متواضعًا، يحب الخير للناس، ويعلم أن الله هو المعطي والمانع .هذا التواضع هو الذي يجعله محبوبًا ناجحًا في علاقاته، بعكس المغرور المتكبر الذي ينفض الناس من حوله.
· بناء مجتمع قوامه الشكر والتعاون:
عندما ينتشر ثقافة "هذا من فضل ربي" في المجتمع، فإنه يقل الحسد والتنافس المذموم .الكل يعلم أن الله قسم الأرزاق، فتقوى روح التعاون والتكافل .هذا المجتمع يكون مجتمعًا متماسكًا تسوده المحبة.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) الاستثمار الأمثل للنعم(:
عندما يعلم الإنسان أن النعمة فتنة ومسؤولية، فإنه يستثمرها فيما يرضي الله .يستثمر ماله في الخير، وعلمه في النفع، وصحته في الطاعة .هذا الفهم يحول النعمة من أداة للهلاك إلى وسيلة للبناء والتنمية .وهذا هو الاستثمار الحقيقي للنعم.
· إسهام الآية في بناء الحضارة المتوازنة:
الحضارة التي تغتر بنفسها وتنسب إنجازاتها إلى عبقرية الإنسان فقط، هي حضارة تحمل بذور فنائها، لأنها ستسقط في الكبر والجبروت .أما الحضارة التي تؤمن بأن ما أوتيت من علم وقوة هو من فضل الله، فهي حضارة متواضعة، متوازنة، مستدامة، لأنها تتبع منهج الله الذي لا يتغير.
الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تبتلى بمرض أو ضائقة مالية:
لا تجزع، بل اعتبر هذا البلاء فرصة لتصفية فطرتك .توجه إلى الله بصدق، وتذكر أنه ربما أرسل إليك هذه الشدة لتعود إليه، فاحمد الله على هذه الصحوة، واسأله أن يثبتك بعد زوال الشدة.
· عندما تحقق نجاحًا في دراستك أو عملك أو تجارتك:
احذر كل الحذر من أن تقول في نفسك: "أنا فعلت هذا بذكائي وتعبي" .قل فورًا وبصوت عال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات" ، "هذا من فضل ربي" .تذكر أن تعبك وذكاءك هما أيضًا من فضل الله عليك .أكثر من سجود الشكر، واجعل شكرك عمليًا بالصدقة ومساعدة المحتاجين.
· في تربية أبنائك على تجنب الكبر:
إذا رأيت ابنك يتباهى بملابسه الجديدة أو لعبته الثمينة، ذكره بلطف بقصة قارون .قل له: "يا بني، هذه نعمة من الله، فاحمد الله عليها، ولا تتكبر بها على أصدقائك، فالله هو الذي أعطاك إياها، وهو قادر على أن يأخذها منك" .هذا الأسلوب يربي فيه التواضع منذ الصغر.
· عندما ترى شخصًا يتباهى بنفسه وينسب نجاحه لذاته:
لا تحسده ولا تغضب، بل أشفق عليه .هو واقع في فتنة لا يعلمها .ادعُ له في ظهر الغيب بأن يبصره الله بحقيقة نفسه، وبأن النعمة من الله .وتذكر أن هذا المغرور قد يكون غدًا عبرة لمن اعتبر.
· في دعوتك للآخرين:
استخدم هذه الآية لتوقظ الغافلين .قل لمن تراه مغرورًا بماله أو علمه: "يا أخي، ألا تخاف أن يكون هذا المال فتنة واستدراجًا لك؟ ألا تخاف أن تكون مثل قارون؟" .هذا الأسلوب الحكيم قد يكون سببًا في صحوته.
الخاتمة: بين شدة توقظ ورخاء يغفل

بهذا نكون قد أتممنا تفسير هذه الآية العظيمة، التي ترسم لنا صورة متكاملة لطبيعة الإنسان المتقلب. لقد رأينا كيف أن الشدة تكشف الفطرة السليمة وتعيد الإنسان إلى ربه، وكيف أن الرخاء والنعمة قد تكون غطاءً كثيفًا يعمي البصيرة ويوقع في الجحود والكبر والعُجب.

إنها آية تدعونا جميعًا إلى الثبات. أن نكون في الرخاء كما نحن في الشدة: عبادًا لله شاكرين ذاكرين. ألا نغير من حالنا مع الله إذا تغيرت أحوالنا. أن ننظر إلى كل نعمة على أنها فتنة واختبار، فنسأل الله أن يعيننا على شكرها، وألا يجعلها سببًا في بعدنا عنه.
المبحث الثاني
نقف اليوم مع آيتين تمثلان قاعدة صلبة في فهم التاريخ وسنن الله في الأمم. إنهما تكملان الصورة التي بدأتها الآية السابقة عن طبيعة الإنسان الجحود، لتخبرانا أن هذه الطبيعة ليست فردية عابرة، بل هي سمة متأصلة في نفوس الكافرين عبر التاريخ، وأن لها عاقبة محتومة لا تتخلف.

يقول الله سبحانه وتعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (51)} [الزمر: 50-51].

تأمل معي هذا الربط العجيب بين الماضي والحاضر، وبين الأقوال والأفعال والعواقب. بعد أن كشفت الآية السابقة عن نموذج الإنسان الذي يقول عند النعمة {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ}، تأتي هاتان الآيتان لتؤكدا أن هذه المقولة ليست بدعًا من القول، بل هي مقالة الأمم الكافرة الغابرة. ثم تكشفان عن السنة الإلهية التي لا تتبدل: إن الجزاء من جنس العمل، وإن البغي يعود على صاحبه، وإن النعم إذا لم تشكر كانت نقمًا.
#أبرز محاور الآيتين في سطور
· بيان أن جحود النعم وادعاء العلم الذاتي سمة متأصلة في الكافرين عبر التاريخ: "قد قالها الذين من قبلهم".
· تقرير سنة إلهية ثابتة: أن الأموال والمكاسب المادية لا تغني عن أصحابها شيئًا عند نزول العذاب: "فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون".
· توضيح آلية الجزاء: إصابتهم بسيئات ما كسبوا: أي عوقبوا بذنوبهم التي اقترفوها، ومنها الكبر و الجحود.
· ربط الماضي بالحاضر والمستقبل: تهديد مباشر لمشركي مكة ولكل من سار على دربهم بأن العاقبة ستكون واحدة: "والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا".
· التأكيد على أنهم لن يعجزوا الله هربًا: "وما هم بمعجزين" أي لا يمكنهم الفرار من عقاب الله.
الأمر الأول: تأصيل الظاهرة وربطها بالتاريخ) قد قالها الذين من قبلهم(

1دلالة "قد" في قوله "قد قالها":
"قد" هنا للتحقيق والتوكيد .فالله يؤكد لنبيه وللمؤمنين أن هذه الكلمة التي قالها هذا الإنسان الجحود في الآية السابقة} إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ {ليست كلمة عابرة طارئة، بل هي كلمة متكررة، قالها الظالمون عبر التاريخ .إنها تأكيد على أن هذه العقلية) عقلية الجحود والكبر ونسبة النعم للذات (هي عقلية ثابتة عند الكافرين في كل زمان ومكان.

2لماذا يخبرنا القرآن بأن السابقين قالوها؟
لهدفين عظيمين:

· الأول: تسلية النبي ﷺ والمؤمنين .فكأن الله يقول لهم: لا تحزنوا ولا تتعجبوا مما يقوله هؤلاء، فما هو إلا امتداد لقول من قبلهم .هذا يخفف وقع الكلمات على النفس المؤمنة، ويجعلها ترى الأمر في سياقه التاريخي.
· الثاني: إقامة الحجة على الكافرين .فالتاريخ بين أيديهم، يعرفون مصارع من سبقهم، فلماذا يكررون نفس الأقوال والأفعال؟ إنه توبيخ ضمني على عدم اعتبارهم بالماضي.

3من هم "الذين من قبلهم"؟
هم الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وبطرت النعمة، واغترت بقوتها ومالها وعلمها. وأبرز مثال يتبادر إلى الذهن هو قارون، الذي قال لموسى عليه السلام لما وعظه: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي} [القصص: 78]. فكانت عاقبته الخسف. وكذلك فرعون الذي قال: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} [الزخرف: 51]. وأمم عاد وثمود الذين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: 15]. كل هؤلاء قالوا بلسان حالهم أو مقالهم: نحن أصحاب الفضل على أنفسنا، ونحن الذين حققنا هذه القوة والملك بعلمنا وجهدنا.

4أهمية هذا التحليل في فهم نفسية الأعداء:
هذه الآية تعطينا مقياسًا ذهبيًا لفهم عقلية الكافرين والمعاندين للحق في كل عصر. إنهم يتشابهون في الأسباب والدوافع:

· الجهل باليوم الآخر: فهم لا يؤمنون بالحساب، فلذلك يغترون بالدنيا.
· الغرور والكبر: يجعلهم ينسبون كل فضل لأنفسهم، وينكرون فضل الله.
· عدم الاعتبار بالتاريخ: عقولهم لا تتعظ بما حدث للسابقين، لأن الكبر أعمى أبصارهم.

عندما تفهم هذه النفسية، تعرف كيف تتعامل معهم، وكيف توجه خطابك لهم. إنك لا تواجه مجرد أشخاص، بل تواجه نمطًا نفسيًا متكررًا في التاريخ، كشفه الله لنا لنكون على بصيرة.

#الأمر الثاني: فشل الرصيد المادي في دفع العذاب) فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون(

1تحليل "فما أغنى عنهم":
الفاء للتعقيب والترتيب. أي أن نتيجة هذا القول وهذا الفعل (الجحود والكبر) كانت حتمية وفورية: إن ما جمعوه من أموال ومكاسب لم يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله.

2ما هو "ما كانوا يكسبون"؟
يشمل كل ما كسبوه وحصّلوه في الدنيا:

· الأموال والثروات: من ذهب وفضة وعقارات ومتاع.
· الجاه والسلطان: النفوذ والقوة والملك.
· الأولاد والأعوان: القبائل والجيوش والحاشية.
· العلم والخبرة الدنيوية: التي كانوا يتباهون بها وينسبون نعمهم إليها.

كل هذا الرصيد المادي الهائل، الذي كانوا يظنون أنهم به في منعة من أي سوء، لم يغن عنهم من الله شيئًا. لحظة نزول العذاب، تهاوت كل هذه الحصون الوهمية، وأصبحوا صفر اليدين.

3دلالة هذا التعبير على فشل الحضارات المادية:
هذه الآية تقدم درسًا بليغًا في فلسفة التاريخ: الحضارة التي تقوم على الماديات فقط، وتنسى خالقها، مصيرها الزوال والدمار. فالمباني الشاهقة، والقلاع الحصينة، والجيوش الجرارة، والاقتصادات العظيمة، كلها لا تستطيع أن تصد أمر الله. كما قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: 78].

4مثال تاريخي وشاهد حضاري) قارون وفرعون(:

· قارون: كان لديه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة .خرج على قومه في زينته، فتمنى الكثيرون أن يكونوا مثله .فلما أمر الله الأرض أن تبتلعه، أين كانت كنوزه؟ لم تغن عنه شيئًا.
· فرعون: ملك مصر، قال: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي" .جمع جيشه وجنوده، وادعى الألوهية .فلما جاء أمر الله، أغرقه وجنوده في اليم، ولم ينفعه ملكه ولا جبروته.

هذه الشواهد التاريخية تثبت أن الرصيد الحقيقي الذي ينفع الإنسان هو الإيمان والعمل الصالح، وليس الأموال والقصور. ففي الآخرة، لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.
الأمر الثالث: قانون الجزاء العادل) فأصابتهم سيئات ما كسبوا(

1معنى "سيئات ما كسبوا":
هذه الجملة تحمل معنيين متكاملين:

· الأول: الجزاء والعقاب على سيئاتهم .فما كسبوه من الذنوب والمعاصي) كالجحود والكبر والشرك (كان جزاؤه العذاب الذي أصابهم.
· الثاني: أن أعمالهم السيئة نفسها انقلبت عليهم .فكسبهم للأموال بالباطل، وجحودهم للنعم، واغترارهم بقوتهم، كل هذه السيئات تحولت إلى نقم وعذاب أحاط بهم.

2كيف تنقلب النعمة إلى نقمة بسبب الكفران؟
هذا هو بيت القصيد. النعمة في أصلها خير. ولكن إذا قابلها الإنسان بالكفر والجحود، فإن الله يسلبها منه، ويجعلها وبالا ً عليه. المال الذي كان سببًا في تكبره وطغيانه، يصبح سببًا في عذابه. الأولاد الذين كانوا يتباهى بهم، يصبحون فتنة له. العلم الذي كان يغتر به، يصبح حجة عليه. هذا هو معنى {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}.

3ربط الآية بالامتحان الإلهي) النعمة فتنة(:
كما بينت الآية السابقة أن النعمة {فِتْنَةٌ} أي اختبار، فإن هذه الآية تبين نتيجة الفشل في هذا الا ختبار. لقد فشلوا في شكر النعمة، ونسبوها إلى أنفسهم، فكانت النتيجة أن أصابتهم سيئات ما كسبوا. هذا هو الامتحان: نعمة من الله، ثم طلب للشكر والتواضع، فإما نجاح وزيادة، وإما فشل وهلاك.
#الأمر الرابع: إنذار مباشر وتهديد محكم) والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا(

1من هم "هؤلاء"؟
هم مشركو مكة ومن على شاكلتهم من المعاصرين لنزول القرآن. وبعد أن قص الله عليهم خبر من

سبقهم، وجّه إليهم الخطاب مباشرة محذرًا: أنتم أيضًا ستصيبكم نفس العاقبة إذا سرتم على دربهم.

2دلالة استخدام لفظ "ظلموا":
وصفهم بالظلم هو أبلغ وصف. فهم ظلموا أنفسهم بالشرك والجحود، وظلموا الحق بإنكاره، وظلموا الناس بصدهم عن سبيل الله. وبهذا الظلم استحقوا العقاب. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وأي ظلم أعظم من عبادة غير الله، ونسبة نعمه إلى غيره؟

3التأكيد على حتمية الجزاء بقوله "سيصيبهم":
السين للاستقبال القريب، فهي تدل على التحقيق والوقوع الحتمي. إنه ليس تهديدًا فارغًا، بل هو وعد صادق من الله. وقد وقع هذا الوعيد في الدنيا يوم بدر ويوم الفتح وغيرهما، وفي الآخرة سيكون أعظم وأبقى.

4"وما هم بمعجزين":
هذه الجملة الختامية هي القاضية. "معجزين" أي فائتين أو هاربين من عذاب الله. مهما بلغت قوتهم وسلطانهم، ومهما جمعوا من أسباب القوة، فلن يستطيعوا أن يعجزوا الله، أي لن يفلتوا من قبضته. فالله قادر عليهم، وهم تحت قهره وسلطانه. إنه إعلان بالعجز التام أمام القدرة الإلهية.
الأمر الخامس: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (فهم نفسية الأعداء وتحصين الذات)

· فهم عقلية الكافرين عبر التاريخ: الآيتان تقدمان نموذجًا تحليليًا لنفسية الكافرين .إنهم ليسوا أذكياء كما يظنون، بل هم جهلاء لأنهم لم يتعظوا بالماضي .وهم مغرورون لأنهم نسبوا النعمة لأنفسهم .وهم عمي عن السنن الإلهية .هذا الفهم النفسي يحمي المؤمن من الاغترار بهم أو الخوف منهم، لأنه يعرف حقيقتهم.
· التحذير من الوقوع في نفس الفخ النفسي: المؤمن يقرأ هذه الآيات فيتعظ .يقول لنفسه: إياك أن تقعي فيما وقع فيه هؤلاء .لا تنسبي النجاح لذكائك، ولا تنسي فضل الله .هذا الوعي النفسي هو حصانة داخلية ضد أمراض الكبر والجحود.
· علاج الشعور بالنقص أمام أهل الدنيا: قد ينظر المؤمن الفقير إلى الغني الكافر فيشعر بالضآلة .هذه الآية تعالج هذا الشعور .إنها تقول له: انظر إلى العاقبة .ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .لا تغتر بزخرفهم الزائل، وتمسك برصيدك الباقي: إيمانك وعملك الصالح.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (تأسيس النظرة الصحيحة للتاريخ والحياة)

· قراءة التاريخ قراءة شرعية) سنة الله في الأمم(: هذه الآيات تدعونا إلى التدبر في التاريخ لا لمجرد التسلية، بل لاستخراج السنن الإلهية الثابتة .سنة الله أن الظلم والجحود والكبر يؤدي إلى الهلا ك .هذه السنة لا تحابي أحدًا، ولا تتغير لصالح قوة عظمى أو حضارة متقدمة .هذا الفقه في التاريخ يجعلنا نفهم أحداث العالم فهمًا صحيحًا.
· حقيقة الرصيد الحقيقي للإنسان: الآية تؤكد أن الرصيد الحقيقي الذي ينجي الإنسان في الدنيا والآ خرة هو العمل الصالح وطاعة الله، وليس الأموال ولا الأولاد ولا الجاه .هذا المفهوم يغير أولويات الإ نسان في الحياة، فيجعل همه الأكبر هو مرضاة الله، لا جمع حطام الدنيا.
· العدل الإلهي في الجزاء) الجزاء من جنس العمل(:} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا {يرسخ عقيدة أن الله لا يظلم أحدًا .ما أصابهم هو عين ما كسبته أيديهم .جحودهم وكبرهم هو الذي أهلكهم .هذه العقيدة تجعل المؤمن دائم المراقبة لعمله، خائفًا من عاقبته.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن الشاكر المتعظ)

· تربية النفس على الاعتبار بالماضي: هذه الآية تربي فينا ملكة الاعتبار .ألا نمر على أخبار الهالكين مرور الكرام، بل نقف متأملين: لماذا هلكوا؟ ماذا كانت أخطاؤهم؟ وكيف نتجنبها؟ هذه التربية هي التي تصنع الإنسان الحكيم.
· غرس قيمة الشكر كضمان لاستمرار النعم: من أعظم أسباب الهلاك هو الجحود وعدم الشكر .هذه الآ ية تربي في النفوس ضرورة دوام الشكر لله على كل النعم، وأن نردد دائمًا: "الحمد لله"، "هذا من فضل ربي" .هذا الشكر هو الذي يحفظ النعمة من الزوال، وهو الذي يجعلها نعمة حقيقية لا نقمة.

· تعليم الأبناء أن النجاح الحقيقي ليس بالمال والجاه: نربي أبناءنا على أن العبرة ليست بكثرة المال أو الشهادات أو المناصب، بل برضوان الله .نحكي لهم قصص قارون وفرعون، ونبين لهم كيف أن أموالهم لم تغن عنهم شيئًا .هذا يبني فيهم قيمًا عليا، ويحميهم من الجري وراء سراب المادة.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان الذي يقرأ التاريخ بعين البصيرة: هذه الآيات تبني إنسانًا لا تنطلي عليه شعارات الحضارة المادية الزائفة .هو يعلم أن القوة الحقيقية في طاعة الله .هذا الإنسان واعٍ، لا يغتر ببريق الذهب، ولا يخاف من جبروت الجبابرة.
· بناء مجتمع قائم على الشكر والتواضع: عندما يسود في المجتمع وعي بأن النعم من الله، وأن جحودها يسبب الهلاك، فإن هذا المجتمع سيكون مجتمعًا شاكرًا متواضعًا .يكثر فيه الخير، ويقل فيه التباهي والتفاخر .وهذا هو المجتمع الآمن من عقوبات الله.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) الاستثمار الحقيقي (: التنمية الحقيقية ليست في بناء ناطحات السحاب فقط، بل في بناء الإنسان الصالح .هذه الآية توجه الطاقات نحو الاستثمار في الباقيات الصالحات، في العلم النافع والعمل الصالح، لأن هذا هو الرصيد الذي لا يفنى ولا يزول.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الإنسانية الراشدة: الحضارة التي تقوم على سنة الله في الشكر و التواضع والعدل هي حضارة راشدة مستدامة .أما الحضارة التي تقوم على الكبر والجحود والظلم، فهي تحمل أسباب فنائها في ذاتها .هذه الآية تقدم لنا معيارًا دقيقًا لتقييم الحضارات، ولمعرفة لماذا قامت ولماذا سقطت.
الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تدرس التاريخ أو تشاهد الأخبار:
لا تمر على أخبار سقوط الدول والممالك والشركات الكبرى مرورًا عابرًا .اسأل نفسك: ما هي أسباب السقوط الحقيقية؟ اربطها بهذه السنة القرآنية .ستجد غالبًا أن وراء السقوط ظلمًا وجحودًا وكبرًا وفسادًا .هذا التدبر يزيدك بصيرة ويقينًا بصدق كلام الله.
· عندما يفتخر شخص أمامك بذكائه ونجاحه وينسى فضل الله:
لا تجادله بعنف .تذكر هذه الآيات، واعلم أنه يسير على درب قارون .أشفق عليه، وادعُ له بالهداية . وإن استطعت، اذكر له بلطف قصة قارون، وكيف أن النعم زالت عنه في لحظة، لعله يتعظ.
· في توجيه طموح الشباب:
عندما يطلب منك شاب النصيحة للنجاح في الحياة، لا تقل له فقط: "ادرس، اجتهد، اعمل" .بل أضف: "واستعن بالله، واشكره على نعمه، وتواضع له ولخلقه، وإياك والكبر، فالكبر بداية النهاية" .هذا التوجيه المتوازن هو الذي يبني الناجحين الحقيقيين.
· عندما تخاف من قوة أعداء الإسلام وسطوتهم:
تذكر هذه الآية:} فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ .{تذكر أن قوتهم المادية لن تمنع عنهم عذاب الله إذا نزل .لا تخفهم، وخف الله وحده .ثق بأن الله ناصر دينه، وأن الباطل زاهق مهما بدا قويًا.
· في محاسبة نفسك على النعم التي أنت فيها:
اجلس مع نفسك، وعدّد نعم الله عليك) الصحة، المال، الأهل، العلم .(ثم اسأل نفسك بصدق: هل نسبت يومًا هذه النعم إلى ذكائك وجهدك فقط، ونسيت فضل الله؟ هل قمت بواجب شكرها؟ هذا السؤال قد ينقذك من أن تكون من} الَّذِينَ ظَلَمُوا.{
الخاتمة: دروس من سجل التاريخ وموازين العدل الإلهي

بهذا نكون قد أتممنا، بحمد الله، تفسير هاتين الآيتين الجامعتين. لقد رأينا كيف أنهما تنتقلان بنا من مشهد الفرد الجحود في الآية السابقة، إلى مشهد الأمم والحضارات التي سارت على الدرب نفسه، وكيف أن العاقبة كانت واحدة.

إنهما آيتان تفتحان أعيننا على سنن الله في الكون، وتذكرانا بأن التاريخ ليس مجرد حكايات، بل هو مدرسة لمن أراد أن يتعلم. لقد علمتنا أن القوة المادية والغنى والجاه ليست ضمانًا للبقاء، بل ضمان البقاء الحقيقي هو الإيمان والعمل الصالح والشكر لله.

فلنقرأ التاريخ بعيون هذه الآيات، ولنعش واقعنا بقلوب واعية، شاكرة لأنعم الله، خائفة من جحودها، متواضعة لله ولخلقه. ولنعلم أننا جميعًا في امتحان، وأن النجاح فيه هو أن نرد كل فضل لله، وأن نقول دائمًا: {هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي}.
المبحث الثالث
لقد أبحرنا معًا في الآيات السابقة في أعماق النفس البشرية، ورأينا كيف يتقلب الإنسان بين الشدة و الرخاء، وكيف يغتر الكافرون بقوتهم وينسبون النعم إلى أنفسهم، وكيف كانت عاقبة من سبقهم من الأ مم. والآن، نقف على آية تمثل خلاصة مركزة ومكثفة لكل ما سبق، آية تزلزل وجدان الكافر، وتزرع في قلب المؤمن الطمأنينة واليقين. إنها آية تقرر حقيقة كونية عظمى، هي مفتاح فهم الحياة والكون والجزاء.

يقول الله سبحانه وتعالى: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الزمر: 52].

تأمل معي هذا الاستفهام الإلهي الذي يخاطب العقول والقلوب. بعد أن عرض الله مشاهد الجحود و الكبر والهلاك، يأتي بهذا السؤال التقريري العظيم ليوقظ الغافلين. كأنه يقول لهم: كيف غفلتم عن هذه الحقيقة البديهية؟ كيف نسبتم النعمة إلى أنفسكم، ونسيتم أن باسط الرزق وقابضه هو الله وحده؟ إنها آية تعيد ترتيب المفاهيم، وتصحح البوصلة، وتضع الأمور في نصابها الصحيح.

#أبرز محاور الآية في سطور

· استفهام توبيخي وتقريري لإيقاظ الغافلين: "أو لم يعلموا" استنكار لجهلهم بحقيقة واضحة.
· تقرير حقيقة مطلقة: بسط الرزق وتقديره بيد الله وحده: "أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر".
· إبطال كل الأسباب المادية المزعومة للغنى والفقر: فالرزق ليس بالضرورة نتيجة للذكاء أو العلم أو الجهد فقط، بل هو عطاء من الله وفق حكمته.
· دعوة المؤمنين للتأمل في هذه الحقيقة: "إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون".
· الربط بين الإيمان وفهم هذه السنة الإلهية: فالمؤمن وحده هو الذي ينتفع بهذه الآيات ويفهم حكمتها.

#الأمر الأول: استفهام يهز الوجدان) أو لم يعلموا(

1نوع الاستفهام ودلالته:
الهمزة في {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا} هي همزة الاستفهام، دخلت على واو العطف. والاستفهام هنا ليس طلبًا للعلم، بل هو استفهام توبيخي وتقريري وإنكاري. المعنى: أجهلوا هذه الحقيقة الواضحة التي لا تخفى على عاقل؟! إنه توبيخ على غفلتهم وغفلتهم عن هذه السنة الإلهية الجارية في الكون. إنه أسلوب قرآني فريد يهدف إلى هزّ وجدان المخاطب، وإيقاظه من سبات الغفلة.

2الربط بين هذا الاستفهام والسياق السابق:
هذا الاستفهام يأتي كرد مباشر على مقولة الإنسان الجحود في الآية (49): {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ}، وعلى ما ورد في الآيتين (50-51) من أن هذه المقولة قالها السابقون فهلكوا. فبعد أن عرض هذه النماذج، يأتي الاستفهام ليقول لهم ولكل من يقرأ: ألم تعلموا أيها الجاحدون أن الأمر ليس كما تزعمون؟ ألم تروا بأعينكم أن كثيرًا من الأذكياء والعلماء فقراء، وكثيرًا من الجهال والبسطاء أغنياء؟ ألم تروا تقلب الزمان بأهل الثراء فأصبحوا بعد الغنى فقراء، وبأهل الفقر فأصبحوا بعد الفقر أغنياء؟ أين ذهب علمهم وخبرتهم إذن؟ إن في هذا دليلا ً قاطعًا على أن الرزق بيد الله، لا بذكائكم ولا بجهلكم.

3مثال تقريبي:
تخيل أن رجلا ً غنيًا يقول لآخر فقير: "أنا غني لأني ذكي، وأنت فقير لأنك غبي!". ثم تمر الأيام، فإذا بالغني الذكي يخسر كل شيء في أزمة اقتصادية، وإذا بالفقير الغبي يرث ثروة أو يفتح الله عليه برزق واسع من حيث لا يحتسب. هنا يأتي صوت الحق: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}؟! هذا الاستفهام يفضح سخافة المنطق المادي، ويكشف أن المالك الحقيقي للرزق هو الله ، يقلبه بين عباده كيف يشاء.

الأمر الثاني: الحقيقة الكبرى) أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(

1معنى "يبسط الرزق":
البسط هو التوسعة والزيادة والإكثار. فالله يبسط الرزق، أي يوسعه ويكثره لمن يشاء من عباده. وهذا البسط لا يخضع لمقاييس البشر، بل لمشيئة الله وحكمته. فكم من عاقل حكيم مقتر عليه في رزقه، وكم من جاهل أحمق مبسوط له في الرزق! وهذا دليل قاطع على أن الرزق ليس بالأسباب وحدها، بل بتقدير العزيز الحكيم.

2معنى "يقدر":
التقدير هنا هو التضييق والتقتير. فالله يقدر الرزق على من يشاء، أي يضيقه عليه ويجعله بمقدار محدود. وهذا أيضًا لحكمة بالغة. فلو بسط الرزق لكل أحد لطغوا في الأرض وأفسدوا، ولو قدر الرزق على كل أحد لهلكوا. ولكن حكمة الله اقتضت أن يبسط لهذا ويقدر على هذا، ابتلاءً للفريقين: أيشكر الغني، ويصبر الفقير؟

3دلالة "لمن يشاء":
هذه هي الكلمة الفاصلة. "لمن يشاء" أي أن الأمر كله مرده إلى مشيئة الله المطلقة، لا إلى ذكاء العبد ولا إلى غبائه. مشيئة الله محفوفة بحكمته البالغة. فقد يبسط الرزق للكافر استدراجًا له، وقد يقدر الرزق على المؤمن تكفيرًا لسيئاته ورفعة لدرجاته. فالمؤمن لا يغتر بالبسط، ولا ييأس من التقدير، لأنه يعلم أن الأمر بيد الله، وأن الله حكيم في كل ما يقضي.

4كيف تهدم هذه الحقيقة أساس الكبر والجحود؟
هذه الحقيقة تنسف الأساس الذي يقوم عليه كبر الإنسان وجحوده. فعندما يعلم الإنسان أن رزقه بيد الله، وليس بذكائه، فإنه لا يبقى له مجال للكبر. بل يزداد تواضعًا وشكرًا لله. وعندما يرى غيره وقد بسط له في الرزق، لا يحسده، لأنه يعلم أن هذا من مشيئة الله لحكمة قد يجهلها. وعندما يضيق عليه رزقه، لا ييأس ولا يحتقر نفسه، لأنه يعلم أن هذا من تقدير الله لحكمة هو أعلم بها. إنها وصفة إلهية لعلاج أمراض الكبر والحسد والقلق.
الأمر الثالث: الآيات للمؤمنين خاصة) إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون(

1لماذا خص المؤمنين بالانتفاع بالآيات؟
لأن المؤمن هو الذي يفتح قلبه وعقله لاستقبال هذه الحقائق. هو الذي يرى في تقلب الأرزاق وبسطها وتقديرها آيات باهرات تدل على قدرة الله وحكمته. أما الكافر، فيمر على هذه الآيات الكونية و النفسية مرورًا عابرًا، أو يفسرها تفسيرًا ماديًا بحتًا، فلا ينتفع بها. الإيمان هو النور الذي يبصر به العبد حقائق الوجود.

2ما هي "الآيات" في هذا السياق؟
الآيات هي العلامات والدلائل والبراهين. وفي هذا السياق، تشمل:

· آيات في الأنفس: تفاوت الناس في الأرزاق والعقول والمواهب.
· آيات في الآفاق: تقلب الأحوال على الأمم والأفراد، صعود هذا وهبوط ذاك.
· آيات في التاريخ: مصارع الأمم التي اغترت بقوتها ورزقها، وكيف لم يغن عنها شيئًا.

3صفات "قوم يؤمنون" الذين ينتفعون بهذه الآيات:

· يؤمنون بالله حق الإيمان: إيمانًا يدفعهم إلى التفكر والتدبر.
· يوقنون بأن الأمر كله لله: لا يغترون بالأسباب، بل يرون يد الله من ورائها.
· يشكرون في الرخاء، ويصبرون في الشدة: لأنهم يعلمون أن كلا ً من البسط والتقدير ابتلاء من الله.
· لا يحسدون ولا يحتقرون: لأنهم يعلمون أن الله قسم الأرزاق بحكمته.

#الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآية ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (علاج القلوب من الأمراض)

· علاج الكبر والعجب: هذه الآية هي الدواء الناجع للكبر .عندما تستقر في نفسك حقيقة أن ما أنت فيه من نعمة هو من فضل الله ومشيئته لا من ذاتك، كيف تتكبر؟ إنها تجعلك تنحني شكرًا لله، لا أن تنتصب كبرًا على الخلق.
· علاج الحسد والغيرة: عندما ترى غيرك وقد بسط الله له في الرزق، تذكر فورًا:} أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ .{هذا يطفئ نار الحسد في قلبك .فلماذا تحسد عبدًا على ما أعطاه الله؟ ولماذا تغتاظ مما وهبه المالك الحقيقي لعبده؟ هذا المفهوم يجلب السكينة والرضا للنفس.
· علاج القلق والاكتئاب بسبب الفقر أو ضيق الرزق: كم من إنسان يصاب بالإحباط والقلق لأنه يرى نفسه أقل من غيره مالا ً أو جاها! هذه الآية تقول له: اهدأ .الرزق بيد الله، وهو يقدره لحكمة .قد يكون الفقر خيرًا لك، وقد يكون الغنى شرًا عليك .ثق بحكمة الله، وارضَ بقسمته .هذا الرضا هو الغنى الحقيقي للنفس.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (تصحيح النظرة إلى الرزق والأسباب)

· الرزق ليس مرادفًا للذكاء أو الجهد: هذه الآية تصحح مفهومًا خاطئًا شائعًا، وهو أن الغنى دليل الذكاء والنجاح، والفقر دليل الغباء والفشل .الإسلام يفصل بين الرزق كعطاء إلهي، وبين السعي و الكسب كسبب مأمور به .فقد يسعى الإنسان ويجتهد ويذكي، ومع ذلك يقدر عليه رزقه .وقد يكون

آخر أقل منه ذكاءً وسعيًا، ويبسط له في رزقه .كلاهما ابتلاء.
· السعي للأسباب مطلوب، ولكن الاعتماد على الله هو الأصل: هذه الآية لا تدعو إلى ترك الأسباب و التواكل .فالله يأمرنا بالسعي في الأرض، ولكنها تدعونا إلى أن نعلق قلوبنا بالله لا بالأسباب .أن نوقن أن السعي سبب، ولكن المسبب هو الله .فإذا أخذنا بالأسباب ونجحنا، حمدنا الله الذي يسرها . وإذا أخذنا بالأسباب وفشلنا، صبرنا لعلمنا أن الأمر بيد الله.
· العدل الإلهي في تفاوت الأرزاق: الظاهر أن تفاوت الأرزاق فيه ظلم، ولكن حقيقة الأمر أن فيه عدلا ً إلهيًا خفيًا .فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لحكمة بالغة .قد يقدر على المؤمن ليختبر صبره، فيرفع درجاته .وقد يبسط للكافر ليستدرجه، فيزيده إثمًا .هذا المفهوم يريح العقل، ويجعله يطمئن لحكمة الله.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن القانع الشاكر)

· تربية النفس على القناعة: هذه الآية تربي في النفس القناعة .أن يرضى الإنسان بما قسمه الله له . ليس معنى القناعة التواكل وترك السعي، بل معناها الرضا بالنتائج بعد بذل الأسباب .هذه القناعة هي كنز لا يفنى، وهي مصدر السعادة الحقيقية.
· تربية النفس على الشكر في السراء والضراء: المؤمن يرى في البسط نعمة تستوجب الشكر، وفي التقدير نعمة تستوجب الصبر .فكلتا الحالين خير له .هذه التربية تجعل المؤمن دائم الحمد لله، في كل أحواله.

· تعليم الأبناء أن قيمة الإنسان ليست بماله: نربي أبناءنا على ألا ينظروا إلى الناس بأعين المال .فلا يحتقر الفقير لفقره، ولا يعظم الغني لغناه .بل الميزان الحقيقي هو التقوى والعمل الصالح .هذا يبني مجتمعًا إنسانيًا راقيًا، لا تحكمه المادة.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتوازن السعيد: الإنسان الذي يعيش هذه الآية هو إنسان متوازن .يسعى ويجتهد، لكنه لا يحرص ولا يقلق .يشكر إذا أعطي، ويصبر إذا منع .هذا هو الإنسان السعيد بحق، لأنه تعلق بالله ورضي بقضائه.
· بناء مجتمع متماسك خالٍ من الحسد والصراع الطبقي: عندما يؤمن أفراد المجتمع بأن الله هو باسط الرزق وقابضه، فإن الحسد يقل، والصراع الطبقي يخفت .الكل يسعى، والكل يعلم أن الرزق بيد الله .هذا يخلق مجتمعًا متكافلا ً متحابًا.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) تحفيز بلا قلق(: هذه الآية تقدم نموذجًا فريدًا للتحفيز .إنها تحفز على السعي والعمل، ولكن دون القلق المدمر على النتائج .لأن النتائج بيد الله .هذا هو الدافع الإيجابي الذي يحرر الطاقات من قيود الخوف والفشل.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الإنسانية المتواضعة: الحضارة التي تقوم على هذه العقيدة هي حضارة متواضعة .إنها لا تنسب إنجازاتها إلى نفسها فتبطر، بل تنسبها إلى فضل الله فتشكر .هذا التواضع هو الذي يحفظ الحضارة من أسباب السقوط والدمار.

الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تشعر بالحسد تجاه شخص ناجح أو غني:
توقف فورًا .ردد هذه الآية في نفسك .تذكر أن الله هو الذي بسط له الرزق .لماذا تحسد عبدًا على عطاء سيده؟ اسأل الله من فضله بدل أن تغتاظ من فضله على غيره .هذا التطبيق العملي سيحررك من أسر الحسد.
· عندما تشعر بالضيق والقلق بسبب ضيق الرزق أو تأخر النجاح:
تذكر أن الله} يَقدِرُ .{هذا التقدير لحكمة .قل لنفسك: يا رب، أنا عبدك، وأنت أعلم بما يصلحني . رضيت بقضائك .ثم واصل السعي والاجتهاد بقلب مطمئن .هذا سيمنحك قوة نفسية هائلة.
· عندما تنجح وتحقق إنجازًا:
احذر كل الحذر من أن تقول: "هذا بذكائي وعلمي" .قل فورًا: "الحمد لله الذي بسط لي من رزقه وفضله" .اسجد لله شكرًا .انسب النعمة لصاحبها الحقيقي .هذا الشكر هو الذي يحفظ النعمة ويزيدها.
· في تربية أبنائك على النظر الصحيح للحياة:
إذا سألك ابنك: "لماذا فلان غني ونحن لسنا كذلك؟"، لا تقل له: "لأنه ذكي ونحن أغبياء" .قل له: "يا بني، الرزق بيد الله، يعطيه من يشاء .نحن نسعى ونجتهد، ونشكر الله على ما أعطانا، ونسأله من فضله" .هذه الإجابة تبني فيه عقيدة سليمة ونفسية راضية.
· في دعوة الآخرين إلى الله:

عندما تجد شخصًا مغرورًا بماله أو علمه، استخدم هذه الآية بلطف .قل له: "يا أخي، ألا ترى أن الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؟ إن ما أنت فيه هو فضل من الله، فاشكره ولا تكفر بنعمته" . هذا الأسلوب القرآني أبلغ في التأثير من أسلوب التوبيخ المباشر.
الخاتمة: حيث يطمئن القلب في رحاب الرزاق الكريم

بهذا نكون قد وقفنا مع هذه الآية العظيمة، واستخرجنا بعضًا من دررها. إنها آية قصيرة في مبنى، عظيمة في معنى. إنها تلخص حقيقة الكون الكبرى: الأمر كله لله. هو وحده الذي يبسط الرزق ويقدر. هو وحده الذي يغني ويفقر. هو وحده الذي يعطي ويمنع.

هذه الحقيقة، إذا استقرت في قلب المؤمن، صنعت منه إنسانًا جديدًا: شاكرًا في الرخاء، صابرًا في الشدة، قانعًا راضيًا، ساعيًا مطمئنًا. إنها مفتاح السكينة والطمأنينة في هذه الحياة المضطربة.

فلنردد هذه الآية في قلوبنا دائمًا، ولنجعلها نبراسًا يضيء لنا طريق الحياة: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.
القسم الرابع
المبحث الأول
لقد طوفنا معًا في رحاب الآيات السابقة، ورأينا مشاهد من جحود الإنسان وكبره، ومن تقلبه بين الشدة والرخاء، ومن سنن الله في إهلاك الأمم التي بطرت النعمة. وكنا على موعد مع آيتين تمثلان قمة الرحمة الإلهية، وذروة الأمل للعصاة والمذنبين. إنهما آيتان تفتحان باب الرجاء على مصراعيه، وتدعوان كل مذنب وكل مسرف على نفسه إلى عدم اليأس من روح الله. إنهما نداء إلهي مباشر للقلوب المنكسرة، وبشارة عظيمة للتائبين.

يقول الله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54)} [الزمر: 53-54].

تأمل معي هذا النداء الإلهي العجيب. في سورة مليئة بالتهديد والوعيد للكافرين والمجرمين، تأتي هاتان الآيتان كالغيث بعد الجدب، وكالنور في الظلمة. إنهما تفتحان باب الأمل لكل من ظن أن ذنوبه قد أحاطت به، وأن لا سبيل إلى النجاة. إنهما دستور التوبة والإنابة، وطريق العودة إلى الله.

أبرز محاور الآيتين في سطور

· نداء إلهي مباشر بأرق الأوصاف وأحبها: "يا عبادي"، وهو تشريف عظيم للمذنبين.
· النهي عن اليأس والقنوط من رحمة الله: "لا تقنطوا من رحمة الله" مهما عظمت الذنوب وكثرت.
· إعلان مطلق وشامل: "إن الله يغفر الذنوب جميعًا": بشرط التوبة والإنابة.
· تعليل هذا الوعد العظيم باسمي الله "الغفور الرحيم": فمغفرته ورحمته وسعت كل شيء.
· الأمر الفوري بالتوبة والرجوع إلى الله: "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له".
· التحذير من التسويف، والتذكير بقرب العذاب لمن أصر وأعرض: "من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون".

الأمر الأول: نداء الرحمة للمذنبين) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم(

1دلالة الأمر "قل":

يأمر الله نبيه ﷺ أن يبلغ هذا النداء العظيم للناس جميعًا. إنه أمر بالتبليغ، وفيه إشارة إلى أن هذه الرسالة ليست خاصة بالنبي، بل هي رسالة عامة يجب أن تصل إلى كل مذنب وكل عاصٍ في كل زمان ومكان. إنها رسالة الأمل التي يحملها الدعاة إلى كل من قنط من رحمة الله.

2تحليل كلمة "يا عبادي":

هذا هو النداء الأعظم والأحب. لم يقل: "يا أيها المذنبون" أو "يا أيها المسرفون"، بل قال: {يَا عِبَادِيَ}. إضافة العباد إلى ضمير المتكلم "ياء" المتكلم هي إضافة تشريف وتكريم وقرب. إن الله يناديهم بصفة العبودية له، وهي أشرف صفاتهم، ليذكرهم بأنهم عباده مهما فعلوا، وأنه ربهم الذي خلقهم ورزقهم. في هذا النداء تطمين عظيم: أنا ربكم، وأنتم عبادي، ورحمتي بكم أوسع من ذنوبكم. إنه نداء يذيب جليد اليأس من القلوب، ويفتح باب الرجاء على مصراعيه.

3وصفهم بـ "الذين أسرفوا على أنفسهم":

الإسراف هو مجاوزة الحد والإفراط. "أسرفوا على أنفسهم" أي بالغوا في ارتكاب الذنوب والمعاصي، وأكثروا منها، حتى أوبقوا أنفسهم وأهلكوها. وهذا الوصف يشمل كل مذنب، من الكافر إلى العاصي. ف الكل قد أسرف على نفسه بمعصية الله. وفي هذا الوصف إقرار بالواقع، وتذكير لهم بعظم جرمهم، ولكن دون تقريع أو تيئيس. بل هو تمهيد لعرض الدواء: فأنتم قد أسرفتم، ولكن لا تقنطوا، فإن الدواء موجود.

4ما هو القنوط المنهي عنه؟ "لا تقنطوا من رحمة الله":

القنوط هو أشد اليأس. وهو استبعاد الفرج والرحمة. والمنهي عنه هنا هو أن ييأس العبد من رحمة الله ومغفرته، وأن يظن أن ذنوبه أعظم من أن تغفر. هذا القنوط هو ذنب عظيم في حد ذاته، لأنه اتهام لرحمة الله بالقصور، وسوء ظن بالله. والله يحذرنا منه، ويأمرنا أن نملأ قلوبنا رجاءً فيه.

5مثال تقريبي) مشهد من حياة الصحابة(:

لما نزلت هذه الآية، كان لها وقع عظيم في نفوس الصحابة. فقد روى أن أناسًا من المشركين كانوا قد قتلوا وزنوا وأكثروا، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: "إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة". فنزلت هذه الآية. ففرح بها الصحابة فرحًا شديدًا، لأنها فتحت باب الأمل حتى لأولئك الذين كانوا في قمة الإسراف. إنها رسالة لكل من وقع في حفرة الذنوب أن بإمكانه الخروج منها، وأن الله ينتظره بذراعيه المفتوحتين.
الأمر الثاني: إعلان المغفرة الشاملة) إن الله يغفر الذنوب جميعًا(

1تحليل "إن الله يغفر الذنوب جميعًا":

هذه الجملة من أرجى آيات القرآن الكريم. وكل كلمة فيها تحمل بشارة عظيمة:

· "إن": للتوكيد والتحقيق، فلا شك ولا ريب في هذا الوعد.
· "الله": باسم الجلالة الأعظم، الذي وسعت رحمته كل شيء.
· "يغفر": فعل مضارع يفيد التجدد والاستمرار. فمغفرته دائمة متجددة.
· "الذنوب": جمع محلى بأل، يفيد العموم والاستغراق. أي كل الذنوب، صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها.
· "جميعًا": توكيد بعد توكيد للعموم والشمول. فلا يُستثنى ذنب إلا ما كان شركًا بالله إذا مات عليه صاحبه بغير توبة، كما دلت عليه آيات أخرى. أما مع التوبة، فإن الله يغفر الشرك وغيره، كما قال تعالى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} [الفرقان: 70].

2هل تغفر الذنوب جميعًا بدون توبة؟

لا بد من التنبيه هنا: هذه الآية الكريمة في سياق الدعوة إلى التوبة. والدليل على اشتراط التوبة هو الآية التي تليها مباشرة: {وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُم}. فالوعد بالمغفرة مشروط بالإنابة والتوبة الصادقة. فمن تاب توبة نصوحًا، مستوفيًا لشروطها (الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه)، فإن الله يغفر له جميع ذنوبه مهما عظمت. أما من مات على شركه أو إصراره على المعاصي بغير توبة، فهو تحت المشيئة الإلهية في غير الشرك.

3دلالة تعليل المغفرة باسمي "الغفور الرحيم":

{إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. هذا هو التعليل. فالله يغفر الذنوب جميعًا لأنه هو "الغفور"، أي كثير المغفرة، الذي يستر الذنوب ويتجاوز عنها. وهو "الرحيم"، أي واسع الرحمة، الذي يرحم عباده ولا يعذبهم إن تابوا وأنابوا. فتأمل اجتماع هذين الاسمين العظيمين في ختام الآية، ليملأ القلب رجاءً وطمأنينة.

الأمر الثالث: الأمر بالتوبة والتحذير من التسويف) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له(

1معنى "أنيبوا إلى ربكم":

الإنابة هي الرجوع إلى الله بالتوبة والإخلاص. وهي أبلغ من مجرد التوبة، لأنها تتضمن الرجوع بـ القلب والقالب إلى الله، والاستمرار على طاعته. "إلى ربكم" فيها تذكير بأنهم راجعون إلى من خلقهم ورباهم بنعمه، فهو أرحم بهم من أنفسهم.

2معنى "أسلموا له":

الإسلام لله هو الاستسلام والانقياد الكامل له، والخضوع لأمره ونهيه، وإخلاص العبادة له وحده. وهو ثمرة الإنابة الصادقة. فالتائب يعود إلى الله، ويسلم أمره كله له.

3التحذير من التسويف: "من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون":

هذا هو السوط الذي يسوق القلوب إلى المسارعة بالتوبة. "من قبل أن يأتيكم العذاب" فجأة، وأنتم في غفلة. "ثم لا تنصرون" أي لا تجدون ناصرًا ولا معينًا يدفع عنكم العذاب. إنه تذكير بدنو الأجل، وبأن باب التوبة قد يغلق في أي لحظة. فلا تسوفوا، ولا تقولوا: غدًا نتوب. فالغد قد لا يأتي.
الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (علاج اليأس وبناء الأمل)

· علاج اليأس والقنوط: هاتان الآيتان هما أعظم علاج نفسي لمن يعاني من اليأس والإحباط بسبب ذنوبه. إنهما تمسحان دموع النادمين، وتقولان لهم: لا تقفوا عند ماضيكم، بل انظروا إلى مستقبلكم مع الله. رحمته أوسع من ذنوبكم. هذا العلاج يبث في النفس الأمل والرغبة في الحياة من جديد.
· تحويل الطاقة السلبية إلى إيجابية: المذنب القانط يعيش في حالة سلبية مدمرة، وقد يدفعه يأسه إلى التمادي في المعاصي. هذه الآية تحول هذه الطاقة السلبية إلى طاقة إيجابية دافعة للتوبة و العمل الصالح. فبدل أن يبقى أسيرًا لماضيه، يصبح حرًا طليقًا يتطلع إلى مغفرة الله ورضوانه.
· بناء الثقة بالله وحسن الظن به: الآية تغرس في النفس حسن الظن بالله. أن توقن بأن الله أرحم بك من أمك، وأنه يفرح بتوبتك أشد من فرحك برجوع ضالتك. هذا الظن الحسن هو من أعظم العبادات القلبية.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (فهم حقيقة المغفرة والتوبة)

· سعة رحمة الله ومغفرته: هذه الآية ترسخ عقيدة أن رحمة الله وسعت كل شيء، وأن مغفرته لا يعجزها شيء. فلا يوجد ذنب أكبر من رحمة الله. هذا المفهوم يوسع أفق المؤمن، ويجعله ينظر إلى الله نظرة رجاء ومحبة.
· شروط التوبة الصحيحة: الآية الكريمة وإن كانت مطلقة في وعد المغفرة، إلا أنها مقيدة بالإنابة والإ سلام في الآية التالية. وهذا يعلمنا أن التوبة ليست مجرد كلمة تقال باللسان، بل هي إنابة قلبية (ندم وعزم)، وإسلام جوارحي (امتثال للأوامر واجتناب للنواهي). هذا هو المفهوم الصحيح للتوبة.
· خطورة التسويف وقيمة الوقت: "من قبل أن يأتيكم العذاب" تذكرنا بأن الموت قد يأتي بغتة. وهذا يبني في العقل تقديرًا عاليًا للوقت، ويدفع إلى المبادرة بالخيرات وعدم تأخير التوبة.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن التائب)

· تربية النفس على المسارعة إلى التوبة: هذه الآية تربي المؤمن على ألا يؤخر التوبة. إذا أذنب، بادر فورًا بالاستغفار والندم والعزم على عدم العودة. هذه المسارعة هي صفة المؤمنين الصادقين.
· تربية النفس على الرجاء وعدم اليأس: نربي أنفسنا وأبناءنا على أن يكون الرجاء في الله هو الغالب على خوفنا. أن نعلم أن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب. هذا يمنع اليأس من التسلل إلى القلوب.
· الموازنة بين الخوف والرجاء: الآية الأولى ترجّي، والثانية تحذّر. هذا التوازن هو أساس التربية الإ يمانية. فلا يكون المؤمن آمنًا من مكر الله فيأمن العقوبة ويتمادى في الذنب، ولا يكون قانطًا من رحمة الله فييأس ويترك التوبة. بل يكون بين الخوف والرجاء.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتجدد القادر على النهوض بعد السقوط: هذه الآية تبني إنسانًا لا يكسره الذنب، بل ينهض بعده بقوة. هي تعطيه فرصة البدء من جديد بصفحة بيضاء مع الله. هذا الإنسان هو القادر على مواجهة تحديات الحياة.
· بناء مجتمع قائم على التسامح والأمل: عندما يسود هذا المفهوم في المجتمع، فإنه يصبح مجتمعًا متسامحًا مع المذنبين التائبين، يفتح لهم أبوابه، ولا يطاردهم بماضيهم. هذا يخلق بيئة اجتماعية صحية تساعد على الإصلاح والتقويم.
· إسهام الآية في التنمية البشرية (إعادة تأهيل الذات) : هذه الآية تمثل منهجًا متكاملًا لإعادة تأهيل الذات. إنها تعترف بالخطأ (أسرفوا)، وتمنع اليأس (لا تقنطوا)، وتقدم الحل (يغفر الذنوب)، وتحدد

خطوات العلاج (أنيبوا وأسلموا). هذا المنهج هو أرقى ما يمكن أن تقدمه التنمية البشرية لإصلاح الإ نسان من الداخل.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الإنسانية الرحيمة: الحضارة التي تقوم على هذه العقيدة هي حضارة رحيمة. إنها لا تحكم على الناس بالإعدام الأدبي أو الاجتماعي بسبب أخطائهم، بل تفتح لهم باب التوبة والعودة. هذا هو الوجه المشرق للحضارة الإسلامية.
الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تثقل عليك ذنوبك وتشعر باليأس:
اقرأ هذه الآية بخشوع وتدبر. نادِ ربك بقلب منكسر: يا رب، أنا عبدك الذي أسرف على نفسه. لا تكلني إلى نفسي طرفة عين. اغفر لي ذنوبي كلها. هذا الدعاء مع يقينك بصدق الآية سيملأ قلبك نورًا وراحة.
· عندما تلتقي بشخص غارق في المعاصي ويائس من التوبة:
لا تعنفه ولا تزيده يأسًا. بل اقرأ عليه هذه الآية. بشّره برحمة الله. قل له: إن الله ينتظرك. باب التوبة مفتوح. هذا الأسلوب النبوي في التبشير هو الذي يفتح القلوب المغلقة.
· في تربية أبنائك على التعامل مع أخطائهم:
إذا أخطأ ابنك، لا تجلده نفسيًا بكلمات اليأس مثل: "أنت فاشل"، "لا أمل فيك". بل علمه هذه الآية. قل له: كل ابن آدم خطاء. المهم أن تعترف بخطئك وتتوب منه. الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب. هذا يبني فيه شخصية متوازنة لا تنهار عند الخطأ.
· عندما تريد أن تجدد إيمانك وتحسن علاقتك بالله:
اجعل هذه الآية شعارًا لك. جدد توبتك كل يوم. أنب إلى ربك وأسلم له. استشعر دائمًا أنك "عبد الله"، وأن الله "الغفور الرحيم". هذا الاستشعار سيجعل حياتك كلها عبادة وسكينة.
· في دعوتك للعصاة والمذنبين:
ابدأ معهم بهذه الآية. افتح لهم باب الرجاء أولا ً. لا تبدأ بالتهديد والوعيد، بل ابدأ بالترغيب و التبشير. فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، والله يبشرهم بأنه يغفر الذنوب جميعًا. هذا الأ سلوب هو مفتاح القلوب.

#الخاتمة: في رحاب الرحمة الواسعة

بهذا نكون قد بلغنا ختام رحلتنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تمثلان قمة الرحمة والأمل في كتاب الله. لقد رأينا كيف يفتح الله ذراعيه لكل مذنب، ويناديه بأحب الأسماء إليه: "يا عبادي". وكيف يعلنها صريحة مدوية: {لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ۚ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}.

إنهما آيتان تكتبان الأمل في سجل اليائسين، وتمسحان دمعة التائبين، وتفتحان طريق العودة لكل من ضل الطريق. إنهما دعوة مفتوحة إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء. فلا يبقى لأحد عذر في البقاء على المعصية واليأس من التوبة.

فلنلبِّ هذا النداء الإلهي، ولنُقبل على ربنا تائبين منيبين مسلمين، ولنردد مع داود عليه السلام: "إلهي، من يقنط من رحمتك إلا الضالون؟!".
المبحث الثاني
لقد فتح الله لنا في الآيتين السابقتين باب الرجاء والأمل على مصراعيه، ودعا كل مسرف على نفسه إلى عدم القنوط من رحمته. والآن، وكأني بك تتساءل: وماذا بعد هذا النداء؟ كيف يستجيب الناس؟ وما هو حال من يستمع إلى هذه الدعوة ثم يعرض عنها؟ تأتي هذه الآيات الخمس لتكمل الصورة، وتصور لنا مشهدًا من أشد مشاهد الحسرة والندامة يوم القيامة. إنها تحمل تحذيرًا صارخًا لكل من سمع نداء الرحمة فأعرض، ولكل من اغتر بحلم الله عليه فأصر على معصيته.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)} [الزمر: 55-59].

تأمل معي هذا المقطع القرآني المؤثر. إنه ينقلنا من زمن الدنيا وفرصة العمل، إلى زمن الآخرة وانقطاع الأمل. إنه يرسم لنا مشاهد حية لاعتذارات المعرضين يوم القيامة، ويكشف زيفها، ويقطع كل طريق للهروب من الحقيقة المرة. إنها آيات تجمع بين الترغيب في اتباع القرآن، والترهيب من عاقبة الإعراض عنه، بأسلوب يجعل القلب يرتجف خوفًا وطمعًا.

#أبرز محاور الآيات في سطور

· الأمر الإلهي باتباع أحسن ما أنزل من القرآن: وهو دعوة لاتباع كلام الله كله، فهو كله حسن، ولكن أحسنه ما كان فيه أوامر ونواهٍ ووعد ووعيد.
· التحذير من مفاجأة العذاب بغتة: حيث يأتي الإنسان وهو في غفلة عن الآخرة، منغمس في دنياه.
· تصوير مشهد الحسرات يوم القيامة: حيث تتمنى النفس المعرضة لو أنها أطاعت الله، وتندم أشد الندم.
· تفنيد اعتذارات المعرضين الواهية:
· الأولى: الندم على التفريط في حق الله والاستهزاء بالدين.
· الثانية: الاحتجاج بالقدر، وادعاء أن الله لم يهدهم.
· الثالثة: تمني العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا.
· الرد الإلهي القاطع على كل هذه الاعتذارات: "بلى قد جاءتك آياتي..."، حيث تقوم الحجة على كل إنسان.

الأمر الأول: الأمر باتباع القرآن والتحذير من العذاب المفاجئ) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم(...

1دلالة الأمر "واتبعوا":

الأمر هنا للوجوب. فاتباع القرآن ليس ترفًا فكريًا، بل هو واجب على كل مسلم. والاتباع يعني العمل بما فيه، وتطبيق أوامره، واجتناب نواهيه، والتحاكم إليه في كل شؤون الحياة.

2ما هو "أحسن ما أنزل إليكم"؟

القرآن كله حسن، ولكن "أحسن ما أنزل" يشير إلى ما فيه من أوامر ونواهٍ، ووعد ووعيد، وحلال وحرام، وقصص وعبر. وقيل: أحسن ما أنزل هو العفو والإحسان والصفح. وقيل: هو اتباع الرخص و السهل من الدين. وكل هذه المعاني صحيحة، فالمؤمن يتبع القرآن في كل ما جاء به، فيأخذ بالعفو، ويأتمر بالأوامر، وينتهي عن النواهي، ويعتبر بالقصص.

3التحذير من "العذاب بغتة":

}مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً .{"بغتة" أي فجأة، من حيث لا تشعرون .وهذا هو شأن العذاب الدنيوي والأخروي .فالموت يأتي فجأة، والعذاب في الآخرة يبدأ فجأة .والتعبير ب{ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ { يزيد المشهد رهبة، فالإنسان يكون في غفلته ولهوه، وإذا بالعذاب قد أحاط به من كل جانب .هذا التصوير القرآني يهدف إلى إزالة الغفلة عن القلوب، ودفع الناس إلى المسارعة بالتوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان.

4مثال تقريبي:

تخيل رجلا ً يمشي في طريق آمن، لا يرى خطرًا، وإذا بزلزال يضرب الأرض من تحته، أو بصاعقة تنزل عليه من السماء. أليس هذا هو حال الغافل الذي يأتيه الموت فجأة؟ هذه الآية تضعنا جميعًا في حالة استنفار إيماني، لنكون على أهبة الاستعداد دائمًا.

#الأمر الثاني: مشهد الحسرة الأولى) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله(

1دلالة "أن تقول":

هذه الجملة متعلقة بما قبلها. والمعنى: بادروا باتباع أحسن ما أنزل إليكم من قبل أن يأتيكم العذاب، كراهة أن تقول نفس يوم القيامة هذا القول. فالتحذير هنا من الوصول إلى هذه الحالة من الندم.

2تحليل عبارة "يا حسرتى":

"يا حسرتى" ندبة عظيمة .والحسرة هي أشد الندم والأسى .إنها صرخة ألم تنبع من أعماق النفس، عندما ترى العذاب وتتذكر ما فرطت في الدنيا .إنها كلمة تقال عندما لا ينفع الندم .ويا له من مشهد مؤثر! نفس كانت في الدنيا تضحك وتلهو، ها هي تصرخ بأعلى صوتها: يا حسرتى!

3معنى "ما فرطت في جنب الله":

"فرطت" أي قصرت وضيعت وأهملت .و"جنب الله" أي جانب الله وطاعته وحقه وذكره .فالتفريط في جنب الله هو التفريط في أداء الواجبات، وفي ترك المحرمات، وفي القيام بحق الله الذي خلقه لأجله . وهو يشمل كل تقصير في حق الله تعالى.

4دلالة قولها "وإن كنت لمن الساخرين":

هذا اعتراف إضافي يزيد الحسرة. فهي لم تكن فقط مقصرة في حق الله، بل كانت أيضًا من الساخرين المستهزئين بآيات الله وبالمؤمنين. كانت تضحك وتسخر من الذين يأمرونها بالمعروف وينهونها عن المنكر. والآن، تكتشف أنها كانت تسخر من الحق، وأن سخريتها كانت سببًا في هلاكها.

#الأمر الثالث: مشهد الاعتذار بالقدر) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين(

1ما هو هذا الاعتذار؟

هذا اعتذار آخر تحاول به النفس المعذبة أن تدفع عن نفسها المسؤولية. تقول: {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}. أي أن الله لم يشأ هدايتي، ولم يوفقني للإيمان والتقوى، ولو شاء لكنت من المتقين الصالحين. إنها محاولة يائسة لإلقاء اللوم على القدر، وإلقاء التبعة على الله، والتنصل من المسؤولية الشخصية.

2لماذا هذا الاعتذار باطل؟

لأن الله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعًا هداية البيان والدلالة. أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأوضح الطريق. قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: 3]. فالهداية التي أعطاها الله للجميع هي هداية الدلالة والبيان. أما هداية التوفيق، فهي ثمرة سعي العبد وإرادته. فمن سعى إلى الهدى، وفقه الله وهداه. ومن أعرض، أضله الله. فالمسؤولية تقع على العبد الذي أعرض عن الهدى الذي جاءه.

3كيف يرد الله على هذا الاعتذار في القرآن؟

هذا الاعتذار مذكور في أكثر من موضع في القرآن، والرد عليه حاضر. فالآية (59) ترد عليهم ردًا قاطعًا: {بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ}. فاللوم ليس على الله الذي لم يهدك، بل عليك أنت الذي كذبت واستكبرت بعد أن جاءتك الآيات.
الأمر الرابع: مشهد تمني العودة) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين(

1ما هي "الكرة"؟

"الكرة" هي الرجعة والعودة إلى الدنيا .فالنفس المعذبة، عندما ترى العذاب عيانًا، تتمنى أن تعود إلى الدنيا ولو للحظة واحدة، لا لتتمتع بشهواتها، بل} فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .{تمنت أن تكون من المحسنين في العمل، بعد أن كانت من المسيئين.

2لماذا يتمنون العودة؟

لأن الحقيقة قد انكشفت أمامهم. كانوا في الدنيا في شك وارتياب، أما الآن فقد رأوا العذاب بأعينهم، وعلموا أن ما أخبرت به الرسل كان حقًا. فتمنوا العودة ليعملوا صالحًا. ولكن هيهات هيهات! فقد فات الأوان. قال تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: 28].

3مقارنة بين الحالات الثلاث:

لاحظ تدرج الحسرات:

· الأولى: حسرة على التفريط والسخرية) ندم على الماضي.(
· الثانية: محاولة تبرير واهية) دفاع عن النفس.(
· الثالثة: تمني مستحيل للعودة) يأس من المستقبل.(

وهكذا تتقلب النفس المعذبة بين الندم والاعتذار والتمني، وكلها لا تنفعها شيئًا.

الأمر الخامس: الرد الإلهي القاطع) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت(

1دلالة "بلى":

"بلى" حرف جواب يأتي لإثبات المنفي .وهي هنا رد على كل ما سبق من اعتذارات وتمنيات .فهي تثبت أن الحجة قد قامت عليهم، وأنهم هم المسؤولون عن مصيرهم.

2تذكيرهم بالحجة: "قد جاءتك آياتي":

"الآيات" تشمل الآيات الكونية في الأنفس والآفاق، والآيات الشرعية المنزلة على الرسل .لقد جاءتهم البينات والهدى، وأقيمت عليهم الحجة، فلم يبق لهم عذر.

3بيان سبب الهلاك: "فكذبت بها واستكبرت":

هذان هما الداءان القاتلان:

· التكذيب: وهو تكذيب الآيات وعدم الإيمان بها.
· الاستكبار: وهو التكبر عن قبول الحق والانقياد له.

فلم يكن سبب هلاكهم هو أن الله لم يهدهم، بل كان سبب هلاكهم هو تكذيبهم واستكبارهم بعد أن جاءتهم الآيات.

4الخاتمة المهلكة: "وكنت من الكافرين":

هذا هو التصنيف النهائي. لقد اختاروا بأنفسهم أن يكونوا في زمرة الكافرين، فكانت عاقبتهم هذه العاقبة. إنه تقرير نهائي لا اعتراض عليه.

الأمر السادس: المفاهيم المستنبطة من الآيات ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (استثارة الخوف والرجاء معًا)

· تفعيل آلية "التحذير من المستقبل": هذه الآيات تستخدم أسلوبًا نفسيًا فعالا ً، وهو استحضار مشهد الندم المستقبلي .إنها تقول للإنسان: تخيل نفسك في ذلك الموقف، وأنت تصرخ "يا حسرتى" .هذا التخيل يثير الخوف المحمود في النفس، ويدفعها لتجنب ذلك الموقف.
· كشف زيف آليات الدفاع النفسي الواهية: الإنسان عندما يخطئ، تلجأ نفسه إلى "حيل دفاعية" لتبرير الخطأ، مثل إلقاء اللوم على الظروف أو على الآخرين أو حتى على القدر .الآية تكشف هذه الحيل النفسية) كتبرير: لو أن الله هداني(، وتبين أنها لن تنفع يوم القيامة .هذا يدفع الإنسان إلى تحمل المسؤولية الكاملة عن أفعاله في الدنيا.
· تحويل التسويف إلى مبادرة: مشهد "لو أن لي كرة" يفضح خطورة التسويف .كم من إنسان يقول: "غدًا أتوب"، "عندما أكبر أصلي"؟ هذه الآية تقول له: غدًا قد لا يأتي .فإذا متّ، ستتمنى الرجوع ولن تستطيع .هذا يقتل جرثومة التسويف في النفس، ويدفع إلى المبادرة الفورية.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (مسؤولية الإنسان وعدل الله)

· حرية الإرادة والمسؤولية الفردية: هذه الآيات تؤكد أن الإنسان مخير وليس مجبورًا .الاعتذار بالقدر)لو أن الله هداني (مرفوض .الله أعطى الإنسان العقل والإرادة، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب .فالإنسان هو الذي يختار طريقه .هذا المفهوم يبني المسؤولية الأخلاقية للفرد.
· قيام الحجة على الخلق: "بلى قد جاءتك آياتي" يؤكد أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد أن تقوم عليه الحجة .وهذا من كمال عدل الله .فلا أحد يستطيع يوم القيامة أن يقول: "لم أعلم" .هذا يرسخ عقيدة العدل الإلهي.
· القرآن هو أحسن ما أنزل: هذا تأكيد على مركزية القرآن في حياة المسلم .إنه المصدر الأول للتشريع والتوجيه .اتباعه هو سبب النجاة، والإعراض عنه هو سبب الهلاك .هذا يبني في العقل المرجعية العليا للقرآن.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء الشخصية الجادة المسؤولة)

· تربية النفس على الجدية وعدم الاستهزاء بالدين: "وإن كنت لمن الساخرين" تحذر من الاستهزاء بـ الدين وأهله .تربي في النفس الوقار واحترام المقدسات .وتعلمنا ألا نستهين بأوامر الله، فالسخرية من الدين قد تكون سببًا في سوء الخاتمة.
· تربية النفس على تحمل المسؤولية وعدم إلقائها على الآخرين: نربي أبناءنا على أن يقولوا: "أنا أخطأت"، ولا يقولوا: "الظروف هي السبب" .هذه الآية تعلمنا الصدق مع النفس، والاعتراف بالخطأ، وهذا هو بداية طريق الإصلاح.
· تربية النفس على المبادرة وعدم التسويف: "واتبعوا ...من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة" هي منهج تربوي كامل .نربي أنفسنا وأبناءنا على فعل الخير فورًا، وعدم تأخيره .فالوقت سيف، إن لم تقطعه قطعك.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان الجاد الواعي: هذه الآيات تبني إنسانًا يعيش حياته بجدية، واعيًا بحقيقة الموت والآخرة، لا يلهو ولا يغفل .هذا الإنسان هو القادر على تحقيق إنجازات عظيمة، لأنه لا يضيع وقته فيما لا ينفع.
· بناء مجتمع قائم على المحاسبة والمسؤولية: عندما يعيش أفراد المجتمع بهذا الوعي، يصبح المجتمع كله مسؤولاً .كل فرد يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره .هذا يقلل من الجرائم والانحرافات، ويبني مجتمعًا فاضلاً.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) استثمار الوقت (: هذه الآيات تقدم أعظم حافز لاستثمار الوقت . فمعرفة أن الموت قد يأتي بغتة، وأن الإنسان سيتمنى لحظة واحدة ليعمل صالحًا، تجعله يحرص على كل ثانية من عمره، فيستثمرها في العلم النافع والعمل الصالح .هذا هو جوهر التنمية البشرية المستدامة.
· إسهام الآية في بناء الحضارة المتوازنة: الحضارة التي تقوم على منهج "واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم" هي حضارة متوازنة، تجمع بين الروح والمادة .إنها لا تغفل عن الآخرة، ولا تهمل الدنيا .هذا التوازن هو الذي يضمن بقاء الحضارة وازدهارها.

الأمر السابع: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تسمع آية أو حديثًا أو موعظة:
لا تكن كمن يسمع ثم يعرض .تذكر هذه الآيات .تذكر أن هذه "آية من آيات الله جاءتك" .إياك أن تكذب بها أو تستكبر عنها .بادر باتباعها وتطبيقها فورًا.
· عندما تسوف في التوبة أو في عمل خير:
استحضر مشهد "يا حسرتى" و"لو أن لي كرة" .تخيل نفسك في القبر، أو يوم القيامة، وأنت تتمنى لو تعود لتصلي ركعتين أو لتتصدق بدرهم .هذا الاستحضار سيدفعك للقيام فورًا من مكانك والعمل.
· عندما ترى شخصًا يستهزئ بالدين أو بالملتزمين:
لا ترد عليه بمثل سخريته، ولكن اقرأ في نفسك قوله:} وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ .{وادعُ له بالهداية قبل أن يتمنى ذلك يوم لا ينفع فيه الندم.
· في تربية أبنائك على عدم إلقاء اللوم على الآخرين:
إذا أخطأ ابنك وقال: "أخي هو الذي دفعني!"، علمه أن يقول: "أنا المخطئ" .اشرح له قصة الذين يقولون "لو أن الله هداني"، وكيف أن الله يرفض هذا العذر .هذا يربي فيه الشجاعة الأدبية وتحمل المسؤولية.
· في خطابك الدعوي مع الناس:
استخدم أسلوب القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب .اذكر لهم سعة رحمة الله) كما في الآيتين53 -(54، ثم اذكر لهم هذه المشاهد من الحسرة والندامة .هذا التوازن هو الذي يؤثر في القلوب، ويدفعها إلى التوبة الصادقة.

#الخاتمة: قبل أن يضيع الأوان

بهذا نكون قد طوينا هذه الصفحات المشرقة من سورة الزمر، والتي جمعت بين فتح باب الرجاء في الآيتين (53-54)، وإغلاق باب الاعتذار والتمني في هذه الآيات (55-59). إنها رحلة إيمانية متكاملة، تبدأ بنداء الرحمة، وتنتهي بتحذير من تفويت الفرصة.

لقد علمتنا هذه الآيات أن الفرصة ما زالت قائمة. باب التوبة مفتوح، والقرآن بين أيدينا، والوقت لم ينفد بعد. فلنتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، من قبل أن يأتي يوم نقول فيه: {يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا

فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ}، فلا ينفع الندم.

المبحث الثالث

لقد مررنا معًا في الآيات السابقة بمشاهد مؤثرة من حسرات المكذبين واعتذاراتهم الواهية يوم القيامة ، ورأينا كيف يرد الله عليهم بأن آياته قد جاءتهم فكذبوا بها واستكبروا. والآن، تأتي هاتان الآيتان لترسما لنا مشهدًا آخر من مشاهد يوم القيامة، ولكنه مشهد خاص بفئة معينة: أولئك الذين افتروا على الله الكذب في الدنيا. إنهما آيتان تكشفان عن حال المفترين على الله يوم القيامة، وتوازنان بين حالهم وحال المتقين، لتكتمل الصورة، وليظهر عدل الله المطلق بين عباده.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)} [الزمر: 60-61].

تأمل معي هذا التقابل البديع بين مصير فريقين: فريق الكاذبين على الله المتكبرين، وفريق المتقين الصادقين. إنهما آيتان ترسمان لوحة فنية متكاملة الألوان، ففي جانب السواد والظلام والعذاب يقف المفترون، وفي جانب النور والنجاة والفرح يقف المتقون. إنه مشهد يهز الوجدان، ويدفع كل عاقل إلى أن يختار لنفسه أين يريد أن يكون في ذلك اليوم.

#أبرز محاور الآيتين في سطور

· تحديد الزمان: "ويوم القيامة"، للدلالة على أن هذا المشهد سيكون في ذلك اليوم العظيم.
· وصف حال الذين كذبوا على الله: وجوههم مسودة، أي تعلوها الظلمة والكآبة والذل والهوان.
· بيان عاقبتهم: جهنم هي المأوى والمستقر لهم، وهذا جزاء تكبرهم عن الحق.
· استفهام تقريري لتأكيد هذه الحقيقة: "أليس في جهنم مثوى للمتكبرين؟".
· وصف حال المتقين في مقابل ذلك: ينجيهم الله بمفازتهم، أي بسبب فوزهم ونجاتهم التي استحقوها بتقواهم.
· بيان كمال نعيمهم: لا يمسهم السوء (العذاب والهم والغم) ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

#الأمر الأول: مشهد الخزي والعار) ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة(

1دلالة التعبير بـ "ترى":

الخطاب هنا للنبي ﷺ، ولكن المراد به كل من يصلح للخطاب. وكأن الله يعرض علينا هذا المشهد كأننا نراه بأعيننا، ليكون أوقع في النفس وأبلغ في التأثير. فكلمة "ترى" تنقل المشهد من عالم الغيب المجرد إلى عالم الشهادة المحسوس، فيرتسم في ذهن المؤمن صورة حية لهذا الموقف الرهيب.

2من هم "الذين كذبوا على الله"؟

الكذب على الله يشمل صورًا متعددة، منها:

· الشرك بالله: وهو أعظم الكذب، كأن يزعم أن لله شريكًا أو ولدًا.
· تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله: بغير علم، وكأنه يتكلم باسم الله.
· ادعاء النبوة كذبًا، أو ادعاء معرفة الغيب.
· وصف الله بما لا يليق بجلاله، أو إنكار صفاته.

كل هؤلاء داخلون في هذا الوعيد، وهم الذين قال الله فيهم: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} [الزمر: 32].

3دلالة وصف "وجوههم مسودة":

الوجه هو مرآة النفس، وهو أكثر أعضاء الجسد تعبيرًا عن الحالة النفسية. فسواد الوجوه هنا يدل على عدة معانٍ مجتمعة:

· الحزن والكآبة والغم: فقد أحاط بهم اليأس والقنوط.
· الذل والهوان: بعد أن كانوا متكبرين في الدنيا، صاروا أذلاء في الآخرة.
· الظلمة والوحشة: التي تقابل نور وجوه المؤمنين. قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: 106].
· العار والفضيحة: أمام الخلائق يوم الجمع الأكبر.

هذا السواد ليس سوادًا طبيعيًا كسواد لون البشرة، بل هو سواد معنوي يظهر على الوجه، فيراه الناظر فيعرف أن صاحبه من أهل الشقاء.

4مثال تقريبي:

تأمل حال إنسان ارتكب جريمة شنعاء، ثم قُبض عليه، وقدّم للمحاكمة أمام جمع غفير من الناس. كيف يكون حال وجهه؟ أليس مصفرًا خائفًا ذليلا ً؟ فكيف بمن يقف يوم القيامة أمام رب العالمين، وقد افترى عليه الكذب، وأمام ملائكته ورسله وجميع الخلائق؟ إن سواد وجهه سيكون أشد وأظهر، لأ نه سواد معنوي وحسي معًا.

الأمر الثاني: المأوى المنتظر) أليس في جهنم مثوى للمتكبرين(

1نوع الاستفهام ودلالته:

الاستفهام هنا استفهام تقريري، غرضه تقرير الحقيقة وإثباتها في الأذهان. وكأن الله يقول: أليس هذا حقًا وعدلا ً؟ أليس جهنم هي المكان اللائق بأمثال هؤلاء المتكبرين؟ إنه سؤال إجابته معروفة ومقررة في فطرة كل عاقل: بلى، إنها كذلك.

2الربط بين الكذب على الله والتكبر:

لماذا ختم الآية بوصفهم بـ {لِلْمُتَكَبِّرِينَ}؟
لأن الكذب على الله إنما ينشأ غالبًا من الكبر. فالمتكبر هو الذي يأبى قبول الحق، ويأنف من الانقياد لأوامر الله، فيلجأ إلى تحريف الكلم عن مواضعه، والافتراء على الله. الكبر هو أصل كل معصية، وهو أول ذنب عصي الله به (ذنب إبليس). فالمتكبر يرى نفسه أكبر من أن يكون عبدًا ذليلا ً لله، فيقع في الكذب على الله والافتراء عليه.

3لماذا جهنم هي "المثوى"؟

"المثوى" هو مكان الإقامة الدائمة والاستقرار. فجهنم ليست مجرد دار عذاب مؤقت لهؤلاء، بل هي دار إقامتهم الأبدية. وهذا يزيد من فظاعة المشهد، فالعذاب ليس مؤقتًا، بل هو دائم مستمر.

4مثال تقريبي:

تخيل قاضيًا عادلا ً يقول لمجرم متكبر: "أليس السجن هو المكان المناسب لك؟". هذا السؤال لا يحتاج إلى جواب، بل هو تقرير لواقع الحال. كذلك هذا الاستفهام الإلهي، يقرر حقيقة أن جهنم هي المسكن الطبيعي لكل متكبر كذاب على الله.

الأمر الثالث: مشهد الفوز والنجاة) وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم(

1التقابل البديع بين الفريقين:

بعد أن عرض مشهد المفترين ووجوههم المسودة ومأواهم جهنم، يأتي بمشهد المتقين ليكتمل التقابل:

· أولئك وجوههم مسودة، وهؤلاء وجوههم مشرقة نضرة. كما قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22-23].
· أولئك مأواهم جهنم، وهؤلاء مأواهم الجنة.
· أولئك في عذاب وهوان، وهؤلاء في نعيم وأمان.

هذا التقابل يزيد المشهد وضوحًا، ويدفع النفس إلى اختيار الطريق الصحيح.

2تحليل الفعل "ينجي":

"ينجي" فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد. فالله هو المنجي وحده. والنجاة هنا هي النجاة من النار ومن أهوال يوم القيامة. وفي هذا الفعل تذكير بأن دخول الجنة ليس بمجرد العمل، بل هو بفضل الله ورحمته. كما قال النبي ﷺ: "لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله

لله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

3معنى "بمفازتهم":

"المفازة" هي مكان الفوز والنجاة، وهي الجنة. والمعنى: ينجيهم الله بسبب فوزهم الذي استحقوه، أو ينجيهم ويدخلهم مفازتهم وهي الجنة. والباء في "بمفازتهم" تحتمل معنيين:

· السببية: أي بسبب فوزهم وأعمالهم الصالحة التي استحقوا بها الجنة.
· المصاحبة: أي ينجيهم ومعهم فوزهم، فيدخلون الجنة فائزين.

4كمال النعيم: "لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون":

هذا هو وصف كمال النعيم. "السوء" يشمل كل مكروه وأذى وضر، سواء في الجسد أو النفس. فهم في أمان تام من كل ما يسوء. "ولا هم يحزنون" على ما فاتهم من الدنيا، ولا على شيء مما كانوا يخافونه. إنها حياة الرضا المطلق والسعادة الأبدية.

#الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (استثارة دافع الخوف والرجاء)

· استخدام الصورة الذهنية في التربية: "ترى... وجوههم مسودة" هي صورة ذهنية مؤثرة جدًا. علم النفس يؤكد أن الصور الذهنية تؤثر في السلوك أكثر من الكلمات المجردة. هذه الآية تزرع في العقل الباطن صورة مرعبة لعاقبة الكذب على الله، مما يدفع النفس إلى تجنبه. وفي المقابل، تزرع صورة النجاة والفوز، مما يدفع النفس إلى التشوق إليها والسعي لها.
· التحذير من الكبر: ربط الكذب على الله بالكبر في قوله "للمتكبرين" هو تنبيه نفسي خطير. كثير من الناس قد يقع في الكبر وهو لا يشعر. هذه الآية تقول له: انظر إلى عاقبة المتكبرين في جهنم، واحذر أن تكون منهم. إنها دعوة لمحاسبة النفس وتطهيرها من الكبر.
· زرع الطمأنينة في قلوب المتقين: "وينجي الله الذين اتقوا" هي بشارة عظيمة تملأ قلب المؤمن طمأنينة وسكينة. إنه يعلم أن تعبه في الدنيا لن يضيع، وأن الله سينجيه ويدخله مفازته. هذه الطمأنينة هي وقود المؤمن للاستمرار في طريق التقوى.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (ترسيخ عقيدة العدل الإلهي)

· عدالة الجزاء الإلهي: هاتان الآيتان ترسخان عقيدة أن الله لا يظلم أحدًا. الكاذبون على الله المتكبرون جزاؤهم جهنم، والمتقون جزاؤهم النجاة والجنة. هذا هو العدل المطلق. فكل إنسان يلقى جزاء ما كسبت يداه.
· تعريف "المتقين": الآية لا تذكر صفات المتقين هنا، ولكن سياق السورة كله يوضح أنهم هم الذين آمنوا بالله، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم، وخافوا مقام ربهم، ونهوا النفس عن الهوى. التقوى هي جماع كل خير.
· حقيقة "المفازة": "بمفازتهم" تشير إلى أن النجاة والفوز ليس هبة بدون مقابل، بل هو نتيجة للعمل و التقوى. وهذا يدفع المؤمن إلى العمل والجد والاجتهاد، لأنه يعلم أن الجنة ثمنها العمل الصالح.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن الصادق المتواضع)

· تربية النفس على الصدق واجتناب الكذب، خاصة الكذب على الله: هذه الآية تربي في المؤمن هيبة عظيمة من أن ينسب إلى الله شيئًا بغير علم. فلا يقول: "هذا حلال وهذا حرام" إلا بدليل. ولا يتكلم في صفات الله إلا بما ورد في الكتاب والسنة. هذا هو الورع الذي يحمي دين المؤمن.
· تربية النفس على التواضع واجتناب الكبر: مصير المتكبرين هو جهنم. هذه الحقيقة كافية لجعل المؤمن يفر من الكبر فراره من الأسد. إنها تربي فيه التواضع لله ولعباده.
· تربية النفس على استحضار يوم القيامة: "ويوم القيامة ترى..." تعلمنا أن نعيش حياتنا ونحن نستحضر ذلك اليوم. هذا الاستحضار هو الميزان الذي نزن به كل أقوالنا وأفعالنا. فهل نرضى أن نكون يوم القيامة من ذوي الوجوه المسودة؟

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان الصادق الأمين: المجتمع بحاجة إلى أناس صادقين في أقوالهم وأفعالهم. هذه الآية

تبني الإنسان الصادق الذي يخاف من الكذب على الله وعلى الناس، لأن الكذب صفة من صفات المنافقين، وعاقبته وخيمة.
· بناء مجتمع متواضع متعاون: عندما ينتشر التواضع بين أفراد المجتمع، ويكون الكبر ممقوتًا، يصبح المجتمع أكثر تماسكًا وتعاونًا. فالمتكبر يفرض نفسه على الآخرين، ويحتقرهم، مما يسبب الشقاق. أما المتواضع فيحب الناس ويحبونه.
· إسهام الآية في التنمية البشرية (بناء الشخصية المتوازنة): هذه الآية تسهم في بناء الشخصية التي تجمع بين الخوف والرجاء. خوف من أن تكون من ذوي الوجوه المسودة، ورجاء في أن تكون من المتقين الذين ينجيهم الله. هذا التوازن هو الذي ينتج الشخصية السوية القادرة على العمل والإنجاز.
· إسهام الآية في بناء الحضارة القائمة على القيم: الحضارة التي تبنى على الكذب والكبر هي حضارة هشة سرعان ما تنهار. أما الحضارة التي تبنى على الصدق والتواضع، فهي حضارة راسخة قوية. هذه الآية تضع الأساس الأخلاقي المتين لأي حضارة إنسانية حقيقية.

#الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تتحدث في أمور الدين:
تذكر قوله: {الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ}. لا تقل: "هذا حلال وهذا حرام" إلا بعلم ويقين. لا تفتِ بغير علم. لا تنسب إلى الله صفة لم يثبتها الكتاب والسنة. كن حذرًا، فإن الكذب على الله عظيم.
· عندما تشعر في نفسك بشيء من الكبر والعجب:
تذكر فورًا قوله: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ}. استعذ بالله من الشيطان الرجيم. تواضع لله ولخلقه. تذكر أنك مهما بلغت، فأنت عبد فقير إلى الله، وأن المتكبرين مصيرهم جهنم.
· عندما تقرأ في سير السلف وتجدهم يخافون من سواد الوجوه:
كان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية بكى، خوفًا من أن يكون ممن افترى على الله أو تكبر. تفكر في حالهم، واسأل نفسك: أين أنا من هذا الخوف؟ هل أنا آمن من مكر الله؟
· عندما تربي أبناءك على الصدق والتواضع:
استخدم هذه الآية في تربيتهم. قل لهم: الكاذب المتكبر وجهه أسود يوم القيامة، أما الصادق المتواضع فوجهه أبيض نضر. هذا الربط بين السلوك والجزاء الأخروي يغرس فيهم دوافع قوية لفعل الخير وترك الشر.
· عندما تشعر بالحزن أو القلق على مستقبلك أو رزقك:
تذكر وعد الله للمتقين: {لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. إذا كنت من المتقين، فثق بوعد الله. لن يمسك السوء في الدنيا والآخرة، ولن يصيبك الحزن الدائم. هذا اليقين يطرد القلق ويملأ القلب سكينة.

#الخاتمة: بين سواد الوجوه ونور المفازة

بهذا نكون قد أتممنا رحلتنا مع هاتين الآيتين الجامعتين. لقد وقفنا على مشهدين متقابلين: مشهد المفترين المتكبرين الذين تعلو وجوههم الظلمة والعار، ومشهد المتقين الذين يغمرهم نور الفوز و النجاة. إنهما آيتان ترسمان لنا خارطة الطريق بوضوح.

إنها دعوة صريحة لكل عاقل: اختر لنفسك. أتريد أن تكون يوم القيامة ممن وجوههم مسودة، أم ممن ينجيهم الله بمفازتهم؟ أتريد أن تكون مأواك جهنم أم الجنة؟ الجواب بيدك أنت. والطريق واضح: اتق الله، واصدق مع الله، وتواضع له ولعباده.

المقطع الاخير
اولا
لقد رأينا في الآيات السابقة كيف ينقسم الناس يوم القيامة إلى فريقين: فريق المفترين الكاذبين على الله الذين تسود وجوههم، وفريق المتقين الذين ينجيهم الله بمفازتهم .والآن، تأتي هاتان الآيتان لتختم هذا المقطع من السورة بخاتمة جامعة مانعة، تقرر أعظم حقيقة في الوجود، وترد على كل شبهة، وتقطع كل جدال .إنهما آيتان تثبتان التوحيد الخالص، وتقرران ملكية الله المطلقة، وتبينان عاقبة الكافرين.

يقول الله سبحانه وتعالى:} اللهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لهُ مَقَالِيدُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۗ وَالّذِينَ كفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ] {(63) الزمر:62 -.[63

تأمل معي هذا الإعلان الإلهي المدوي .بعد أن عرض الله مشاهد القيامة، وأحوال المكذبين والمتقين، يعود ليقرر الأساس الذي تنبني عليه كل هذه الأحكام، ألا وهو توحيد الربوبية الذي يلزم منه توحيد ا لألوهية .إنهما آيتان تضعان النقاط على الحروف، وتقيمان الحجة على كل منكر وجاحد.

-أبرز محاور الآيتين في سطور

· تقرير عقيدة الخلق المطلق لله وحده: "الله خالق كل شيء"، لا شريك له في الخلق.
· بيان كمال قدرته وتدبيره: "وهو على كل شيء وكيل"، أي هو القائم على كل شيء بحفظه وتدبيره.
· إثبات ملكيته التامة للكون كله: "له مقاليد السماوات والأرض"، أي مفاتيح خزائنهما وملكهما.
· بيان عاقبة الكافرين بآيات الله: "أولئك هم الخاسرون"، خسروا الدنيا والآخرة.
· الربط المنطقي بين الخلق والملك والتصرف: فمن خلق كل شيء فهو مالكه، ومن ملكه فهو المتصرف فيه وحده.

الأمر الأول: إثبات الخلق المطلق لله) الله خالق كل شيء(

1دلالة الابتداء باسم الجلالة "الله":

الابتداء باسم الجلالة} اللهُ {يفيد الحصر والتوكيد .فكأن الآية تقول: الله وحده هو خالق كل شيء، لا شريك له في الخلق .وهذا هو حجر الأساس في عقيدة التوحيد .فالإقرار بأن الله هو الخالق وحده يستلزم بالضرورة إفراده بالعبادة وحده.

2ما معنى "خالق كل شيء"؟

"خالق" صيغة مبالغة تدل على كثرة الخلق وعظمته .و"كل شيء" لفظ عام يشمل كل ما سوى الله: السماوات والأرض، الجبال والبحار، الإنس والجن، الملائكة والحيوانات، الذرات والمجرات، الظاهر و الخفي، المحسوس والمعقول .لا يوجد شيء في هذا الكون الواسع إلا والله هو خالقه ومبدعه من العدم .قال تعالى:} هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ] {فاطر:.[3

3ماذا يترتب على الإيمان بأن الله خالق كل شيء؟

يترتب على هذا الإيمان أمور عظيمة:

· إفراده بالعبادة: فإذا كان هو الخالق وحده، فهو المستحق للعبادة وحده .فلا يجوز أن يصرف شيء من العبادة) كالدعاء والذبح والنذر (لغيره.
· التوكل عليه وحده: فمن خلقك فهو الذي يدبر أمرك، وهو الذي يكفيك .فلا تتوكل إلا عليه.
· الخوف منه وحده: فالذي خلقك قادر على أن يفنيك، فلا تخف ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا.
· الرضا بقضائه وقدره: فالذي خلقك هو أعلم بما يصلحك، فما دام هو الخالق المدبر، فكن راضيًا بقضائه.

4مثال تقريبي:

تخيل أنك دخلت قصرًا فخمًا، ورأيت فيه من البناء والزخرفة ما يبهر العقول .ثم سألت: من بنى هذا القصر؟ فقالوا لك: لا أحد، لقد وجد هكذا صدفة! ألن تتهمهم بالجنون؟ فكيف بمن ينظر إلى هذا الكون العظيم، السماوات والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، ثم يقول: وجدت صدفة، أو خلقها غير الله؟! إن الإقرار بأن الله هو الخالق هو فطرة مركوزة في كل إنسان، لا ينكرها إلا مكابر جاحد.

الأمر الثاني: إثبات الوكالة والتدبير) وهو على كل شيء وكيل(

1معنى "وكيل" في حق الله:

الوكيل في حق الله سبحانه وتعالى هو: القائم على كل شيء بالحفظ والتدبير والرزق والتقدير .فهو الذي يدبر أمر خلقه، ويحفظهم، ويرزقهم، ويصرف شؤونهم .قال تعالى:} اللهُ الذي خَلَقكُمْ ثمّ رَزَقكُمْ ثمّ يُمِيتُكمْ ثمّ يُحْيِيكمْ] {الروم:.[40

2الربط بين الخلق والوكالة:

الجمع بين هاتين الصفتين} خَالِقُ كلّ شَيْءٍ {و}عَلَىٰ كلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {هو قمة الكمال .فالذي خلق هو الذي يملك، والذي يملك هو الذي يدبر .فالله لم يخلق الكون ثم تركه هملا ً، بل هو قائم عليه، يدبر أمره، ويرزق أهله، ويحفظه من الزوال إلى أجل مسمى .هذا الربط يرسخ في قلب المؤمن الطمأنينة الكاملة، فهو يعلم أن أمره بيد من خلقه وهو أرحم به من نفسه.

3ما أثر الإيمان بأن الله وكيل على كل شيء؟

· تفويض الأمر إلى الله: المؤمن يعلم أن الله هو الوكيل، فيفوض أمره إليه، ويثق بتدبيره .يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل".
· زوال الهم والقلق: فإذا علمت أن الله هو المتكفل بأمرك، فلماذا تقلق؟ ولماذا تخاف المستقبل؟ ثق بأن الوكيل لن يضيعك.
· التسليم لأمر الله: الوكيل يفعل ما يشاء بحكمته، فعليك أن تسلم لأمره، وترضى بقضائه.

4مثال تقريبي:

تخيل أن رجلا ً غنيًا حكيمًا قال لك: أنا وكيلك، سأدبر أمورك كلها .ألا تشعر بالطمأنينة والراحة؟ فكيف إذا كان هذا الوكيل هو الله، خالق كل شيء، القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء؟ إن ا لإيمان بأن الله هو الوكيل هو أعظم مصدر للأمن النفسي في هذا الكون المضطرب.

-الأمر الثالث: ملكية الكون المطلقة) له مقاليد السماوات والأرض(

1ما هي "المقاليد"؟

"المقاليد" جمع "مقليد" أو "مقلاد"، وهي المفاتيح .فمعنى:} لهُ مَقَالِيدُ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ {أن بيده وحده مفاتيح خزائن السماوات والأرض .يفتح لمن يشاء أبواب الرزق والرحمة، ويغلقها على من يشاء .قال تعالى:} مّا يَفتَحِ اللهُ لِلنّاسِ مِن رّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ] {فاطر:.[2

2دلالة هذا التعبير على كمال الملك والتصرف:

هذا التعبير القرآني العظيم يفيد أن الله هو المالك الحقيقي للكون كله، وأن أمره نافذ فيه .مفاتيح الخزائن بيده: خزائن الأرزاق، خزائن الأمطار، خزائن الهداية، خزائن الموت والحياة .لا أحد يستطيع أن يفتح بابًا أغلقه الله، ولا أن يغلق بابًا فتحه الله.

3الربط بين المقاليد والوكالة:

كون الله بيده مقاليد السماوات والأرض هو مقتضى كونه وكيلا ً على كل شيء .فالوكيل على الشيء لابد أن تكون بيده مفاتيحه وأدوات التحكم فيه .فالله لما كان وكيلا ً على كل شيء، كانت بيده مقاليد كل شيء .هذا يزيد المؤمن يقينًا بأن الأمر كله لله.

4مثال تقريبي:

تخيل أنك في سجن مغلق، والمفاتيح بيد السجان .لا تستطيع الخروج إلا بإذنه .هذا الكون كله بيد الله مقاليده .لا تنزل قطرة مطر إلا بإذنه، ولا ينبت نبات إلا بأمره، ولا يموت أحد إلا بقضائه .كل شيء بيده .فهل يليق بك أن تتعلق بغيره، أو ترجو سواه؟!

الأمر الرابع: ختام القضية) والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون(

1من هم "الذين كفروا بآيات الله"؟

هم الذين جحدوا آيات الله وأنكروها، سواء كانت آيات كونية تدل على وجوده ووحدانيته، أم آيات شرعية منزلة في كتبه .وفي سياق السورة، هم الذين كذبوا على الله، واتخذوا من دونه شفعاء، واشمأزوا من ذكره وحده، واستكبروا عن عبادته.

2ما معنى "أولئك هم الخاسرون"؟

"الخاسرون" صيغة مبالغة تدل على شدة الخسارة وعظمها .و"هم" ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد . فالمعنى: هؤلاء الكافرون هم الخاسرون حقًا، وليس غيرهم .خسرانهم يشمل:

· خسران الدنيا: حيث عاشوا في ضلال وقلق وحيرة، ولم ينعموا بالإيمان والطمأنينة.
· خسران الآخرة: حيث صاروا إلى جهنم وبئس المصير، وحرموا من الجنة ونعيمها.

3لماذا هم الخاسرون مع أنهم قد يملكون الدنيا بأكملها؟

لأن الخسارة الحقيقية هي خسارة النفس والأهل يوم القيامة .قال تعالى:} قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] {الزمر: .[15 فالكافر وإن ملك الدنيا كلها، فإنه يخسر نفسه في الآ خرة، وهذا هو الخسران المبين .أما المؤمن، فحتى لو كان فقيرًا في الدنيا، فإنه فائز في الآخرة، وهذا هو الفوز العظيم.

4الربط بين الكفر بآيات الله والخسران:

لقد كفروا بآيات الله الدالة على أنه} خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ {و}عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {و}لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .{فبعد كل هذه الآيات البينات، كفروا وأعرضوا .فاستحقوا وصف "الخاسرون" .إنه تقرير نهائي لعاقبة من يرفض هذه الحقائق الواضحة.

الأمر الخامس: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية) بناء الأمن الداخلي والطمأنينة(

· علاج القلق والتوتر: هذه الآية تقدم أعظم علاج نفسي للقلق والتوتر .فعندما يؤمن الإنسان بأن الله خالق كل شيء ووكيل على كل شيء، فإنه يسلم أمره لله، ويرتاح من هموم الدنيا .يقول لنفسه: من خلقني سيرزقني، ومن خلقني سيدبر أمري .هذه العقيدة هي مصدر السكينة في قلوب المؤمنين.
· التخلص من الخوف من المخلوقين: إذا كانت مقاليد السماوات والأرض بيد الله، فلماذا أخاف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؟ هذه الآية تبني في النفس شجاعة عظيمة، وتحررها من رهبة المخلوقين، لأنها توقن أن الضار والنافع هو الله وحده.
· بناء الثقة بالله والتوكل عليه: "وهو على كل شيء وكيل" تملأ قلب المؤمن ثقة عظيمة بالله .فهو يعلم أن الله لم يخلقه ثم يهمله، بل هو قائم على أمره، وكيل عليه .هذه الثقة تدفعه إلى التوكل الصادق على الله في كل أموره.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية) تأسيس التوحيد الخالص(

· تقرير توحيد الربوبية: الآية الأولى تقرر حقيقة أن الله هو الخالق وحده، والمدبر وحده .وهذا هو ا لأساس الذي تبنى عليه كل عقائد الإسلام .فإذا آمن العبد بهذا، سهل عليه الإيمان بأنه المستحق للعبادة وحده.
· الاستدلال بالخلق على الملك والتصرف: الآية تبني فكرًا منطقيًا: من خلق فهو المالك، ومن ملك فهو المتصرف .وهذا الاستدلال العقلي يقطع الطريق على أي شبهة تزعم أن هناك من يملك أو يتصرف في الكون مع الله.
· تحرير مفهوم "الملكية": "له مقاليد السماوات والأرض" يصحح مفهوم الملكية عند الإنسان .فالإنسان لا يملك شيئًا حقيقة، بل هو مستخلف في مال الله .المالك الحقيقي هو الله .هذا المفهوم يحرر الإنسان من عبادة المال، ويجعله سخيًا كريمًا.

ثالثًا: المفاهيم التربوية) بناء شخصية المؤمن الموحد(

· تربية النفس على التوكل الصادق: نربي أنفسنا وأبناءنا على أن نعلق القلوب بالله وحده، فهو الخالق وهو الوكيل .نعلمهم أن يقولوا دائمًا: "حسبي الله ونعم الوكيل" .هذا يربيهم على الاستقلال العاطفي عن المخلوقين، والتعلق بالخالق وحده.
· تربية النفس على تعظيم الله وإجلاله: "الله خالق كل شيء" و"له مقاليد السماوات والأرض" تربي في النفس هيبة عظيمة لله .فإذا استقر هذا في القلب، خاف العبد من معصية الله، وراقبه في سره وعلا نيته.
· التحذير من الخسران الحقيقي: "أولئك هم الخاسرون" تحذر من الانسياق وراء الكفر والجحود .إنها تربي في النفس النفرة من الكفر، والرغبة في الإيمان، حتى لا يكون الإنسان من الخاسرين.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان القوي بالله: هذه الآية تبني إنسانًا قويًا، لا لأن عضلاته قوية، بل لأن قلبه معلق بالله خالق كل شيء .هو قوي بالله، عزيز بالله، غني بالله .هذا الإنسان هو النواة الصلبة لأي مجتمع.
· بناء مجتمع متماسك بالتوكل على الله: عندما ينتشر التوكل على الله في المجتمع، فإنه يقل التنافس المادي المدمر، ويزول الحسد والقلق .الكل يعلم أن الرزق بيد الله، وأن مقاليد السماوات والأرض له .هذا يبني مجتمعًا متكافلا ً، يثق أفراده في الله وفي بعضهم البعض.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) تحرير الطاقات (: الخوف من المستقبل والقلق على الرزق من أكبر معوقات التنمية والإبداع .هذه الآية تحرر الإنسان من هذه القيود النفسية، فينطلق في العمل والإنتاج بلا خوف، لأنه واثق بأن وكيله هو الله .هذه الحرية النفسية هي أعظم دافع للإبداع.
· إسهام الآية في بناء الحضارة المتوازنة: الحضارة التي تقوم على عقيدة أن الله خالق كل شيء ووكيل على كل شيء، هي حضارة متوازنة، لا تطغى فيها المادة على الروح .إنها حضارة تعمر الأرض، ولكنها لا تنسى خالق الأرض والسماء.

#الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا) في فقرات(

· عندما تشعر بضيق أو هم أو قلق على مستقبلك:
اقرأ هذه الآية بتدبر .قل لنفسك: من خلقني؟ الله .من يدبر أمري؟ الله .من بيده مقاليد كل شيء؟ الله .إذن، لماذا القلق؟ فوض أمرك لله، وقل: "اللهم إني عبدك، وأنت وكيلي، دبر أمري فإني لا أحسن التدبير" .هذا الدعاء سيملأ قلبك سكينة.
· عندما ترى شخصًا يغتر بقوته أو ماله أو منصبه:
تذكر أن مقاليد السماوات والأرض بيد الله وحده .هذا المغرور لا يملك شيئًا .وما عنده هو مجرد إيداع من الله، وسيزول .لا تخفه، ولا تحسده، وقل في نفسك: "اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء".
· في تربية أبنائك على حب الله وتعظيمه:
عندما تخرج مع أبنائك في نزهة، أشر إلى السماء والأرض والجبال والأنهار، وقل لهم: من خلق هذا كله؟ إنه الله .ازرع في قلوبهم عظمة الخالق .هذا الربط بين الآية والواقع المشاهد يثبت العقيدة في النفوس.
· عندما تدعو إلى الله، وترى إعراضًا من الناس:
لا تيأس .تذكر أن الله هو الوكيل على كل شيء، وهو الذي يهدي من يشاء .أنت عليك البلاغ، و الهداية بيده وحده .هذا يريح قلبك، ويمنحك صبرًا في دعوتك.
· عندما تبتلى بمصيبة أو بلاء:
تذكر أن الله هو وكيلك .ما أصابك لم يكن ليخطئك .ثق بأن تدبيره لك خير، حتى لو كان ظاهره شرًا .سلم لأمره، وارض بقضائه، وانتظر الفرج من عنده.

*الخاتمة: في رحاب خالق كل شيء

بهذا نكون قد وقفنا على خاتمة هذا المقطع العظيم من سورة الزمر .لقد بدأت الآيات بنداء الرحمة للمسرفين، ثم حذرت من عذاب الله، ثم عرضت مشاهد الحسرات، ثم بينت حال الكاذبين والمتقين، ثم ختمت بهاتين الآيتين الجامعتين اللتين تقرران حقيقة التوحيد الكبرى:} اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.{

إنها آيتان كافيتان لمن أراد الهداية .فإذا استقر في قلب العبد أن الله خالقه ووكيله، وأن مقاليد كل شيء بيده، فما عليه إلا أن يسلم وجهه له، ويفوض أمره إليه، ويثق به، ويعبده وحده لا شريك له . هذا هو طريق الفوز والنجاة من الخسران المبين.
المبحث الثاني

نقف اليوم مع ثلاث آيات تمثل قمة الخطاب الإلهي في تقرير التوحيد الخالص، ونبذ الشرك بكل صوره، والتحذير من خطورة الانحراف عن جادة الإخلاص. إنها آيات تخاطب النبي ﷺ مباشرة، ولكنها رسالة لكل مؤمن، تذكره بأن أعظم جريمة يمكن أن يرتكبها هي أن يشرك بالله فيحبط عمله ويكون من الخاسرين.

يقول الله سبحانه وتعالى: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشّاكِرِينَ (66)} [الزمر: 64-66].

تأمل معي هذا الخطاب القرآني الفريد. إنه ينتقل من تقرير الحقيقة الكونية الكبرى (الله خالق كل شيء) في الآيات السابقة، إلى الاستنكار الشديد لأي دعوة إلى عبادة غير الله. إنه يذكر النبي ﷺ، ويذكرنا معه، بأن هذه العقيدة هي أصل الأصول، وأن الشرك بها يحبط كل عمل، ويؤدي إلى الخسران المبين.

أبرز محاور الآيات في سطور

· استنكار عظيم لأي دعوة إلى عبادة غير الله: "أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون"، وهو استفهام توبيخي وتهكمي.
· تذكير النبي ﷺ وسائر الأنبياء بحقيقة الوحي: أن أصل الرسالات جميعًا هو النهي عن الشرك و التحذير من عاقبته.
· بيان العاقبة الوخيمة للشرك: "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين"، وهو خطاب للنبي ﷺ تحذيرًا لأمته.
· الأمر الإلهي الحاسم بإخلاص العبادة لله وحده: "بل الله فاعبد وكن من الشاكرين".
· الربط بين العبادة والشكر: فإخلاص العبادة لله هو قمة الشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

الأمر الأول: استنكار عبادة غير الله) قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون(

1دلالة الأمر "قل":

يأمر الله نبيه ﷺ أن يعلن هذا الموقف الصارم على الملأ. وهذا الأسلوب يتكرر في القرآن ليعلمنا أن العقيدة لا تقبل المساومة، وأن موقف المؤمن من الشرك يجب أن يكون واضحًا لا لبس فيه. إنه إعلا ن حرب سلمية على الوثنية بكل صورها.

2تحليل الاستفهام "أفغير الله تأمروني أعبد":

الهمزة في {أَفَغَيْرَ اللهِ} هي همزة استفهام إنكاري توبيخي. إنها تفيد التعجب والاستنكار الشديدين. وكأن النبي ﷺ يقول لهم: أبعد كل هذه الآيات والدلائل على وحدانية الله، أتطلبون مني أن أعبد غيره؟! ما هذا العقل؟! ما هذا المنطق الأعوج؟!

· تقديم} غَيْرَ اللهِ {على الفعل} تأمُرُوني {يفيد التخصيص والتوبيخ .أي: أتخصون غير الله بالأمر بعبادته؟!
· الفعل} تأمُرُوني {يدل على أن المشركين كانوا يحاولون الضغط على النبي ﷺ ليسايرهم في عبادة آلهتهم، أو على الأقل ليمدحها أو يعترف بها.

3دلالة وصفهم ب- "الجاهلون":

وصفهم بالجهل هنا ليس جهلًا بسيطًا، بل هو جهل مركب؛ جهل بحقيقة الألوهية، وجهل بحقيقة العبادة، وجهل بعاقبة الشرك. إنهم يجهلون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، ويجهلون أن عبادة غيره ظلم عظيم وخسران مبين. وفي وصفهم بالجهل توبيخ لهم، وتحقير لعقولهم التي وصلت إلى هذا الحد من السفه.

4مثال تقريبي) مشهد من حياة النبي ﷺ(:

روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: "يا محمد، اعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة". فنزلت سورة الكافرون: {قُلْ يَا أَيُّهَا الكافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون: 1-2]. وكذلك هذه الآية، هي رد قاطع على كل محاولات المشركين للتأثير على النبي ﷺ في أصل عقيدته. إنه درس لكل مؤمن: لا مساومة

في العقيدة.

الأمر الثاني: حقيقة الوحي إلى جميع الأنبياء) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك(...

1دلالة التوكيد ب- "لقد":

اللام و{قد} تفيدان التوكيد والقسم. فالله يقسم أن هذا الوحي قد نزل على النبي ﷺ وعلى جميع من سبقه من الأنبياء. إنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، أن أصل الدين واحد، وهو التوحيد الخالص.

2وحدة رسالة الأنبياء: "إليك وإلى الذين من قبلك":

في هذا إشارة عظيمة إلى أن الإسلام ليس دينًا جديدًا منفصلا ً عن الأديان السماوية السابقة، بل هو امتداد لها وتصحيح لما حرف منها. جميع الأنبياء من آدم إلى محمد ﷺ جاءوا بعقيدة واحدة: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36]. هذه الوحدة في العقيدة تؤكد أن المصدر واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

3تحليل جملة الشرط والجزاء: "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين":

هذا هو مضمون الوحي. والخطاب هنا للنبي ﷺ، وهو معصوم من الشرك، ولكن المقصود هو تحذير ا لأمة من خلاله. فإذا كان هذا الوعيد الشديد موجهًا إلى سيد الخلق على سبيل الفرض والتقدير، فكيف بغيره؟! إنه أسلوب بليغ لتعظيم خطر الشرك وبيان عاقبته الوخيمة.

4معنى "ليحبطن عملك":

الحبط هو بطلان العمل وذهابه سدى. والمراد بالعمل هنا جميع أعمال الخير والبر والطاعة. فمن أشرك بالله، حبطت جميع أعماله، ولم ينتفع بها يوم القيامة. قال تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 88]. فالإخلاص هو شرط قبول العمل. فإذا ذهب الإخلاص، ذهب العمل.

5معنى "ولتكونن من الخاسرين":

توكيد بعد توكيد. فبعد أن حبط عمله، أصبح من الخاسرين. أي خسر دنياه وآخرته، وخسر نفسه وأهله. وأي خسارة أعظم من خسارة الإنسان نفسه في نار جهنم؟! هذا الوعيد يجعل قلب المؤمن يرتجف خوفًا من الشرك، حتى لو كان شركًا أصغر كالرياء.

6مثال تقريبي) لتوضيح خطورة حبوط العمل(:

تخيل رجلا ً بنى قصرًا عظيمًا، قضى في بنائه عمره، وأنفق فيه كل ماله وجهده. ثم في ليلة واحدة، وقبل أن يسكنه، جاء زلزال فدمره تمامًا. ماذا سيكون شعوره؟ إنه شعور بالضياع والانهيار. هذا ما يحدث لعمل المشرك يوم القيامة. يظل عمره كله يصلي ويصوم ويتصدق، ثم إذا أشرك بالله، يحبط عمله كله، ويصبح صفر اليدين. إنها خسارة لا تعوض.

الأمر الثالث: الأمر بإخلاص العبادة والشكر) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين(

1دلالة "بل":

"بل" للإضراب والانتقال .فهي تبطل ما سبق من أمر المشركين بعبادة غير الله، وتثبت الأمر الحق: }اللَّهَ فَاعْبُدْ .{إنه إعلان واضح: ليس هناك خيار آخر، ليس هناك مساومة، ليس هناك حل وسط . العبادة لله وحده.

2تقديم اسم الجلالة "الله":

تقديم المفعول {اللهَ} على الفعل {فَاعْبُدْ} يفيد الحصر والاختصاص. فالمعنى: اعبد الله وحده، ولا تعبد أحدًا سواه. وهذا هو قمة التوحيد.

3الأمر بالعبادة والأمر بالشكر:

}فَاعْبُدْ {أمر بإخلاص العبادة لله} .وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ {أمر بالشكر .والجمع بينهما عظيم:

· العبادة: هي غاية الخلق، كما قال تعالى:} وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون] {الذاريات:.[56
· الشكر: هو الاعتراف بنعم الله، والثناء عليه بها، واستعمالها في طاعته.

فالعبادة هي الشكر العملي، والشكر هو العبادة القلبية واللسانية. فمن عبد الله مخلصًا، كان من الشاكرين. ومن شكر الله حقًا، أخلص له العبادة.

4دلالة "وكن من الشاكرين" بدل "واشكر":

"وكن من الشاكرين" أبلغ من "واشكر" .لأنها تفيد أن يكون الشكر صفة لازمة له، وأن يكون في زمرة الشاكرين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .إنها دعوة إلى الارتقاء إلى مقام الشاكرين، الذين هم قلة من عباد الله .قال تعالى:} وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ] {سبأ:.[13

الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآيات ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (بناء المناعة ضد الانحراف العقدي)

· تربية النفس على الصلابة في العقيدة: قوله:} أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ {يعلم المؤمن أن يكون صلبًا في عقيدته، لا يتزحزح عنها مهما كانت الضغوط .إنها تربية على الثبات وعدم المساومة على الثوابت . هذا يعطي المؤمن شخصية قوية مستقلة.
· التحذير النفسي من الشرك وخطره: "ليحبطن عملك" هو تحذير نفسي من أشد المحاذير .إنه يجعل المؤمن في حالة يقظة دائمة، يراقب نيته، ويحذر من الرياء والشرك الخفي، خوفًا من حبوط العمل . هذه المراقبة تهذب النفس وتطهرها.
· بناء الدافع للشكر والعبادة: الربط بين العبادة والشكر يبني في النفس دافعًا قويًا للعبادة .فالمؤمن عندما يرى نعم الله عليه، يمتلئ قلبه شكرًا، فيندفع إلى عبادة الله حبًا وطواعية .هذا هو الدافع الإ يجابي للعبادة، وليس مجرد عادة أو خوف من العقاب.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (ترسيخ التوحيد ونبذ الشرك)

· وحدة رسالة الأنبياء: هذه الآية ترسخ عقيدة أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا .هذا المفهوم يبني في ذهن المسلم الاحترام لكل الأنبياء، والإيمان بأنهم إخوة في العقيدة.
· الحصر المطلق للعبادة في الله: "بل الله فاعبد" هي قاعدة كلية .لا عبادة إلا لله .لا صلاة إلا لله، لا دعاء إلا لله، لا ذبح إلا لله، لا نذر إلا لله .هذا الحصر هو الذي يحرر الإنسان من عبودية كل ما سوى الله.
· خطورة الشرك وأنواعه: الآية تبين أن الشرك ليس فقط عبادة الأصنام، بل يشمل كل صرف لشيء من العبادة لغير الله .والوعيد بحبوط العمل يشمل الشرك الأكبر والأصغر .هذا يعمق في ذهن المسلم فهم حقيقة التوحيد وحقيقة ضده.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن الموحد الشاكر)

· تربية النفس على الإخلاص: "لئن أشركت ليحبطن عملك" هي أعظم دافع للإخلاص .نربي أنفسنا وأبناءنا على أن نسأل الله الإخلاص في كل عمل، وأن نحذر من الرياء والسمعة .هذا هو أساس قبول الأعمال.
· تربية النفس على الشكر: "وكن من الشاكرين" تعلمنا أن نعيش حياتنا شاكرين لله .نرى نعمه في كل شيء، ونحمده عليها .هذا الشكر يحفظ النعم ويزيدها .قال تعالى:} لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم] {إبراهيم:.[7
· تربية النفس على عدم المساومة في الدين: "أفغير الله تأمروني أعبد" نربي بها أبناءنا على أن دينهم أغلى من أي شيء، وأنهم لن يتنازلوا عن عقيدتهم لإرضاء أحد، مهما كان.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان الحر حقًا: الإنسان الذي يعبد الله وحده هو الإنسان الحر .إنه تحرر من عبودية المال و الجاه والهوى والبشر .هو عبد لله وحده، وهذا هو معنى الحرية الحقيقية .هذا الإنسان هو القادر على الإبداع والبناء.
· بناء مجتمع قائم على الإخلاص والشكر: مجتمع يتربى أفراده على الإخلاص والشكر، هو مجتمع مبارك .يقل فيه الرياء والفساد، ويكثر فيه الخير والتعاون .أفراده يعملون لأنهم يعبدون الله ويشكرونه

، لا لأنهم يريدون مدح الناس.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) قيمة العمل وأثره (: الآية تنبه إلى أن قيمة العمل ليست في كميته ، بل في كيفيته وإخلاصه .فالعمل الكثير بدون إخلاص حابط لا قيمة له .هذا يوجه الإنسان إلى الا هتمام بجودة عمله وإخلاص نيته، وهو مبدأ أساسي في إدارة الجودة الشاملة.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الإنسانية المستقيمة: الحضارة التي تقوم على عبادة الله وحده، وعلى الشكر لنعمه، هي حضارة مستقيمة لا تنحرف .إنها تعمر الأرض بطاعة الله، وتستغل النعم فيما يرضيه . هذا هو سر استدامة الحضارة وبركتها.

الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا) في فقرات(

· عندما تواجه ضغوطًا للتنازل عن شيء من دينك:
تذكر هذه الآية .قل بقلبك ولسانك:} أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ .{لا يمكن أن أبدل ديني، ولا أن أتنازل عن عقيدتي .ثباتك هذا هو قوتك الحقيقية.
· عندما تعمل عملًا صالحًا) صلاة، صدقة، دعوة (:
تفقد نيتك .اسأل نفسك: لمن أعمل؟ هل لله وحده، أم ليمدحني الناس؟ تذكر قوله:} لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .{جدد نيتك وقل: "اللّهم إني أعمل هذا خالصًا لوجهك الكريم".
· عندما ترى نعم الله تتوالى عليك:
لا تغفل .تذكر قوله:} وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ .{عبر عن شكرك بلسانك) الحمد لله(، وبقلبك) الاعتراف بـ النعمة لله(، وبجوارحك) استعمال النعمة في طاعة الله .(هذا هو الشكر الكامل.
· في تربية أبنائك على العقيدة الصحيحة:
علمهم أن لا يخافوا في الله لومة لائم .إذا سخر منهم أحد بسبب صلاتهم أو حجابهم، فعلمهم أن يردوا بهدوء وثبات: أنا أعبد الله وحده، ولن أشرك به شيئًا .هذا يبني فيهم العزة الإيمانية.
· في دعوتك للآخرين إلى التوحيد:
اشرح لهم خطورة الشرك، ليس بالتخويف فقط، بل ببيان أنه يحبط الأعمال ويذهب بها سدى .مثل لهم قصة الرجل الذي بنى قصرًا ثم تهدم .هذا الأسلوب يوضح الصورة ويجعلها مؤثرة.

الخاتمة: طريق التوحيد الخالص

بهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية رحلتنا مع هذه الآيات العظيمة، التي تشكل قلب العقيدة الإسلامية. لقد رأينا كيف تستنكر أي دعوة لعبادة غير الله، وكيف تذكر النبي ﷺ والأنبياء من قبله بخطورة الشرك، وكيف تأمر بإخلاص العبادة لله وحده مع الشكر.

إنها آيات ترسم لنا طريق النجاة: التوحيد الخالص لله، مصحوبًا بالشكر الدائم على نعمه. من سار على هذا الطريق، ضمن سلامة عمله من الحبوط، وفاز برضوان الله. ومن حاد عنه، وقع في الشرك، فحبط عمله وكان من الخاسرين.

فلنثبت على هذا الطريق، ولنردد دائمًا قول الله: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ}.
القسم الثاني

.لقد وقفنا في الآية السابقة على الأمر الإلهي الحاسم بإخلاص العبادة لله وحده، والتحذير من الشرك الذي يحبط الأعمال ويوقع في الخسران. والآن، تأتي هذه الآية العظيمة لتكشف لنا عن سبب هذا الأ مر، وعن الحقيقة الكبرى التي غفل عنها المشركون والجاحدون. إنها آية ترسم مشهدًا كونيًا مهيبًا ليوم القيامة، تظهر فيه قدرة الله وعظمته وجلاله، وتفضح جهل أولئك الذين لم يقدروا الله حق قدره.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: 67].

تأمل معي هذا النص القرآني المعجز. إنه ينقلنا من عالم الجدل العقلي حول التوحيد والشرك، إلى مشهد حي من مشاهد يوم القيامة، حيث تتجلى عظمة الله وقدرته تجليًا لا يدع مجالًا للشك أو الإ نكار. إنها آية تهز الوجدان، وتوقظ الغافل، وتضع الأمور في نصابها الصحيح. إنها تقول لكل من أشرك بالله أو استهان بعظمته: أنت لم تعرف الله حق معرفته، ولم تقدره حق قدره، وإلا لما فعلت ما فعلت.

أبرز محاور الآية في سطور

· تقرير حقيقة جهل المشركين والكافرين بالله: "وما قدروا الله حق قدره"، أي ما عظموه حق تعظيمه

، ولا عرفوه حق معرفته.
· بيان السبب والبرهان على هذه الحقيقة: وهو أن الأرض جميعًا في قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.
· تصوير مشهد مهيب من مشاهد يوم القيامة: يظهر فيه كمال قدرة الله وعظمته وسلطانه المطلق على الكون كله.
· تنزيه الله عن كل نقص وعن شرك المشركين: "سبحانه وتعالى عما يشركون"، فهو أعظم وأجل من أن يكون له شريك.
· إثبات صفات الله تعالى) القبضة، اليمين (على الوجه اللائق بجلاله: من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل.

الأمر الأول: جهل المشركين بـالله) وما قدروا الله حق قدره(

1تكرار الآية في ثلاثة مواضع من القرآن:

هذه الآية الكريمة، أو مضمونها، وردت في ثلاثة مواضع من كتاب الله:

· الموضع الأول: في سورة الأنعام، الآية(91) :} وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ.{
· الموضع الثاني: في سورة الحج، الآية(74) :} مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.{
· الموضع الثالث: هنا في سورة الزمر، الآية.(67)

2دلالة التكرار في هذه المواضع الثلاثة:

تكرار هذه الجملة العظيمة في ثلاثة مواضع، كل منها يرتبط بركن من أركان الإيمان، له دلالة عميقة:

· في سورة الأنعام: وردت في سياق إثبات النبوة والرسالة، حيث أنكر المشركون أن الله أنزل على بشر شيئًا .فكان رد الله عليهم: أنتم ما قدرتم الله حق قدره، فعظمته تقتضي أن يرسل إلى خلقه من يهديهم.
· في سورة الحج: وردت في سياق إثبات التوحيد والألوهية، حيث عبد المشركون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا .فكان الرد: ما قدرتم الله حق قدره، فعظمته تقتضي ألا يعبد معه غيره.
· في سورة الزمر) هنا (: وردت في سياق إثبات البعث والجزاء، حيث ذكر الله مشهد يوم القيامة وقدرته على قبض الأرض وطي السماوات .فكان الرد: ما قدرتم الله حق قدره، فعظمته تقتضي أن تؤمنوا بقدرته على البعث.

فالآية الواحدة تكررت لتثبيت أصول الإيمان الثلاثة: الإيمان بـالله، والإيمان برسله، والإيمان باليوم الآ خر. وما أعظمه من تكرار!

3ما معنى "وما قدروا الله حق قدره"؟

"قَدَرَ" بمعنى عَظَّمَ .فالمعنى: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، وما وصفوه حق صفته .وحق قدره: أي التعظيم الذي يستحقه، والمعرفة التي تليق بجلاله .فالمشركون والكافرون لم يعرفوا الله حق معرفته، ولو عرفوه حق معرفته، لما أشركوا به شيئًا، ولما كذبوا رسله، ولما أنكروا البعث والجزاء.

4مثال تقريبي:

تخيل أن رجلا ً رأى قصرًا عظيمًا، ولكنه ظنه كوخًا صغيرًا. ثم قيل له: "ما قدرت هذا البناء حق قدره!". أي أنك لم تدرك عظمته الحقيقية. فكيف بمن رأى آثار قدرة الله في الكون، وعلم أن لهذا الكون خالقًا، ثم أشرك معه في العبادة حجرًا لا يضر ولا ينفع؟! إنه لم يقدر الله حق قدره.

الأمر الثاني: المشهد الكوني المهيب) والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه(

1دلالة العطف بالواو: "والأرض جميعًا قبضته...":

الواو هنا للحال، أو للاستئناف. والمعنى: كيف يقولون ما يقولون من الشرك والتكذيب، والحال أن الأ رض كلها في قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه؟! إنه دليل قاطع على عظمته، يبين

لماذا لم يقدروه حق قدره.

2تحليل "والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة":

· "الأرض جميعًا": أي كل الأرض، بجبالها وبحارها، وأنهارها وأشجارها، وما فيها من مخلوقات .لا يخرج منها شيء.
· "قبضته": أي في قبضته .والقبضة هي المرة من القبض .والمراد هنا أن الله يقبض الأرض كلها بيده قبضة واحدة، كما يقبض أحدنا شيئًا صغيرًا بكفه .وهذا تصوير لعظمة الله وقدرته، وأن هذا الكوكب العظيم الذي نعيش عليه، وما فيه من عظمة واتساع، هو بالنسبة إلى الله كشيء صغير في قبضة يده.
· "يوم القيامة": تخصيص هذا المشهد بيوم القيامة، مع أن قدرة الله على ذلك ثابتة في كل وقت، لأ ن يوم القيامة هو يوم ظهور الآيات والعظائم، ويوم تتجلى فيه قدرة الله للخلائق أجمعين.

3تحليل "والسماوات مطويات بيمينه":

· "السماوات": جمع سماء، وهي سبع سماوات، كل واحدة أوسع من التي تحتها بمسافات هائلة لا يعلمها إلا الله.
· "مطويات": أي مجموعات بعضها على بعض، مطويات كما يطوى الثوب أو السجل .قال تعالى في آية أخرى:} يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ] {الأنبياء: .[104 فالسماوات بكل عظمتها واتساعها، يطويها الله بيمينه كما يطوي الواحد منا ورقة.
· "بيمينه": إثبات صفة اليمين لله تعالى .فنؤمن بأن لله يمينًا تليق بجلاله وعظمته، لا تشبه أيدي المخلوقين} .لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ] {الشورى:.[11

.
ما دلالة هذا المشهد على إثبات البعث والنشور؟

هذا المشهد المهيب يثبت البعث من وجوه:

· إثبات القدرة المطلقة: من كان قادرًا على قبض الأرض كلها وطي السماوات العظام بيمينه، أليس قادرًا على إعادة خلق الإنسان بعد موته؟! بلى، إنه لقادر .فدليل القدرة على البعث هو القدرة على هذا الخلق العظيم .قال تعالى:} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم] {يس: .[81
· تغيير الكون يوم القيامة: هذا المشهد هو جزء من أحداث يوم القيامة .فالأرض تتغير وتتبدل، وتقبض، والسماوات تطوى .وهذا دليل على أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وأن الله سيعيد الخلق للحساب والجزاء.

5موقف أهل السنة والجماعة من هذه الصفات:

نحن نؤمن بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. فنثبت أن لله قبضة، وله يمين، على الوجه اللائق بجلاله، ولا نكيفها ولا نمثلها بصفات المخلوقين. وهذا هو المنهج الوسط الحق.

6مثال تقريبي) لتقريب عظمة المشهد(:

تخيل أنك أمسكت بكرة صغيرة (كرة تنس) بيدك، وطويتها بالكامل حتى اختفت في قبضة يدك. هذا ما تفعله بجسم صغير جدًا. أما الله سبحانه وتعالى، فإنه يفعل ذلك بالأرض كلها! والأرض التي نراها شاسعة مترامية الأطراف، محيطاتها عميقة، وجبالها شامخة، هي بالنسبة إلى الله ككرة صغيرة في قبضة يده. فسبحان الله العظيم! هذا التصور، مع عجزنا عن إدراك كنه الصفة، يملأ القلب هيبة وإجلا لا ً لله.

الأمر الثالث: تنزيه الله عن الشركاء) سبحانه وتعالى عما يشركون(

1دلالة "سبحانه":

"سبحان" كلمة تنزيه وتقديس .فمعنى "سبحانه": أنزه الله تنزيهًا كاملا ً عن كل نقص وعيب، وعن كل ما لا يليق بجلاله.

2دلالة "وتعالى":

"تعالى" أي ارتفع وعلا عظمة وقهرًا .فهو المتعالي عن كل شيء، وعن كل شريك، وعن كل مثيل.

3"عما يشركون":

أي تنزه وتعالى عن شركهم، وعما يشركون به من الأصنام والأنداد. فكيف يشركون به وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يقبض الأرض ويطوي السماوات؟! إن هذا من أعظم الجهل والضلال.

الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآية ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (تعظيم الله في القلب)

· غرس هيبة الله في النفس: هذه الآية من أعظم الآيات التي تغرس هيبة الله في قلب المؤمن . عندما تتصور أن الأرض كلها في قبضة الله، وأن السماوات مطويات بيمينه، فكيف لا يمتلئ قلبك هيبة وخشية من هذا الإله العظيم؟! هذه الهيبة تمنعك من معصيته، وتدفعك إلى طاعته.
· علاج الغرور والكبر: هذه الآية علاج ناجع للغرور والكبر .فالإنسان مهما بلغ من القوة والسلطان، فهو يعيش على أرض هي في قبضة الله كالكرة الصغيرة .فكيف يتكبر؟! وكيف يغتر بنفسه؟! إنه لا شيء في ملكوت الله .هذا الشعور بالضآلة أمام عظمة الله يكسر الكبر في النفس، ويملؤها تواضعًا وخضوعًا لله.
· تحرير النفس من الخوف من المخلوقين: إذا كانت الأرض والسماوات في قبضة الله ويمينه، فمن هو هذا المخلوق الذي تخافه؟! إنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا .فلتوجه خوفك كله إلى الله وحده، ولتكن شجاعًا في الحق.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (إثبات أركان الإيمان)

· إثبات عظمة الله وقدرته المطلقة: الآية دليل قاطع على أن الله على كل شيء قدير .قبض الأرض وطي السماوات ليس بالأمر العسير عليه .هذه العقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه بقية العقائد.
· إثبات صفات الله تعالى كما وردت: الآية تثبت صفة القبضة وصفة اليمين لله .وهذا يعلمنا منهج التلقي الصحيح لصفات الله، وهو الإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.
· إثبات البعث واليوم الآخر: المشهد مصور ليوم القيامة، مما يثبت أن هذا اليوم آت لا ريب فيه . وهذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان .والإيمان به يجعل الإنسان يعيش بين الخوف والرجاء، مستعدًا للقاء الله.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المعظم لله)

· تربية النفس على تعظيم الله: نربي أنفسنا وأبناءنا على تعظيم الله في قلوبنا .نقرأ هذه الآيات، ونتفكر في معانيها، ونستحضر عظمة الله وقدرته في كل حين .هذا التعظيم هو أساس العبادة الصحيحة.
· تربية النفس على التواضع: عندما يرى الإنسان نفسه في هذا الكون الفسيح، ويعلم أن الأرض التي يعيش عليها في قبضة الله، لا يملك إلا أن يتواضع .هذا التواضع هو زينة المؤمن.
· تربية النفس على الخوف من الله وحده: نربي أنفسنا على ألا نخاف إلا الله .فمن كان بيده كل شيء، فهو وحده المستحق للخوف والخشية .هذا يبني شخصية قوية شجاعة.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتواضع القوي بالله: هذا الإنسان الذي يعظم الله ويخافه ويتوكل عليه، هو إنسان متواضع مع الخلق، قوي بالله، شجاع في الحق .هذا هو الإنسان الكامل الذي يصلح لخلافة الأرض.
· بناء مجتمع متواضع متعاون: عندما ينتشر تعظيم الله في المجتمع، يقل الكبر والغرور بين أفراده، ويسود التواضع والتعاون .هذا يبني مجتمعًا متماسكًا تسوده المحبة والاحترام.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) تقدير حجم الإنسان ودوره (: الآية تعطي الإنسان تقديرًا صحيحًا لحجمه في هذا الكون .هو ليس شيئًا عظيمًا بذاته، بل هو عبد ضعيف لله العظيم .هذا يجعله لا يغتر بإنجازاته، بل ينسبها إلى فضل الله، ويسعى دائمًا لمزيد من العمل الصالح.
· إسهام الآية في بناء الحضارة المتواضعة: الحضارة التي تقوم على الإيمان بهذه الآية، هي حضارة متواضعة، لا تتكبر على غيرها، ولا تنسب إنجازاتها لنفسها، بل ترى أنها بتوفيق الله .هذا التواضع الحضاري هو الذي يحمي الحضارة من أسباب السقوط والانهيار.

الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا) في فقرات(

· عندما تشعر في نفسك بشيء من الكبر أو العجب:
اقرأ هذه الآية بتدبر .تخيل الأرض كلها في قبضة الله، والسماوات مطويات بيمينه .ثم اسأل نفسك: أين أنت من هذا كله؟ أنت ذرة لا تكاد ترى .فكيف تتكبر؟! هذا الاستحضار سيذيب جبال الكبر في قلبك.
· عندما تخاف من عدو أو سلطان جائر:
تذكر أن هذا العدو وهذا السلطان، مهما بلغت قوته، فهو تحت قبضة الله .الأرض التي يمشي عليها في قبضة الله .فكيف تخافه؟! خف الله وحده، وتوكل عليه، فهو كافيك وناصرك.
· عندما تريد أن تثبت عقيدة البعث في قلبك أو قلوب أبنائك:
استخدم هذه الآية .قل: الذي يقدر على قبض الأرض وطي السماوات، أليس قادرًا على أن يحييك بعد موتك؟! بلى، إنه لقادر .هذا الاستدلال القرآني هو أقوى برهان على البعث.
· عندما تدعو إلى الله، وترى إعراضًا وتكذيبًا:
تذكر أن هؤلاء المكذبين} مَا قَدَرُوا اللهَ حَقّ قدْرِهِ .{لو عرفوا الله حق معرفته، لآمنوا واتقوا .هذا يجعلك تشفق عليهم، وتصبر على دعوتهم، وتكثر من الدعاء لهم بالهداية.
· في سجودك وصلاتك:
استحضر عظمة من تسجد له .إنه الذي يقبض الأرض ويطوي السماوات .هذا الاستحضار يزيد من خشوعك، ويجعل صلاتك حية مؤثرة.

الخاتمة: في رحاب عظمة الله المطلقة

بهذا نكون قد وقفنا على تفسير هذه الآية العظيمة التي تهز الوجدان وتوقظ القلوب. لقد رأينا كيف أنها تكشف عن جهل المشركين بالله، وتصور لنا مشهدًا كونيًا مهيبًا من مشاهد يوم القيامة، يثبت قدرة الله المطلقة على البعث والجزاء، وينزه الله عن كل شريك ونقص.

إنها آية تجعل المؤمن يعيش في رحاب عظمة الله، فيمتلئ قلبه هيبة وخشية وتواضعًا وشجاعة. إنها تعلمنا أن نقدر الله حق قدره، فنعبده وحده لا شريك له، ونخافه ونتوكل عليه، ونستعد للقائه في ذلك اليوم العظيم.

فلنجعل هذه الآية نبراسًا لقلوبنا، وميزانًا لعقولنا، ودافعًا لأعمالنا. ولنردد دائمًا: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.
المبحث الثاني

لقد وقفنا في الآية السابقة على مشهد كوني مهيب، رأينا فيه الأرض جميعًا في قبضة الله، و السماوات مطويات بيمينه، وعلمنا أن المشركين ما قدروا الله حق قدره. والآن، تأتي هذه الآيات الثلا ث لتكمل لنا مشاهد يوم القيامة، وتنقلنا من مشهد قبض الأرض وطي السماء، إلى مشهد النفخ في الصور، فصعق من في السماوات والأرض، ثم البعث والنشور، ثم الحساب والجزاء. إنها آيات ترسم لوحة متكاملة لأهوال ذلك اليوم العظيم، وتغرس في القلب استعدادًا دائمًا للقاء الله.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)} [الزمر: 68-70].

تأمل معي هذا الانتقال العجيب. بعد أن أرانا الله عظمته بقبضه الأرض وطي السماء، أرانا هنا كيف تنتهي الحياة الدنيا، وكيف تبدأ الحياة الآخرة. إنه مشهد تتجلى فيه قدرة الله على الإماتة والإحياء، وعدله في الحساب والجزاء. إنها آيات تهز القلب الحي، وتجعله يستعد لذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون.

أبرز محاور الآيات في سطور

· النفخة الأولى في الصور: نهاية الحياة الدنيا، وصعق كل من في السماوات والأرض إلا من استثناه الله.
· النفخة الثانية في الصور: بداية الحياة الآخرة، وقيام الخلائق من قبورهم ينظرون أهوال القيامة.
· إشراق الأرض بنور ربها: تجلي الله سبحانه لفصل القضاء، وإضاءة أرض المحشر بنوره.

· وضع الكتاب: نشر صحائف الأعمال لتقرأ وتشهد على أصحابها.
· مجيء النبيين والشهداء: ليشهدوا على أممهم، وليكونوا شفعاء لمن أذن الله لهم.
· القضاء بين الخلائق بالحق والعدل: فلا يظلم أحد شيئًا، وتوفى كل نفس ما عملت.
· إحاطة علم الله بأعمال العباد: "وهو أعلم بما يفعلون"، فلا يغيب عنه شيء.

- الأمر الأول: النفخة الأولى والموت العام) ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأ رض(

1ما هو "الصور"؟

"الصور" هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام .وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ وصفه، وأنه قرن عظيم لا يعلم عظمته إلا الله .النفخ في الصور هو إيذان بنهاية الدنيا وبداية الآخرة.

2النفخة الأولى: نفخة الصعق والموت:

}فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ .{الصعق هو الموت أو الغشي الشديد .فمن يسمع هذه النفخة يموت أو يغشى عليه من هول الصوت وعظمته .وهذا يشمل جميع الخلائق في السماوات والأ رض: الملائكة، والجن، والإنس، والحيوانات، والطيور، وكل ذي روح .إنها نهاية الحياة الدنيا بكل ما فيها.

3دلالة الاستثناء: "إلا من شاء الله":

استثنى الله سبحانه وتعالى بعض خلقه من هذا الصعق. وقد ورد في بعض الآثار أن المستثنين هم: الشهداء (لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون)، أو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، أو حملة العرش. والأمر في ذلك موكول إلى علم الله. المهم أن الاستثناء يدل على أن الأمر كله بيد الله، يحيي من يشاء ويميت من يشاء.

4مثال تقريبي) لتقريب هول المشهد(:

تخيل أنك في يوم عادي، وفجأة سمعت صوتًا هائلا ً لم تسمع مثله قط، صوتًا يهز الأرض والسماء، ويشق الآذان، ويخترق القلوب. ثم ترى الناس من حولك يسقطون صرعى، وتشعر بنفسك تفقد الوعي، ولا تدري أأنت ميت أم حي. هذا هو بعض ما يمكن تصوره من هول النفخة في الصور، مع أن حقيقتها أعظم وأفظع مما نتصور.

الأمر الثاني: النفخة الثانية والبعث) ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون(

1"ثم" للترتيب والتراخي:

"ثم" تدل على أن هناك فترة زمنية بين النفختين .وقد ورد في الحديث أن بين النفختين أربعين، لا يدري أهي أربعون يومًا أم شهرًا أم سنة .في هذه الفترة، يبلي الله الأجساد في الأرض، ثم يأمر السماء أن تمطر مطرًا كمني الرجال، فتنبت الأجساد من عجب الذنب، ثم ينفخ في الصور النفخة الثانية.

2النفخة الثانية: نفخة البعث والنشور:

}ثمّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ .{هذه هي النفخة الثانية، نفخة البعث .عندها تعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس من قبورهم أحياء.

3مشهد البعث: "فإذا هم قيام ينظرون":

"فإذا" للدلالة على المفاجأة والسرعة .فبمجرد النفخة الثانية، يحدث البعث فجأة ."قيام" أي واقفون على أرجلهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم ."ينظرون" أي ينتظرون ما يُفعل بهم، وما يؤمرون به، وقد شُخصت أبصارهم من الهول والفزع .قال تعالى في آية أخرى:} مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ] {القمر:[8 ، أي مسرعين ناظرين.

4دلالة هذا المشهد على قدرة الله على البعث:

هذا المشهد هو أعظم دليل على قدرة الله على البعث. فالذي أمات الخلائق كلهم بنفخة واحدة، قادر على أن يحييهم بنفخة واحدة. {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [يس: 82]. فكيف يستبعد المشركون البعث، وهو بهذه السهولة على الله؟!

- الأمر الثالث: مشهد المحكمة الإلهية) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب(...

1"وأشرقت الأرض بنور ربها":

بعد البعث، تتغير الأرض وتتبدل. فتشرق أرض المحشر بنور الله سبحانه وتعالى. وهذا النور ليس نور الشمس أو القمر، بل هو نور من الله يضيء الخلائق لفصل القضاء. وفي هذا دليل على تجلي الله سبحانه للقضاء بين عباده. والإيمان بهذا من عقيدة أهل السنة.

2"ووضع الكتاب":

"الكتاب" هو صحائف الأعمال التي سجلتها الملائكة الكرام الكاتبون .توضع هذه الصحائف وتنشر، فيأخذ كل إنسان كتابه بيمينه أو بشماله .قال تعالى:} وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا] {الإسراء:.[13

3"وجيء بالنبيين والشهداء":

· النبيين: جمع نبي .يُجاء بهم ليشهدوا على أممهم بأنهم بلغوهم رسالات الله .قال تعالى:} فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا] {النساء:.[41
· الشهداء: جمع شهيد .وهم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم .وقد فسرهم المفسرون بأنهم: الحفظة من الملائكة، أو أمة محمد ﷺ الذين يشهدون على الأمم، أو الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله . وكلهم يشهدون يوم القيامة.

4"وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون":

هذا هو فصل القضاء. يقضي الله بين عباده بالحق والعدل المطلق. "بالحق" أي بالعدل الذي لا جور فيه. "وهم لا يظلمون" أي لا ينقص أحد من حسناته، ولا يزاد على سيئاته. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء: 40]. هذا هو العدل الإلهي الكامل.

5"ووفيت كل نفس ما عملت":

هذا تأكيد بعد تأكيد للعدل. "وفيت" أي أعطيت كاملة غير منقوصة. فكل نفس توفى جزاء عملها بـ الكامل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

6"وهو أعلم بما يفعلون":

هذه خاتمة عظيمة. الله هو الأعلم بأعمال عباده، لا يحتاج إلى كتاب ولا إلى شهود، ولكن وضع الكتاب ومجيء الشهداء هو من تمام العدل، وإقامة للحجة على العباد، حتى لا يكون لأحد عذر. فعلمه سبحانه محيط بكل شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله.

الأمر الرابع: المفاهيم المستنبطة من الآيات ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (استثارة مشاعر الخوف والرجاء والاستعداد)

· تربية النفس على استحضار أهوال يوم القيامة: هذه الآيات ترسم صورًا حية للنفخ في الصور، و البعث، ونشر الصحائف .هذا التصوير يوقظ القلب من غفلته، ويملؤه خوفًا محمودًا يدفعه إلى الا ستعداد لذلك اليوم .وهذا هو الإيمان الحي الذي يؤثر في السلوك.
· زرع الرجاء في رحمة الله وعدله: في مقابل مشاهد الهول، تبرز مشاهد العدل والرحمة .فالله يقضي بالحق، ولا يظلم أحدًا .وهذا يزرع في النفس رجاءً عظيمًا في عدل الله ورحمته .فالمؤمن يعلم أن الله لن يظلمه، بل سيجازيه على إحسانه بأضعاف مضاعفة.
· الشعور بالمسؤولية الفردية: قوله:} وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ {يغرس في النفس الإحساس بـ المسؤولية الفردية .كل إنسان سيقف وحده أمام الله، وسيحاسب عن عمله هو، لا عن عمل غيره .هذا

يدفع الإنسان إلى الاهتمام بإصلاح نفسه أولا ً، وعدم الانشغال بعيوب الآخرين.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (ترسيخ أركان الإيمان)

· إثبات البعث والنشور بأوضح صورة: هذه الآيات من أعظم ما يثبت عقيدة البعث .فهي تصف أحداثه وكأنها تقع أمام العين .هذا يرد على كل من أنكر البعث، ويجعل المؤمن على يقين جازم بأن هذا اليوم آت لا ريب فيه.
· إثبات صفات الله تعالى: إثبات نور الله، وإثبات مجيئه للقضاء، وإثبات كلامه) بالكتاب .(كل هذا يقرر عقيدة أهل السنة في صفات الله، من غير تكييف ولا تمثيل.
· بيان عدل الله المطلق:} وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ {هي قاعدة كلية .الله لا يظلم أحدًا . هذا يرسخ في العقل الثقة المطلقة في عدل الله، ويجعل المؤمن راضيًا بقضاء الله وقدره في الدنيا.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المستعد للقاء الله)

· تربية النفس على مراقبة الله في السر والعلن: العلم بأن الله} أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ {يجعل المؤمن دائم المراقبة لله .فلا يفعل في الخفاء ما يستحي منه في العلن .هذه المراقبة هي ثمرة الإيمان الحقيقي.
· تربية النفس على الاهتمام بصحيفة الأعمال: الإيمان بأن هناك كتابًا يسجل كل صغيرة وكبيرة، يجعل المؤمن حريصًا على أن يملأ صحيفته بالحسنات، وأن يتجنب السيئات .وكما قال بعض السلف: "يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك" .فيا حسرتاه على يوم يمر بلا حسنة!
· تربية النفس على حب الشهداء والصالحين: ذكر الشهداء في هذا الموقف العظيم يغرس في النفس حبهم وتوقيرهم، والرغبة في اللحاق بهم .فمن يريد أن يكون من الشهداء يوم القيامة، فليعمل بعملهم في الدنيا.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتوازن بين الخوف والرجاء: هذه الآيات تبني إنسانًا يخاف أهوال يوم القيامة، فيعمل الصالحات، ويرجو رحمة الله وعدله، فلا ييأس .هذا التوازن هو سر الاستقامة والثبات على الدين.
· بناء مجتمع قائم على العدل والمسؤولية: مجتمع يؤمن أفراده بأنهم سيوفون أعمالهم يوم القيامة، وأن الله لا يظلم أحدًا، هو مجتمع يسعى لإقامة العدل في الأرض .فمن يخاف ظلم الله، كيف يظلم عباد الله؟!
· إسهام الآية في التنمية البشرية) استثمار العمر(: الإيمان بأن كل عمل مسجل في كتاب، وأن النفس ستوفى ما عملت، هو أعظم حافز لاستثمار العمر .فكل لحظة من عمر الإنسان يمكن أن تكون سببًا في سعادته الأبدية أو شقاوته الأبدية .هذا يدفع الإنسان إلى الإنتاجية العالية في الخير.
· إسهام الآية في بناء الحضارة العادلة: الحضارة التي تقوم على هذه العقيدة هي حضارة عادلة بالضرورة .فأفرادها يخافون يومًا يوفى فيه كل ذي حق حقه، ويفضح فيه الظالمون .هذا يبني حضارة القيم والأخلاق التي تسعد البشرية.

الأمر الخامس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا) في فقرات(

· عندما تسمع أو تقرأ عن أهوال يوم القيامة:
لا تمر عليها مرور الكرام .توقف واسأل نفسك: ماذا أعددت لهذا اليوم؟ هل أنا مستعد للنفخة الأولى؟ هل أنا مستعد للوقوف بين يدي الله؟ هذا السؤال يجب أن يغير من سلوكك.
· عندما ترى ظلمًا أو جورًا في الدنيا:
تذكر قوله:} وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .{لا تحزن ولا تيأس .هناك يوم سينتصف فيه للمظلوم من الظالم .عدل الله قادم لا محالة .هذا يعطيك صبرًا وأملا ً.
· عندما تعمل عملًا صالحًا) صلاة، صدقة، صلة رحم(:
تذكر أن هذا العمل يُكتب في صحيفتك، وستوفاه يوم القيامة كاملا ً غير منقوص .هذا يدفعك إلى الإكثار والإتقان في العمل الصالح.
· في تربية أبنائك على الخوف من يوم القيامة:
احكِ لهم هذه المشاهد بأسلوب مبسط ومحبب .قل لهم: هناك يوم عظيم، سنقف فيه جميعًا أمام الله .من صلى وصام وبر والديه، سيكون سعيدًا .ومن فعل السيئات، سيكون تعيسًا .هذا يغرس في قلوبهم الإيمان باليوم الآخر منذ الصغر.
· عندما تدعو الآخرين إلى الله:
استخدم هذه المشاهد في دعوتك .اقرأ عليهم هذه الآيات، وصور لهم أهوال يوم القيامة، ثم بشرهم بعدل الله ورحمته لمن تاب وآمن .هذا الأسلوب القرآني هو أبلغ أساليب الدعوة.

الخاتمة: الاستعداد ليوم الفصل

بهذا نكون قد طوينا هذه الصفحات المشرقة من سورة الزمر، والتي نقلتنا من مشهد قبض الأرض وطي السماء، إلى مشهد الصور والبعث، إلى مشهد المحكمة الإلهية العادلة. إنها رحلة إيمانية متكاملة، تجعل القلب يعيش أهوال ذلك اليوم، ثم تطمئنه بعدل الله ورحمته.

لقد علمتنا هذه الآيات أن الحياة الدنيا ليست دار قرار، بل هي دار عمل وابتلاء. وأن هناك يومًا قادمًا ، سينتهي فيه كل شيء، ويبدأ فيه الحساب والجزاء. فمن وعى ذلك، استعد لذلك اليوم، واجتهد في العمل الصالح، وملأ صحيفته بالحسنات.

فلنستعد لذلك اليوم، ولنعمل لذلك الموقف العظيم، ولنسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يجعل قبض أرواحنا على الإيمان، وأن يوفينا أجورنا كاملة غير منقوصة.

المبحث الثالث

ألقد تابعنا في الآيات السابقة مشاهد البعث والنشور، ورأينا كيف تقوم الخلائق من قبورها، وكيف يوضع الكتاب، ويجاء بالنبيين والشهداء، ويقضى بينهم بالحق. والآن، وبعد أن انتهى فصل القضاء، تأتي هاتان الآيتان لترسما لنا المشهد الختامي، مشهد تقسيم الخلائق إلى فريقين: فريق يساق إلى الجنة، وفريق يساق إلى النار. ونبدأ هنا بمشهد أهل النار، ذلك المشهد الذي ترتجف له القلوب، وتقشعر منه الأبدان، لتكتمل الصورة، وليكون في ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)} [الزمر: 71-72].

تأمل معي هذا المشهد المهيب. إنه ينقلك من ساحة المحشر، حيث اختلط الناس خوفًا وفزعًا، إلى طريق جهنم، حيث يُساق الكافرون سوقًا مهينًا، زرافات ووحدانًا، كل أمة مع نظيرتها، وكل ضال مع مثيله. إنه مشهد الخزي والعار، مشهد الحسرة والندامة، مشهد توبيخ الملائكة وتأنيب الضمير. إنها آيات تجعل المؤمن يسأل الله العافية، ويزداد تمسكًا بطاعته.

أبرز محاور الآيتين في سطور

· سوق الكافرين إلى جهنم: "وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا"، أي يساقون سوقًا عنيفًا مهينًا، جماعات جماعات.
· مشهد الوصول إلى جهنم وفتح أبوابها: "حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها"، استعدادًا لاستقبالهم.
· توبيخ خزنة جهنم لهم: سؤال تقريري وتوبيخي: "ألم يأتكم رسل منكم...؟".
· اعتراف الكافرين بقيام الحجة عليهم: "قالوا بلى"، أي نعم جاءونا وأنذرونا، ولكننا كذبناهم.
· تقرير مصيرهم المحتوم: "ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين".
· الأمر الإلهي بدخول جهنم خالدين فيها: "قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها".
· ختام بذم مأوى المتكبرين: "فبئس مثوى المتكبرين".

الأمر الأول: سوق الكافرين إلى جهنم) وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا(

1دلالة الفعل "سِيقَ":

"سِيقَ" فعل مبني للمجهول، يفيد الإذلال والإهانة والإكراه .فالكافرون لا يذهبون إلى جهنم بمحض إرادتهم، بل يُساقون سوقًا عنيفًا، كما يُساق البهائم إلى المجزرة .إنهم يُدفعون دفعًا، وتتولى الملائكة الغلاظ الشداد أمرهم .قال تعالى:} يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا] {الطور: .[13 هذا السوق هو بداية العذاب النفسي والجسدي لهم.

2معنى "زُمَرًا":

"زُمَرًا" جمع "زمرة"، وهي الجماعة .والمعنى أنهم يساقون جماعات متفرقة، كل جماعة على حسب ضلا لها وكفرها .فالكفار من أمة معينة يساقون معًا، والمشركون معًا، والمنافقون معًا، وهكذا .وفي هذا إظهار لفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، حيث يُعرف كل فريق بما كان عليه في الدنيا .قال تعالى: }احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ] {الصافات:.[22

3لماذا "إلى جهنم" وليس "في جهنم"؟

"إلى" تفيد الغاية والنهاية .فجهنم هي الهدف والمصير الذي يُساقون إليه .وهذا يشعرهم بأنهم في رحلة مرعبة نهايتها جهنم، وكلما اقتربوا منها ازداد رعبهم وفزعهم.

4مثال تقريبي) لتقريب مشهد الإهانة(:

تخيل أن مجرمين خطرين قبض عليهم، وبدلا ً من أن يُركبوا سيارة الترحيلات باحترام، يتم سوقهم بالضرب والدفع، في مشهد علني يراه الناس. هذا فيه إذلال لهم وفضيحة. فكيف بحال الكافرين وهم يُساقون إلى جهنم أمام الخلائق كلها؟! إنه مشهد خزي لا يوصف.

الأمر الثاني: مشهد الوصول إلى جهنم) حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها(

1"حتى إذا جاءوها":

"حتى" للغاية .أي يستمر سوقهم على هذه الحال من الذل والإهانة، حتى يصلوا إلى أبواب جهنم ."إذا جاءوها" أي وصلوا إليها ووقفوا على أبوابها.

2"فتحت أبوابها":

لِمَ قال "فتحت" بالماضي، مع أن السياق في المستقبل؟ هذا من أساليب البلاغة القرآنية، للتعبير عن تحقق الوقوع، فكأنه قد حدث فعلا ً. وفيه إشارة إلى أن جهنم كانت مغلقة الأبواب، فلما جاءوها فتحت لهم أبوابها فجأة، استعدادًا لاستقبالهم. وفتح الأبواب هنا ليس ترحيبًا، بل هو فتح ليلقوا ما فيها من العذاب. قال تعالى في وصف جهنم: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ} [الحجر: 44]. فتفتح لهم الأبواب السبعة، كل فرقة تدخل من بابها.

3الفرق بين فتح أبواب جهنم وفتح أبواب الجنة:

في الآيات التالية، سيأتي وصف دخول المتقين الجنة: {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، أي كانت مفتوحة قبل مجيئهم ترحيبًا بهم. أما هنا فجهنم تفتح أبوابها عند مجيئهم، وهذا فرق دقيق، فتح أبواب الجنة تكريم، وفتح أبواب جهنم تهويل وإرهاب.

الأمر الثالث: توبيخ الخزنة واعتراف الكافرين) وقال لهم خزنتها ...قالوا بلى(

1من هم "خزنتها"؟

"خزنتها" أي الملائكة الموكلون بجهنم، وعلى رأسهم مالك عليه السلام .قال تعالى:} وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ] {الزخرف: .[77 هؤلاء الخزنة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

2تحليل سؤال التوبيخ: "ألم يأتكم رسل منكم...؟":

هذا السؤال هو توبيخ وتقريع. وهو من تمام العدل الإلهي، حيث تقام الحجة على الكافرين على رؤوس الأشهاد. وفي السؤال عدة دلالات:

· "ألم يأتكم": استفهام تقريري للإقرار بقيام الحجة.
· "رسل منكم": أي بشر مثلكم، يتكلمون بلسانكم، ليكون إبلاغهم أتم، وحجتهم أبلغ.
· "يتلون عليكم آيات ربكم": أي يقرؤون عليكم الوحي، ويشرحون لكم آيات الله الكونية والشرعية.
· "وينذرونكم لقاء يومكم هذا": أي يحذرونكم من هذا اليوم العظيم، يوم القيامة والحساب والجزاء.

3جواب الكافرين: "قالوا بلى":

"بلى" حرف جواب للإثبات بعد النفي .فهم يعترفون بأن الرسل قد جاءتهم، وبلغتهم، وأنذرتهم .هذا الا عتراف هو قمة الإحراج والندامة .إنهم يعترفون بأن الحجة قامت عليهم، ولكن بعد فوات الأوان.

4استدراكهم: "ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين":

هذا استدراك منهم، ولكن لا ينفعهم. فهم يعترفون بأن كلمة العذاب قد وجبت عليهم بسبب كفرهم وإعراضهم. "حقت" أي وجبت وثبتت. وكلمة العذاب هي قول الله تعالى لإبليس: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 85]. فكل من سار على درب إبليس وجبت له كلمة العذاب.

الأمر الرابع: الأمر بدخول جهنم وذم مثوى المتكبرين) قيل ادخلوا أبواب جهنم ...فبئس مثوى المتكبرين(

1"قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها":

بعد أن اعترفوا بذنبهم، يأتي الأمر الإلهي الحاسم: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}. وهو أمر إهانة وإذلال. "خالدين فيها" أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون. هذا هو الخلود في العذاب، وهو أشد ما في جهنم.

2دلالة الختم بـ "فبئس مثوى المتكبرين":

"بئس" فعل ذم، ضد "نعم" فعل مدح ."مثوى" أي مقام ومأوى .فالمعنى: بئس المقام والمأوى الذي يأوي إليه المتكبرون .وفي هذا ربط واضح بين الكفر والكبر .فالكفر ينشأ من الكبر عن قبول الحق .و المتكبر هو الذي يأبى الانقياد للحق، ويستنكف عن اتباع الرسل .فكان جزاؤه هذا المثوى البئيس.

3لماذا خص "المتكبرين" بالذكر؟

خص المتكبرين بالذكر لأن الكبر هو رأس كل خطيئة، وهو أول ذنب عصي الله به. فإبليس لم يسجد لآدم تكبرًا. والمشركون لم يؤمنوا بالرسل تكبرًا. قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات: 35]. فجهنم هي المأوى اللائق بمن تكبر على الله وعلى رسله.

الأمر الخامس: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (استثارة الخوف من سوء المصير)

· تصوير مشهد الإهانة والذل: "وسيق" و"زمرًا" و"فتحت أبوابها" و"قيل ادخلوا"، كل هذه الألفاظ ترسم صورة نفسية مرعبة للإهانة والذل الذي يلقاه الكافرون .هذا التصوير يثير في نفس المؤمن الخوف من أن يكون مكانهم، فيدفعه إلى التمسك بطاعة الله.
· توبيخ الضمير: مشهد سؤال الخزنة واعتراف الكافرين "بلى" هو مشهد تأنيب ضمير حي .إنه يذكر المؤمن بأنه سيسأل يوم القيامة، فإما أن يكون جوابه نعمًا ينجيه، أو اعترافًا يخزيه .هذا يدفع المؤمن إلى محاسبة نفسه قبل أن يحاسب.
· التحذير من الكبر: ربط جهنم بالمتكبرين هو تحذير نفسي من هذا الداء العضال .فكلما شعر الإنسان في نفسه بشيء من الكبر، تذكر أن مثوى المتكبرين جهنم، فينكسر ويلين قلبه.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (إقامة الحجة والعدل الإلهي)

· قيام الحجة على الخلق: الآية تؤكد أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد أن تقوم عليه الحجة ."ألم يأتكم رسل منكم" هو دليل على عدل الله ورحمته، حيث أرسل الرسل مبشرين ومنذرين .فلا عذر لأحد يوم القيامة.
· الجزاء من جنس العمل: الكافرون كانوا متكبرين في الدنيا، فجوزوا في الآخرة بالإهانة والذل)السوق، الأمر بالدخول .(هذا هو العدل الإلهي الكامل .كما قال تعالى:} ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ {]الدخان:.[49
· خلود الكافرين في النار: "خالدين فيها" يثبت عقيدة الخلود في النار للكافرين .وهذا حق، ولا ينبغي الاغترار بشبهات من يقول بفناء النار .فالقرآن صريح في خلودهم.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المتواضع الخائف)

· تربية النفس على التواضع ونبذ الكبر: جهنم مثوى المتكبرين .هذه الجملة كافية لأن تجعل المؤمن يفر من الكبر فراره من الأسد .إنها تربي فيه التواضع لله ولعباده.
· تربية النفس على الاستجابة للرسل: سؤال الخزنة يذكرنا بأهمية الاستجابة للرسل .فعلينا أن نتبع ما

جاء به النبي ﷺ، وألا نكون ممن يعترف يوم القيامة بأنه قد جاءهم نذير فكذبوا.
· تربية النفس على شكر نعمة الهداية: عندما نقرأ عن مصير الكافرين، يجب أن نحمد الله الذي هدانا للإسلام .هذا الشكر يزيد من محبتنا لله وتمسكنا بدينه.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتواضع: الإيمان بهذه الآية يبني إنسانًا متواضعًا، بعيدًا عن الكبر والغرور .هذا الإنسان يكون محبوبًا من الناس، قريبًا من الله.
· بناء مجتمع خالٍ من الكبر: عندما ينتشر التواضع في المجتمع، ويختفي الكبر، تصبح العلاقات الا جتماعية أكثر دفئًا وتعاونًا .فالمتكبر يبغضه الناس، والمتواضع يحبه الناس.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) التواضع كقيمة للنجاح (: في عالم الأعمال والإدارة، أثبتت الدراسات أن القادة المتواضعين هم أكثر نجاحًا وتأثيرًا من المتكبرين .هذه الآية تؤصل لهذه القيمة الإنسانية العظيمة، وتربطها بالجزاء الأخروي.
· إسهام الآية في بناء الحضارة المتواضعة: الحضارة التي تقوم على التواضع لله وللحق، هي حضارة قابلة للتعلم والتطور .أما الحضارة التي تتكبر وتظن أنها بلغت الكمال، فهي حضارة تأفل وتنهار .هذه ا لآية تحذر الحضارات من داء الكبر الذي يقصم الظهور.

الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تقرأ أو تسمع عن أهوال جهنم:
لا تمر مرور الكرام .اسأل الله أن يعيذك منها .قل: "اللهم أجرني من النار" .واجعل هذا الخوف دافعًا لك للعمل الصالح.
· عندما تشعر في نفسك بشيء من الكبر على الآخرين:
تذكر فورًا قوله:} فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .{قل لنفسك: أتريدين أن يكون هذا مثواك؟! كفي عن الكبر، وتواضعي لله ولخلقه.
· عندما ترى شخصًا متكبرًا أو مغرورًا:
لا تحسده، بل أشفق عليه .إنه يسير في طريق يؤدي إلى بئس المثوى .ادعُ له بالهداية، وتذكر أن التواضع هو شعار المؤمنين.
· في تربية أبنائك على التواضع:
احكِ لهم قصة إبليس وكيف طُرد من الجنة بسبب الكبر .واحكِ لهم عن مصير المتكبرين في جهنم .هذا الأسلوب القصصي يثبت المعنى في أذهانهم.
· في دعوتك للآخرين:
استخدم أسلوب الترغيب والترهيب .اذكر لهم نعيم الجنة للمتواضعين، وعذاب جهنم للمتكبرين .هذا التوازن هو الذي يحرك القلوب.

الخاتمة: الهروب إلى الله من النار

بهذا نكون قد وقفنا على مشهد من أشد مشاهد القرآن إيلامًا وتخويفًا. لقد رأينا كيف يُساق الكافرون إلى جهنم سوقًا مهينًا، وكيف تفتح لهم أبوابها، وكيف يوبخهم خزنتها، فيعترفون بذنبهم بعد فوات الأ وان، وكيف يؤمرون بدخولها خالدين فيها، ويُذم مثوى المتكبرين.

إنها آيات تجعل القلب الحي يرتجف خوفًا من سوء المصير، ويدفعه ذلك إلى التواضع لله، وإلى اتباع الرسل، وإلى العمل الصالح. إنها دعوة صريحة لكل عاقل: اهرب من الكبر، اهرب من الكفر، اهرب إلى الله.

المبحث الرابع

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشهد سوق الكافرين إلى جهنم، ورأينا كيف تفتح لهم أبوابها ترهيبًا، وكيف يوبخهم خزنتها، فيعترفون بذنبهم، ثم يُقادون إلى الخلود في العذاب. والآن، تأتي هاتان الآيتان لترسما المشهد المقابل، مشهد أهل الإيمان والتقوى، وكيف يُستقبلون في الجنة استقبال الكرامة والترحيب. إنهما آيتان تفيضان بالرجاء والأمل، وتكملان لوحة يوم القيامة، ليتبين الفرق الشاسع بين مصير المتكبرين ومصير المتقين.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)} [الزمر: 73-74].

تأمل معي هذا التقابل البديع بين الفريقين. هناك سَوْقُ الكافرين إلى جهنم سوق إذلال، وهنا سَوْقُ المتقين إلى الجنة سوق تشريف وتكريم. هناك فتح أبواب جهنم عند المجيء ترهيبًا، وهنا فتح أبواب الجنة قبل المجيء ترحيبًا. هناك توبيخ الخزنة، وهنا سلام الخزنة وثناؤهم. هناك "بئس مثوى المتكبرين"، وهنا "نعم أجر العاملين". إنها لوحة فنية متكاملة الألوان، تبعث في النفس المؤمنة شوقًا إلى ذلك النعيم المقيم.

أبرز محاور الآيتين في سطور

· سوق المتقين إلى الجنة سوق تشريف وتكريم: "وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا"، أي يُساقون ركبانًا مكرمين، جماعات جماعات.
· وصولهم إلى الجنة وفتح أبوابها قبل مجيئهم: "حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها"، أي كانت مفتوحة مستعدة لاستقبالهم.
· تحية الملائكة لهم وسلامهم عليهم: "وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم"، ترحيب وتكريم وثناء.
· دخولهم الجنة خالدين فيها: "فادخلوها خالدين"، دار المقامة الأبدية في النعيم.
· حمدهم لله على إنجاز وعده: "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده".
· شكرهم على توريثهم أرض الجنة: "وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء".
· ثناؤهم على هذا الأجر العظيم: "فنعم أجر العاملين".

الأمر الأول: سوق المتقين إلى الجنة سوق تكريم) وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا(

1دلالة الفعل "سِيقَ" هنا:

كما استُخدم الفعل "سِيقَ" في حق الكافرين، استُخدم هنا في حق المتقين. ولكن الدلالة مختلفة تمامًا باختلاف المساق. فسَوْق المتقين إلى الجنة هو سَوْقُ تشريف وتكريم، لا سَوْقُ إذلال وإهانة. فهم يُساقون كما تُساق العروس إلى زوجها في موكب الزفاف، وكما يُساق الضيف الكريم إلى دار الكرامة. إنهم يُساقون ركبانًا على نجائب من نور، أو تحملهم الملائكة إكرامًا لهم.

2وصفهم بـ "الذين اتقوا ربهم":

هذا هو وصفهم الذي استحقوا به هذا التكريم. "اتقوا ربهم" أي جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. والتقوى هي جماع الخير كله، وهي وصية الله للأولين والآخرين. وإضافة "ربهم" إلى ضميرهم فيه تشريف لهم، وإشعار بأنهم عبدوه حق عبادته، فاستحقوا ربوبيته الخاصة ورعايته.

3"زُمَرًا":

كما سيق الكافرون زمرًا، يساق المتقون زمرًا. ولكن زمر المتقين هي زمر الخير والكرامة. كل زمرة بحسب عملها ومنزلتها. فيجتمع الأنبياء معًا، والصديقون معًا، والشهداء معًا، والصالحون معًا. وهذا يزيد من فرحتهم وسرورهم، حيث يلتقي الأحبة في الله بعد طول فراق. قال النبي ﷺ: "المرء مع من أحب".

4مثال تقريبي) لتقريب مشهد التكريم(:

تخيل أن فائزًا بجائزة عظيمة، أُرسلت له سيارة فاخرة لتقله إلى مكان التكريم، ليس سيرًا على الأقدام، بل في موكب مهيب. هذا بعض ما يمكن تصوره من سوق المتقين إلى الجنة، مع أن حقيقة التكريم أعظم وأجل.

الأمر الثاني: مشهد الوصول إلى الجنة وفتح أبوابها) حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها(

1الفرق بين فتح أبواب جهنم وفتح أبواب الجنة:

لاحظ الفرق الدقيق في التعبير القرآني:

· في جهنم:} حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا{، بفاء العطف، أي فُتحت لهم بعد مجيئهم، تهويلا ً وإرهابًا.
· في الجنة:} حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا{، بواو الحال .فالمعنى: جاءوها والحال أن أبوابها

مفتوحة لاستقبالهم قبل مجيئهم .هذا هو التكريم .فهم لا ينتظرون لحظة واحدة، بل يجدون الأبواب مشرعة لاستقبالهم .قال بعض المفسرين: الواو هنا واو الحال، أي جاءوها وقد فتحت أبوابها ترحيبًا بهم.

2لماذا لم تذكر الجنة بأبواب سبعة هنا كما ذكرت جهنم؟

جهنم لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم. أما الجنة فلها ثمانية أبواب، كما ثبت في السنة. وعدم ذكر العدد هنا لا يعني الحصر، فالقرآن والسنة يكمل بعضهما بعضًا.

3دلالة فتح الأبواب قبل المجيء:

هذا المشهد يصور مدى الشوق الإلهي لاستقبال عباده المتقين. فالجنة مشتاقة إليهم، وأبوابها مفتوحة تنتظرهم. قال النبي ﷺ: "إن في الجنة بابًا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق، فلم يدخل منه أحد". فالأبواب تفتح وتغلق تكريمًا لأهلها.

الأمر الثالث: تحية الملائكة وسلامهم) وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين(

1من هم "خزنتها"؟

خزنة الجنة هم الملائكة الموكلون بها، وعلى رأسهم رضوان عليه السلام. وهم ملائكة رحماء كرام، بخلاف خزنة جهنم الغلاظ الشداد.

2تحية السلام: "سلام عليكم":

"سلام عليكم" تحية أهل الجنة .وهي كلمة أمان وطمأنينة وسلامة من كل سوء .قال تعالى:{ تحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} {إبراهيم: .[23 والملائكة يبدؤونهم بهذه التحية إكرامًا لهم .وفي هذا إشارة إلى أنهم في أمان تام من كل مكروه.

3الثناء عليهم: "طبتم":

"طبتم" أي طابت نفوسكم وأعمالكم في الدنيا، فاستحققتم طيب المقام في الآخرة .وفي هذا ثناء عظيم من الملائكة على المتقين، وتزكية لهم .والطيب ضد الخبيث .فالمؤمن طيب، وعمله طيب، ومصيره طيب.

4الأمر بالدخول والخلود: "فادخلوها خالدين":

بعد التحية والثناء، يأتي الإذن بالدخول. "فادخلوها" أمر تكريم وإكرام. "خالدين" أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون. وهذا هو كمال النعيم، الخلود في دار الكرامة.

الأمر الرابع: حمد المتقين لله وشكرهم) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض(

1بدء كلامهم بالحمد لله:

أول ما ينطق به المتقون بعد دخولهم الجنة هو الحمد لله. وهذا أدب عظيم، وهو شكر المنعم على نعمته. إنهم يحمدون الله الذي هداهم للإيمان، ووفقهم للعمل الصالح، وأنجز لهم وعده.

2"الذي صدقنا وعده":

الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين في الدنيا بالجنة، على ألسنة رسله. قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: 72]. فلما رأوا ذلك عيانًا، قالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ}. وفي هذا إقرار منهم بصدق الله في وعده، وصدق رسله في تبليغه.

3دلالة "وأورثنا الأرض" وكيف يكون ذلك وقد زالت السماوات والأرض؟

هذا هو السؤال المهم كيف يقولون "وأورثنا الأرض" وقد قبض الله الأرض وطوى السماوات كما مر في الآية (67)؟ وكما قال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: 48]؟

للعلماء في ذلك عدة أجوبة، كلها تدل على سعة كلام الله وعظمته:

· الجواب الأول: أن المراد بـ "الأرض" هنا أرض الجنة نفسها .فالجنة هي أرض مبسوطة، وهي التي أورثهم الله إياها .وقد ورد في الحديث أن الجنة ليس فيها سقف إلا العرش .فهي أرض واسعة، يرثها المؤمنون .وهذا القول هو الأقوى والأشهر.
· الجواب الثاني: أن المراد بالأرض هي أرض المحشر .ففي يوم القيامة، بعد أن يقضي الله بين العباد ، تكون أرض المحشر قد أصبحت للمؤمنين، فيتبوؤون منها حيث شاءوا، ثم يصعدون إلى الجنة . وهذا القول مروي عن بعض السلف.
· الجواب الثالث: أن هذا من باب المشاكلة اللفظية، أي أنهم كانوا في الدنيا ممنوعين من التصرف في الأرض كما يشاؤون، فلما دخلوا الجنة صار لهم التصرف المطلق فيها، فكأنهم ورثوا الأرض التي حرموا منها في الدنيا.

والذي يترجح هو القول الأول: أن المراد أرض الجنة، بدليل قوله بعدها: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}. فـ "من" هنا للتبعيض، أو لبيان الجنس. أي نتبوأ من أرض الجنة حيث نشاء. والجنة هي أرضهم التي أورثهم الله إياها. فالإرث هنا ليس للدنيا التي زالت، بل لأرض الآخرة الباقية.

4معنى الإرث هنا:

"أورثنا" أي جعلنا وارثين لهذه الأرض .والإرث يستعمل فيما ينتقل من قوم إلى قوم .فكأن الجنة كانت ستصير للكافرين لو آمنوا، فلما كفروا، أورثها الله للمؤمنين .أو أن الله أورثهم إياها بفضل رحمته، كما يورث الوارث مال مورثه .وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: "إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا" .وفي رواية: "فمن مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة، وكان له فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" .فهذا هو الإرث العظيم.

5"نتبوأ من الجنة حيث نشاء":

"نتبوأ" أي نتخذ منازل ومساكن ."حيث نشاء" أي في أي مكان نريده من الجنة .وهذا كمال الحرية و التصرف .فهم لا يضيق عليهم، بل الجنة كلها مبسوطة أمامهم، يختارون من منازلها ما يشتهون .وهذا عكس ما كانوا عليه في الدنيا من الضيق والحصر.

6ختم الآية بـ "فنعم أجر العاملين":

"فنعم" فعل مدح ."أجر" أي جزاء ."العاملين" أي الذين عملوا الصالحات في الدنيا .وهذا مدح عظيم من الله لهم، وثناء على عملهم الذي استحقوا به هذا الأجر .وفيه حث لجميع المؤمنين على العمل، فإن ا لأجر مرتب على العمل.

الأمر الخامس: المفاهيم المستنبطة من الآيتين ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (بناء الأمل والرجاء والشوق إلى الجنة)

· تربية النفس على حب الجنة والشوق إليها: تصوير مشهد سوق المتقين إلى الجنة، وفتح أبوابها، وتحية الملائكة لهم، كل ذلك يغرس في النفس محبة الجنة والشوق إليها .وهذا الشوق هو دافع قوي للعمل الصالح .فمن أحب شيئًا سعى إليه.
· تعزيز الشعور بالكرامة والتكريم الإلهي: المؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يشعر بقيمته عند الله .إنه ليس عبدًا مهانًا، بل هو عبد مكرم، سيساق إلى الجنة في موكب تشريف، وستفتح له أبوابها، وسيستقبل بالتحية والسلام .هذا الشعور يرفع من معنويات المؤمن، ويزيد من ثقته بنفسه المستمدة من إيمانه.
· علاج الخوف من الموت والآخرة: هذه الآيات تحول الخوف من الآخرة إلى شوق وأمل .فالمؤمن يخاف النار، ولكنه يشتاق إلى الجنة .وهذا التوازن هو المطلوب.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (إثبات صدق وعد الله والجزاء العادل)

· صدق وعد الله:} الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ {هو إقرار من أهل الجنة بصدق وعد الله .وهذا يرسخ في عقيدة المؤمن أن وعد الله حق، وأنه لا يخلف الميعاد .فكل ما وعد الله به المؤمنين في الدنيا سيقع لا محالة.

· الجزاء من جنس العمل:} فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ {يربط الجزاء بالعمل .فالجنة ليست عطاءً بلا مقابل، بل هي أجر للعاملين .وهذا يحفز المؤمن على بذل الجهد في طاعة الله .فلا يدخل الجنة بالأماني، بل بـ العمل الصالح.
· إثبات توريث أرض الجنة للمؤمنين: هذا يثبت عقيدة أن المؤمنين سيرثون الأرض في الآخرة، كما وعد الله:} أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ] {الأنبياء: .[105 وهذه هي العاقبة الحميدة للمتقين.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن العامل الشاكر)

· تربية النفس على العمل الصالح:} فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ {تربي في المؤمن حب العمل .فهو يعلم أن كل عمل صالح يقوم به، مهما كان صغيرًا، سيُؤجر عليه في الجنة .وهذا يجعله حريصًا على اغتنام كل لحظة في طاعة الله.
· تربية النفس على الشكر والحمد: أهل الجنة أول ما ينطقون به هو الحمد لله .وهذا يعلمنا أن نبدأ كل أمر بالحمد، وأن نكون دائمًا شاكرين لله على نعمه .فالشكر هو مفتاح المزيد.
· تربية النفس على التواضع: رغم أنهم في الجنة، ورغم كل هذا التكريم، إلا أنهم ينسبون الفضل كله لله .قالوا:} الحَمْدُ لِلّهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ{، ولم يقولوا: هذا بعملنا واستحقاقنا .وهذا هو التواضع حتى في الجنة.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان الساعي للجنة: هذا الإنسان الذي يشتاق إلى الجنة، ويعمل من أجلها، هو إنسان منتج وفعال .إنه لا يضيع وقته في اللهو والغفلة، بل يستثمره فيما يرضي الله، وهذا هو جوهر التنمية البشرية.
· بناء مجتمع العاملين: مجتمع يتربى أفراده على أنهم "العاملون" الذين سينالون "نعم الأجر"، هو مجتمع منتج ومتعاون .الكل يعمل، والكل يرجو أجر الله.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) التحفيز الإيجابي (: وصف الجنة ونعيمها، وبيان أنها أجر للعاملين، هو أعظم محفز إيجابي للإنسان .إنه يدفعه للعمل والإبداع، ليس خوفًا من العقاب فقط، بل طمعًا في ذلك النعيم المقيم.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الصالحة: الحضارة التي تقوم على العمل الصالح، وعلى الشكر لله، هي حضارة مباركة، تنعم بالسكينة والاستقرار، وتكون أرضها جنة في الدنيا قبل الآخرة.

الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تشعر بالضيق أو التعب من العمل الصالح:
تذكر هذا المشهد .تذكر سوق المتقين إلى الجنة .تذكر تحية الملائكة: "سلام عليكم طبتم" .تذكر أنك ستنال "نعم الأجر" .هذا التذكر سيخفف عنك، وسيجعلك تستمر في عملك بنشاط وهمة.
· عندما تسمع عن وعد من وعود الله:
صدق به، وانتظره .تذكر قول أهل الجنة:} الحَمْدُ لِلّهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ .{فالله صادق في وعده، ولن يخلفك.
· في تربية أبنائك على حب الجنة:
لا تكتفِ بتخويفهم من النار فقط .حدثهم عن الجنة، عن أنهارها وثمارها، عن قصورها وحورها، عن سلام الملائكة وتكريمهم .اجعلهم يشتاقون إلى الجنة، فيسهل عليهم فعل الطاعات.
· عندما تريد أن تشكر الله على نعمة:
تعلم من أهل الجنة .ابدأ بالحمد: "الحمد لله" .فالحمد لله هو مفتاح كل خير .وأكثر من الحمد في كل أحوالك.
· في دعوتك للآخرين:
اقرأ عليهم هذه الآيات، وصور لهم مشهد دخول الجنة .بشّرهم بأن الله أعد لهم هذا النعيم إن هم اتقوا .هذه البشارة تفتح القلوب، وتجعل الناس يقبلون على الله.

الخاتمة: السعي لنعم الأجر

بهذا نكون قد أنهينا رحلتنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تصفان المشهد المشرق لأهل الجنة. لقد رأينا كيف يُساقون إلى الجنة سوق تكريم، وكيف تفتح لهم أبوابها ترحيبًا، وكيف تستقبلهم الملا ئكة بالسلام والثناء، وكيف يحمدون الله على إنجاز وعده وتوريثهم أرض الجنة.

إنها آيات تبعث في النفس الأمل والرجاء، وتدفعها إلى العمل الصالح، وتجعلها تردد دائمًا: {فَنِعْمَ أَجْرُ

العَامِلِينَ}.

المبحث الخامس

لقد وصلنا إلى ختام هذه السورة العظيمة، سورة الزمر، التي طافت بنا في رحاب التوحيد والكفاية الإلهية، وأرَتنا مشاهد من أحوال المشركين والمؤمنين، ونقلتنا بين أهوال القيامة ونعيم الجنة. والآن، تقف بنا هذه الآية الأخيرة على مشهد ختامي مهيب، مشهد الثناء على الله وتعظيمه، بعد أن انتهى فصل القضاء، واستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. إنها آية تختم السورة بما يناسب فاتحتها، وتجمع أطرافها في تنزيه الله وحمده.

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَتَرَى المَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ} [الزمر: 75].

تأمل معي هذا المشهد الختامي العظيم. بعد أن سيق المتقون إلى الجنة، وسيق الكافرون إلى النار، واستقر كل فريق في مثواه، يأتي هذا المشهد ليختم السورة بتعظيم الله وإجلاله. إنه مشهد الملائكة وهم محيطون بالعرش، يسبحون بحمد ربهم، ويعلنون تنزيهه عن كل نقص. ثم يأتي الإعلان الختامي: {الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}. إنه ختام يليق بجلال السورة وموضوعها، حيث بدأت بتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، وختمت بالحمد لله رب العالمين.

أبرز محاور الآية في سطور

- مشهد الملائكة حول العرش: "وترى الملائكة حافين من حول العرش"، أي محيطين بجوانب العرش، في موقف تعظيم وإجلال لله.
- تسبيحهم بحمد ربهم: "يسبحون بحمد ربهم"، أي ينزهون الله عن كل نقص، مثنين عليه بصفات كماله.
- الإعلان عن تمام القضاء والعدل: "وقضي بينهم بالحق"، أي انتهى الحساب، وفصل بين العباد بالعدل التام.
- ختام السورة بالحمد لله: "وقيل الحمد لله رب العالمين"، أي نطق بهذا الحمد أهل الموقف من المؤمنين والملائكة، إقرارًا بفضل الله وعدله.
- دلالة الربط بين فاتحة السورة وخاتمتها: بدأت السورة بتنزيه الله) تنزيل الكتاب من الله(، وختمت بتنزيهه وحمده.

الأمر الأول: مشهد الملائكة حول العرش) وترى الملائكة حافين من حول العرش(

1دلالة الفعل "ترى":

الخطاب هنا للنبي ﷺ، ويدخل فيه كل مؤمن يقرأ القرآن. فكأن الله يعرض علينا هذا المشهد العظيم كأننا نراه رأي العين. وهذا الأسلوب يجعل المشهد حيًا في الذهن، مؤثرًا في الوجدان.

2من هم "الملائكة" في هذا المشهد؟

هم خلق الله المكرمون، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وهم في هذا المشهد محيطون بالعرش، في موقف خشوع وتعظيم لله رب العالمين.

3معنى "حافين":

"حافين" جمع "حاف"، من الحفوف، وهو الإحاطة بالشيء من جوانبه .فالمعنى: أن الملائكة محيطون بـ العرش من كل جانب، مكتنفون له، كما يحيط الجمهور بالشيء المعظم .هذا يدل على عظمة العرش، وكثرة الملائكة، وشدة تعظيمهم لله.

4ما هو "العرش"؟

العرش هو أعظم المخلوقات وأكبرها، وهو سرير الملك الذي استوى عليه الرحمن. قال تعالى: {الرَّحْمَٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ} [طه: 5]. استواء يليق بجلاله، لا نكيفه ولا نمثله. والعرش هو سقف المخلوقات، وقد وصفه النبي ﷺ بأنه يُحمل يوم القيامة على ثمانية أملاك. وفي هذا المشهد، نرى الملائكة حافين به، تعظيمًا لله ربهم.

5دلالة "من حول العرش":

"من حول" تفيد الإحاطة الكاملة .فهم ليسوا في جهة واحدة، بل محيطون به من جميع جوانبه . وهذا يدل على كثرة الملائكة التي لا يحصي عددها إلا الله.

6مثال تقريبي) لتقريب صورة الإجلال(:

تخيل أن ملكًا عظيمًا جلس على سرير ملكه، وحوله رجال دولته وحاشيته محيطون به من كل جانب ، وهم في غاية الأدب والإجلال، لا يتكلمون إلا بما يرضيه. هذا بعض ما يمكن تصوره من مشهد الم لائكة حول العرش، مع أن حقيقة التعظيم والإجلال أعظم مما نتصور.

الأمر الثاني: تسبيح الملائكة بحمد ربهم) يسبحون بحمد ربهم(

1معنى "يسبحون":

التسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص وعيب. فهم يسبحون الله، أي يقولون: "سبحان الله"، وينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله.

2معنى "بحمد ربهم":

الباء للمصاحبة. أي يسبحون، وهم مع ذلك حامدون لله، مثنون عليه بصفات كماله. فجمعوا بين التسبيح (التنزيه) والتحميد (الإثبات). فالتسبيح نفي للنقائص، والحمد إثبات للكمالات. والجمع بينهما هو كمال الثناء على الله.

3لماذا يسبحون بحمد ربهم؟

لأنهم رأوا ما رأوا من عظمة الله وقدرته وعدله في ذلك اليوم العظيم. رأوا كيف قبض الأرض وطوى السماوات، وكيف أمات الخلائق ثم أحياها، وكيف حاسبهم بالعدل، وكيف أدخل المتقين الجنة و الكافرين النار. كل هذه المشاهد العظيمة دفعتهم إلى التسبيح بحمد ربهم، اعترافًا بعظمته وكمال قدرته وعدله.

4دلالة إضافة "ربهم" إليهم:

"ربهم" أي خالقهم ومالكهم ومدبر أمرهم .وفي هذه الإضافة تشريف لهم، وإشعار بأنهم عبيده، وأنهم مع عظمتهم وكثرتهم، مقرون بربوبيته لهم.

الأمر الثالث: الإعلان عن تمام القضاء والعدل) وقضي بينهم بالحق(

1دلالة الواو في "وقضي":

الواو للعطف، وتفيد أن هذا القضاء وقع بعد مشهد الملائكة حول العرش. أي بعد أن استقر كل شيء، وأظهر الله عظمته، قضي بين الخلائق بالحق.

2معنى "قضي بينهم":

أي حكم وفصل بين العباد. وهذا يشمل جميع الخلائق، من الإنس والجن والملائكة. فقد انتهى الحساب، وذهب كل فريق إلى مثواه.

3معنى "بالحق":

أي بالعدل التام، الذي لا جور فيه ولا ظلم. فالله سبحانه وتعالى حكم بينهم بالحق، فأعطى كل ذي حق حقه. قال تعالى: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [الأنبياء: 47].

4من هم الضمير في "بينهم"؟

الضمير يعود إلى جميع الخلائق الذين ورد ذكرهم في السورة: الكافرون، والمتقون، وغيرهم. فالقضاء شمل الجميع.

الأمر الرابع: الختام المهيب) وقيل الحمد لله رب العالمين(

1من القائل "الحمد لله رب العالمين"؟

"قيل" فعل مبني للمجهول .ولم يحدد القرآن من القائل، ليدل على أن هذا الحمد ينطق به كل من في الموقف ممن يستحق الكرامة .قيل: يقوله الملائكة، ويقوله المؤمنون، ويقوله جميع الخلائق .فهو حمد جماعي يملأ أرجاء الكون، اعترافًا بفضل الله وعدله.

2لماذا قالوا "الحمد لله" في هذا الموقف؟

لأنهم رأوا تمام قدرة الله، وكمال عدله، وعظيم رحمته. رأوا كيف نصر أولياءه، وأذل أعداءه. رأوا كيف أنجز وعده، وصدق كلمته. فلم يسعهم إلا أن يحمدوه. فالحمد لله هو ثناء عليه بصفات كماله، مع محبته وتعظيمه.

3دلالة وصفه بـ "رب العالمين":

"رب العالمين" أي مالك جميع الخلائق، ومدبر أمرهم، ومربيهم بنعمه .وهذا الوصف يذكرهم بأنه سبحانه هو الرب الحق، الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو المستحق للحمد وحده.

4دلالة ختام السورة بـ "الحمد لله رب العالمين":

هذا الختام له دلالات عظيمة:

· الربط بين فاتحة السورة وخاتمتها: بدأت السورة بقوله:} تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ] {الزمر: [1، وختمت بقوله:} الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ .{فالفاتحة تنزيه، والخاتمة تحميد .والتنزيه والتحميد متلا زمان .وهذا من بديع النظم القرآني.
· إعلان انتهاء رحلة الخلق والابتلاء: فبعد أن انتهت قصة الخلق والابتلاء، واستقر أهل الجنة وأهل النار، كان الختام المناسب هو حمد الله على تمام عدله ورحمته.
· تعليم المؤمنين كيف يختمون أعمالهم: فالمؤمن ينبغي أن يختم كل عمل صالح بحمد الله .ففي نهاية الصلاة نسلم، ونحمد الله .وفي نهاية الطعام نحمد الله .وفي نهاية كل أمر، نحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات.
· رمز الأمل والتفاؤل للمؤمنين: فالحمد لله يعني أن كل ما جرى كان خيرًا، وأن الله قد أتم نعمته على المؤمنين، وأدخلهم الجنة.

الأمر الخامس: المفاهيم المستنبطة من الآية ودورها في البناء الشامل

أولا ً: المفاهيم النفسية (تربية النفس على تعظيم الله وحمده)

· غرس هيبة الله وتعظيمه في القلب: مشهد الملائكة حافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم، يملأ قلب المؤمن هيبة وإجلالا ً لله .فإذا كانت الملائكة المقربون، وهم على عظمتهم وكثرتهم، يفعلون ذلك، فكيف بنا نحن الضعفاء؟! هذا المشهد يدفعنا إلى تعظيم الله في قلوبنا.
· تربية النفس على حمد الله في كل حال: ختم السورة بـ "الحمد لله رب العالمين" يعلمنا أن نختم كل أعمالنا بحمد الله .وأن نحمده في السراء والضراء .فالحمد لله هو مفتاح الرضا، وهو طمأنينة القلب.
· الشعور بالطمأنينة بعد رحلة الخوف: بعد أن عرضت السورة أهوال القيامة، ومشاهد النار، تأتي هذه الآية الختامية لتطمئن قلب المؤمن بأن الأمر كله بيد الله، وأنه قد قضي بين العباد بالحق، وأن الحمد لله على كل حال .هذا يعطي سكينة نفسية عظيمة.

ثانيًا: المفاهيم الفكرية والعقدية (ترسيخ عقيدة التوحيد والعدل)

· إثبات عظمة الله وعلوه على خلقه: مشهد العرش والملائكة حافين به، يثبت عقيدة علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه .وهذا من صفات الكمال التي يجب إثباتها لله.
· إثبات عدل الله المطلق: "وقضي بينهم بالحق" هو تقرير نهائي لعدل الله .فكل ما حدث ويحدث وسيحدث هو بعدل تام .وهذا يريح العقل، ويزيل الشكوك حول وجود الظلم في العالم .فالحساب الختامي سيكون بالعدل.
· بيان أن الحمد لله وحده: "الحمد لله رب العالمين" هو حصر للحمد في الله .فلا يستحق الحمد

المطلق إلا هو سبحانه .وهذا هو التوحيد في الحمد والثناء.

ثالثًا: المفاهيم التربوية (بناء شخصية المؤمن المعظم لله الشاكر)

· تربية النفس على التسبيح والتحميد: نربي أنفسنا وأبناءنا على أن نكثر من قول: "سبحان الله وبحمده"، اقتداء بالملائكة .فهذا الذكر هو من أحب الكلام إلى الله، وهو سبب لمغفرة الذنوب.
· تربية النفس على تعظيم العرش: الإيمان بالعرش وعظمته، وبحفوف الملائكة به، يربي في النفس إج لال الله، ويجعل المؤمن يفرح بأن ربه على العرش استوى، يدبر الأمر، ويقضي بالحق.
· تربية النفس على حسن الختام: نتعلم من ختام السورة أن نختم أعمالنا بالحمد .فالمؤمن يسأل الله حسن الخاتمة، وأن يختم له بالحمد.

رابعًا: دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية البشرية

· بناء الإنسان المتعلق بالله المعظم له: هذا الإنسان الذي يعيش في رحاب التسبيح والتحميد، هو إنسان سعيد مطمئن .إنه لا يخاف من المستقبل، لأنه يعلم أن الأمر كله بيد الله، وأن العاقبة هي الحمد لله رب العالمين.
· بناء مجتمع الحامدين الشاكرين: مجتمع يتربى أفراده على حمد الله في كل حال، هو مجتمع راض ومتفائل .يرى الخير في كل شيء، ويشكر الله على كل نعمة.
· إسهام الآية في التنمية البشرية) التفاؤل والإيجابية (: ختام السورة بالحمد لله يغرس في النفس التفاؤل والإيجابية .فمهما كانت الصعاب، فإن النهاية ستكون "الحمد لله" .هذه النظرة الإيجابية تدفع ا لإنسان إلى العمل والإنجاز.
· إسهام الآية في بناء الحضارة الحامدة: الحضارة التي تنسب كل نجاح لله، وتحمده عليه، هي حضارة متواضعة ومستدامة .إنها لا تنهار بالغرور، بل تبقى شاكرة لله، فيزيدها من فضله.

الأمر السادس: تطبيقات عملية في حياتنا ودعوتنا

· عندما تختم عملا ً صالحًا) صلاة، قراءة قرآن، درسًا، مشروعًا (:
اختمه بقول: "الحمد لله رب العالمين" .فهذا أدب قرآني، وهو سبب للبركة في العمل.
· عندما تشعر بالقلق من ظلم أو جور في الدنيا:
تذكر هذه الآية:} وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقّ .{ثق بأن هناك يومًا سيقضى فيه بالحق، وأن الله لا يظلم أحدًا .هذا يمنحك الصبر والثبات.
· في أذكار الصباح والمساء:
أكثر من التسبيح والتحميد .قل: "سبحان الله وبحمده" مائة مرة .فهذا اقتداء بالملائكة، وهو سبب لثقل الميزان يوم القيامة.
· عندما تنظر إلى السماء وتتأمل في عظمة الكون:
تذكر أن فوق السماوات السبع عرش الرحمن، وأن الملائكة حافون به يسبحون بحمد ربهم .هذا التأمل يملأ قلبك خشية وإجلالا ً لله.
· في دعائك:
اختم دعاءك بقول: "الحمد لله رب العالمين" .كما قال أهل الجنة:} وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ] {يونس:.[10
الخاتمة: حيث يلتقي البدء بالختام في تنزيه الله وحمده

بهذا نكون قد أتممنا بحمد الله تفسير الآية الأخيرة من سورة الزمر، والتي تختم السورة بخاتمة تليق بجلالها. لقد بدأت السورة بتنزيه الله: {تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ}، وختمت بتحميده: {الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}. وفي هذا إشارة إلى أن حياة المؤمن كلها يجب أن تكون بين التنزيه في البداية و التحميد في النهاية.

لقد رأينا في هذه الآية مشهد الملائكة وهم حافون حول العرش، يسبحون بحمد ربهم. ورأينا كيف قضي بين الخلائق بالحق. وسمعنا صوت الحمد لله رب العالمين يملأ الكون. إنه مشهد يريح القلوب، ويملؤها طمأنينة ويقينًا بعدل الله ورحمته.

فلنختم أعمالنا كلها بحمد الله، ولنلهج ألسنتنا دائمًا بقول: {الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}.